جمعية المعجمية العربية بتونس

في المعجمية العربية المعاصرة

وقائع ندوة مائوية

أحمد فارس الشدياق
وبطرس البستاني
ورينهارت دوزي

تونس في [illegible] و[illegible] و[illegible] أفريل [illegible]

دار الغرب الإسلامي

جمعية المعجمية العربية بتونس

في المعجمية العربية المعاصرة

وقائع ندوة مائوية

أحمد فارس الشدياق
وبطرس البستاني
ورينحارت دوزي

تونس في 15 و 16 و 17 افريل 1986



دار الغرب الإسلامي

الطبعة الأولى

1987 — 1407

دار الغرب الإسلامي

دار الغرب الإسلامي

ص. ب: 5787 - 113
بيروت - لبنان

تقديم

تُقَدِّمُ جمعيّةُ المعْجَميّة العَربيّة بتُونس في هذا الكتاب وقَائعَ ندْوَتِهَا العِلْميَّة الثَّانيَة، بعد أن كانت قَدَّمَت في السَّنَة الماضية (1985) وقائع ندْوتِها الأولى حَوْل «إسْهام التّونسيّين في إثْرَاء المعْجم العَرَبيّ». وقد كان موضوعُ النّدْوة الأولى تُونُسيًّا لأنّ الجمعيّة رَأَتْ أنْ تَنْطلِقَ من تَقْييم التّجْربة المعْجميّة التّونسيَّة باعتبَارها أنْموذَجاً من التّجربة العَربيّة العَامّة يُظْهِرُ نِقَاطَ القوّةِ ونقاطَ الضّعْفِ فيهَا، ويَضَعُ تَقْييمُه نَوَاةً لبُحُوثٍ مُسْتَقْبَلِية نظريّةٍ وتطبيقيّة.

وقد وسعَتْ الجمعيّة بالفِعْل في نَدْوَتها العِلْميّة الثّانية هذه من نِطَاق البَحْث، فَجَعَلَتْها نَدْوَةً دوليّة، واخْتَارَتْ أن تَهْتَمّ فيها بثلاثةٍ من كِبَارِ المعْجَميّين المحدَثين، إحْيَاءً للذّكْرى المائويّةً الأولى لوَفَيَاتِهم، وهم أحْمد فارس الشدياق (1884—1887) وبُطْرُس البُسْتانِيّ (1819—1883) وَرينْحارْت دُوزي (1820—1883)، وتقديراً لما أسْهَمُوا به من جُهُودٍ في إثراءِ المعْجم العربيّ الحديث بَحْثاً نَظَريًّا وتَأليفاً. وقد ارْتَأَتْ الجمعيَّة ألَّا تَنْحَصِرَ في تقييم أعْمال المعْجَميّين الثلاثة بل جَعَلَتْ من مناسَبَة الإحْيَاءِ لذكراهم مُنطلقاً للاهتمام بقضايَا المعْجم العَربيّ المعَاصِر، فاشتملَت أعْمَالُ النّدْوَة لذلك على مِحْوَرَيْن اثنيْن: أوْلهما «إسْهَام المعْجَميّين الثلاثة في إثراء المعْجَم العَربيّ»، وثانيهما «من قضايا المعْجَميّة العَرَبيّة المعَاصِرَة».

وقد عنِيَت الجمعيّةُ في هذه النّدوة بقضايا المعجميّة العربيّة المعاصرة إيماناً منها بأن مَا كان يشغَل مُعْجَمِيّي القرن التاسع عشر من قضايَا لا يزالُ حتى اليَوْم قائماً لم يفقد مِن جِدّته، بل إنْ قَضَايَا جَدِيدةً ناتجةً عن تَطَور العِلْم وتشعّب مجالات المعْجَميّة بفرعيْها النظري والتطبيقي قد انضافتْ إلى القضايَا القديمة.

ولم يصْحَب هذا التّراكُمَ اهتمامٌ فِعْلِيّ بتلك القضايا لغلبة الوَصْفِ والتأريخ والتقييم الذي لم يَخْلُ من عاطفةٍ على الدّرَاسَاتِ المعجميّة العربيّة المعَاصِرة؛ بل إنّ الكثير ممّا كُتِبَ عن المعجميّة العربيّة كان بمثابة الهوامش ضِمْنَ دَراسَاتٍ لِسَانيّة عَامّةٍ، فكثر ـ لذلك ـ التّعْمِيمُ وقَلّ التّخصِيصُ. وقدْ وجَبَ ـ والحالة هذه ـ أن يُعمّق البَحْثُ في قضايَا المعْجم مُفْرَدَةً، وأن يُفَكّر جِدّيّاً في الحُلُولِ لمشاكل هذا العِلْمْ اللسَانِيّ الذي كان للعرب فيه تَجْربَةٌ رائدةٌ بحق، ولذلك اهتمْت الجمعيّة بهذه القضايَا في هذه النّدْوة التي أرادتها دوليّة وَاسِعَةَ الآفاق.

وقد دَعَتْ الجمعيّةُ إلى النّدوة باحثين من ذَوِي الاخْتِصَاص جاؤوا من أصقاعٍ مُختلفة: من الوطن العربيّ وبعض البُلْدان الغَرْبيّة. فقد أَسْهَمَ في النّدوَة باحثونَ من الأَرْدُن وتونس والجزائر وسوريا والعراق وقَطَر ولبنان ومصر والمغرب الأقْصَى وهولندة والولايات المتحدة الأمريكية. وقد كان لتنوّع آفاق البَاحِثين وثقافتهم وتجاربهم العلميّة أثرٌ إيجَابِيّ فيما قُدّم من آراء متكاملة ومَا اقترحَ من حُلُولٍ في البحُوث المعروضة في النّدْوَة.

ويطيبُ للجمعيّة ـ أخيراً ـ أن تعبّر عن صَادِق شكرها لكلّ الذين أسْهَمُوا في إنجَاحِ ندْوَتها هذه، وبخاصّة وزارة الشؤون الثقافيّة لإسْهَامِها المادّي والأدَبِيّ في إنجاح النّدوَة، مُوَاصَلةً منْهَا لما انفكّتْ تُوليهِ الجمْعِيّةَ من دَعْمٍ ومسَانَدَة، وتَخُصُّ بالشكر السيد وزير الشؤون الثقافية الذي أشرف على اختتامِ أعْمَال النّدْوَة؛ وكُلّيّة الآداب والعُلُوم الإنسانية بتونس التي أعانَت الجمعيّة في تنظيم النّدْوة المادّي، وأشرَف عميدُهَا الأستاذ عبد المجيد الشرفيّ على افتتاح أعْمال الندوة، واللّجنةَ الثقافيّة القوْميّة ممثلةً في شخْصِ رئيسها الأستاذ محمد الطّالبي الذي أوْلَى النّدوة تشجيعاً كبيراً؛ والأساتذةَ الباحثين الذين لوْلاَهُم لما حقّقت الندوةُ النتائجَ المرْضيّةَ التي حَققتْها، سواءٌ منْهم الذين حَضَرُوا أشغال النّدْوَة وشاركُوا مُشارَكةً جَيّدةً ببحوثهم القيمّةِ ونقاشِهم الثّرِيّ للبُحُوث المقدّمة، والذين مَنَعَتْهُم مَوَانِعُ من الحُضور واكتفوا بإرْسال بحوثهم؛ كما تشكر الجمعيّة المعْهد القوميّ للمواصفات والملكيّة الصّناعيّة بتونس، فقد بذل في إعداد هذه الندوة المادّي جهْداً كبيراً. أما دَارُ الغَرْب الإسلاميّ ببيروت مُمَثَّلَةً في شخص صاحبها

الأستاذ الحبيب اللمسي فإنّها تستحق من الجمعيّة ثناءً خاصّاً . فهي ما فَتِئت تُتابِعُ نشاطَ الجمعيّةِ العِلْميَّ وتشجّعُه، فقد نشرت في السَّنة الماضية وقائعَ نَدْوَة الجمعيّة الأولى، وحَرِصَتْ هذه السَّنَة على نَشْرِ وَقَائع هذه النّدْوة الثانية في هذا الكتاب.

وتأمَلُ الجمعيّة أن تكوُن وقائعُ هذه النّدوة مُعَبِّرَةً بِصِدْقٍ عمّا عقدَت عليْهِ العَزْم منْذُ تَأْسِيسِهَا من عنايةٍ حقيقيّة بقضَايَا المعْجَم العَربيّ. وحَاثة على التّواصُل واستمرار الحِوَار بيْن الجمعية وبيْن عامّة المعنيين بقضايا المعْجَم العربيّ، داخل الوطن العربيّ وخارجه.

والله ولي التوفيق

تونس ، في 9 شوال 1406 هـ / 17 جوان 1986م

أحمد العايد
نائب رئيس جمعيّة المعجميّة
العربيّة بتونس

إبراهيم بن مراد
الأمين العام للجمعيّة

برنامج النّدْوة

الثّلاثاء 15 أفريل 1986

السّاعة 9,30: افتتاح النّدْوة:

- كلمة الأستاذ الدكتور محمد رشاد الحمزاوي، رئيس جمعيّة المعجميّة العربيّة بتونس.
- كلمة الأستاذ الدكتور عبد المجيد الشّرْفي، عميد كُلّيّة الآداب والعلوم الإنسانيّة بتونس.
- كلمة الأستاذ الدكتور محمد الطّالبي، رئيس اللّجنة الثقافيّة القوميّة بتونس.

الجلسة العلميّة الأولى: 10 - 12:

يرأسُها: الأستاذ أحمد العايد.

المحور الأوّل: إسْهام المعجميّين الثلاثة في إثراء المعجم العربيّ: أحمد فارس الشّدياق.

1 ـ رمزي بعلبكيّ: النظريّة الاشتقاقيّة عند الشّدياق: أصُولها وتقويمُها وعَرْضها على المعجميَّة السّاميّة المقارنة.
2 ـ يوسف مسلم أبو العدوس: جهود أحمد فارس الشّدياق في تطوير المعجم العربيّ المعاصر.

الجلسة العلميّة الثّانية: 15 - 18:

يرأسُها: د. أحمد شفيق الخطيب.

المحور الأوّل: أحمد فارس الشّدياق.

1 ـ أحمد مختار عمر: أحمد فارس الشدياق وقضايا المعْجَم العربيّ.

2 ـ محمد علي الزّركان: عَنَاصر المعجم الحديث عند الشّدْيَاق.

3 ـ محمد التّونجي: «الجوائب» ودورُها في المعجميّة الحديثة.

4 ـ عبد العزيز بن يوسف الكيلاني: قراءة تحليليّة لمقدّمة الشدياق على «لسان العرب».

5 ـ حلمي خليل: علم المعاجم عند أحمد فارس الشّدْيَاق.

6 ـ فرحات الإدْرِيسي: منزلةُ الحركة المعجميّة في القرْن التاسع عشر.

الأربعاء 16 أفريل 1986

الجلسة العلميّة الثّالثة: 9 - 12:

يرأسُها: د. أحمد مختار عمر.

المحور الأوّل: دوزي وبطرس البُسْتانيّ.

1 ـ محمد العروسي المطويّ: كتاب رياض النفوس للمالكي مَصْدَراً من مصادر معجم دوزي.

2 ـ إبراهيم بن مراد: منزلة «مستدرك» دوزي من المعجميّة العربيّة.

3 ـ حكمة علي الأوْسي: ملاحظات على معجم دوزي وانكَلمن.

4 ـ علي توفيق الحمد: بطرس البُسْتانيّ وجهُودُه المعجميّة.

5 ـ محمد القاضي: البسْتانيّ مَصْدَراً لدوزي.

الجلسة العلميّة الرّابعة: 15 - 18:

يرأسُها: د. عبد القادر الفاسي الفهريّ.

المحوَرُ الثّاني: من قَضَايَا المعجميّة العربيّة المعاصرة.

1 ـ محمّد رشاد الحمزاوي: الاستيعَابُ في المعجَم العربيّ الحديث منْ حيثُ مُنَاسَبَاتُ التُّعْويض ومُناسَبَات السّياق وأثرهُ في المعرفة والتربية والترجمة.
2 ـ عفيف عبد الرّحمن: من قضايا المعجميّة العربيّة المعاصرة.
3 ـ كيس فرستيخ: النّحويّون واللغويّون وموقف: «دوزي» من التّراث اللغويّ.
4 ـ حنفي بن عيسى: مُعْضِلَةُ المصطلحات التّقنيَّة و«حِيَلُ المتَرْجمين».
5 ـ عيسى بطرس: من قضايا المعجميّة العربيّة المعاصرة.

Issa Peters: A Point of Concern for Current Arabic Lexicagra-phy.

الخميس 17 أفريل 1986

الجلسة العلميّة الخامسة: 9 - 12:

يرأسُها: د. حكمة علي الأوْسيّ.
المحور الثّاني: من قضايا المعجميّة العربيّة المعاصرة.

1 ـ إبراهيم السّامَرائي: من قضايا المعجميّة العربيّة المعاصرة، أو العربيّةُ المعَاصِرة.
2 ـ عبد القادر الفاسي الفهري: المعْجَمُ العَربيّ بيْن التَصوّريّ والوظيفيّ.
3 ـ عبد العزيز مطر: «المعجم الوسيط» بين المحافظة والتجديد.
5 ـ محمد نجيب بن جميع: أهميّة الأدب الخَامْيَادُو المُورِسْكي في المعْجم الإيتمولوجي القشتالي.

الجلسة العلميّة السّادسة: 15 - 16,30:

يرأسُها: د. حنفي بن عيسى.
المحور الثّاني: من قضايا المعجميّة العربيّة المعاصرة.

1 ـ أحمد العايد: هل من معجم عربيّ وَظيفي؟.
2 ـ أحمد شفيق الخطيب: من قضايا المعجميّة العربيّة المعاصرة.

اختتـام الندوة: 16,30:

ـ كلمة الدكتور محمد رشاد الحمزاوي رئيس جمعيّة المعجميّة العـربيّة بتونس.
ـ كمة السيّد وزير الشؤون الثقافيّة.
ـ اختتام النّدوَة.

كلمة السيد وزير الشؤون الثقافية في اختتام الندوة

حضرات الأساتذة والباحثين
حضرات الضيوف الكرام
حضرات السادة والسّيدات

إنّه لشرف عظيم ينالني بالحضور بينكم لاختتام هذه الندوة التي نظمتها «جمعيّة المعجمية العربية بتونس» حول «مائوية ثلاثة من روّاد المعجم العربي الحديث وأعلامه، وهم أحمد فارس الشدياق وبطرس البستاني ورينحارت دوزي، هؤلاء الأقطاب الذين أثروا معين الحضارة فأفنوا من سنوات العمر أكثرها يعملون على تطوير المعجم العربي ويبذلون منتهى الجهد وعصارة التفكير للنهوض باللغة العربيّة، وحملها على مسايرة ركب اللغات الحيّة، لتعيش عصرها، وتستوعب مستجدات محيطها ومستنبطاته. فاللغة هي أساس كلّ بناء حضاري، وإثراؤها وتعهدها بالصّيانة لمجاراة العصر هما جوهر الارتقاء بها إلى مراتب الكائن الحيّ الفاعل تشييداً وإضافة. وما عداه فركود هو من صميم العجز المفضي حتماً إلى الموت.

حضرات الضيوف الكرام

في هذا الإطار من التوجّه الحضاري تندرج ندوتكم هذه، وفي هذا المنحى تصبّ نتائجها. وإنّي لمغتبط بالجو الذي دارت فيه أعمالكم،

وبالنجاح العلمي والثقافي الذي حققه لقاؤكم. وأنها لخطوة أخرى على درب مواصلة التعمق في قضايا معجمية عديدة تحتاج إلى مزيد البحث والاستقصاء، أرجو أن تتبع بندوات لاحقة لمواصلة هذه المهمّة الحضارية الشاقة، فنكون بذلك أوفياء لمن عبّدوا الطريق، نضيف في حاضرنا إلى ما أضافوه لأسلافهم، فتتواصل حلقات الابتكار متصلة متواصلة نتنزل من خلالها ـ ومن خلال لغتنا ـ منزلة الأمّة الفاعلة في بناء الحضارة الكونية دونما اقتصار على استهلاك ما ينتجه غيرنا.

ولا أراني هنا إلا شاكراً لكم جميعاً جهدكم الكبير الذي ما فتئتم تبذلونه خدمة للغة العربية خاصة، والثقافة العربية عامة. كما لا يسعني إلا أن أنوّه بجدّية أعضاء هيئة جمعيّة المعجمية العربية بتونس وحرصهم الدائب على تدارس قضايا حيوية تهمنا حاضراً ومستقبلاً.

فمنذ سنة ونيف، وبالتدقيق في 3 مارس 1985، كان لي شرف اختتام أوّل ندوة نظمتها هذه الجمعية الفتية، وقد تمحورت حول «إسهام التونسيين في إثراء المعجم العربي»، وقد صدرت نتائجها في كتاب إثر انعقادها بأشهر قليلة.

وها أنّ الجمعية تنظم ندوة ثانية تخرج فيها من الإطار التونسي إلى الإطار العالمي فتدعو نخبة من العلماء والباحثين إلى الإسهام في دراسة ثلاثة من روّاد المعجم العربي الحديث والتعريف بجهودهم وتقييمها، واستخلاص حصيلة من النتائج، نرجو أن يكون لها الأثر العلمي المطلوب في تطوير صناعة المعجم العربي، والنهوض باللغة العربية.

ويسعدني بهذه المناسبة، أن أذكر ببعض الجهود التي تبذل في تونس لترقية اللغة العربية، وجعلها مواكبة للعصر، ولمتطلبات العلوم والتقنية والحضارة. فقد أولت الجمهورية التونسية منذ الاستقلال بقيادة المجاهد الأكبر فخامة الرئيس الحبيب بورقيبة عناية فائقة باللغة العربية، وخطت في تعريب الإدارة والتعليم والبيئة الاجتماعية والثقافية والاقتصادية أشواطاً كبيرة،

وشجعت الإنتاج الثقافي والأدبي بمختلف أصناف التشجيع.

وفي هذا الاتجاه أنشئت، منذ سنة 1982، «المؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدراسات» (بيت الحكمة) التي يضمّ مجلسها العلمي مجموعة من العلماء والأعلام من تونس والوطن العربي والعالم.

ومن أبرز اهتمامات هذه المؤسسة، تحقيق النصوص العلميّة، وتأليف معاجم عربية متخصصة، أذكر منها على سبيل المثال، المعجم الإداري الذي سيساعد على استكمال تعريب الإدارة التونسية. ونحن ساعون إلى أن يكون اشتغالنا بالمعاجم والمصطلحات وفق مناهج علمية دقيقة تساعد على ضبط المفاهيم، واختيار أفضل الألفاظ وأكثرها تواتراً وشيوعاً لا في تونس فحسب، بل في الوطن العربي كله.

وفي هذا المجال أودّ أن أشير إلى موضوع حيويّ، وهو استثمار التقنيات الحديثة في العمل المصطلحي والمعجمي، وأعني بذلك الإعلامية التي استفاد منها غيرنا إلى أبعد الحدود، بينما ما يزال إقدامنا عليها محتشماً.

إن (الحاسوب) يسمح بتخزين المعطيات اللغوية الكثيرة المتفرقة ثم باسترجاعها في أشكال متعددة بحسب الحاجة، وبِهِ نتمكن من حصر أشمل لثروتنا اللغوية قديمها وحديثها، وتنظيم أفضل لمواد معجمنا، وترقية أجدى وأسرع للغتنا العربية حتى نجعل منها وسيلة من وسائل التنمية الشاملة في أقطارنا، ونيسّرها على أجيالنا الصاعدة، وعلى الرّاغبين في تعلّمها من الأجانب.

حضرات الأساتذة،

إن المعجم العربي الحديث ثمرة من ثمار النهضة المباركة التي عرفتها بلادنا العربية والإسلامية في القرن الماضي، وحسنة من حسناتها الكثيرة. ولقد كان للطباعة أكبر الأثر في إحياء المعجم العربي وتطويره. ففي سنة 1870 ظهرت أول طبعة لكتاب الرّازي (مختار الصحاح)، وفي سنة 1872

ظهرت أول طبعة لكتاب الفيروز أبادي (القاموس المحيط)، وفي سنة 1882 ظهرت أول طبعة لكتاب ابن منظور (لسان العرب).

وقد تصدى أحمد فارس الشدياق لنقد (القاموس المحيط)، ووضع بطرس البستاني أول معجم عربي حديث، هو (محيط المحيط)، وطبع المستشرق رينحارت دوزي في سنة 1881 بهولندا (تكملة المعاجم العربية).

وها أنكم اليوم توفون هؤلاء الأعلام حقهم، وتشيدون بفضائلهم على العربية وأهلها، وما ذلك إلا اعتراف من لدنكم لهم بما بذلوا ولكنه ليس اعترافاً فقط. إنما هو عهد من قبلكم على مواصلة الدرب بمزيد الإثراء والإضافة للغتنا التي هي أساس كياننا وجوهر تقدمنا.

فمما لا شك فيه أن المعجم العربي الحديث ما يزال في حاجة إلى أن يطوّر مادة وعرضاً، أو «جمعاً ووضعاً» حسب عبارة ابن منظور. ونحن في حاجة ماسة إلى معاجم من أنواع مختلفة، مدرسيّة تربوية، وشاملة وصفية، ومتخصصة علمية وتقنية، كما أننا نفتقر إلى «المعجم التاريخي» الذي يلم بما تفرّق من شتات ألفاظ اللغة العربية ويحيط باستعمالاتها وتطوّرها لفظاً ودلالة عبر مختلف العصور والأزمان.

ويسعدني أن أرى أن المعجم التاريخي هو أحد اهتمامات جمعية المعجمية العربية بتونس التي يمكن لها أن تتعاون في طريقة إنجازه مع (بيت الحكمة) وبعض المؤسسات الأخرى التي يهمّها هذا المشروع الهام.

وختاماً، أشكركم مجدداً على ما بذلتموه من جهود علمية موفقة في هذه الندوة، راجياً لكم مزيد النجاح والتوفيق.

والسلام عليكم ورحمة الله

كلمة الافتتـــاح

للأستاذ الدكتور محمد رشاد الحمزاوي
رئيس جمعية المعجمية العربية بتونس

حضرة استاذنا الكبير الدكتور محمد الطالبي رئيس اللجنة الثقافيـة القومية بالجمهورية التونسية.

حضرة الأستاذ المحترم الدكتور عبد المجيد الشرفي عميد كلية الآداب والعلوم الإنسانية بتونس.

حضرات السادة والسيدات من الأساتذة والدكاترة وأهل الفضل والذكر والنسب والحسب من لغة ومعاجم العرب، أرحب بكم جميعاً في افتتاح هذه الندوة المخصصة لإحياء الذكرى المائوية لأحمد فارس الشدياق، وبطرس البستاني ورينحارت دوزي، شاكراً فضلكم جميعاً على ما بذله كل واحد منكم من الجهد والجهاد في سبيل الحضور معنا، وما وفره من الدعم والتأييد لينعقد اجتماعنا هذا في هذا البلد الأمين وفي هذا النزل الجميل. ويسعدني بهذه المناسبة أن أشيد بالمساعدات القيمة والمتواصلة التي قدمتها لنا اللجنة الثقافية القومية ووزارة الشؤون الثقـافية وكليـة الآداب والعلوم الإنسانيـة والمعهد القومي للمواصفات والملكية الصناعية مما سمح لهذه الندوة أن تعقد ولهذا الملأ الكريم أن يحضرها ولهذه المائوية أن تنظم.

إن هذه الندوة تدخل في إطار النشاط العلمي والمعجمي المقيد الذي آرتضته جمعية المعجمية العربية بتونس لنفسها منذ نشأتها. فهي ثالث نشاط تقوم به إذ سبق لها أن نظمت:

1 ـ ندوة معجمية حول «إسهام التونسيين في إثراء المعجم العربي» - وقد عقدت بنادي أبي القاسم الشابي في مارس 1985 ـ ونشرت أعمالها دار الغرب الإسلامي ببيروت في 303 ص سنة 1985.

2 ـ إصدار مجلة «المعجمية» ـ العدد الأول في 1985.

3 ـ تنظيم هذه الندوة حول المائوية المعنية أيام 15، 16، 17 ابريل 1986.

وجمعيتنا تعقد الآمال الكبيرة على انجاز مشروعها الرابع الكبير المتعلق بعقد ندوة عربية حول وضع منهجية المعجم العربي التاريخي في المستقبل القريب. وهو موضوع صعب المنال، طويل النفس، عظيم الأهمية.

وغايتنا من هذه الندوة الدولية بالذات الاحتفال بثلاثة معجميين من المشاهير الذين كان لهم فضل عظيم على المعجم العربي وما يشمله من معرفة وتربية وثقافة وحضارة. فلقد سبق أحمد الشدياق أهل الذكر في ميداننا هذا بأن أدرك أزمة المعجم العربي في العصر الحديث وبين مواطنها. وكان من دعاة عصر النهضة إلى تجديد معجمنا العربي وتنزيله منزلته اللائقة به من العلوم وشتى المعارف القديمة والحديثة، اعتقاداً منه أن المعجم رصيدٌ يحتاج إلى منهج، وأداة تربوية يستوجب مقاصد ووظائف معيّنة، ومرجعٌ حضاري يشهد بمكانة الأمة من التقدم والرقي.

أما بطرس البستاني فإنه كان من الداعين إلى إدراج المعجم في حياتنا اليومية واعتباره أداة عمل غايتها توفير أسباب المعرفة الحديثة. وهو عنده صناعة تستوجب تقنيات جديدة تجعل منه وسيلة عصرية لاستيعاب اللغة والتاريخ والأنساب والحضارة.

ولقد نحا رينحارت دوزي نحو التقاليد المعجمية العربية العريقة في الاستدراك على معاجمنا العربية وتكملتها مثلما فعل من قبله الصاغاني في التكملة وابن برّي في حواشيه على صحاح الجوهري ـ إلا أنه قد بادر بمبادرة

جديدة تعتمد في تكملة معاجمنا لا على المعاجِم السابقة والمصادر الشعرية فحسب بل باعتماد المصـادر النثريّة لا سيما مؤلفات مشاهير الكتاب وأمراء البيان من العرب والمسلمين، والاستعمالات العربية المعتمدة في الدواوين والإدارات وميادين الحياة العامة مع ترتيبها تاريخياً لضبط زمانيتها وآنيتها تمهيداً للمعجم التاريخي.

إن أعمالهم قد حدثت في عهد متحمس متفائل وهو عصر النهضة العربية الذي كان يدعو إلى مراجعة الأصول وتجديد المناهج والأمل في الوصول إلى تبديل الواقع والمجتمع بمعجزة لغوية جديدة يكون فيها التقدم والرقي على قدر ما توفر لنا من تقدم لغوي ومعجمي. وتلك معادلة كانوا يؤمنون بها إن اعتبرنا قول Condillac «العلم لغة محكمة البناء» ـ فهل توفرت لنا بعدهم تلك اللغة وتلك المعاجم وذلك العلم؟

إننا نجتمع اليوم لنلقي نظرات على أعمالهم وتقييمها كما نرجو أن نهتم بطرح قضايا أخرى تتصل بتطور المعجم العربي في العصر الحديث وبمكانته من المعجمية الدولية على ضوء ما أتت به اللسانيات الحديثة من نظريات وتطبيقات مفيدة. ولقد ورد على ندوتنا هذه بحوث كثيرة من المشرق والمغرب نعتقد انها ستزود قضايا المعجم بمقاربات ومصادرات ترجو أن يكون لها الأثر الطيب علماً منا أنها من بَنَاتِ أفكار أخصائيين غايتهم التقدم بالمعجم العربي وبالتالي بالمعرفة والتربية والحضارة.

وأملنا أن تكون هـذه الندوة منـاسبة هـامّة لتَـوْطيد عـرى التعاون والمعرفة والعلم مع اخواننا واصدقائنا وتكوين جمعيات مختصة في المعجم العربي على غرار جمعيتنا حتى تُكوّن في المستقبل القريب رابطة المعجمية العربية. ويشرف تونس أن تكون مأوى لها ومنطلقاً لأعمالها وتضامنها وتقدمها لا سيما وأننا حريصون على المضي قدماً في تعميق تجـربتنا المتعلقـة بالمعجم وقضاياه وما لها من صلات بالمسائل اللسانية والتربوية والاجتماعية والثقافية والحضارية. وهذا موقف منهج نريد من ورائه أن نؤكد على أهمية

هذا الميدان وعلى التخصص فيه أكثر فأكثر سعياً إلى إثرائه بما أمكن والتقدم به حسب المستطاع تجنباً للهامشيات والعموميات والموسوعيات التي من شأنها أن تخلق البلبلة وتفسد المقصد.

إن قضايا المعجم فنون وشجون لا تسلم من النقد والمهاترات التي لها صلة بمصادراتها الوثيقة الصلة بتصوراتنا وباللغة وما تلعبه من أدوار في التواصل والاتصال. فإن كنا لا ندعو من هذه الندوة وغيرها إلى أن يصبح كلّ واحد منا معجماً بذاته فإننا نسعى إلى تركيز أسس ثقافة لسانية معجمية تتجاوز الاجتهاد في المذهب إلى المساهمة في صناعة المعجم العربي الجديد ولا سيما معجم العربية التاريخي حتى يكتب للغتنا ومعجمنا أنْ يخرجا من التاريخ المسموع ويدخلا في التاريخ المؤرخ.

والسلام

كلمة

الأستاذ الدكتور عبد المجيد الشرفي

عميد كلية الآداب والعلوم الإنسانية بتونس

في افتتاح الندوة

سيدي رئيس اللجنة الثقافية القومية.

سيدي رئيس جمعية المعجمية العربية بتونس.

زملائي الأعزاء

سيداتي سادتي

اسمحوا لي في بداية هذه الكلمة أن أهنئ جمعية المعجمية العربية بتونس على عقدها هذه الندوة العلمية الدولية التي تضم باحثين عرباً ومستشرقين من المغرب والمشرق وأوروبا والولايات المتحدة، وأن أشكر هيئتها التي شرفتني بالدعوة إلى افتتاح أعمالها، فنِعْم ملتقاكم هذا الذي ستستخلصون فيه العبر وتقوّمون فيه مسار المعجم العربي بعد قرن من وفاة معجميّين أعلام ثلاثة: أحمد فارس الشدياق وبطرس البستاني ورينحارت دوزي.

لقد قال حنّا مصعب مادحاً الشدياق عند ظهور جريدته الجوائب من جديد بعد اختفائها:

وأرجعت للدنيا جوائب فارسٍ: فَسُرّت بها الأقطار من كل جانب

وفي عَوْدها قد قلتَ فالعودُ أحمدٌ: فأهلا وسهلا ذَرّ بدرُ الثواقب

ونحن على غراره نقول لجمعية المعجمية العربية بتونس:

وأحييتِ بالمشتلْ مشاكلَ يعربٍ   فهبّ لها الأعلام من كل جانب
وفي تونسٍ قد كان فالعود أحمدٌ   فأهلا وسهلا ذرّ بدر الشواقب

نعم نعود مع أحمد فارس الشدياق إلى تونس التي عاش فيها زمناً وأسلم فيها والعود أحمد؛ والعود أحمد مع المعلّم بطرس البستاني الذي درسنا في المرحلة الثانوية كتابه الجيّد «أدباء العرب» بأجزائه الأربعة واستفدنا من مختاراته الشعرية والنثرية المعزّزةِ بشروح دقيقة حبّبت الينا تعلّم العربية وآدابها، واستفدنا من معجمه «محيط المحيط»، ومن مؤلّفه: «دائرة المعارف»؛ والعود أحمد مع رينحارت دوزي الذي وجد كنوزاً لغوية في مصنفات المغاربة، وسيبرز البحث حول «رياض النفوس للمالكي مصدراً لدوزي»، مدى مساهمة بعض التونسيين في إثراء «المستدرك على المعاجم العربية» لدوزي. فأهلاً وسهلاً بهؤلاء المعجميّين الثلاثة الذين أرادوا أن يقدموا المعجم العربي لأوسع جمهور ممكن وأن يجعلوه مُدوَّنة لمعارف العرب قبل زمانهم وفي عهدِهم عهدِ النهضة. إن الثلاثة تصوروا المعجم تراثاً ثقافياً حضارياً مُتطوّراً واستفادوا من معارفهم للغات الأجنبية فكانت معاجمهم مجدِّدةً متوسعةً في معنى الفصيح.

كان الشدياق عارفاً بالانقليزية والفرنسية والايطالية والمالطية والتركية، ولعله كان على اطلاع عام على بعض اللغات السامية: العبريةِ القديمةِ والسريانيةِ؛ وكان المعلّم بطرس البستاني على علم بالسريانية والايطالية واللاتينية والعبرية واليونانية والانقليزية والفرنسية؛ وكان رينحارت دوزي متضلعاً في اللغات السامية ـ العبرية والسريانية بالخصوص ـ كاتباً باللاتينية والفرنسية والانقليزية والاسبانية والالمانية والهولندية ـ لغته ـ والعربية. إن ثلاثتهم سعوا إلى تقديم المعجم الأمثل أو إلى تصوّره، فندوتكم إذن ببحوثها الأرْبع والعشرين ستناقش مواضيع هامة:

ـ نظرية التقليد والمحاكاة في أصل اللغة ونشأتها، اتخاذ الفعل المضاعف أصلاً، القلب والابدال، الاشتقاق، النحت؛ المعرّب والدخيل

والدارج، والمولّد (وقد عاشت ألفاظ الشدياق والبستاني من أمثال المشير والسفير والوالي والمتصرّف والملاكمة والجريدة والإعلام والإعلان والانتخاب والمعرض ومجلس النواب والمعمل والباخرة. . .).

- كذلك ستتعرض الندوة إلى طُرق المعاجم القديمة في ترتيب الحروف: الترتيب حسب مخارج الحروف: مرحلة التقليب، الترتيب حسب أواخر الحروف: مرحلة القافية، الترتيب حسب أوائل الحروف: مرحلة الهجائية العادية. وستتعرض إلى خصائص المعاجم القديمة والمآخذ عليها وعيوبها.

- وستثير أيضاً قضايا التعريف والدقة في الشرح والشاهد والتعبير السياقي والصور ومحاولات تصحيح اللغة من الأخطاء.

- وستدرس الندوة بعض قضايا المعجمية المقارنة: نظرية الشدياق الاشتقاقية وعرضها على المعجمية السامية المقارنة بالرجوع إلى لغات أخرى أخوات العربية كالعربية الجنوبية والحبشية والعبرية القديمة والسريانية، واقتراضات الاسبانية والبرتغالية من العربية.

إن ندوتكم لتثير فينا اهتماماً خاصاً وهو أن الوقت قد حان لكي تدرّس كل الجامعات العربية اللغات السامية والفارسية والتركية بالإضافة إلى اللاتينية واليونانية والفرنسية والايطالية والاسبانية والبرتغالية حتى نستشف الرصيد اللغوي المتوسّطي المشترك بين كل هذه اللغات، زيادة على دراسة الانقليزية والروسية والصينية وعلى حذق المعلوماتية التي أصبحت ضرورة لسرعة استغلال المعلومات اللغوية.

حضرات السيدات والسادة،

لا شك أن المحور الثاني في الندوة «من قضايا المعجمية العربية المعاصرة» سيثير مسائل أساسية وربما بعض الحلول لتصوّر المعجم العربي الوظيفي بأصنافه أي معاجم حسب مستويات معينة:

- معجم مدرسي ألفبائي مصوًّر للتعليم الابتدائي.
- معجم متوسط اشتقاقي مرتّب حسب حروف الهجاء ومصوّر.
- معجم تاريخي موسوعي.
- معجم للمعاني ومعجم للفنون الجميلة.
- معاجم للعلوم المختلفة.
- معاجم وصفية للغات الحية وأخرى للحِرف والصناعات... الخ.

إن نهضة العرب تقترن بنمو لغتهم فوجب علينا أن نهتم ضمن علوم اللسان بالمعجمية المقارنة، وليس من عيب أن نستفيد من تجارب الغربيين، وبعلم المفردات Lexicologie وبصناعة المعاجم Lexicographie وأن ننجز الجيّد من المعاجم على يد ذوي الاختصاص وبالاستعانة بالتقنيات الحديثة والأجهزة الإلكترونيّة والرتّابات.

هكذا لعلنا نكون أرضينا المعجميّين الثلاثة المحتفى اليوم بذكراهم، أولئك الذين دعوا إلى عدم الاستخفاف باللغة لأنها أساس المعرفة... فشكراً مرة أخرى على دعوة جمعيّة المعجمية العربية بتونس وشكراً لكم جميعاً والسلام عليكم ورحمة الله.

المحور الأول

إسهام المعجميين الثلاثة في إثراء المعجم العربي



نظرية الشدياق الاشتقاقية

أصولها وتقويمها وعرضها على المعجمية السامية المقارنة

بحث : رمزي بعلبكي

«حقاً إنك متعب يا شدياق! فلو وضعنا معاجم اللغة كلَّها في كفّة، وسرّ الليال في كفّة لشالت في الميزان»[1].

كذا يقول مارون عبود في الشدياق وسرّه. لقد علقتني هذه العبارة عندما قرأتها للمرة الأولى وأنا بعدُ في السنة الجامعية الأولى، ولطالما تساءلت عن قائلها كيف يجرؤ أن يجعل واحداً من المُحْدَثين بإزاء المعجميين القدماء كلِّهم، بل أن يجعل ميزانه راجحاً على ميزانهم الشائل. أهي شطحة من شطحات عبّود أم حكمٌ نقدي رزين وممحَّص؟! وليتني على تعاقب الأيام وتقادم الوقت استطعت عن هذا جواباً، فنظرية الشدياق الاشتقاقية متعبة كواضعها، وأَخْلَصُ أوجه الإتعاب فيها أنها تتبدى للناظر فيها على أكثر من وجه، فهي حيناً وجهُ حسناءَ واضحُ القسمات يبهرك بتناسبه وتكامله، وهي حيناً وجه متنافر المعالم مصطنع التركيب يتكلّف الابتسامة. والأمران سِيّان في أنهما جزءان من كلّ كبير، وفي أنهما يستوجبان النظر في ذلك الكلّ، تكوّنه الذي منه انطلق، وأصوله التي منها استقى، وأسسه التي عليها انبنى، ومقامه عند المعارضة بالمعجمية المقارنة.

إن نقطة التكوّن التي انطلق منها الشدياق في نظريته، بل في جميع ما كتبه مما له اتصال باللغة، هي ذلك الحب الفطري الغَرَزِيّ للعربية، وهو ما

(1) عبود، صقر لبنان، ص 162.

يحدّثنا به في مطالع الساق على الساق إذ يقول: «كان للفارياق ارتياح غريزي من صغره لقراءة الكلام الفصيح وإمعان النظر فيه ولالتقاط الألفاظ الغريبة التي كان يجدها في الكتب»[2]. ومثله ما جاء في سرّ الليال: «فأحمد الله على لغتي التي نشأتُ عليها وصبوتُ إليها وفيها لذ لي تعبي وطاب لي نَصَبي ودأبي. . . فعطرها في الشرق والغرب متضوع وحسنها في جميع الأسئلة متنوع، فالجاحد لمحاسنها والمماري في خبية محاسنها كالجاحد لوجود الشمس والمماري في خلود النفس»[3]. ونظيره قوله في الجاسوس: «أيم الله إن استفادة كلمة واحدة من كلام العرب ثم إفادتها أحبّ إليّ من الرتوع في روضة زاهرة ناضرة فيها شجر تحمل كل فاكهة فاخرة. . .»[4].

غير أن حبّ الشدياق للعربية وولوعه بها، على النحو الذي رسمه في الشواهد السابقة من مؤلفاته الثلاثة، قد يفي بتفسير غوصه على الغريب، وعنايته بالمترادفات على النحو الذي يسوقه في الساق، وتصديه لصاحب القاموس في هفواته ومعايب طريقته، ولكنه لا يفي مطلقاً بتفسير نظريته الاشتقاقية التي جاء بها في سرّ الليال، ذلك أن صنيعه فيه أبعد من ولوع وعلوق. إنه تنقيب عن سر لا ينكشف إلا بوحي ونور، والباحث عن سرّ من مثل هذا، به تتأوّل اللغة وينكشف عنها غبار السنين واختلاط الأصول، أكثرُ من محبّ ومولَع؛ إنه مؤمن بقدسية المنقّب عنه وجلاله، وواثق أنه صادر عن حكمة وإحكام. وهو يقول في تعليله لتسمية الكتاب: «فإنما هو سر كشفه لي الباري سبحانه وتعالى في بعض الليالي الشديدة والنفس قانطة من الفَرَج ومتمنية اللحاق بمن درج، ولذلك سمَّيت هذا المؤلَّفَ: سرّ الليال في القلب والإبدال، وكان الأولى أن يسمَّى بأسرار اللغة وأسرار الكلام. . .»[5].

(2) الساق على الساق، ص 22.
(3) سرّ الليال، ص 4.
(4) الجاسوس، ص 521.
(5) سرّ الليال، ص 5—6.

ويصبح وضع اللغة عنده سراً من الأسرار يختصّ به اللغويون دون غيرهم، فكما أن الشعراء مجالهم القافية، فاللغويون، كما يقول في الجاسوس، عليهم «أن يبيّنوا سرَّ الوضع»[6].

وليس الشدياق بدعاً بين المفكّرين في طلبه السرّ وانكشافه له. إنه كالغزالي الذي ما قذفه الله بنور في صدره إلا وقد أعضل داؤه. وإنه من بين علماء اللغة، أشبه ما يكون بابن جني، فكلاهما يسعى إلى نظرية شمولية تندرج الجزئيات جميعاً فيها، وكلاهما يعلم أن الموضع موضع قدسية وإجلال، فنظير ما سبق من قول الشدياق قول ابن جني: «وذلك أنني إذا تأملت حال هذه اللغة الشريفة، الكريمة اللطيفة، وجدت فيها من الحكمة والدقة، والإرهاف والرقة، ما يملك عليّ جانب الفكر، حتى ليكادُ يطمح به أمام غلوة السحر...»[7]. فلئن كانت عبقرية البحث اللغوي ـ من حيث هي إبداع وشمول لا لهاث وراء مسائل متفرقة أو تصدٍ لحواشٍ وشروح ـ قد انقطعت منذ القرن الرابع، فإن الشدياق قد بعثها بعد تسعمائة سنة، ولذلك فالدراسة اللغوية أكثر حظوة من الدراسة النحوية التي ما فتئت منذ ما اجترحه الخليل وسيبويه وما كشف عنه الجرجاني من أسرار النحو، تنتظر من يحييها ويخرج بها من التكرار والإعادة ليميط اللثام عن نظرية تنتظم شواردها وتجمع ما تفرّق من أجزائها على غير سنّة العوامل والمعمولات.

بعد النظر في الباعث على نظرية الشدياق الاشتقاقية وفي مبرّر وجودها، يمكننا النظر في مادتها وجوهرها، على النحو التالي:

أوّلاً : الأصول التي استقى منها نظريته

ثانياً : تقويم النظرية

---

(6) الجاسوس، ص 27. قارن أيضاً الجاسوس، ص 86: «فأقول إن من شاء أن يطلع على سر الأفعال وتناسب بعضها ببعض وأصل مبانيها وكنه معانيها فلا يرى محيصاً عن الإقرار بأن الابتداء بالثنائي المضاعف... هو المتكفل بجميع هذا».

(7) الخصائص 1—47.

ثالثاً : عرضها على المعجمية السامية المقارنة

أوّلاً : أصول النظرية

إن لبّ النظرية الاشتقاقية عند الشدياق هو الثنائية التي بنى عليها معجمه «سرّ الليال». غير أن هناك أسساً ومعالم أخرى لهذه النظرية، من غير التفسير الثنائي ـ كاختصاص الحرف الواحد بمعنى عام، والقلب الشائع في الثلاثي كما في الثنائي ـ الأمر الذي يحملنا على التفرقة بين مصطلحي النظرية الاشتقاقية والنظرية الثنائية، فالأوّل يتضمن الثاني ويتجاوزه.

ولئن كان الشدياق ـ فيما نعلم ـ أول من وضع معجماً يقوم على الثنائية أي على نظرية مغايرة في جوهرها للنظرية الثلاثية التي بنى عليها المعجميون العرب معجماتهم، كما كان صرفيّوهم قد بنوا عليها تحليلهم للكَلِم بأصوله وأوزانه وحذوفه وزياداته ـ فإن أسس صنيعه ترجع إلى ملاحظ متفرقة جاءت إما في تقسيمات المعجميين القدماء للكلم، وإما في نظريات لغوية عامة. ولا يمكننا، على أية حال، الجزم بما اطّلع عليه الشدياق من المصادر وبما لم يطّلع عليه، إذ إنه لم يصرّح بما سنحاول تلمّسه من مصادره[8]، ولكن يبدو أن عمله بالنّساخة وهو بعد في لبنان[9]، هيّأ له الاطلاع على بعض المصادر، إلى أن حطّ به الترحال في الأستانة ـ بعد مصر وأوروبا ـ فاطلع في مكتباتها الزاخرة على التراث الإسلامي والثقافة العربية اطلاعاً واسعاً[10].

ويمكننا أن نعارض أسس النظرية الاشتقاقية عند الشدياق بالأصول

(8) غير أنه يذكر في مقدمة الساق (ص III)أنه طالع كتاب المزهر للسيوطي «مما ذكر فيه خصائص اللغة نقلاً عن الإمام اللغوي ابن فارس».

(9) الساق على الساق، ص 32: «ومذ ذلك الوقت عرف أنه لا ملجأ له بعد الله غير كدّه فعكف على النّساخة». وفي ص 34: «. . . ومن إقباله على نسخ الكتب واكتسابه من ذلك جودة الخط. . . وأزيد هنا أن أقول إنه لما شاعت براعته في النسخ. . .».

(10) قارن: خلف الله، أحمد فارس الشدياق، ص 89—90.

التي نعتقد أنه استوحى منها نظريته، بتقسيم أسس النظرية نفسها إلى أربعة أقسام رئيسية، على الوجه التالي:

1 ـ الأساس الأوّل هو محاكاة الأصوات الطبيعية. وهذا هو المسوِّل الأوّل لاعتباره المضاعفَ أصلاً كما يقول في مقدمة السرّ: «إني رأيت أن معظم اللغة مأخوذ من حكاية صوت أو حكاية صنعة وان حكاية الصوت إنما تأتي من المضاعف، نحو: دبّ ودفّ ودقّ وهزّ وسفّ وقرّ، فإذا أرادوا الزيادة في المعنى ضاعفوا الحروف فقالوا: دبدب ودفدف ودقدق وهزهز وسفسف وقرقر...»[11]. وفي هذا ما لا يخفى من النظر إلى النصّ الشهير في الخصائص: «وذهب بعضهم إلى أن أصل اللغات كلها إنما هو من الأصوات المسموعات، كدويّ الريح وحنين الرّعد وخرير الماء وشحيج الحمار ونعيق الغراب وصهيل الفرس ونزيب الظبي ونحو ذلك، ثم ولدت اللغات عن ذلك فيما بعد. وهذا عندي وجهٌ صالح ومذهبٌ متقبّل»[12].

على أنّ هذا الأساس الذي تستند إليه نظرية الشدياق ـ وإن كان جائزاً أنه مستوحى من هذا النصّ، أو ربما من نقول السيوطي عنـه[13] علاوة على آراء العلماء الأوروبيين في هذه المسألة كما سنرى لاحقاً ـ منبثّ في تفاصيل مواد معجمه جميعاً، وليس مبحثاً عرضياً كمبحث القول على أصل اللغة في المصادر اللغوية القديمة. فبعض المواد عنده يقوم على حكاية الصوت لتتفرع تلك الحكاية إلى المشتقات الثلاثية مع ما يعتورها من الإبدال المطّرد أو القلب. من ذلك مثلاً مادة «عب»[14]، فكثير مما فيها محمول عند الشدياق على حكاية الصوت: المادة نفسها حكاية صوت في دلالتها على شرب الماء

(11) سرّ الليال، ص 22. ولعل في الألفاظ التي يسوقها سوقاً للدلالة على صوت الطنبور (الساق على الساق، ص 30—31) دليلاً على شغف الشدياق بالإيحاء الصوتي الذي يُحدثه الحرف في محاكاته الأصوات الطبيعية.
(12) الخصائص 1—46—47.
(13) المزهر 1—14—15.
(14) سرّ الليال، ص 57—63.

أو الجرع أو تتابعه والكرع، ومنه عبّ الرجلُ الماءَ، وعبّ الحمامُ، وعبّت الدلوْ، والعُبُب المياه المندفقة، واليعبوب النهر الشديد، والاعتباء (من مادة ع ب أ) الشرب فرجع المعنى إلى عب. ومقلوب عب: بع[15]، وهو الصب في سعة وكثرة وهو حكاية صوت، والبعبعة بالهاء حكاية بعض الأصوات، والبَعاع ثقل السحاب من المطر، وبعثق (من الرباعي) خروج الماء من غائل حوض أو خابية، وفيه قرب من معنى بع السحاب... هذا ما صرّح به الشدياق في هذه المادة، وعليه اقتصرنا، وإن كان ما لم يصرّح به أكثر، وهو يدل ضمناً على تفرع المعنى الرئيسي في سائر مواد الباب أو معظمها.

وكذلك مادة «نت»، ودورانها عنده على حكاية الصوت[16]، وبهذا يفسّر معنى نتَّ منخره غضباً، أي نفخ، ونأت لمن جهر من الأنين، والنآت على فعّال الأسد وهو من الصوت، وكذلك من وجه الخصوص لا العموم «نتأ» بمعانيها...

وفي هذين المثلين، وغيرُهما كثير، دليل على النفاذ من التأثّر إلى الخلق والإبداع، وسواء بعد ذلك أكان الاجتهاد سيُنيله أجـراً واحداً أم أجرين، وهذا ما سننظر فيه في الجزء الثاني من هذا البحث.

2 ـ الأساس الثاني هو زيادة المبنى لزيادة المعنى. ولعل أوضح ما عبّر به الشدياق عن هذا قوله: «إنه إذا كان اسمان مشتقين من مادة واحدة وكانا يدلّان على معنى واحد كالخَجُوج والخَجَوْجاة مثلاً للريح الشديدة المرّ فلا بد وأن يكون الاسم الزائد في اللفظ زائداً في المعنى أيضاً». هذا من غير باب الثنائي، ولكن حكمه يصح عليه أيضاً وعلى ذلك ينبني سر الليال حيث جعل الشدياق الثنائي منشأ الثلاثي مع احتفاظ الصيغة الثلاثية بحظ من المعنى الأصلي مع توجّه إلى معنى متخصّص أو مفارق وفي ذلك مَكْمَن الزيادة المعنوية الراجعة إلى زيادة اللفظ. وفي ضوء هذا المبدأ اللغوي العامّ

(15) نفسه، ص 63—68.

(16) نفسه، ص 87—349.

نستطيع أن نفهم على الأقل سببين من الأسباب التي ذكر الشدياق أنها سوّلت له اعتبار المضاعف أصلاً. فهو عندما يقول، في السبب الثاني، «إن اللغة كغيرها من الصنائع والموضوعات البشرية **لا يحدث شيء منها** تاماً كاملاً من أول وهلة ولكن على التدريج»[17] فكأنما يسوّي بين اللفظ والمعنى، وهما جسم الكلم وروحه، فكما ينمو اللفظ ينمو المعنى على التدريج، ولذلك نراه يصف، في تضاعيف معجمه، المواد المضاعفة، أو الثنائية بأكثر الأوصاف عموماً، كقوله إنها حكاية صوت، (كما في بع ونت ودب وزب وبص وطب وبط. . .) أو حكاية صنعة (نحو ثب وبش. . .) أو حقيقة معنى قطع (نحو سب وقب وبق) أو حكاية فعل يدل على شيء (نحو كب، الدالّ على القوة). . . الخ. أما الثلاثي فهو عنده ذو معنى دقيق قد ينظر إلى الأصل ولكنه دائماً - يزيد عليه ويفوقه دقّة وتحديداً.

وكالسبب الثاني من المسوّلات، السبب الرابع، وهو قوله: «إن زيادة حرف على المضاعف أليق بحكمة الواضع في التفنن من نقصه إذ لو جعلتَ السالم أصلاً لزم عنه العدول من الكمال إلى النقصان، والاختصار في الأفعال ليس من مذهب العرب»[18]. فإن يكن الشدياق قد ألمع إلى حكمة، فالحكمة ليست مقصورة على اللفظ، بل إن سرّها وتجلّيها إنما هو في المعنى، أو في العلاقة بين اللفظ والمعنى، فكما أن الاتجاه في اللفظ يسير نحو الأكثر، فإن اتجاه المعنى - على الأقل من الناحية النظرية محضاً - يسير نحو الأرقى والأكثر تركيباً والأدعى إلى الاختصاص والأقدر على الوصف الدقيق.

إن الكشف عن العلاقة بين زيادة المبنى لزيادة المعنى أمر قديم قِدَمَ التأليف اللغوي. وأقدم نصّ عندنا عن هذا هو ما جاء في مقدمة كتاب العين للخيل، وفيه: «صرّ الجندب صريراً، وصرصر الأخطب صرصرة، فكأنهم

(17) نفسه، ص 25.

(18) نفسه، ص 26.

توهّموا في صوت الجندب مدّاً وتوهموا في صوت الأخطب ترجيعاً. ونحو ذلك كثير مختلف»[19]. ويكرر الخليل المعنى نفسه في مادة الصاد والراء إذ يقول: «صرّ الجندب صريراً، وصرصر الأخطب صرصرة وصرّ الباب يصرّ. وكلّ صوت يشبه ذلك فهو صرير إذا امتدّ، فإذا كان فيه تخفيف وترجيع في إعادة ضوعف كقولك: صرصر الأخطب صرصرة»[20]. ويتلقف المسألة ابن جنّي ليجعل منها «موضعاً شريفاً لطيفاً» ينضاف إلى الجزئيات الأخرى التي تتبدّى فيها نظريته الكليّة، تندرج تحته المصادر الرباعية المضعّفة، وبعض أوزان المصادر كالفَعَلان الدال على الاضطراب ، وبعض مزيدات الأفعال كاستفعل الذي تبعت فيه حروف الأصل الحروف الزائدة كما تبع الفعلُ السؤال فيه[21].. الخ، وكالعلاقة بين خَشُن واخشوشن، وبين أعشب واعشوشب، وحلا واحلولى[22]... وغير هذا كثير[23].

والأساس الثاني صِنْو الأوّل في أن الشدياق يتجاوز فيه مقولات القدماء ليجعله مذهباً مطّرداً لا ينكسر، وهنا أهمية عمله المعجمي وتفرّده في الاستناد إلى نظرية اشتقاقية متكاملة.

3 ـ الأساس الثالث هو القيمة المعنوية للصوت. يحدثنا الشدياق في مقدّمة الساق عن كتابه «منتهى العجب في خصائص لغة العرب»، وأنه بناه على «أن كل حرف يختص بمعنى من المعاني دون غيره وهو من أسرار اللغة العربية التي قلّ من تنبّه لها»[24]. فمن خصائص الحاء عنده السعة

---

(19) العين 1— 56.

(20) نفسه 7—81—82. ويختلف النص الذي نسبه ابن جني إلى الخليل عما في العين بعض الشيء: «قال الخليل: كأنهم توهموا في صوت الجندب استطالة ومداً فقالوا: صرّ، وتوهّموا في صوت البازي تقطيعاً فقالوا: صرصر» (الخصائص 2—152).

(21) الخصائص 2—152 وما بعدها، في «باب في إمساس الألفاظ أشباه المعاني».

(22) نفسه 3—264 وما بعدها، في «باب في قوّة اللفظ لقوّة المعنى».

(23) انظر مثلاً المادّة التي جمعها السيوطي نقلاً عن سابقيه، في المزهر 1—48—55.

(24) مقدمة الساق، ص I.

والانبساط، ومن خصائص الدال اللين والنعومة، ومن خصائص الميم القطع والاستئصال والكسر، ومن خصائص الهاء الحمق والغفلة والرَّثء[25].

ويُشعرنا كلام الشدياق بعد هذا أنه لم يجد السيوطي تعرّض لمثل هذا في كتابه المزهر، وكأنه يجعل هذا الأسلوب من مبتكراته التي لم يسبقه إليها اللغويون القدماء. غير أن في ما نقل السيوطي عن ابن جني ما يوحي بتخصيص الصوت بقيمة معنوية، فالسرّ في تخصيص الخضم بأكل الرّطب كالبطيخ والقِثاء، والقضم بأكل اليابس نحو قضمت الدابة شعيرها أن الخاء فيها رخاوة، وفي القاف صلابة، فناسبت الأولى الرّطب وناسبت الثانية اليابس[26]. ويذهب ابن جني - في نصّ لم ينقله السيوطي - إلى أبعد من ذلك ليجعل الكلمة الواحدة مجموعة من المعاني التي يعبّر عنها كل صوت فيها، فاللفظ «بحث» مأخوذة دلالته من «الباء لغلظها تشبه بصوتها خفقة الكف على الأرض، والحاء لصَحَلها تشبه مخالب الأسد وبراثن الذئب ونحوهما إذا غارت في الأرض، والثاء للنفث، والبث للتراب»[27].

وإذا صحّ أن يكون هذا الرأي جزءاً من نظرية الشدياق الاشتقاقية، بمعنى أن الألفاظ كثيراً ما تحتفظ بنصيب من المعنى الذي يعبّر عنه حرف أو أكثر من حروفها، فلا يصحّ أن يكون جزءاً أساسياً من صنيعه المعجمي لأنّ تتبّعه في كل باب يفضي إلى اطّراح الثنائية والتقاط الأحادية، على ما كان ذلك سيورث واضع المعجم من مشقة في ربط المعاني هي أضعاف ما جهد في الثنائي، وما كان سينحو به نحو التمحّل والافتراض أضعاف ما صنع في شرح الثنائي وحده.

على أن لهذا «الأساس الثالث» وجهاً آخر ألمح إليه الشدياق من غير أن يجعله ركيزة ثابتة ومن غير أن يفصّل في ضوابطه وقيوده، وذلك في كلامه

(25) نفسه ، ص II و III.

(26) المزهر 1—50 عن الخصائص 2—157 وما بعدها.

(27) الخصائص 2—163، وبعده شرح لتركب المعنى في «شد» و«جر» على النحو نفسه.

على «حكاية الصفة» إذ يحدها بأنها «نظم حروف يتوهّم الناظم منها أنها تدلّ على صفة شيء باعتبار ما في تلك الحروف من اللين والترخيم أو الشدة والتفخيم كقولهم مثلاً: شيء منمنم أي مزخرف، فهو نحو توهم الفرنسيس لفظة مينيم للشيء القليل الوجيز... وقولهم خبخاب لرخاوة الشيء المضطرب... كقولهم امرأة رجراجة أي يترجرج عليها لحمها. وربما التبست هنا حكاية الصفة بحكاية الصوت»[28].

ورغم هذا فإن المسألة تبقى عنده في هذا الإطار الغامض، إذ إنه لم يحدّد كيف تتركّب المعاني من مجموع الأصوات، أو «نظمَ الحروف» كما يقول، فسقط بهذا إمكان أن يشكّل هذا المنحى وتيرة ذات خطر في نظريته المعجمية. حتى إننا نراه يجبن عن الاستنتاج الصريح في معجمه عند الكلام على أن مواد متعددة مبدوءة بحرف واحد قد تجيء حكايةَ أصوات، وهو يذكر هنا كلمات كثيرة مبدوءة بالصاد نحو «الصأ والصأصأة والصبّ والصّقب والصتّ أي الصرّ والصوت وهذا أغرب ما يكون والصجّ... والصخّ... والصدّ...»[29] الخ. وهو في كل هذا ينسب المعنى إلى المادة، ولا يصرّح بأن للصاد نفسها قيمة معنويّة معيّنة تعلّل وقوع هذه المفردات المتكرّرة، لما في صوت الصاد من صلصلة وصفير. ولعل الشدياق في هذا أن يكون يرمي إلى تلافي التفسير الأحادي كما ألمحنا.

4 ـ الأساس الرابع هو القلب. وسر الليال منسّق على ذكر المادة ثم مقلوبها ثم مجانسها. وإن كان مبدأ هذا عند الشدياق في حكاية الصوت إذ يقول: «ولا يكاد يأتي ثلاثي حكايةَ صوت إلا وكان مقلوبه وما يجانسه كذلك وذلك نحو دقّ وقدّ وقسّ وقصّ وقطّ»[30]، فإنه اتخذه مبدأً عاماً لمعجمه بأسره، ولعل ذلك راجعٌ إلى أن أكثر الروابط المعنوية بين المواد هي عنده من قبيل حكاية الأصوات.

---

(28) سرّ الليال، ص 31.

(29) نفسه ، ص 23.

(30) نفسه، ص 22.

إن تقليب المادة الثنائية وإفراد الثنائي في قسم خاص من أقدم سمات المعجم العربي. كذا صنع الخليل في كتاب العين، وهو يقول في مقدمته: «اعلم أن الكلمة الثنائية تتصرّف على وجهين، نحو: قد، دق، شد، دش»[31]. وكذا أيضاً صنيع ابن دريد، بل إن ابن دريد جاوز الخليل إذ جعل الثنائي الصحيح كله في باب كبير ولم يوزعه على رؤوس الحروف المتفرقة، كما أفرد باباً ينتظم كل ثنائي ملحق ببناء الرباعي المكرر، معتمداً القلب في كل مادة. غير أن الشبه بين صنيع الشدياق في معجمه وصنيع المعجميين العرب القدماء لا يعدو الشبه العرضي الخارجي، فحتى لو ادّعينا أن الشدياق قد استوحىَ مسألة القلب من التراث المعجمي، فإنه لم يقف عند القسمة الشكلية كما وقف القدماء لمّا أرادوا حصر الصيغ لئلا يندّ عنهم منها شيء. فنحن لا نلمح في المعجمات القديمة التي فصلت بين الثنائي والثلاثي نظرية تبرّر هذا الفصل أو تجعله ذا خطر في الكشف عن المعاني، أي أن الفصل لم يكن إلا لحصر المادّة ونسقها. ثم إن المعجميين الذين فرزوا الثنائي لم يجعلوه ثنائياً في الحقيقة، وأوضح قول في هذا قول ابن دريد في مطلع باب الثنائي الصحيح: «والثنائي الصحيح لا يكون حرفين البتة إلا والثاني ثقيل، حتى يصير ثلاثة أحرف: اللفظ ثنائي والمعنى ثلاثي. وإنما سمّي ثنائياً للفظه وصورته، فإذا صرت إلى المعنى والحقيقة كان الحرف الأول أحد الحروف المعجمة والثاني حرفين مثلين أحدهما مدغم في الآخر»[32]، ولعل أصل هذا قول الخليل: «وقد تجيء أسماء لفظها على حرفين وتمامها ومعناها على ثلاثة أحرف مثل يد ودم وفم، وإنما ذهب الثالث لعلة أنها جاءت سواكنَ وخلقتُها السكون..»[33]. وفي هذا الأساس أيضاً نجد الشدياق يتجاوز التأثّر الشكلي إلى إبداعٍ في جوهر النظرية.

(31) العين 1—59.

(32) جمهرة اللغة 1—13.

(33) العين 1—50. أما الثنائيات التي عدّها سيبويه في «باب عدّة ما يكون عليه الكلم» فلا تعدو الأدوات من مثل: هل وما وأن وإن، ويقول سيبويه: «وقد جاء على حرفين ما ليس باسم ولا فعل، ولكنه كالفاء والواو».

أما التقاليب الستة للمادة الثلاثية، أو الاشتقاق الأكبر الذي ابتدعه ابن جني فلا نجد له أثراً في نظرية الشدياق الاشتقاقية. وليس من شك في أن الشدياق كان عارفاً بهذا النوع من الاشتقاق إذ إنه صرّح باطلاعه على ٱلمزهر كما سبق[34]، وفي المزهر نُقولٌ عن الخصائص في هذا الباب[35]. ويبدو أن السبب في ذلك شبيه، على نحو عكسي، بما اقترحناه في الكلام على إهمال الشدياق للقيمة المعنوية للصوت الواحد أساساً في معجمه، فعلى نحو ما كان ذلك سيورث نظريته من تكلّف زائد، فإن التقاليب الثلاثية كانت ستحوجه إلى أكثر من هذا في التكلّف والتمحّل. ثم إن ترتيب مواد «سرّ الليال» على الثنائي فمقلوبه فمجانسه يجعل الثلاثي ملحقاً بالثنائي، فيكون ذكر التقاليب أمراً يستحيل معه أي ترتيب منطقي يجمع بين الثنائي والثلاثي. ولذلك نرى الشدياق يستخدم من فكرة القلب ما يناسب نظريته الثنائية كما في ترتيب مواد معجمه، وفي تعليل بعض الظواهر الطارئة على الكلم[36]، ويهمل منها ما يتعارض وهذه النظرية وينحو بها إلى التعقيد والاضطراب.

ثانياً : تقويم النظرية

ليس الغرض من تقويم النظرية الاشتقاقية عند الشدياق أن نبحث في النظرية الثنائية عموماً، لما في ذلك من الأمور التي قد لا تصح ضرورة على نظرية الشدياق. ثم إن أصحاب النظرية الثنائية من الكتّاب العرب عامة، يختلفون عن الشدياق في أمر هام، وهو أن ملاحظهم عن الثنائية ملاحظ متفرقة أو اقتراحات خاصة بألفاظ بعينها، وفي أحسن الأحوال توجيهات نظرية

(34) راجع الحاشية 8.

(35) المزهر 1—347.

(36) كما في كلامه على الزبرجد والزبردج إذ يقول: «لأن منشأ القلب قلة المبالاة، ألا ترى أنهم تصرفوا في أسماء الملائكة بل قالوا لا همّ في اللهمّ، فما الفرق بين التغيير والقلب وما ذلك إلا من اختلاف القبائل، وإلى ذلك أنسب نوع الأضداد وزيادة الحروف ونقصانها. . .» (الجاسوس، ص 182).

لما ينبغي أن يكون عليه المعجم العربي[37]. ولسنا نجد عند أي منهم، بلا استثناء، محاولة مهما كانت بدائية، لتطبيق هذه النظرية منهجياً ولو على جزء بسيط من المعجم العربي منسوقاً على الجذر الثنائي. لذلك سنقتصر في تقويم نظرية الشدياق على مؤلفاته، وفي مقدَّمها سرّ الليال، لئلا يلتبس صنيعه المنهجي بالملاحظ المتفرقة المبثوثة عند غيره من الباحثين.

ومع الإقرار بادىء ذي بدء أن الشدياق جهد في نظريته الاشتقاقية كما لم يجهد مَن سبقه من اللغويين وأنه أصاب تماماً في كثير مما كشف فيه عن مدلولات الألفاظ ووجوه استعمالها وعلائقها بغيرها، فلا مفرّ من القول إننا إذا نظرنا في الأسس التي تستند إليها نظريته لوجدنا أنها تتفاوت في نصيبها من الصحة. وبالإجمال، فإن الأساسين الأوّلين أقوى من الثالث والرابع لأنهما أقل تكلفاً وبعداً ولأن شواهدهما أكثر وأدعى إلى التقبّل.

إن العلاقة بين الفعل المضاعف وحكاية الصوت ترجع إلى قدرة الثنائي على الإيحاء الصوتي الذي يُحْدِثه في المقام الأوّل أنه من مقطع واحد ـ على افتراض أن الآخر ساكن في الأصل نظرياً وأن الحركات أضيفت للتمكين من النطق ـ فالمقطع الواحد أقدر على حكاية الصوت من المقطعين لما في المقطع الواحد من اقتضاب وانتقال حادّ من الحركة إلى السكون. وعلى هذا الايحاء يُحمل ما في الثنائي المكرّر من إيحاء صوتي ينمّ عن تكرر وترجيع. هذا فيما يتعلق بالأساس الأوّل، أما الأساس الثاني، أي زيادة المبنى لزيادة المعنى، فسليم في جوهره، إلا أن شواهده أعزّ مطلباً من الأوّل، لأن كثيراً من المواد الثنائية قد يُحمل على حكاية الأصوات، وإنْ على التوهّم، ولكن الأمر يقتضي طرفين في الأساس الثاني، أي طرفاً أصلياً

---

(37) تلك، مثلاً، سمة الكتابين اللذين وضعهما الأب المرمرجي في الثنائية، وهما مجموعة من الألفاظ المتفرقة يُرجعها الباحث إلى أصول ثنائية ليخلص إلى ما يمكن للمعجم العربي أن يستخلصه في الاستغناء عن التقسيم الثلاثي. وعلى هذا المنوال ما كتبه جورجي زيدان أو الأبِ الكرملي، وإن كانا دون المرمرجي تمكّناً من المادة وإحاطة بأصولها المقارنة.

وطرفاً آخر مزيداً، كأعشب واعشوشب، ولذلك قلّت شواهده نسبياً. أما الأساس الثالث، أي اختصاص الصوت بقيمة معنوية، فهو كما تبيّن لا يصح أساساً لأي عمل معجمي، ثم إنه لو كان صحيحاً لتعيّن مثل هذا الاختصاص بالمعنى لذلك الحرف حيث جاء، وهو أمر مستحيل عقلاً، أو مستحيل أن يُعرف نظرياً لأننا لا نعرف اللغة إلا في طور الاكتمال، فأقدم النصوص العربية التي نعرفها في نقوش حرّان وزبد وامرىء القيس بن عمرو إنما تمثل مرحلة النضوج، وما أبعدها عن مرحلة البدايات التي لا نعرف عنها إلا ما بقي فيها من آثار ضعيفة على مرّ العصور. أما القلب، وهو الأساس الرابع، فهو توسعة يلجأ إليها الناظر في الاشتقاق حيث يُعجزه التحليل، ولو كان القلب مبدأ عاماً، كما جعله الشدياق لالتبست الموادّ بعضها ببعض في كل ثنائي وثلاثي وما فوقهما. وإن كان منشأ القلب قلة المبالاة كما يقول الشدياق[38]، فأَحْرِ به أن يظل حبيساً في ذلك الإطار وألا يتعداه ليصبح أقرب إلى المقيس المطّرد. ويبدو أن الشدياق أحسّ بشيء من قصور القلب عن أن يفسّر جميع مواد المعجم، فلذلك تراه دائماً يقرن بين القلب وبين حكاية الصوت تحديداً، فكأنه يقوّي بشيوع حكاية الصوت ما يربطه بها من ظاهرة القلب.

إن تفحّص الأسس، على ما كشفه من تفاوت في القوة وفي شيوع الشواهد، يجب أن يقترن بتقويم عامّ للنظرية، مبنيّ على التعليلات التي يقدّمها الشدياق في موادّ معجمه، وبذلك يزداد معيار التقويم شمولية ودقّة. ونقسم الملاحظات إلى ما يلي:

1 ـ أن المعاني التي يُرجع إليها الشدياق الأصول الثنائية قليلة جداً، ولا يمكن أن تقوم عليها لغة متكاملة. من تلك المعاني حكاية الصوت (وهو القَطْع خاصة)، وحكاية الصفة، أو الدلالة على معنى عام كالقوة أو الضعف أو الستر، سواء أصرّح الشدياق بذلك أم اكتفى في المادّة الواحدة بتفسير

(38) راجع الحاشية 36.

الكلمات اعتماداً على ذلك المعنى العامّ. وكأن الشدياق قد توجّس خِيفة من تكراره فكرة الحكاية الصوتية، فعمد إلى أمرين أولهما يتلافى ذلك التكرار والثاني يبرّره ويعتذر عنه. أما الأوّل فإيراده، إلى جانب القطع، معاني من مثل «الكسر والخرق والهدم والشق والفرق والتبديد»، لتنويع مأخذ المادة ودلالتها المركزية، على أنه يعترف أن هذه «كلها من جنس واحد، وجلّها مأخوذ من حكاية صوت»[39]. أما الأمر الثاني المقصود به الاعتذار لهذه الكثرة الكاثرة من أمثلة المحاكات الصوتية في نظريته فهو متمثل في قوله، بعد أن أورد أمثلة كثيرة للحكاية: «إلا أن هذا الصوت اختلف اعتباره عند السامعين فمنهم من توهمه يحكي خشخش ومنهم من توهمه يحكي شخشخ ولهذا جاءت أفعال كثيرة بمعنى واحد نحو نزّ الماء ونشّ ونضّ وبصّ وبضّ، ومنهم من توهّم صوت القطع يحكي عطّ ومنهم قبّ ومنهم قطّ ومنهم سبّ ومنهم بتّ أو تبّ ومنهم قصّ وحزّ وحسّ إلى غير ذلك»[40]. وإذا أدركنا أن كل مادّة ثنائية لها القدرة ـ نظرياً ـ على الإيحاء الصوتي لما بيّناه سابقاً[41]، وإذا قرنّا بين هذا وبين المعاني التي يمكن تأويلها بالمحاكاة الصوتية أو القطع والفتح والشق الراجعة إلى تلك المحاكاة، لظهر أن المصادفة لها حظ عريض في تطبيق النظرية في المواد المختلفة. ولعل في قول مارون عبود: «فما رأينا قبله لغوياً بحث اللغة فردّ ألفاظها إلى أصول قليلة اشتبكت فروعها فصارت

(39) سرّ الليال، ص 5.

(40) نفسه، ص 24.

(41) يمكن إجراء مثلٍ نظري على ذلك، بأخذ فعل ثنائي دالّ على حكاية صوت ثم بابدال حرفه الأول إبدالاً مطّرداً، ثم بابدال الثاني كذلك، ليظهر أن الحكاية توحي بها الصيغة وأنها لعمومها مصادفة مقطعية لا ينبغي تفسير اللغة بها. فإذا أخذنا مادة «طنّ» وهي دالة على حكاية صوت (كما في طنّ الذباب وطنّت الأذن... الخ) وعلى القطع (كما في طنّ ذراعه بالسيف) وأبدلنا الأول فقلنا: أنّ، بنّ، تنّ، ثنّ، جنّ، الخ... ثم أبدلنا الثاني محتفظين بالأول فقلنا: طبّ، طثّ، طجّ، طحّ، طخّ، الخ... لتبينا أنها جميعاً تصلح لمحاكاة صوت ما، فكيف تفسّر الظاهرة العامة الواحدة معظم موادّ اللغة على ما فيها من خصوصيّة في المعنى وظلال وتفريعات!

أدغالاً مخوفة»[42] إلماعاً حيّاً إلى محاولة الشدياق تفسير الكل بناءً على بعضٍ قليل قليل.

2 ـ أن كثيراً من التآويل التي يذكرها الشدياق لا يخلو من شيء من الضعف أو التمحّل. ولعل أكثر الأمثلة التي يصح عليها هذا الحكم تنتظمها أقسام ثلاثة:

فقسم منها عبارته غامضة أو أنه لا تظهر فيه العلاقة المعنوية الجامعة بين المادّة الثنائية والمادّة المقلوبة عنها أو المأخوذة عنها مع زيادة فيها. ونحن كثيراً ما نرى الشدياق يهمل إظهار تلك العلاقة، وهذا حسن لأنه يبتعد بالنظرية عن التأويلات الزائدة، ولكنه يذكر أحياناً علاقات معنوية غامضة أو غير مسوَّغة. من ذلك مثلاً مادة «ثاب» والمعنى السائر فيها هو «رجع»، كثابَ الرجلُ، وثاب الحوضُ أو امتلأ وهو من معنى الرجوع كما يرى المؤلّف. ثم يقول: «وعندي أن الثوب لما يُلبس والثواب بمعنى الجزاء والعسل من هذا المعني ولك أن تجعله أيضاً من معنى الرجوع فيكون على حدّ تسميتهم بالمُدام»[43]. فما العلاقة بين الثوب والجزاء والعسل وبين الرجوع؟ إلا أن يكون «الثوب إنما سمّي ثوباً لأنه ثاب لباساً بعد أن كان غزلاً»[44] كما رُوي عن الزجاج، ومثله بعض ما رُوي عن عبّاد بن سليمان الصيمري حيث قال إن «بين اللفظ ومدلوله مناسبة طبيعية حاملة للواضع على أن يضع»[45]، وهذا مما لا يوقف عنده.

وقسم ثان نجد المصنّف يجوّز فيه أكثر من وجه (من غير الأضداد، وهي مدار الملاحظة القادمة) وكأنه حائر بينهما، بل كأنه شاعر بأن ليس احدهما بمقنع إلى حدّ أن يستغني عن الآخر. ولكثرة ما وقع من هذه

(42) صقر لبنان، ص 167.
(43) سرّ الليال، ص 91.
(44) المزهر 1—354.
(45) نفسه 1—47، قارن أيضاً: 1—16—17.

الظاهرة نرى الشدياق مُحْوَجاً إلى أن يذكر شيئاً عن جوازها في مقدّمة «سرّ الليال» إذ يقول إن اللفظة قد «تُحمل على أحد الوجهين، أعني إما القلب وإما التأويل، مثال ذلك لفظة الوَفْل للقشر والشيء القليل، وقد جاء منها وفّله بمعنى كثّره، فيحتمل أن وَفّله مبدلة من وفّره وبه فسّرها صاحب القاموس لأن الراء واللام كثيراً ما تتعاقبان، ويُحتمل أنها واردة على التأويل المتقدم»[46]. ومن الأمثلة التي لا يقطع فيها الشدياق برأي دون آخر، والتي يظهر فيها التعسُّف واضحاً ما حاول أن يعلّل به معنى البياض في مادة «ح ج ل»، فهو يجعله استعارة من معنى القيد شبّه التحجيل الذي يكون في قوائم الفرس بالقيد، ثم يقول مستدركاً: «ويمكن أن يقال أيضاً إنه من البياض في أخلاف الناقة من أثر الصِّرار، والوجه الأول أولى لورود المشكول بمعنى المحجَّل كما سيأتي»[47].

أما القسم الثالث فتفريع على الثاني، وفيه نقلة من مجرّد الخلاف إلى الضدّيّة التامّة. والمشكلة في هذا النمط أن الأضداد ـ مهما كثرت واحتال لزيادتها المؤلفون القدماء ـ تبقى ظاهرةً محصورةً، بل شاذة، على معنى القلة النادرة إن لم يكن على معنى الشذوذ في الاستعمال. ولذلك فإن التعويل عليها، في عمل معجمي، لتعليل المعاني وإظهار علاقاتها، يبدو أمراً مستغرباً جداً. وكأن الشدياق نفسه غير منسجم مع نفسه في هذه المسألة، فهو يحدثنا في الجاسوس بأن الأضداد ترجع إلى اختلاف القبائل[48]، ولكنه يجعل من الأضداد في معجمه معوّلاً كبيراً في تقريب الجذور، وهو يشير إلى تبرير هذا في المقدمة بقوله: «فإنه لا يكاد شيء يُحمد من جهة إلا ويُذم من جهة أخرى»[49] وبقوله: «فلك أن تقدّر أن الشقّ يكون لكلٍّ من الإصلاح

(46) سرّ الليال، ص 9.
(47) نفسه، ص 425.
(48) الجاسوس، ص 182.
(49) سرّ الليال، ص 10.

والإفساد»[50]. ومما طبّق عليه ذلك في المواد نفسها إطلاق العُبْرُد على العشب الرقيق الرديء، وهو في الأصل للجارية البيضاء الناعمة وللشحم العُبْرُود، إذا كان يرتجّ، من باب «حمل النقيض على النقيض»[51] كما يقول. ومنه أيضاً قوله في البين إنه من جهة فصل، ومن جهة وصل، وإن يكن هذا أقرب إلى الصواب والإقناع من المثل الأوّل، وقد ذكره فعلاً أصحاب الأضداد واحتجوا له بشواهد[52].

ولنا أن نبحث عن سبب آخر ـ من غير باب اللغة ـ من أجله كثر لجوء الشدياق إلى الأضداد على النحو الذي فعل. ويبدو أنه يكمن في عامل نفسي عند الفارياق، هذه الشخصية الفذّة التي ترى في الأشياء خلاف ظواهرها أو تجمع في الرؤيا بين الشيء ونقيضه، وهو دأبه على ما نراه من نوادره في الساق وهو بعدُ فتى لم يراهق البلوغ: ألم يقل يوماً لأمه إنه «عند فلانة خادمة نظيفة غسلت اليوم باب دارها فجاء أسود يلمع. . . وقال مرة: قد رأيت في السوق جبناً أبيض كالزفت. . . . وسمع أباه يثني على خزّ اشتراه وكان به فَرِحاً، فقال: قدْ كانت ساعة سعيدة أنكم لم تشتروه. . . وأراد يوماً أن يوقد النار فقال: أردت أن أطفئها فما انطفأت. . . »[53].

3 ـ أن أمثلة التجانس بين الأصل الثنائي المفترض والثلاثي المتفرع عليه، وإن كانت مقنعة بحدّ ذاتها، لتقصّر عن أن تكون نهجاً متلئبّاً يصح اعتباره مبدأ عاماً تُفسّر به معظم المواد اللغوية بَلْهَ تفسيرها جميعاً. إن أمثلة العلاقة المعنوية بين المضعف والثلاثي (من مثل سلّ وسلب، وكدّ وكدح، وضمّ وضمد، ورصّ ورصف)[54] وأمثلة العلاقة المعنوية بين المعتلّ والثلاثي

---

(50) نفسه، ص 9.

(51) نفسه، ص 59.

(52) انظر أضداد الأنباري، ص 75.

(53) الساق، ص 22—23.

(54) سرّ الليال، ص 25—26.

(من مثل رفا ورفأ ودحا ودحب والكفية والكفاف)[55] تبدو موفّقة للوهلة الأولى، ولكن تفحصها من جهات يبيّن لنا الأمور التالية:

أ ـ أن عدد المواد قياساً على مواد اللغة ضئيل جداً، كما مرّ.

ب ـ أن معظم هذه الأمثلة ليس إلا مقارنة بين الأصل الثنائي (أو المعتل، وهو ثنائي أيضاً)[56] وبين مادّة ثلاثية واحدة، الأمر الذي يجعل جوهر المقارنة عقيماً أو يكاد. فإذا قارب معنى «سلب» معنى أصلها الثنائي المفترض، أي سلّ، فهذا جزء بسيط من كل، لأن مثل هذه المقاربة مفقود بين «الأصل» والمواد الأخرى التي تبدأ بالسين واللام، نحو سلت، وسلف، وسلق، وسلم، الخ. وكذا في المعتل كما لا يخفى. وإذا انضاف هذا الواقع إلى ما ذكرناه في النقطة السابقة، غدت أمثلة النظرية أقرب إلى النّدرة منها إلى القلّة.

ج ـ أن العلاقة المعنوية بين المادتين المقارنتين إنما هي علاقة مقاربة فحسب، الأمر الذي يدعو إلى تلطف في إثبات العلاقة، ما كان يحتاج إليه لو كانت العلاقة ثابتة ووطيدة. فمعنى «خسّ» وان أشبه معنى «خسف» ـ ليكون قاسمها المشترك عند المصنّف: نقص ـ لا يعدو أن يكون الشبه فيه عامّاً وغير دقيق لما لكل من المادّتين من خصوصية. وكذلك في المعتل، فهل يجمع «أخفى» و«خفت» إلا معنى عامّ لا ينظر بدقة إلى ما يعبِّر عنه كل منهما.

د ـ أن بين الأمثلة التي ذكرها الشدياق عن تقارب المعنى بين الفعل المعتل والفعل الثلاثي (أو المزيد من المادّة نفسها) حوالي أربعين مثلاً يمكن

---

(55) نفسه، ص 28—31.

(56) كان أحرى بالشدياق أن يمزج المضاعف بالمعتل، فإن كلّاً منهما ثنائي في الحقيقة، غير أنه ميّز بينهما لسبب نرجّح أنه محاولة لتجنّب مخالفته الإجماع، ولا سيّما بعد أن اعتذر عن مخالفته له في أمر «اعتباريّ» هو «اتخاذ» الفعل المضاعف أصلاً من دون قصد لخرم قواعد الصرف...» (انظر سرّ الليال، ص 21 وما بعدها).

تفسيرها بأبسط ممّا فسّرها به، أعني الأمثلة التي وضع فيها الأفعال الناقصة بإزاء مقابلاتها المهموزة. فهل «بذا» و«بذأ» و«جسا» و«جسأ» و«قرا» و«قرأ» و«تمسّى» و«تمسّأ» و«وثيت يده» و«وثئت» إلا مظهر من الخلاف المعروف في الهمزة، وهو الخلاف الذي أفضى إلى رسم الهمزة، عندما زيدت علامتها على الكتابة، بإضافتها على الحرف في نظيرها غير المهموز ألفاً كان أم واو أم ياء!

ولنا أن نذكّر بعد تقويم هذه الأمثلة أنها خير ما اعتبره الشدياق دليلاً على نظريته، وإلا لما صدّر بها المعجم، فإن كان النقد يصيبها من هذه الجهات جميعاً، فلنا أن نرتاب في جوهر النظرية نفسه.

4 ـ أن نظرية الشدياق الاشتقاقية تفترض جملة أمور تتعلّق بالوضع وتثير الجدل. فحين يعزو المصنّف مواد اللغة إلى «الواضع» ليلحظ حكمته ويقف على سرّ الوضع، فكأنه يبسّط عملية الوضع ويفترض أنها تنحو منحى واحداً في المواد جميعاً، وهذا لا يمكن قبوله، إذ لا يجوز أن نتصور أن ألفاظ لغة ما قد تنشأ كلها عن طريق واحدة، كمحاكاة الأصوات أو غير ذلك، لأن في هذا تقعيداً للغة في مرحلة أولى لم تستقرّ فيها القاعدة ولا توطّد فيها القياس. ثم هل فكرة «الواضع»، من خلال صيغة الإفراد فيها، ترمي إلى التغاضي عن التعقيد وتضافر المؤثرات في مرحلة النشأة؟ وإذا افترضنا الحكمة في ذلك «الواضع»، أفلم يكن من دواعيها أن يبدأ بالأحادية قبل الثنائية، ولا سيما أن اللغة «لا يحدث شيء منها تاماً كاملاً من أول وهلة ولكن على التدريج»[57]!

ولذلك نستنتج أن نظرية الشدياق الاشتقاقية قائمة في جوهرها على الافتراض وفي تطبيقها على التعسّف، وإن كان فيها ومضات خلّاقة ومَلاحظ صائبة وجهد دائب في التقصّي والمقارنة والنفاذ من الجزئيات إلى الخطوط العامّة الكبيرة.

---

(57) سرّ الليال، ص 25.

ثالثاً : عرضها على المعجمية السامية المقارنة

ترجع بذور النظرية الثنائية في اللغات الساميّة إلى القرن التاسع عشر عندما حاول نفر من المستشرقين إثبات القـربى بين هذه اللغات الهندية ـ الأوروبية. وهذه المقولة المنطلقة من افتراض بعيد لم يمكن أن تقوم إلا على تأويلات بعيدة طابعها تجاوز القوانين الصوتية في تبادل الصوائت والصوامت والاكتفاء بأيسر ملابسة في المعنى أو اللفظ لإثبات ما انطلقت لإثباته. وقد ردّ رينان[58] في ذلك الزمان على أعلام تلك النظرية معترضاً عليهم بأمور جوهرية. ولا شك أن أدهى ما في تلك النظرية هو محاولة التقريب نفسها بين مجموعتين لغويتين، وإلى حـدّ أقل، دفاعها عن الثنائية نفسها. ومع استبعادنا التامّ لصحّة الأصل المشترك بين هاتين المجموعتين، وليس هذا موضع نقاشه على أية حال، فالحقّ أن في أخوات العربية الساميات بعض المعالم الثنائية لا سيما في اللغة الواحدة[59] وربما بين أكثر من واحدة منها[60]، غير أن هذه لا تتعدى ألفاظاً بعينها يرجع أكثرها إلى مرحلة لغوية متقدّمة لم يكن انتحاء الثلاثي فيها قد استقرّ وغلب. ويبدو أن الشدياق كان على اطلاع عامّ على بعض اللغات السامية كالعبرية والسريانية[61]، إلا أننا لسنا متأكدين من عمق ذلك الاطلاع، فملاحظات الشدياق المقارنة نادرة جداً، كما أنه لم يحاول في معجمه الإفادة من المادّة الساميّة. وإلى ذلك تراه أحياناً يفسّر المادّة العربية تفسيراً لم يكن ليرضى به لو أدرك مقابلات تلك المادة في أخوات العربية.

---

(58) **Histoire générale des langues sémitiques,** pp. 444 ff.

(59) من ذلك مثل واضح من عبرية العهد القديم، حيث تدلّ الموادّ (ع و ر) و (ع ر ه) و (ع ر ر) جميعاً على معنى مشترك هو التعرّي (قارن في العربية: العورة والعراء...).

(60) سنبيّن المقصود بهذا في مادة الفاء والتاء وما يثلثهما، التي سننظر فيها لاحقاً في النصّ.

(61) انظر مثلاً نموذجاً من خط الشدياق بالسريانية (ولكن النصّ عربي) في كتاب: الشدياق واليازجي ص 140، وصورته بالخط العربي ص 322. ومن ذلك ملاحظته عن الصاد في العبرية والسريانية، في سر الليال، ص 24.

ولسنا نقصد إلى مناقشة النظرية الثنائية السامية في هذا الموضع، وإنما حَسْبُنا أن ننظر في جوانب ثلاثة هامّة من نظرية الشدياق الثنائية على ضوء المعجمية السامية المقارنة. وهذه الجوانب الثلاثة هي التالية:

1 ـ اشتراك مجموعة من المواد الثلاثية في جذرين
2 ـ المفردات العربية التي تبين المقارنة أصول معانيها
3 ـ المفردات الدخيلة (من ساميّة وغيرها)

1 ـ يرى الشدياق أن هناك مجموعات من المواد الثلاثية تشترك في جذرين اثنين يحدّدان الاتجاه العامّ للمعنى، وهما فاء الفعل وعينه، أي أن «الأصل» الثنائي يبقى معناه ملموحاً في الثلاثيات المأخوذة منه، على ما تقتضي تلك النظرية. ويريد الشدياق أن يبيّن أنه لم يأت في هذا ببدعة، فيقول: «فهذا النسق، أعني ترتيب الكلام من دون مراعاة أواخره هو الذي يظهر حكمة وضع الواضع، وقد لحظ ذلك إمام العربية الزمخشري حيث قال في الكشّاف عند تفسير قوله تعالى: ﴿وأولئك هم المفلحون﴾، المفلح: الفائز بالبغية، كأنه الذي انفتحت له وجوه الظفر ولم تستغلق عليه، والمفلج بالجيم مثله، ومنه قولهم للمطلقة استفلحي بأمرك، بالحاء والجيم، والتركيب دالّ على معنى الشقّ والفتح وكذلك أخواته في الفاء والعين نحو فلق وفلذ وفلى اه، فلله درّ هذا الإمام»[62].

ومن المواد التي يطبّق عليها الشدياق هذا الأسلوب: الفاء والتاء وما يثلثهما[63]، والجيم والميم وما يثلثهما[64]، وكذلك الكاف والسين، والغين والميم، والفاء واللام[65]. وسوف نكتفي بتحليل المجموعة الأولى التي تشترك أفرادها بالفاء والتاء، وذلك بالنظر في المعاني التي استنبطها منها

(62) الجاسوس، ص 27.
(63) نفسه، ص 86، وسرّ الليال ص 310، ومختارات الجوائب 1—197—198.
(64) سرّ الليال، ص 566، وقارن: الشدياق واليازجي، ص 228.
(65) انظر هذه الأمثلة الثلاثة في سرّ الليال، ص 27.

الشدياق، ثم بمقارنتها بالمعاني التي يمكننا استخلاصها من الأفعال المقابلة في عدد من اللغات الساميّة.

أ ـ المعاني التي فصّلها الشدياق[66]:

ف + ت = حكاية صوت له معنيان: الانكسار والانفتاح، والأول مستلزم للثاني بالضرورة فإن كل ما انكسر انفتح.

ف + ت + أ = فتأ: كسر وأطفأ. وفتىء عنه نسيه فكأنك قلت انكسر عنه.

ف + ت + ح = فتح ومعناه ظاهر فإذا تأملته وجدته يرفع إلى أحد معنيي فت.

ف + ت + خ = الفتخ: استرخاء المفاصل. . . قال الأصمعي: أصل الفتح اللين، فقرب من معنى الانكسار. ومنه رجل أفتخ الطرف، أي فاتره.

ف + ت + ر = فتر: سكن بعد حدة. . . وفتر الماء سكن حره فرجع المعنى إلى الانكسار، والفتر معروف وهو عندي من معنى الانفتاح.

ف + ت + ش = الفتش: طلب عن بحث. . . . وفتّشت الثوب هو الفاشي في الاستعمال وهو غير منقطع عن الفتح.

ف + ت + ر + ص = فترصه: قطعه، فرجع المعنى إلى الكسر، ومثله فرصه.

ف + ت + غ = فتغه: وطئه حتى ينشدخ ونحوه فدغه.

ف + ت + ق = فتقه: شده، فرجع المعنى إلى الفتح.

ف + ت + ك = فتك به: انتهز منه فرصة فقتله أو جرحه. . . وهو جامع لمعنيي فتق وفترص ويقرب منه بتكه.

---

(66) الجاسوس، ص 86—90، وسرّ الليال، ص 310—316.

ف + ت + ل = فتله: لواه. . . فتل الحبل غير منفكّ عن التليين.

ف + ت + ن : فتنت الذهب والفضّة إذا أحرقته بالنار ليبين الجيد من الرديئ . . . وهو أصل معنى الفتنة، فإذا تأملته وجدته غير منقطع عن الفتح والكسر.

ف + ت + و = الفتاء: الشباب، وحقيقة معناه تفتّح النموّ في شخص. وأفتاه في الأمر: أبانه له، وحقيقة معناه فتحه له وكشفه.

ب - في العربية الجنوبية[67]:

ف + ت + ح = خرّب، دمّر. ماطل. أحرز قراراً قضائياً. رفع دعوى.

ف + ت + خ = بناء بحجر مزخرف.

ج - في الحبشية[68]:

ف + ت + ت = فتّ.

ف + ت + ح = فتح. قضى، برّأ.

ف + ت + ل = فتلَ. خيط (فتيل).

ف + ت + ن = فحصَ، ابتلى.

ف + ت + و = أحبّ، أراد، انتظر بفارغ الصبر.

د - في الأكدية[69]:

ف + ت + ت = محيطٌ، طرفٌ.

ف + ت + ح = فتحَ، اخترق.

ف + ت + ع = فجاءةً.

ف + ت + ق = بنى، كوّن. شرب.

ف + ت + ل = فتلَ.

ف + ت + ن = صار قوياً. دعّم، حمى. أكل.

---

(67) انظر: **Sabaic Dictionary**، ص 47.

(68) راجع المواد في معجم Dillmann، وما استدركه عليه Gréhaut.

(69) راجع المواد في معجم von Soden للغة الأكدية.

هـ - في عبرية العهد القديم[70]:

ف + ت + ت = فتّ.

ف + ت + ج + م = مرسوم، قرار. والكلمة دخيلة من الفارسية، فلا تدخل لذلك في المواد الأصيلة.

ف + ت + ح = فتحَ. حفرَ.

ف + ت + ر = فسّر (حلماً): والجذر يرجع إلى فشر (قارن: فسر في العربية) فلا يدخل في المواد الأصلية.

ف + ت + ع = فجاءةً.

ف + ت + ل = فتلَ. خيط (فتيل).

ف + ت + ن = أفعى سامّة.

ف + ت + ه = اتّسع ، رَحُبَ. كان بسيطاً أو غرّا. خَدَعَ. (والهاء النهائية زائدة في الكتابة، وتقابل الفعل المنتهي في العربية بالألف الممدودة).

و - في السريانية[71]:

ف + ت + ت = فتّ.

ف + ت + ج + م = مرسوم، قرار (راجع معاني العبرية أعلاه).

ف + ت + ح = فتح.

ف + ت + ر = طاولة، مذبح ، تقدمة ܦܬܘܪܐ ftūrā).

ف + ت + ق = فتقَ. اخترق.

ف + ت + ك = خلطَ. تنوّعَ.

ف + ت + ك + ر = صنم. والكلمة دخيلة من السنسكريتية، وليست من مادة أصيلة.

---

(70) راجع المواد في معجم Gesenius لعبرية العهد القديم.

(71) عن المواد المذكورة في معجم Smith السرياني.

ف + ت + ل = فتل.

ف + ت + أ = ازداد، اتّسع، رَحُبَ.

ز - في الأوغاريتية[72]:

ف + ت + ح = فتحَ.

ف + ت + م = اسم علم مادّته غير معروفة.

ف + ت + ق = (؟).

ف + ت + و / ي = جامعَ (متطوّرة من معنى - كالذي في العبرية ف + ت + ه - دالّ على الخداع).

ويمكننا وضع المعاني المختلفة في هذه اللغات في جدول مقارن[73] يسهّل النظر في العلاقة بين معاني المواد في اللغات المذكورة، على النحو التالي:

(ينظر الجدول على الصفحتين التاليتين).

يوضح هذا الجدول أن في العربية أربع مواد لا وجود لها في أية لغة سامية أخرى، وهذه المواد هي: (ف+ت+أ) و(ف+ت+ش) و(ف+ت+ر+ص) و(ف+ت+غ)، وهذا راجع إلى زيادة اتساع العربية عن سائر أخواتها وإلى اقتصار معرفتنا ببعض هذه اللغات على ما جاء في نقوشها أو نصوصها المعروفة. ومن ناحية أخرى، نجد أن مادة واحدة (هي مادة ف+ت+ع) غير موجودة في العربية رغم ورودها في غيرها.

---

(72) هذه المواد مأخوذة من فهارس Gordon في الجزء الثالث من كتابه **Ugaritic Textbook**.

(73) اقتصرنا في هذا الجدول، في الفصحى، على المعاني التي ذكرها في الجاسوس، ص 86—90 (لا في سرّ الليال، ص 310—316) لأنها المعاني الأكثر عموماً، والتي قصد فيها المؤلف إلى إثبات نظريته الثنائية. ننبّه أيضاً على أننا أهملنا في هذا الجدول المواد الدخيلة (نحو: ف+ت+ج+م، ف+ت+ك+ر)، وأننا أرجعنا الموادّ المقلوبة عن أصل آخر إلى ذلك الأصل، فلم نُدرج (ف+ت+ر) في العبرية لأن التاء ترجع فيها إلى الشين، فليست من هذه المادة، كما أدرجنا (ف+ت+ه) في العبرية تحت (ف+ت+و) لأن الهاء ظاهرة متعلقة بالكتابة لا بالأصل الاشتقاقي.

المادّة	العربية الفحصى	العربية الجنوبية	الحبشية	الأكدية	عبرية العهد القديم	السريانية	الأوغاريتية
ف+ت(+ت)	حكاية صوت: الانكسار والانفتاح.		فتّ.	محيط، طرف.	فتّ.	فتّ.	
ف+ت+أ	كسر وأطفأ. نسي.						
ف+ت+ح	فتح	خرّب. ماطل. أحرز قراراً قضائياً.	فتح. قضى. برّأ.	فتح. اخترق.	فتح. حفر.	فتح.	فتح.
ف+ت+خ	استرخاء المفاصل. الليّن.	بناء بحجر مزخرف.					
ف+ت+ر	سكن بعد حدّة أو حرّ. فتَرَ.					طاولة، مذبح، تقدمة.	
ف+ت+ش	بحث						
ف+ت+ر+ص	قطع.						
ف+ت+ع				فجاءةً.	فجاءةً.		
ف+ت+غ	وطئه حتى ينشدخ.						

المادّة	العربية الفصحى	العربية الجنوبية	الحبشية	الأكدية	عبرية العهد القديم	السريانية	الأوغاريتية
ف+ت+ق	شـدّ.			بنى. كوّن. شـرب.		فتق. اختـرق.	
ف+ت+ك	انتهـز، فقتله أو جرحه.					خلط. تنّوع.	
ف+ت+ل	لوى، فتل.		فتل.	فتل.	فتل.	فتل.	
ف+ت+ن	أحرق بالنار، ابتلى.		ابتلى.	صار قوياً. دعّم. أكل.	أفعى سامّة.		
ف+ت+و	نما وتفتّح.		أحب، أراد، انتظر بفارغ الصبر.		اتّسع، رَحُبَ،	ازداد، اتسع، رَحُبَ. خدع.	جامع (خدع).

وإذا حلّلنا المواد التي تشترك فيها العربية مع واحدة أو أكثر من أخواتها، لوجدنا أن كل مادّة (باستثناء مادّة ف + ت + ل ودلالتها على الانفتاح والانكسار غير واضحة) لها أكثر من معنى واحد في هذه اللغات الأخوات، كالتالي:

أ ـ ف+ت+ت: إلى جانب معنى «فتّ» نجد لهذه المادة في الأكدية مدلولاً على المكان لا يمكن ربطه بمعنى «الفت» ولا بمعنيي الانكسار والانفتاح اللذين يجعلهما الشدياق أصل المواد جميعاً.

ب ـ ف+ت+ح: إلى جانب معنى «فتح» نجد في العربية الجنوبية معنى «التخريب» و«المماطلة»، وفيها في الحبشية معنى قضائياً يقاربه في الفصحى «الفتّاح»، أي «القاضي»، وليس من علاقة ظاهرة بين هذين المعنيين إلا إذا أبعدنا كابن منظور في قوله: «ويقال للقاضي: الفتّاح لأنه يفتح مواضع الحق»[74].

ج ـ ف + ت + خ: إلى جانب معنى «اللّين» نجد في العربية الجنوبية معنى الزخرفة، وهذا يقارب في الفصحى «الفتخة» أي الخاتم أو الحلقة من الفضّة. ولا وسيلة لربط المعنيين إلا بخيال بعيد.

د ـ ف + ت + ر: في السكون بعد الحدّة أو الحرّ معنى غير الذي في الفِتر، فهما أصلان، علاوة على المعنى في السريانية.

هـ ـ ف + ت + ع: قد تكون هذه المادة بالغين في الأصل، ولكن بينها وبين الانكسار والانفتاح بوناً شاسعاً لا يقرّبه إلا تأويل بعيد لا سند له.

و ـ ف + ت + ق: ليس في المادّة الأكدية ما يرتبط معناه بمعنى «الفتق» أو الشدّ بل إننا نجد فيها أصلين مختلفين يثلّثان المعاني السامية لهذه المادة.

---

(74) اللسان (فتح).

ز - ف + ت + ك: في المعنى السرياني نلمح أصلاً آخر للمادّة لا علاقة له بالمعنى العربي، كما أن دلالة المعنى العربي على الانكسار والانفتاح موضع تأمّل.

ح - ف + ت + ن: نجد هنا أصولاً كثيرة لا ترجع إلى معنى واحد بحال. وحتى لو جعلنا الحرق بالنار أصلاً للابتلاء والفتنة وحتى لو أدخلنا معنى «الأفعى» في ذلك المعنى العام، فإن معنيي «القوة» و«الأكل» يعصيان على ربطهما بالمعنى الأول.

ط - ف + ت + و: في هذه المادة ثلاثة أصول على الأقل: النموّ، وإرادة الشيء، والخداع.

ولو نحن جمعنا هذه المعاني كلها ـ بعد أن تبيّن أنها لا ترجع في المادة الواحدة إلى معنى واحد ـ وحاولنا ردّها إلى أصل، مهما كان عاماً، لوجدنا أن النظرية الثنائية لا تجد في اللغات السامية ما يؤيدها. وهذه ملاحظة عامة تصحّ على سائر المواد، فلا يبقى ما يؤيد النظرية الثنائية في اللغات السامية سوى مواد متفرقة لا تنتظمها الاستمرارية التي ينبغي في النظرية أن تستند إليها. ولو تصفّحنا مثلاً بعض ما جمعه D. Cohen من جذور سامية في معجمه **Dictionnaire des racines sémitiques** لوجدنا بين المعاني الثلاثية تضارباً وتباعداً، فكيف إذا أضفنا إلى ذلك أضعافها بجعل الحرفين الأولين من الجذر مشتركين بين المواد جميعاً!!

2 ـ وتهيء لنا المقارنة الساميّة نوعاً آخر من الفائدة في مجال النظر في هذا المعجم، أعني ناحية الدلالة. إن كثيراً من الكلم العربي يحتفظ بمعنى مماثل لنظائره في اللغات الساميّة، وهذا النوع ليس مشكلاً، وهو كثير جداً لما بين هذه اللغات من قرابة. غير أن تطور الدلالة في كل لغة أفضى إلى الاختلاف في بعض الحالات، حيث نلمح علاقة معنوية بين جذرين في لغتين ساميتين اثنتين أو أكثر تحمل على هذا النوع من التطور الدلالي. وإلى

ذلك ترتبط اللغات السامية بنظام للتقابل الصوتي معقّد، ولكنّه مطّرد بنسبة عالية جداً، وغالباً ما يسعفنا هذا النظام في الكشف عن الجذور الصحيحة للكلم أو الوقوف على العلاقة بين الجذور نفسها. واننا لنرى الشدياق، بسبب من طبيعة الغرض الذي أراد لمعجمه أن يحقّقه، يجهد في الكشف عن العلائق بين «الأصل» الثنائي المفترض، والمادّة الثلاثية «المتفرعة» عليه. وهو إن أصاب في أمور غير قليلة فإنه قد جانب الصواب في أمثلة ترجع إلى التعميم أو التعسّف ـ كما رأينا فيما سبق ـ وفي أخرى ترجع إلى عدم الالتفات إلى الأصول الساميّة للمواد ـ كما سنبين في الأمثلة التالية:

أ ـ العَبْد: جاء في سرّ الليال: «عَبِدَ كفَرِحَ: غضبَ... وعندي أن العبد مأخوذ من المعنى الأول وحقيقة معناه من يغضب لمالكه، ويؤيده ما قال المصنف في ح ش م: حشم كفرح غضب وحشِمه كسمِعه أغضبه وحشَمة الرجل وحشمه محركتين وأحشامه خاصّته الذين يغضبون له من أهل وعبيد أو جيرة»[75]. والصواب أن المعنى الأصلي لهذه المادة الثلاثية في اللغات الساميّة هو «العمل والخدمة»، فالفعل abad في العبرية و ᶜbad في السريانية و abadu في الأكدية، وكذلك المادة في الفينيقية والأوغاريتية، تدل على فكرة العمل وَالخدمة لا على الغضب، لذلك يرجّح أن يكون معنى الغضب أصلاً آخر لهذه المادّة الثلاثية ولا يجوز لنا القول إن العبد مأخوذ منه. أما النقلة المعنوية من العمل إلى الرقّ فواضحة ومبرّرة، وليست العربية بدعاً في هذا، ففي الآرامية القديمة تستخدم المادة بمعنى «العبد» مع أن السريانية ـ وهي ما آلت إليه الآرامية ـ تحتفظ بمعنى «عمل». أما «العبادة» بالمعنى الديني في العربية فأصلها كذلك من العمل والخدمة، كما أن «الفلاح» بالمعنى الديني أصله من مادة «فلح» الدالّة في بعض الساميات على العمل والخدمة أيضاً.

(75) سرّ الليال، ص 58.

ب - اللَّبَن: يحاول الشدياق أن يربط بين المادة الثنائية من اللام والباء، التي تدل على الشيء الخالص أي اللُّبّ، وبين المادة الثلاثية. فيقول: «واللبن اسم جنس. . . وعندي أنه من معنى اللّب بمعنى خالص كل شيء لأن اللبن عند العرب أفضل غذاء كـما لا يخفى»[76]. تُظهر المقارنة باللغات الساميّة الشمالية العربية خاصّة أن المعنى الأصلي هو «البياض»، وهو جذر كثير التوالد فمنه أسماء أشياء كاللبن وكاللّبان وأسماء أعلام كلبنان، وهي جميعاً تدل على البياض، ومع ذلك تنتفي العلاقة المصطنعة بين اللبّ واللبن!

ج - الطبخ: يُرجع الشدياق المادة الثلاثية هذه إلى الثنائي (ط ب) ومنه الطّبّ، ويقول: «إذا تفرّست في الطبخ وجدته غير منقطع عن معنى طب فإنه ضرب من المعالجة»[77]. وتتميز العربية عن أخواتها الساميات بهذا المعنى، ففي سائر هذه اللغات يشير الجذر (ط ب خ) إلى «الذبح»[78] تشترك في ذلك لغة أقصى الشمال، الأكدية، ولغة أقصى الجنوب، الحبشية، مروراً باللغات الشمالية الغربية، كالعبرية والآرامية والأوغاريتية. وقد تطوّر معنى المادة في العربية للعلاقة السببية بين ذبح الجَزور وإنضاجها، ولعل في كلمة «الطَّبَاخ» العربية، بمعنى القوّة، بقية من المعنى الأصلي، أي الذبح.

د - السّبب: يُرجع الشدياق كلمة «السبب» بمعنى «الحبل» إلى المادة الثنائية «سب» بمعنى «قطع»: «والسبب: الحبل، فلم يفارق معنى قطعه، ثم استُعمل فيما يُتوصّل به إلى غيره»[79]. وظاهر هذا الكلام مقنع جداً، غير أن البحث في أصول المفردات كذا شأنه، فكثيراً ما يبدو الظاهر صحيحاً للوهلة

(76) نفسه، ص 234.
(77) نفسه، ص 199.
(78) هذا في المعنى لا في التقابل الاشتقاقي، أما مادة «ذبح» نفسها فموجودة في اللغات السامية بالمعنى نفسه الذي نعرفه في العربية، فالمادّتان (ط ب خ) و(ذ ب خ) متمايزتان تماماً.
(79) سرّ الليال، ص 158.

الأولى، إلا أن الحجّة قد تدحضه، ولا سيّما إن استندت إلى مقارنة صحيحة باللغات الأخوات. فالمعنى الأصلي للمادّة يتضح بالمعنى الذي تحتفظ به اللغات الشمالية الغربية، ففي العبرية والآرامية تدل هذه المادة الكثيرة الورود على معنى «الإحاطة» بالشيء أو «الاستدارة» وهو المعنى الذي نشأ عنه معنى «الحبل» من جهة استعماله. وما زالت الفصحى تحتفظ بالمعنى الذي نراه أصلياً في «السّبّ» بمعنى «الخِمار» و«السَبّ» بمعنى «العِمامة». أما «السبب» وهو ما يُتوصّل به إلى غيره فمعنى متطور ومجرّد وهو يلمح علاقة الوصل المتأتية في معنى «الحْبل». وأما «السب»، «الشتم»، فالراجح أنه أصل آخر للمادة، وقد فات ذلك ابن فارس على شغفه باستنباط الأصول وتوزيع المعاني عليها، فهو يقول: «والسبّ: الشتم، ولا قطيعة أقطع من الشتم»[80]، وكذلك ادّعى ـ وإن كان في ذلك غير ملوم لعدم توفر المقارنة ـ أن تسمية الخِمار بـ «السّبّ» ترجع إلى أنه «مقطوع من مِنْسَجه»!

هـ ـ الشّمس: يقول الشدياق في «الجوائب»: «. . . إذا كانت اللفظة جامدة ولكن تقدمّها ألفاظ مشتقة جاءت على وتيرة واحدة فإنا نحكم بموافقة معناها لها. مثال ذلك: لفظة الشمس فإنها تظهر في أول الأمر أنها لفظة جامدة، فإذا قابلتها بالشم والشمخ والشمر والشخر وغير ذلك مما يدل على الارتفاع، حسيّاً كان أو معنوياً، حكمنا للشمس بهذا المعنى»[81]. ظاهر هذا الرأي يدعو إلى تقبّله، ولكن المقارنة تدحض ذلك دحضاً تاماً. فالكلمة الساميّة للشمس ـ إلا في العربية الشمالية، أي الفصحى، والجنوبية ـ هي بحرفي صفير متماثلين بينهما الميم، ففي العبرية šemeš وفي الآرامية šamšā وفي الأكدية šam/pšu. والتقابل الصوتي بين هذه اللغات يضع السين العربية بإزاء الشين في اللغات الشمالية والشين بإزاء السين[82].

(80) مقاييس اللغة (سب) 3—63.

(81) انظر: منتخبات الجوائب، 1—187 وما بعدها.

(82) ويبدو أن الأقرب إلى الساميّة الأم هو ما في اللغات الشمالية، أما السين العربية فمنقلبة عن شين أصلية وكذلك الشين منقلبة عن سين أصلية. في هذا وفي أنواع السينات=

ولذلك كنا نتوقع أن تكون الكلمة العربية للشمس هي (س م س) بسينين يقابلان الشينين في اللغات الشمالية. كذا تستقيم قواعد التقابل الصوتي. غير أن الذي حدث هو أن الصوت الأوّل أُبدل إلى شين بفعل المخالفة dissimilation، فكانت الصيغة الجديدة (ش م س) أسهل لفظاً. يستنتج من ذلك أن الشين في «الشمس» عرضية ومنقلبة عن أصل آخر، ولذلك فلا علاقة اشتقاقية لها بالشين المصدِّرة للشم والشمخ الخ.

3 ـ هذا الوجه الثالث في المقارنة نقصره على الدخيل، ونكتفي فيه بالتمثيل لظاهرة متكررة عند الشدياق، وهي محاولته ردّ العُجمة عن الألفاظ التي يلمح فيها علاقة معنوية بـ«أصلها» الثنائي، وتندرج تحت هذه الظاهرة ألفاظ ساميّة ويونانية وفارسية.

فمن الألفاظ السامية التي يصحّ فيها هذا التأويل لفظة «تفّاح». وقد أدرج الشدياق هذه اللفظة في باب «تف»، ولكنه عندما شعر أن لا علاقة بينها وبين سائر مواد الباب المصدَّرة بالتاء فالفاء قال: «والعجب أن التفاح الزكيّ قد نبت ما بين هذه المواد التافهة، فالظاهر أن طيبه كله إنما جاء من أح»[83]، والحقّ أن الشدياق أدرك بحس لغوي دقيق أن التفاح ليس له في «تف» شيء، ولكنه نسبه إلى مادة «أح»، وهي أيضاً لا علاقة للتفاح بها. والصواب أن مادة الكلمة هي (ن ف ح)، فالصيغة العبرية tappuah تدل على أن النون مدغمة في p وهي ما يقابل الفاء العربية، فالمعنى مأخوذ إذاً من فكرة النّفح والرائحة. أما إذا كانت كلمة (تفّاح) غير دخيلة[84]، فإن حقها أن تُدرج مع أمثلة القسم السابق.

= الثلاثة S^1، S^2 وS^3، انظر مقالة Beeston المذكورة في المراجع أدناه.

(83) سرّ الليال، ص 317.

(84) يرى Fraenkel (ص 140) أن الكلمة آرامية الأصل وأن صيغتها توحي بذلك. والذي يؤيد ذلك عندي إدغام النون الأصلية في الفاء، وهذا ما يحصل في اللغات السامية الشمالية الغربية، أي أن اللفظة لو كانت عربية لتوقعّنا أن تكون (تنفاح) أو ما أشبه ذلك، غير أن إدغام النون الساكنة دليل آخر على أنها دخيلة، ولا سيما أن المادة السامية الثلاثية المقترحة تفسّر اللفظة =

ومن الكلمات السامية الدخيلة على العربية مما لم يلمحه الشدياق كلمة «الترجمان». يرى الشدياق أن التاء أصيلة لأنها تجيء في الفعل أيضاً[85]، وهو لذلك يخطِّىء الجوهري في إيراده اللفظة في رجم «وحقه أن يُذكر في مادة على حدتها لأنك إذا جعلت التاء مزيدة كان التُّرجمان على وزن تُفعلان، وتَرْجَمَ على وزن تَفْعَلَ، وكلاهما مفقود»[86]. واللفظة تجيء في العبرية والآرامية والأكدية، وليس مقطوعاً بأنها رباعية، بل قد تكون تاؤها زائدة على مادة ثلاثية في الأصل هي (ر ج م)، وهذه تدل على معانٍ متعلقة بالكلام، كالرّجم في العربية وهو «**القول** بالظن أو الحدس»[87]، و ragamu في الأكدية وهو يدل على معنى «صرخ»، وهو صوت، وكذلك ragama في الحبشية للشتم، وهو كلام، ولعل أوضح من هذا جميعاً أن الفعل المعبِّر عن القول في الأوغاريتيه هو rgm، وهذا لا يترك مجالاً للشك في أنه أصل لـ «ترجم».

ومن الأمثلة السامية على هذا الظاهرة أيضاً: «الخاتم» . وإذا صحّ أن هذه اللفظة آرامية الأصل وان الفعل «ختم» مأخوذ منها[88]، سقطت محاولة الشدياق مقارنتها بمادة (ك ت م) حيث يقول: «وعندي أن معنى الختم في الأصل مراد به معنى الإخفاء كالكتم. . . نظرت في الكلمات فوجدت أبا البقاء قد سبق إلى هذا التأويل فإنه قال: الختم، هو يستعمل تارة متعدياً بنفسه وأخرى بعلى وهو قريب من الكتم لفظاً لتوافقهما في العين واللام، وكذا معنًى لأن الختم على الشيء يستلزم كتم ما فيه»[89].

ومن الدخيل من اليونانية نذكر «البلد» و«البرج». يرى الشدياق أن

= على أحسن وجه، وليس في العربية مادة أخرى نستطيع بها أن نفسرها على نحوٍ مُرْضٍ.

(85) سرّ الليال، ص 301.

(86) الجاسوس، ص 29.

(87) اللسان (رجم).

(88) انظر : Fraenkel، ص 252.

(89) سرّ الليال، ص 277.

معنى الكلمة الأولى «غير منقطع عن معنى الوضوح»[90]، ويؤثّل الكلمة ويقـارنها بـالأرض والتراب... وليس من شـك في أن الكلمة يـونانيـة الأصل[91] παλάτιον ، ويؤكد ذلك أن ليس لها من مادّة معروفة في اللغات السامية جميعاً، اللهم إلا ما في العربية. أما «البرج» فهو عند الشدياق موافق لمعنى البرج[92]، وهو عين ما نراه في كلام ابن جني حين يُرجع معنى المادّة بتقاليبها الستة إلى القوة والشدّة: «ومنه البرج لقوته في نفسه وقوّة ما يليه به»[93]. وكل هذا وهم،فالكلمة هي في اليونانية πύργος ، وقد تكون العربية أخذتها بتوّسط السريانية[94]. وليس في اللغات السامية معنى مشترك للبرج من هذه المادة، الأمر الذي يقطع بعُجمتها.

ودخيل الفارسية كسابقيه، فقد وهم الشدياق في تأثيله إياه وردّه إلى أصول عربية ليقوّي بها نظريته. ولعل من أوضح الأمثلة على ذلك ما جاء في مادة (ج د ر): «والجدير مكان بني حواليه جدار، وعندي أنه أصل لمعنى قوله: فلان جدير بكذا أي خليق، وحقيقة أصل معناه: محيط»[95]. وهذا شبيه برأي ابن فارس إذ يجعل «الجدار» و«الجدير» من أصل واحد، ويقول بعد ذكر الجدار: «ومن هذا الباب قولهم هو جدير بكذا، أي حريّ به. وهو ممّا ينبغي أن يثبت ويبني أمره عليه»[96]. وليس من علاقة بين الكلمتين، فالجدار كلمة سامية تشترك فيها العربية والعبرية والآرامية والأوغاريتية، أما «الجدير» فلا يرد إلا في العربية الفصحى، وهو عندي مأخوذ من الفارسية: جا دارد/ داره، فكلمة «جا» تعني «المكان» و«دارد» هي المادة التي يتصرف

(90) نفسه، ص 240.
(91) انظر: Fraenkel، ص 28.
(92) سرّ الليال، ص 139.
(93) الخصائص 2—135.
(94) Fraenkel، ص 235.
(95) سرّ الليال، ص 472.
(96) المقاييس (جدر) 1—431.

منها فعل الملكية «داشتن». والأقرب إلى الإمكان أن يكون لفظ «جدارة» هو الأسبق إلى الوجود لمناسبته «جا داره»، ومنه أخذ «جدير» على توهم أن «الجدارة» مصدر، وذلك عن طريق الاشتقاق العكسي back formation.

رمزي بعلبكي

الجامعة الأمريكية ، بيروت

ثبت المراجع

أوّلاً : بالعربية:

الأنباري، محمد بن القاسم. **الأضداد**. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. الكويت، 1960.

ابن جنيّ. **الخصائص**. تحقيق محمد علي النجّار. القاهرة، 1952—1956.

حسن، محمد عبد الغني. **أحمد فارس الشدياق**. القاهرة، د. ت.

خلف الله، محمد أحمد. **أحمد فارس الشدياق وآراؤه اللغوية والأدبية**. القاهرة، 1955.

السيوطي، عبد الرحمن جلال الدين. **المزهر في علوم اللغة وأنواعها**. تحقيق أحمد جاد المولى وعلي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، د. ت.

شبلي، انطونيوس. الشدياق واليازجي: **مناقشة علمية أدبية سنة 1871**. جونية، 1950.

الشدياق، أحمد فارس، **الجاسوس على القاموس**. القسطنطينية، 1299 هـ.

الشدياق، أحمد فارس. **الساق على الساق في ما هو الفارياق**. باريس، 1270هـ.

الشدياق، أحمد فارس. **سرّ الليال في القلب والإبدال**. الآستانة، 1284هـ.

الصلح، عماد. **أحمد فارس الشدياق: آثاره وعصره**. بيروت، 1980.

صوايا، ميخائيل. **أحمد فارس الشدياق : حياته وآثاره**. بيروت، 1962.

عبّود، مارون. صقر لبنان: **بحث في النهضة الأدبية الحديثة ورجلها الأول أحمد فارس الشدياق**. بيروت، 1950.

ابن فارس، أبو الحسين أحمد. **الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها**. تحقيق مصطفى الشويمي. بيروت، 1964,

مرمرجي، أ. س. **المعجمية العربية على ضوء الثنائية والألسنية السامية**. القدس، 1937.

مرمرجي، أ. س. **هل العربية منطقية: أبحاث ثنائية ألسنية**. جونية، 1947.

مسعد، بولس. **فارس الشدياق**. القاهرة، 1943.

ثانياً : بالأجنبية:

Beeston, A.F.L. **et. al. Sabaic Dictionary** (Beirut, 1982).

.Cohen, D. **Dictionnaire des racines sémitiques ou attestées dans les langues sémitiques** (Paris, 1970).

Dillmann, A. **Lexicon Linguae Aethiopicae** (Lipsiae, 1965).

Fraenkel, S. **Die aramischen Frendwörter in Arabischen,** repr. (Hildesheim, 1962).

Gesenius, W. **A Hebrew and English Lexicon of the Old Testament,** tr. E. Robinson (Oxford, 1842).

Gordon, C. H. **Ugaritic Textbook** (Rome, 1965).

Grébaut, S. **Supplément au Lexicon Linguae Aethiopicae de August Dillmann** (Paris, 1952).

Jean,Ch. - F. and H. Hoftijzer. **Dictionnaire des inscriptions sémitiques de l'Ouest** (Leiden, 1960 - 65).

Renan, E. **Histoire générale et système comparé des langues sémitiques** (Paris, 1963).

Smith, P. **A Compendious Syriac Dictionary,** repr. (Oxford, 1976).

von Soden, W. **Akkadisches Handwörterbuch** (Wiesbaden, 1965 - 1981).



« جهود أحمد فارس الشدياق في تطوير المعجم العربي المعاصر »

بحث : الدكتور يوسف مسلم أبو العدوس

يعالج هذا البحث جانباً واحداً من جوانب شخصية أحمد فارس الشدياق (1805—1887)، أحد رواد النهضة، هو الجانب المعجمي.

والبحث يبدأ ـ أولاً ـ بمقدمة عامة تستعرض بشكل سريع الدراسات السابقة التي كتبت عن الشدياق من قريب أو بعيد وحاولت سبر أغوار شخصيته الأدبية واللغوية، وتطرح المقدمة قضية الاهتمام بوضع المعاجم الحديثة، كذلك تشير إلى أهم كتب الشدياق التي ساهمت في تطوير المعجم العربي؛ ثم الوقوف عند سبب تأليفه هذه الكتب. . . .

فإذا انتهى البحث من ذلك، خصص قسماً مستقلاً للكشف عن طبيعة النقود التي وجهها الشدياق «للقاموس المحيط» وأهميتها في حفزه لتأليف كتاب يتلاقى فيه ما عيب على الفيروز آبادي. . . .

أما القسم الثاني، فقد كرّس لمعالجة طريقة الشدياق في ترتيب معجمه «سر الليال في القلب والإبدال»، وجرّد القسم الثالث للحديث عن دور الشدياق في الترجمة والتعريب. . . ثم كانت الخاتمة التي ضمنتها خلاصة البحث ونتائجه.

جنحت الدراسات الأدبية الحديثة التي تناولت بحث القضايا الأدبية واللغوية التي أثارها الشدياق في كتبه المختلفة إلى التعريف بالرجل، وبما قدمه في حقل الدراسات الأدبية واللغوية، ولعل دراسة بولس مسعد عن حياة

الشدياق ومؤلفاته سنة 1934 من أول هذه الدراسات التي تحدثت عن الشدياق. وأما مارون عبود فقد ألف كتاباً بعنوان «أحمد فارس الشدياق صقر لبنان» سنة ١٩٥٠ حيث تحدث عن حياة الشدياق وأدبه.... وقد جمع الأب انطونيوس شبلي ما دار بين الشدياق وإبراهيم اليازجي من مناظرات ومناقشات... وركز الدكتور محمد أحمد خلف الله على دور الشدياق في الأدب واللغة وذلك في كتابه «أحمد فارس الشدياق وآراؤه اللغوية والأدبية» سنة 1955. وألف الدكتور عماد الصلح كتاباً بعنوان «أحمد فارس الشدياق آثاره وعصره» سنة 1980، وأصدر محمد عبد الغني حسن دراسة عن الشدياق بعنوان «أحمد فارس الشدياق» تحدث فيها عن أدبه ودوره في اللغويات... وأما الدكتور محمد يوسف نجم فقد كتب رسالته الماجستير عن الشدياق وذلك في الجامعة الأمريكية سنة 1948...

وهناك بعض المقالات والفصول تناولت الشدياق وأدبه منها: ما كتبه جرجي زيدان في كتابيه «تاريخ آداب اللغة العربية» و«تاريخ مشاهير الشرق» وفصل في كتاب «أعيان البيان» لحسن السندوبي، وفصل في كتاب «الفنون الأدبية وأعلامها....» لأنيس المقدسي، كذلك تحدث كمال اليازجي عن الشدياق في كتابه «رواد النهضة الأدبية في لبنان الحديث» وركز عمر الدسوقي في كتابه «في الأدب الحديث» على دور الشدياق في النهضة الأدبية، واهتم كل من رياض قاسم وحكمت كشلي بنشاط الشدياق اللغوي، الأول في كتابه «اتجاهات البحث اللغوي الحديث في العالم العربي» والثانية في كتابها «المعجم العربي في لبنان» هذا عدا المقالات التي كتبت عن الشدياق في مجلة «المكشوف» سنة 1937 و1938، ومجلة «الجمهور» ببروت عدد 99 و104، ومجلة «المجمع العربي السوري»، المجلد الأربعون، سنة 1965...

ولقد جمعت ما كتبه هؤلاء وغيرهم، فافدت منه كثيراً، على أنني

وجدت أنّه بالاستطاعة الإضافة شيئاً إلى إبراز دور الشدياق في تطوير المعجم العربي المعاصر. . .

لا شك أن الاهتمام بوضع المعاجم الحديثة أمر يتعلق بالمستوى الحضاري لأبناء اللغة العربية، فكثيراً ما تشف المعاجم عن هوية القوم ودرجة تقدمهم أو تخلفهم، ومقدار ما حققوه من تقدم علمي يواكب التطورات الحديثة في المجال العلمي والتكنولوجي، أضف إلى ذلك ضرورة الاهتمام بتأليف المعاجم المتخصصة، حيث تحل مثل هذه المعاجم مسألة المصطلح العلمي، وكيفية استعماله في اللغة العربية، كما أنها ستقضي على الكثير من الخلط في استعمال بعض المصطلحات التي يتأرجح مدلولها من بلد عربي إلى آخر. . .[1].

لقد ترك الشدياق انتاجاً لغوياً هائلاً نستدل منه على جهوده العظيمة في هذا المضمار، ومن أهم مؤلفاته اللغوية: «سر الليال في القلب والإبدال» و«الجاسوس على القاموس»، و«اللفيف في كل معنى ظريف»، و«منتهى العجب في خصائص لغة العرب»، وقد التهمت النيران الكتاب الأخير وهو مخطوط. . . هذا عدا الفصول الكثيرة التي كتبها في الجوائب عن اللغة العربية، وترجماته الكثير من المقالات. . .

وأهم ما في هذه الكتب أنها اتسمت بطابع الجدية في البحث، والإصرار على التنظيم والتبويب، والمنهج الواعي الداعي إلى ربط المادة بأصولها وفروعها. . . ولا شك أن الشدياق كان بحكم إقامته الطويلة في أوروبا أكثر رجال النهضة اطلاعاً على الحضارة الغربية، وأكثرهم دراية بالثقافة الأوروبية، وكان أكثرهم عناية بمعضلة المسميات الجديدة واختيار

(1) انظر: فاطمة علوي الشافي، «الاستهانة بالعربية والإعراض عنها»، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، جامعة الكويت، العدد العشرون، المجلد الخامس، (خريف 1985، ص 202—203).

الأسماء العربية لها بسبب معاناة الترجمة عن الكتب والصحف الغربية[2].

واعتمد الشدياق على ذوق الواضع، علاوة على الذكاء، والجلد، والتنقيب؛ ليجعلك تعقل عقله، وتسلم له بصحة ما يقول. . . . وفي عمله هذا شهادة صادقة بأنه جمع في صدره خزانة لغة، فضمن للفصحى قيمتها من الضياع في عصر خبا فيه نور العلم في هذه البلاد، وتجهمت سماء المعارف، وقام منفرداً بمهمة مجمع علمي منظم[3].

وفي البداية لا بد من الوقوف عند الأسباب التي حملت الشدياق على تأليف كتابين مهمين هما: «الجاسوس على القاموس» و«سر الليال في القلب والإبدال». أما سبب تأليفه كتاب «الجاسوس» فيعود إلى السببين التاليين:

السبب الأول: غيرته على اللغة العربية، واستعداده لتطوير معجماتها، والردّ على من يقول إن اللغة العربية لا تصلح لهذا الزمن. يقول: «كلا وربك ما بروا ولا صدقوا، وما دروا أنهم بالذي عاب نفسه لحقوا، لأنهم ما قالوا ذلك إلا لحرمانهم منها، وقصورهم عنها، فمن ثم مست الحاجة إلى زيادة تفصيل لمفردات لغتنا ومركباتها، وتبيين لأصولها من متفرعاتها، وإفراز لأفعالها من مشتقاتها، وذلك لا يتأتى إلا بإظهار ما في القاموس من القصور والخلل. . . غير قاصد بذلك التنديد بالمعايب أو التعديد للمثالب»[4]. ويرى الشدياق أن في نقده القاموس ما يحضّ أهل العربية على تأليف معجم يكون سهل الترتيب، يفي بحاجات العصر، يقول: «فإني لما رأيت في تعاريف القاموس للإمام القاضي مجد الدين الفيروزآبادي

---

(2) انظر: د. عماد الصلح، أحمد فارس الشدياق (آثاره وعصره)، دار النهار للنشر، بيروت، 1980، ص 163، د. رياض قاسم، اتجاهات البحث اللغوي الحديث في العالم العربي، مؤسسة نوفل، بيروت، ط1، 1982، ج1، ص 146.

(3) نسيم نصر، أحمد فارس الشدياق موسوعة لغة وأدب، مجلة الأديب، 1950، العدد الرابع، المجلد التاسع، ص 44.

(4) أحمد فارس االشدياق، الجاسوس على القاموس، مطبعة الجوائب (الأستانة 1299هـ) ص 3.

قصوراً وإبهاماً، وإيجازاً وإيهاماً، وترتيب الأفعال ومشتقـاتها فيـه محوج إلى تعب في المراجعة، ونصب في المطالعة.... أحببت أن أبين في هذا الكتاب من الأسباب ما يحض أهل العربية في عصرنا هذا على تأليف كتاب في اللغة يكون سهل الترتيب، واضح التعاريف، شـاملاً لـلألفاظ التي استعملها الأدباء والكتاب وكل من اشتهر بالتأليف...»[5].

أما السبب الثاني الذي حمله على تأليف «الجاسوس» فهو رغبته في حث أهل اللغة العربية على حبّ لغتهم، وحفز اللغويين على تأليف كتاب خال من تشويش الترتيب، يقول: «إني لم ينشطني للتأليف سوى الرغبة في حثّ أهل العربية على حبّ لغتهم الشريفة، والرتوع في ساحتها المنيفة، وحث أهل العلم على تحرير كتاب فيها خال من الأخلال، مقرب لما يطلبه الطالب منها من دون كلال...»[6].

وكان الدافع لتأليف كتابه «سر الليال» أنه أثناء مطالعاته كتب اللغة وجد ألفاظاً كثيرة مقلوبة ومبدلة، فجمعها أولاً في ثمانية كراريس على حروف المعجم ثم جمعها في كتاب «سرّ الليال في القلب والإبدال»[7].

ويمكن إجمال المسائل التي انتقدها الشدياق على «القاموس» في إخلال الفيـروزآبادي بمنهجه، وتقصيره وغفلته، وآثار اختصاره، وسوء علاج ألفاظه وموارده، والتكرار والخطأ في وضع الألفاظ، والتصحيف، وعدم دقته في التعبير ومخالفته اللغويين وإيهامه.

لقد تحامل الشدياق على «القاموس» وبخاصة في طريقة البحث عن معنى اللفظة، يقول: «إذا أردت أن تبحث في القاموس مثلاً عن أعرض عنه لزمك أن تقرأ كل ما ورد في مادة عرض من أولها إلى آخرها، فيمرّ بك أولاً

(5) المصدر السابق، ص ص 2—3.

(6) المصدر نفسه ، ص 5.

(7) أحمد فارس الشدياق، سر الليال في القلب والإبدال، المطبعة السلطانية بالآستانة، 1284هـ، ص 4.

عرض وعارض واستعرض أو العكس، ثم أسماء فقهاء ومحدثين وحيوانات وجبال وأنهار وحصون قبل أن تصل إلى أعرض. . .»[8] ولاحظ الشدياق أن صاحب «القاموس» قد ملأ معجمه بكثير من أسماء، الأعشاب الطبية، حيث فصل في ذكر فوائدها، وكأنه يؤلف كتاباً طبياً، ولم يجد الشدياق في بقية المعاجم ما وجده في «القاموس» من وصف الأدوية والعقاقير وأسماء المحدثين والفقهاء. . .»[9]. ورأى أن عناية الفيروز آبادي بالأعلام كانت أكثر من عنايته بمادة اللغة، فصاحب «القاموس» ترك كثيراً من ألفاظ القرآن العزيز، والحديث الشريف، وكلام العرب البلغاء، واجتزأ عنها بأسماء البقاع والحصون والقلاع والجبال. . . وأسماء أعلام ما أنزل الله بها من سلطان خلافاً لسائر اللغويين»[10].

وانتقد الشدياق تحريف صاحب «القاموس» لعبارة الصحاح، ورأى أنه من الواجب التأكد من العبارة المنقولة، ولا بد أن تُراعَى في ذلك الأمانة، ويذكر أمثلة على ذلك ، ورأى الشدياق أن صاحب «القاموس» قد خالف أحياناً أئمة اللغة، وصحف وحرف ما قالوا، مثال ذلك «في جبأ الجبء الكماة، قلت: عبارة الجوهري الجبء واحد الجبأة وهي الحمر من الكمأة مثاله فقع وفقعة وغرد وغردة، وهي أرض مجبأة. وعبارة المحشي بالغ المصنف رحمه الله في الاختصار، وأعرض عن التعرض لهذا النوع من الكماة، وقال سيبويه: وليس ذلك بالقياس يعني تكسير فعل على فعلة، فأما الحيأة فاسم للجمع كما ذهب إليه في كمء وكمأة، وقال ابن الأعرابي الجبء الكمأة السود والسود خيار الكمأة»[11].

وهاجم الشدياق النظرية التقليدية التي تحدد الفصيح في اللغة العربية

---

(8) المصدر نفسه.
(9) الصدر نفسه، ص 108.
(10) المصدر نفسه، ص 349.
(11) المصدر نفسه، ص 405.

بالعصر الجاهلي والأموي، ولا تعتد بشعر الشعراء الذي ورد بعد هذه الفترة، ورأى بأنه من الخطأ تحديد فترة الفصيح بزمن معين، والشاعر الذي يحتج له بالجودة يمكن الاحتجاج بشعره، ورأى بأنه من الواجب على اللغويين القدماء أن يذهبوا إلى البادية ليسمعوا من الأعراب، ويدونوا ما سمعوه بأنفسهم بدلاً من اعتمادهم الكلي على الرواية، لأن الرواية ـ كما يقول الشدياق ـ لا يوثق بها. . . وقد أدى هذا بأصحاب المعاجم إلى النقص والزيادة، فمن «عادة المحققين من اللغويين أن ينبهوا على الفصيح من الكلام وعلى غير الفصيح وعلى الغريب والحوشي والمتروك والمهمل والمذموم والمحرف والمصحف واللثغة ونحو ذلك، وأن يذكروا أيضا أسماء من نقلوا عنهم كاللحياني وشمر وكراع وأبي زيد والأصمعي وابن الأعرابي وغيرهم بخلاف صاحب القاموس فإنّه يورد الألفاظ إيراداً مطلقاً من دون أن ينبه عليها أو يعزوها إلى أحد إلا ما ندر»[12].

وانتقد الشدياق صاحب القاموس لإبهام تعاريفه والتباسها، وغموض عبارته وقصورها.

ومما ينطوي تحت هذا الباب من النقد ذكر صاحب «القاموس» الفعل مستقلاً بالمعنى من دون تعلقه بمعموله، أي إذا كان الفعل مشتركاً في عدة معان علقه بأحد هذه المعاني مستقلاً به عن غيره، وهو مناف لمعنى الاشتراك، وأورد الشدياق أمثلة من هذا النوع منها قول المؤلف في « «حطب واحتطب عليه في الأمر احتقب والمطر قلع أصول الشجر» ويرى الشدياق أنه لا بد أن يقال «احتطب المطر أصول الشجر قلعها وهو أمر دقيق ينبغي التنبه له» [13].

وانتقد الشدياق الفيروز آبادي في إبهامه في الجمع، فلاحظ أنه إذا ذكر

---

(12) المصدر نفسه، ص 130.

(13) المصدر نفسه، ص 199.

للكلمة عدة معان قصر الجمع على بعضها دون بعضها الآخر، حيث يوهم أن البعض الذي تركه لا جمع له، وإذا كان للفظتين بمعنى واحد جمعان مثلاً أوردهما على غير ترتيب ثم إنّ الفيروز آبادي يذكر الجمع الشاذ قبل الجمع القياسي، وربما يذكر أحد الجموع ويهمل الباقي مع اشتهاره ووروده في التنزيل، وبين الشدياق أن صاحب «القاموس» لا يفرق بين جمع المفرد وجمع جمعه، وهو كذلك يقتصر على ذكر الجمع المكسر دون السالم سواء كان للمذكر أو المؤنث فيوهم بذلك ـ كما يقول الشدياق «أن الجمع السالم غير وارد»[14].

ويجيء غموض التعريف في الغالب من الجهل أو الغفلة أو الإهمال، وذكر الشدياق نقوداً مختلفة كل واحد منها يؤدي إلى الغموض، فمن ذلك التعاريف الدورية والتسلسلية، وهذا النوع كما يقول الشدياق من خصائص صاحب «القاموس» التي لامه عليها المحشي، فهو يقول في «تعريفه اللؤم بأنه ضد الكرم ما نصه ومرّ له أن الكرم ضد اللؤم وهو كثيراً ما يفعل مثله. . . وقال أيضاً في تفسيره النوم بالنعاس أو الرقاد النعاس فسرّه المصنف بالوسن والرقاد وفسره بالنوم على عادته في تفسير أحد اللفظين بالآخر». . .[15] ومن ذلك اعتماده على معرفة الناس للتعريفات، «منشأ هذا الخلل في القاموس أن مصنفه كان يرى هذه الألفاظ مفسرة في الكتب التي نقل منها فأوردها من دون تفسير إما لتوهمه أن المطالع قد اطلع عليها قبل مراجعة كتابه أو أنه يعرفها من سياق عبارته. . . .»[16] ويضرب لذلك أمثلة منها قول صاحب «القاموس» «التأتأة تردد التأتاء في التاء ولم يذكر التأتاء من قبل» وبين الشدياق أن حق التعبير لا بدّ أن يكون «التأتاء من يردد حرف التاء في كلامه،

---

(14) انظر : المصدر نفسه، ص ص 204—207.

(15) المصدر نفسه، ص 302.

(16) المصدر نفسه، ص 349.

وقد تأتأ تأتأة، على أن قوله التأتاء يوهم أنه لا يقال متأتىء، فكان ينبغي له أن ينبه عليه»[17].

وانتقد الشدياق ما قيده صاحب «القاموس» في التعاريف وهو مطلق[18] وكذلك غفوله عن الأضداد[19]، وعن النقل والإبدال[20]، كما عابه في خلطه الفصيح بالضعيف والراجح بالمرجوح وعدوله عن المشهور[21].

وتحدث الشدياق عن ترتيب المشتقات في المادة الواحدة، وأدرك أن كتب اللغة لم تجر في هذه الناحية على نظام معين، ورأى أن أحداً من المصنفين، وكتاب الشروح، والحواشي لم يتنبه لخلط الأفعال ومشتقاتها، ومن أكبر «الخلل وأشهر الزلل في كتب اللغة جميعاً، قديمها وحديثها، ومطولها ومختصرها، ومتونها وشروحها، وتعليقاتها وحواشيها خلط الأفعال الثلاثية بالأفعال الرباعية والخماسية والسداسية وخلط مشتقاتها، فربما رأيت فيها الفعل الخماسي والسداسي قبل الثلاثي والرباعي، أو رأيت أحد معاني الفعل في أول المادة وباقي معانيه في أخرها. . .»[22] وبعد ذلك ينصح الشدياق القراء بعدم الاقتصار على فهم اللفظ في موضع واحد، بل لا بدّ من مطالعة المادة من أولها إلى آخرها. . . وهذا يكون ـ كما يقول الشدياق ـ «بخلاف ما إذا كانت الأفعال مرتبة على ترتيب الصرفيين. فإنه ينظر أولاً إلى الفعل الثلاثي ومشتقاته في أول المادة، وإلى الخماسي والسداسي ومشتقاتهما في آخرها، وإلى الرباعي ومشتقاته في وسطها، فلا يضيع له بذلك وقت، ولا يكل له عزم. . . ولا بأس أيضاً بأن يوضع حيال المواد الغزيرة رقم بالهندي على الحاشية، فيوضع رقم 3 مثلاً قبالة الفعل الثلاثي و4

(17) المصدر نفسه، ص ص 349—350.
(18) المصدر نفسه، ص 270.
(19) المصدر نفسه، ص ص 298—299.
(20) المصدر نفسه، ص 299.
(21) المصدر نفسه، ص 322.
(22) المصدر نفسه، ص 10.

قبالة الفعل الرباعي، وهكذا...»[23] ولاحظ الشدياق أن سوء الترتيب أوقع المعجميين القدماء في كثير من الأحيان بتكرار المادة الواحدة في مواضع عدة...[24].

ولا شك أن الشدياق قد اتخذ من هجومه على «القاموس» وسيلة للإنابة عن حاجتنا إلى معجم حديث، يسهل البحث فيه، ويسير على نمط جديد من العلاج[25] وحاول تطبيق أفكاره النظرية بشكل عملي في كتابه «سر الليال في القلب والابدال» الذي اتبع فيه الخطة التالية:

- سرد الأفعال والأسماء التي هي أشهر استعمالاً، وأكثر تداولاً، ونسقها بالنظر إلى التلفظ بها، وذلك لإيضاح تناسبها وإبداء تجانسها، وكشف أسرار معانيها، وأصل مدلولاتها.
- إيراد الألفاظ المقلوبة والمبدلة، والمترادفة.
- استدراك ما فات صاحب «القاموس» من لفظ أو مثل أو إيضاح عبارة أو نسق مادة...»[26].

وقد اعتمد الشدياق في ترتيبه لقاموس «سر الليال» على قائمة الألف باء، حسب الترتيب المشرقي لها، ثم عدّل في نسقها حيث رفع حروف الحلق (ح خ ع غ هـ) من مواقعها في النسق، ووضعها عقب حرف الهمزة مباشرة «جعلت أول الكتاب مبدوءاً بأبّ ثم أردفته بحب وخب وعب وغب وهب ومقلوباتها لكونها جميعاً حروف حلق، ثم رجعت إلى تب وأتبعته جبّ ودبّ وذبّ وصبّ وأخواتها على التوالي ثم بمقلوباتها...»[27].

---

(23) المصدر نفسه، ص 11.

(24) انظر : ص 293 وما بعدها.

(25) د. حسين نصار، المعجم العربي (نشأته وتطوره)، دار مصر للطباعة، القاهرة ط 2، 1968، ج2، ص 615.

(26) سر الليال ، ص 6.

(27) المصدر نفسه، ص 5.

وأخضع الشدياق انتظام المادة إلى ترتيبين متواليين:

الأول : أنه يجعل المادة، في حرفها الأول تنتظم حروف الحلق، وهي مرحلة المجانسة. فالهمزة في أب أولاً، ثم يجانس أب حب ثم خب ثم يجانس خب عب، ثم عب وغب، وغب وهب...

الثانية: أنه ينتقل إلى المرحلة الثانية، فيرجع إلى (بب) ثم تنتظم الباء مع ما يليها، أي بب ثم ثب فجب... الخ[28].

فالشدياق من الذين أخذوا بنظرية ثنائية الجذر، وقيام فكرته اللغوية على حكاية الصوت المتأتية من المضاعف، وهو يأتي في «سر الليال» باللفظة الواحدة من المضاعف فيشرحها وينقل ما جاء في مختلف المعاجم، ثم يعطي رأيه... ويزيد على المضاعف حرفاً كالألف فيأتي المعنى الآخر فيشرحه، وينقل أقوال المعاجم كما فعل في اللفظة الأولى ثم يزيد على المضاعف حرفاً آخر كالباء مثلاً ويأتي المعنى الثالث. وهكذا يأتي بعدها حبت وحبث وحبج... وعندما تنتهي الأحرف المزيدة ينتقل إلى مقلوب المضاعف كقولك: حب مقلوبها بح ويأتي لها بالأحرف الزائدة في آخرها كقولك بحا بحب وبحت وبحث وبحج...[29].

ويجمل الشدياق الأسباب التي جعلته في اعتبار المضاعف أصلاً في النقاط التالية:

ـ أن معظم اللغة مأخوذ من حكاية صوت، أو حكاية صفة، وأن حكاية الصوت إنما تأتي من المضاعف، مثل، دبّ ودفّ ودقّ وهزّ وسفّ وقرّ. فإذا أرادوا الزيادة في المعنى ضاعفوا الحروف، فقالوا: دبدب ودفدف ودقدق وهزهز وسفسف وقرقر. فقولهم مثلاً هزهز وحثحث إن هو في الحقيقة إلا هزهز وحث حث، فلما بنوه هكذا احتاجوا إلى التسكين، وظهور هذا السرّ

(28) انظر: إتجاهات البحث اللغوي الحديث في العالم العربي، 1—146.
(29) أحمد فارس الشدايق (آثاره وعصره)، ص 195.

الباب...»[30]. ومن الامثلة الاخرى التي اوردها الشدياق: قهقهة الضاحك، وصفير الصافر، ورنين القوس، وتسبسب الماء وتصبصبه وخريره، وعطس العاطس، ومزمزمة الرعد، وزفيف الريح...[31].

وبين الشدياق أن هناك صلة بين الأصوات والمعاني حين تحدث عن حكاية الصفة وكونها عاملاً من عوامل نشأة اللغة، يقول «أما حكاية الصفة فهي نظم حروف يتوهم الناظم منها أن تدل على صفة شيء باعتبار ما في تلك الحروف من اللين والترخيم أو الشدة والتفخيم، كقولهم مثلاً شيء منمنم أي مزخرف... وشيء ململم أي مدور مخموم مجتمع... وكقولهم امرأة رجراجة أي يترجرج عليها لحمها.... وكقول العامة مربرب للسمين المكتنز... وكقولهم المهفهف للممشوق البدن...[32].

ـ أن اللغة كغيرها من الصنائع والموضوعات البشرية لا يحدث شيء منها تاماً كاملاً من أول وهلة، ولكن على التدريج، فالأحرى إذاً أن نقول إن الفعل السالم جاء آخر الأفعال، أما الأجوف فإنه غالباً يأتي بعد المضاعف كطب وطاب، وضر وضار، وصر وصار، وأما الناقص فإنه صدى غيره من الأفعال، وكأنه نوع من القطعة لغة لبعض العرب، نحو: همر وهمى، ورجب ورجا أي خاف، ومحق ومحا، وشجب وشجا أي حزن...

ـ أن حكم ترتيب المزيد على المضاعف لا يكاد يتخلف، فقلما يرى في المضاعف معنى إلا ويرى في مزيده مثله، أو ما يقاربه نحو: صرّ ـ صرأ،

---

(30) سر الليال، ص ص 22—23.
(31) المصدر نفسه، ص 23.
(32) المصدر نفسه، ص 31.

سلّ ـ سلب، لبّ ـ لبث، ضمّ ـ ضمد، غمّ ـ غمر. . .

ـ إن زيادة حرف على المضاعف أليق بحكمة الواضع في التفنن من نقصه، إذ لو جعل السالم أصلاً لزم عنه العدول من الكمال إلى النقصان. والاختصار في الأفعال ليس من مذهب العرب كما يدل على ذلك الأفعال المزيدة. ودليل آخر وهو أنهم يشبعون الفتحة في آخر الفعل، فيتولد منها ألف كما في دحب ودحبى، وسلق وسلقى. . .

ـ وجود أفعال مجهولة الأصل، وأصلها من المضاعف معلوم، وذلك نحو، امتخر العظم أي استخرج مخه. فهو ولا بدّ أن يكون من امتخّ، إذ لم يجيء المخر بمعنى المخ. . .[33].

وتحدث الشدياق عن القلب والإبدال، وقدّم الشواهد على معاني الألفاظ المبدلة والمقلوبة، وهذه الشواهد كلام الأدباء وشعر الشعراء، وآيات قرآنية، وأحاديث نبوية، وأمثال مشهورة. ورأى أن القلب يجيء من عدم اهتمام السامع بما ينطق ووعيه لما يقول، فينطق الزبرجد الزبردج، وتصبح هذه لغة[34]. والإبدال ينتج من الاختلاف في نطق الصوت ومن عدم قدرة الحنجرة على أن تؤديه على الصفة المطلوبة. فقد قال «ابن دريد: فأما بنو تميم فإنهم يلحقون القاف باللهاة، فتغلظ جداً، فيقولون الكوم فتكون القاف بين الكاف والقاف. وقال الأزهري قال المفضل: من العرب من يبدل الظاء ضاداً فيقول قد اشتكى ضهري بمعنى ظهري. . .[35].

لقد اتبع الشدياق نظام القلب للمفردات، فذكر مثلاً جبّ، واجتبّ: قطع، وهو حكاية صوت. ومثله مقلوبه: بجّ ومشابهة قبّ ومقلوبه بقّ. . .[36]. ورأى أن القلب والإبدال أكثر ما يكون في الألفاظ الدالة على

---

(33) انظر: المصدر نفسه، ص ص 22—27.

(34) الجاسوس، ص 182.

(35) المصدر نفسه، ص 184.

(36) سر الليال، ص 95.

القطع والكسر والخرق والهدم والشقّ والتبديد، لأنها كلّها من جنس واحد، وجلها مأخوذ من حكاية صوت، نحو: قت وقد وقض وقط وجذ وجت وجز وأذّ وهـذ وقذ وقص وحـذّ وحـزّ... وفتّ وفضّ... وجب وبـجّ ودقّ ودك...[37].

وجرى الشدياق في كتابه «سرّ الليال» على نسق اقتنع به، ولولا ذلك لم يخالف ما أجمع عليه الأقدمون[38]. وهذا النسق الذي سار عليه هو أنه يبدأ بالمضاعف، ثم بالأجوف الواوي واليائي، ثم بالمهموز، فـإذا لم يكن الأجوف فإنه يذكر المهموز[39].

ويمكن اعتبار كتاب «سرّ الليال» باكورة المباحث اللغوية التي تناولت في عمل تطبيقي مسألة الجذور، القائمة على أساس أن اللغة الصوتية نشأت إذ بدأ الإنسان بمحاكاة الأصوات الطبيعية، وإذ قصد من هذه المحاكاة التعبير عن الشيء الذي يصدر عنه الصوت المحاكي، أو عما يلازمه أو يرافقه من أحوال، مستخدماً في هذه المحاكاة ما عنده من قدرة على لفظ أصوات مركبة ذات مقاطع، كانت في مستهل أمرها محدودة الألفاظ، قليلة التنوع[40].

وتحدث الشدياق عن كتابه «سر الليال» بقوله: «من فوائد «سرّ الليال» إذا اتخذت الفعل المضاعف أصلاً، وفرعت عليه جميع الأفعال، وجدت بينه وبينها تناسباً وتجانساً، بحيث تتأمل في حقيقة الأصل، وتدرك معناه. مثال ذلك: لفظة فت، فإن معناه الدقّ والكسر بالإصبع، ولازمه التفتح، لأن كل ما انكسر انفتح. ثم نقول فتا، كمنع، كسر وأطفأ. وما فتا مثلثة أي ما زال، وحقيقة معناه ما انكسر وما انقطع. ثم فتح ضد أغلق وهو ظاهر. ثم الفتح، أصل معناه. انكسر. تقول: فتر الحر كما تقول انكسر الحر..»[41].

(37) المصدر نفسه، ص 5.

(38) المصدر نفسه، ص 22.

(39) المصدر نفسه، ص 607.

(40) إتجاهات البحث اللغوي الحديث في العالم العربي، 1—54.

(41) أحمد فارس الشدياق، كنز الرغائب في منتخبات الجوائب، جمعها سليم فارس، مطبعة =

ورأى الشدياق أن كتاب «سر الليال» موضوع لتبيين مشتقات الألفاظ ونسق الأفعال بعضها ببعض بإيضاح معانيها، وبهذه الطريقة تندفع دعوى من يدّعي أن بعض هذه الألفاظ مأخوذ من اللغات الأعجمية لمشابهة بينها وبين ما يقابلها في تلك اللغات، وضرب على ذلك مثالاً لفظة «كنز» فيرى أنها عربية لا عجمية الأصل (كمال يقال) لأنها تمت إلى فعل «كنّ» الذي يدل على الستر والاختفاء. . .[42].

وبين الشدياق أن من خصائص اللغة العربية الاشتقاق، حيث يمكن اشتقاق عدة ألفاظ من أصل واحد كقولك من كتب: كتاب ومكتب ومكتب (بفتح الميم وكسرها) وكاتب واستكتب فهذه المزية لا توجد في لغات العجم مطردة. . .[43].

وقد قرّظ عدد من الأدباء كتاب «سرّ الليال»، حيث بينوا أهميته، ومدحوا مؤلفه، وتحدّثوا عن فضله وعلمه، ومن هؤلاء محمود صفوت المصري، الذي قال:[44]

وكتاب تناسق اللفظ فيه	فهو عقد مفصل من لآلي
في كلام جماله في كمال	ومعان بديعة في معال
صرف النطق والبلاغة فيه	ببيان في القلب والإبدال
عارض الدر بالصحاح من الجو	هر والبدر طالعا في كمال
بلغات من الفصيح بليغا	ت بيان أتى بسحر حلال
أبدل القلب سرها في المعاني	فأرانا تصرف الإبدال. . .

وعند الحديث عن دور الشدياق في تطوير المعجم العربي، لا بدّ من

= الجوائب بالأستانة، 1288هـ، ط1، ج1، ص ص 197—198.

(42) انظر: المصدر نفسه، 1—189.

(43) المصدر نفسه، 1—191.

(44) المصدر نفسه، مطبعة الجوائب، 1294، 4—70—71. وانظر مزيداً من ذلك: المصدر نفسه؛ 4—52وما بعدها.

الوقوف عند دوره في الترجمة والتعريب، ومساهمته في وضع كثير من المصطلحات العربية لمسميات أجنبية. لقد كان التقاء الشرق بالغرب في القرن التاسع عشر سبباً في أن يدخل إلى البلاد العربية كثير من مظاهر الحضارة الأوروبية وأدواتها، وهي أشياء لم يكن للعرب القدماء سابق اتصال بها... ومن هنا اقتضت الضرورة أن يكون لهذه الأشياء الحديثة في المعجم العربي الحديث، وفي الاستعمال الشائع ألفاظ عربية أو معربة تحدد معانيها وتدل عليها[45].

وقد حاول الشدياق وضع بعض الألفاظ العربية لمدلولات أجنبية، وعبّر عن المعاناة التي يلاقيها في موضوع التعريب بقوله: [46]

إذا كان ربّ البيت أدرى بما به	فإني أدرى بالذي أنا كاتب
ومن فاته التعريب لم يدر ما العنا	ولم يصل نار الحرب إلا المحارب
أرى ألف معنى ما له من مجانس	لدينا وألفا ماله لا يناسب
وألفاً من الألفاظ دون مرادف	وفصلاً مكان الوصل، والوصل واجب
وأسلوب إيجاز إذ الحال تقتضي	أساليب إطناب لتوعي المطالب
وعكس الذي قد مرّ أكثر فاتّئِدْ	ألا أيها ذا اللائمي والمعاتب
فيا ليت قومي يعلمون بأنني	على نكد التعريب جدّي ذاهب

ولا شك أن النحت من الطرق المهمة في التوسع اللغوي، وفي إثراء اللغة العربية، وسدّ أوجه النقص في ألفاظها وتراكيبها، وهو يُعطي فرصة للمتكلم بالعربية أن يعبر عما يريد بكلمة أو أكثر ليدل على معنى جملة أو كلمتين... والحقيقة أننا بحاجة إلى النحت، وهو أمر لا شك فيه، تدفعنا إلى ذلك حاجات علمية ومقتضيات حضارية، وتطور ضخم في العلوم

(45) محمد عبد الغني حسن، أحمد فارس الشدياق ، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، ص 143.

(46) كنز الرغائب في منتخبات الجوائب، مطبعة الجوائب بالآستانة، 1291هـ، ط1، ج3، ص ص 23—24.

والفنون والصناعات[47]. وقد أدرك الشدياق أن النحت وسيلة إيجابية في إثراء اللغة وتجديد ألفاظها، يقول: «وهناك وجه آخر في العربية لصوغ ألفاظ تسدّ مسدّ الألفاظ العجمية التي اضطررنا إليها وهو باب النحت... وكيفما كان فإن النحت طريقة حسنة تكثر بها مواد اللغة وتتسع أساليبها، ولها نظير في اللغة اليونانية، وسائر اللغات الإفرنجية، وهي التي كثرت مواد لغاتهم وأحوجتنا إلى الأخذ منها، فقولنا الجغرافيا والفلسفة والجومتريا والجيولوجيا كلها ألفاظ يونانية منحوتة أو مركبة، ولولا هذا التركيب لما كان للغة اليونانية فضل على غيرها بشيء، وهي وإن فضلت لغات الإفرنج لا تفضل لغتنا، لأن الألفاظ البسيطة عندنا أكثر من المركبة، وهي أفضل ما لم تحوج الضرورة إلى التركيب والنحت وحينئذ يعمد إليه...»[48].

وبين الشدياق أن العرب الأولين لو شاهدوا البواخر وسكك الحديد، وأسلاك التلغراف والغاز والبوسطة ونحو ذلك مما اخترع في البلاد الغربية لوضعوا له أسماء خاصة به، ورأى أن كل اللوم يقع علينا في الوقت الحاضر حيث إننا كما يقول الشدياق «قد ورثنا لغتهم، وشاهدنا هذه الأمور بأعيننا ولم ننتبه لوضع أسماء لها على النسق الذي ألفته العرب وهو الاختصار والإيجاز. أفيظن أحد أن لفظة المشير والسفير والوالي والمتصرف والمدير ومجلس الشورى لا ينبغي أن تعد من الألفاظ العربية لأنها لم تكن معروفة للدولة العباسية، فإذا برأ أحد تلك الدولة لعدم اتخاذها هذه الألفاظ إذ الحاجة لم تمسّ إليها، لم يكن له أن يلوم دولة أخرى على اتخاذها مع وجود الحاجة»[49].

ولاحظ الشدياق أن اللغة العربية أحسن اللغات صيغاً وأساليب وأتمها

(47) د. أحمد عبد الرحمن حماد، عوامل التطور اللغوي، دار الأندلس، بيروت، 1983، ط1، ص 40.

(48) كنز الرغائب، 1—205—206.

(49) المصدر نفسه، 1—205.

وأكملها نسقاً وتأليفاً، وبيّن أن «قولنا «الفَهمْ» خير من قول الفرنسيس «كمبراندر» ومن قول الإنكليز «اندرستاند»، ومعنى الأول مع الأخذ، ومعنى الثاني تحت القيام، وقس على ذلك ألوفاً من الألفاظ التي اصطلح عليها الإفرنج للتفاهم وهي من أصل وضعها خالية المعنى بخلاف اللغة العربية»[50].

ودعا الشدياق أبناء العربية إلى تحرير ألفاظ من باب النحت تغنينا عن الألفاظ العجمية التي أحوجتنا إلى استعمالها الضرورة وذلك مثل «الكومسيون والكونستيتوسيون والقونغرانس، وما أشبه ذلك»[51] وأكد ضرورة وجود ما يسمى الآن «مجمع لغوي» ورأى أن «العرب المستعربين بخسوا اللغة العربية حقها، فإنهم عدلوا عنها إلى اللغات العجمية من دون سبب موجب فإن من يستعير ثوباً من آخر وهو مستغن عنه يحكم عليه بالزيغ والبطر، فلو نشأت في القرن الأول جمعية أدبية كما نرى الآن في مملكة أوروبا مما يعرف عندهم بلفظة أكاديمي لما دخلت ألفاظ العجم في لغتنا»[52]. ويقول «وكان بودي لو تنتظم جماعة من الأدباء لاختراع ألفاظ تسد مسد الألفاظ العلمية، والاصطلاحات التي نجدها في كتب الإفرنج نحو التلغراف والغاز وما أشبه ذلك. . . »[53].

ورأى الشدياق أنه إذا كان بالإمكان الإتيان بكلمة عربية بالاشتقاق فلا حاجة لنقل المصطلح نفسه، يقول: «لا شك في أن مفردات العربية غير تامة بالنظر إلى ما استحدث بعد العرب من الفنون والصنائع مما لم يكن يخطر ببال الأولين، وهو غير شين على العربية إذ لا يحتمل أن واضع اللغة يضع أسماء لمسميات غير موجودة، وإنما الشين علينا الآن في أن نستعير هذه الأسماء من اللغات الأجنبية مع قدرتنا على صوغها من لغتنا، على أن أكثر

---

(50) المصدر نفسه، 1—204—205.

(51) المصدر نفسه، 1—205.

(52) المصدر نفسه، 1 — 202.

(53) كنز الرغائب، مطبعة الجوائب، 1295، 17، ج5، ص 3.

هذه الأسماء هو من قبل اسم المكان والآلة وصوغ اسم المكان والآلة بالعربية مطرد من كل فعل ثلاثي، فما الحاجة إلى أن نقول فبريقة أو كارخانة ولا نقول معمل أو مصنع أو أن نقول بيمارستان ولا نقول مستشفى . . . أو أن نقول اسطرلاب ولا نقول منظر . . . »[54].

وقد ترجم الشدياق ألفاظاً كثيرة وحاول أن يشتق لها معاني من اللغة العربية، ومن هذه الألفاظ:

- الملاكمة[55] في مقابل boxe - صيدلي[56] في مقابل pharmacien - الرتل[57] في مقابل train، وتستخدم الآن كلمة قطار. - قبوة في مقابل tunelle. وتستخدم الآن كلمة نفق. يقول الشدياق: «دخل الرتل في قبوة مظلمة منقورة في الصخور، فسار فيها نحو عشر دقائق . . . »[58].

وقد يأتي الشدياق بكلمتين لتحديد دلالة كلمة أجنبية واحدة، نحو:

اليد القصيرة[59] في مقابل الاختزال. مدرسة جامعة[60] في مقابل جامعة. دار كتب[61] في مقابل مكتبة. كاتب السر[62] في مقابل سكرتير. مستوفي الأموال[63] في مقابل جابي. إبرة المغناطيس[64] في مقابل بوصلة. كاتب

---

(54) المصدر نفسه، 1—203.

(55) انظر: المجلد الذي يضم كتابي «الواسطة في معرفة أحوال مالطة» وكشف المخبأ، عن فنون أوروبا»، مطبعة الجوائب، 1299هـ، ط2، ص 120.

(56) المصدر نفسه، ص 372.

(57) المصدر نفسه ، ص 100.

(58) المصدر نفسه ، ص 70.

(59) المصدر نفسه ، ص 353.

(60) المصدر نفسه، ص 26 .

(61) المصدر نفسه ، ص 28 .

(62) المصدر نفسه ، ص 45 .

(63) المصدر نفسه، ص 45.

(64) المصدر نفسه ، ص 98.

ديوان التلغراف[65] في مقابل مبرق. المرايا المكبرة[66] في مقابل تلسكوب.

وقد يعبّر الشدياق بجمل عن اللفظ حين لا يستطيع الإتيان بكلمة واحدة مقابل اللفظ الأجنبي، قال في وصف ما يسمى اليوم بالملقن: «وقد يوارون شخصاً بيده الكتاب الذي تحفظ منه تلك الحكايات في مكان حتى إذا ذهل المتكلم عن شيء رده»[67]. وقال عمّا يسمى اليوم بالتمثيل الإيحائي (بنطوميم) «وهو لعب بالإشارة والحركة من دون محاورة»[68].

وقال عن التنويم المغناطيسي أو ما سماه هو المزمرة: «هي إمرار اليد على وجه إنسان حتى يغيب عن الإدراك، وهي نسبة إلى رجل نمساوي اسمه مزمر، فاشتقوا منه فعلاً، يقال مزْمَرَهُ أي عالجه بإمرار اليد...»[69] وتحدث عن الكرنيفال carnaval قائلاً «ومن ذلك ـ أي اللهو ـ ثلاثة أيام في المرفع، ويعرف بالكرنيفال، وهي الأحد والاثنين والثلاثاء. يلبس فيها الرجل كالمرأة، والمرأة كالرجل، ويتزينون بهيئات متنوعة، وأشكال مختلفة، ويغطون وجوههم على هيأة الوجه...»[70].

وعندما لا يستطيع الشدياق أن يشتق للكلمة الأجنبية لفظاً بالعربية، فإنه يلجأ إلى التعريب، وإجراء الألفاظ المعربة على أوزان العربية إذا استطاع، وإلا فابقاؤها على حالها ، فمن ذلك:

ـ دكطور ودكطر[71] بدلاً من doctor ـ الكرنتينة[72] بدلاً من quarantaine، أي الحجر الصحي. ـ انستيتوسيون[73] بدلاً من institution،

(65) المصدر نفسه.

(66) المصدر نفسه، ص 207.

(67) المصدر نفسه ، ص 25.

(68) المصدر نفسه، ص 306 .

(69) المصدر نفسه، ص 310 .

(70) المصدر نفسه، ص 194.

(71) المصدر نفسه، ص 23.

(72) المصدر نفسه، ص 41.

(73) المصدر نفسه ، ص 45.

أي مؤسسة. ـ بالي روايال[74] بدلاً من palais royal، أي القصر الملكي. ـ الجوري[75] بدلاً من jury، أي المحلفين. ـ جرنال[76] بدلاً من journal، أي صحيفة. ـ بانورامة[77] بدلاً من panorama. ـ جاردن[78] بدلاً من jardin، أي حديقة.

ومن طرق الترجمة عند الشدياق أنه كان يستخدم اللفظ الأجنبي بنطقه في لغة القوم، ثم يضع بجانبه الترجمة الحرفية لما يقابل معناه في اللغة الأجنبية، كقوله: معرض التحف «وهو المسمى عند الفرنسيين اكسبوزسيون»[79]، وقوله: «وفي بارس ألف وسبعة (مرآب) ويقال لها بنسيونات»[80] وقوله: «واعلم أنه من يدخل فرنسا فلا بد له من أن يبرز (جوازه) في الثغور، أي الباسبورت»[81]. وقوله «(المنتديات) أي الكلوب»[82] وقوله: «(الملهى) وهو المسمى عندهم بلفظ التياطر أو التياطرو»[83]. وقوله «إن بعض الديار يصبغون (مائدة عمومية) يسمونها تابل دوت»[84]. وقوله: «فأما اختراع أداة الإبرة المسماة عند الإفرنج بالكومباس...»[85]. وقوله: «إنهم يفتخرون بالهسبيتاليتي وهي قرى الضيف وبر الغريب»[86].

وقد شارك الشدياق المستشرق الإنجليزي الدكتور «لي» في ترجمة

---

(74) المصدر نفسه، ص 228.
(75) المصدر نفسه، ص 227.
(76) المصدر نفسه ، ص 136.
(77) المصدر نفسه، ص 74.
(78) المصدر نفسه، ص 312.
(79) المصدر نفسه، ص 240.
(80) المصدر نفسه، ص 275.
(81) المصدر نفسه ، ص 228.
(82) المصدر نفسه، ص 216.
(83) المصدر نفسه ، ص 169.
(84) المصدر نفسه، ص 34.
(85) المصدر نفسه، ص 237.
(86) المصدر نفسه، ص 99.

التوراة، وتعدّ ترجمة الشدياق للكتاب المقدس أصح الترجمات كما يقول يوسف الدبس[86أ]. وعندما أنهى الشدياق مهمته في ترجمة «التوراة» كان قد دفع بتعريب الكتابات الدينية أشواطاً بعيدة، وظلت ترجمته مرجعاً لكل محاولة أتت بعده، فقد كان يمتلك ناصية اللغة امتلاكاً عز على أنداده، وفي ذهنه من المترادفات والمفردات ما يشبه القاموس. . .»[87].

وترجم الشدقاق كتاب (شرح طبائع الحيوان) عن اللغة الانجليزية، حيث وضع فيه أسماء بعض الحيوانات، وقسّم الكتاب إلى قسمين، قسم تحدث فيه عن ذوات الأربع والطير خاصة، والقسم الآخر تناول فيه الأسماك والهوام والحشرات. ومن الألفاظ التي وردت في هذا الكتاب:

- الأزيون : طائر ظريف الشكل والمنظر[88].
- البريمات : أي الحيوان التي لها نابان وأربع أسنان قاطعة ولها في صدرها ثديان[89].
- الكوكو : طائر هو الطيطوي[90].

ولاحظ الشدياق أن الترادف من العوامل المهمة في التوسع اللغوي، حيث يلعب دوراً كبيراً في حياة اللغة العربية، فهو من الأسباب التي تؤدي إلى إثراء اللغة بألفاظ متعددة. ورأى أن الألفاظ المترادفة لو كانت بمعنى واحد لسميت متساوية، بل تكون الألفاظ مترادفة أي أن بعضها يقوم مقام بعض» والدليل على ذلك أن الجمال مثلاً والطول والبياض والنعومة والفصاحة تختلف أنواعها وأطوالها بحسب اختلاف المتصف بها. فخصت

(86أ) المصدر نفسه، ص 197، وانظر: مقال الأستاذ ظافر القاسمي، مصطلحات شدياقية، مجلة المجمع العلمي العربي السوري، دمشق ، نيسان (أبريل) 1965، المجلد الأربعون، الجزء الثاني ، ص 430 وما بعدها.

(87) مارون عبود، أحمد فارس الشدياق (صقر لبنان)، دار مارون عبود، بيروت، 1975، ط2، ص 94.

(88) أحمد فارس الشدياق (آثاره وعصره)، ص 154.

(89) المصدر نفسه، شرح طبائع الحيوان ـ طبع مالطة 1841، ج1، ص 247.

(90) المصدر نفسه، 1—5.

العرب كل نوع منها باسم. ولبعد عهدهم عنا تظنيناها بمعنى واحد. وقس على ذلك أنواع الحلي والمأكولات والمشروبات والملبوس والمفروش... لا بل عندي... أنه إذا كان اسمان مشتقان من مادة واحدة، وكانا يدلان على معنى واحد كالنحجوح والنحجوجاه مثلاً للريح الشديدة المر فلا بد وأن يكون الاسم الزائد في اللفظ زائداً في المعنى أيضاً»[91] وكتاب الشدياق «الساق على الساق» مليء بالمترادفات، ويلاحظ هذا بخاصة في وصف الشدياق للنجوم[92]، وأدوات السلاح[93]، والأصنام[94]، والمحامل[95]، ومراكب البحر[96]، وأوصاف النساء[97]، والبيوت[98]، ووصف الجواهر[99]، والطيب[100]، والثياب[101]، والعيوب والأمراض[102].

وقبل أن نختم الحديث عن جهود الشدياق في تطوير المعجم العربي لا بدّ من الإشارة إلى النقاط التالية:

- كان الشدياق منصفاً حيث لم ينكر فضل الفيروز آبادي في ضبط ألفاظ «القاموس»، وهو الذي ألجأ الشدياق إلى الخوض في بحر اللغة الزاخر، والشدياق يعترف بأن لصاحب القاموس عليه فضلاً كبيراً... وهو لم يقصد فيما أورده من نقد «القاموس» «الإزدراء بقدر مؤلفه، أو تزييف كلامه،

(91) المصدر نفسه، 1—251.
(92) سر الليال، ص 10.
(93) أحمد فارس الشدياق، الساق على الساق في ما هو الفارياق، دار مكتبة الحياة، بيروت، ط2، ص 202.
(94) المصدر نفسه، ص ص 204—206.
(95) المصدر نفسه، ص ص 206—209.
(96) المصدر نفسه، ص 217.
(97) المصدر نفسه، ص ص 227—228 .
(98) المصدر نفسه، ص 280 وما بعدها، ص 432 وما بعدها، ص 617 وما بعدها.
(99) االمصدر نفسه.
(100) المصدر نفسه، ص 292 وما بعدها.
(101) المصدر نفسه، ص 225وما بعدها.
(102) المصدر نفسه، ص 331 وما بعدها.

وبخس زخرفه معاذ الله تعالى أني أشهد الله وهو على كل شيء شهيد أني لولا بركة القاموس وغوصي على جواهره لما تعلمت من اللغة ما أوصلني إلى تحرير هذا الكتاب. . . . »[103].

- إن الناظر في كتب الشدياق يرى فيها صورة بينة لاجتهاد المؤلف وتدقيقه العلمي، فإنه قلما يقرر حكماً إلا بعد أن يتضح له صوابه بالمراجعة الشاملة والاستقراء الراهن على أنه لا يتقيد بالنقل فقط، بل يستعمل الاستدلال العقلي حيث يرى مجال العقل مفتوحاً لديه[104]. ومن أمثلة اجتهاده تصويبه مثلاً للألفاظ التالية:

- اكتشف : وهذا الحرف ليس في الصحاح، ولا التهذيب، ولا المحكم، وعنده أن استعماله متعدياً بمعنى كشف صواب[105].

- اقتطف : قال: اقتطف بمعنى قطف لم أجده في الكتب مع كثرة استعماله، وأغرب من ذلك خلو الأساس من مادة قطف بالكلية. ثم وجدت في الشارح أن أبا جعفر الرعيني صنف كتاباً سماه «اقتطاف الأزاهر»[106].

- تولع به: يقول: «ليس هذا الفعل في كتب اللغة، على أن كبار الأدباء كالمحشي والخوارزمي، وثعلب قد استعملوه. . . »[107].

ودعا الشدياق إلى اتباع أسلوب المولدين في التوسيع على اللغة، ورأى أنه لا خير من الاحتجاج بكلام المولدين شريطة أن يكونوا متضلعين في العربية كجرير والفرزدق والأخطل وبشار بن برد ومهيار الديلمي وأبي نواس. . . وعلل الشدياق دعوته هذه بقوله «إن المولدين راعوا حق اللغة،

---

(103) المصدر نفسه، ص 340 وما بعدها.
(104) المصدر نفسه، ص 374 وما بعدها.
(105) سر الليال، ص 21.
(106) أنيس المقدسي، الفنون الأدبية وأعلامها، دار العلم للملايين، بيروت، ط1، 1978، ص 174.
(107) الجاسوس، ص 619.

والتزموا قواعدها أكثر من العرب في الجاهلية، لأنهم اعتقدوا أن اللغة وسيلة إلى فهم التنزيل والحديث الشريف فبالغوا في ضبطها ما أمكن»[108]. كذلك «لا يمكن ـ كما يقول الشدياق ـ أن يخطر ببال عاقل منصف أن الشاعر البليغ من هذه الطبقة يخترع ألفاظاً ليس لها أصل في العربية، وهو بين ظهراني علماء ينتقدون على الطائر طيرانه. . .»[109] وبين أن السبب الـذي يحدو بالمولدين إلى المجيء بشيء مخالف للأصول والقواعد هو عدم وقوفهم على نص فيه، أو لأنهم كانوا قادرين على توجيهه وتخريجه بخـلاف العرب العاربة، فإنهم ـ كما يقول الشدياق ـ خالفوا تلك الأصول لعدم المبالاة ولهذا قيل ما جاز للعرب المتقدمين لم يجز للمتأخرين، وبقي النظر في قول العلماء إن كلام المولدين لا يحتج به. ويناقش الشدياق العلماء في معنى كلمة مولد قائلاً «فغاية ما قالوه في المولد إنّه عربي غير محض، فإن كان المراد بذلك أنه الذي نشأ بعد الإسلام، فهو محض تعنت، لأن من هؤلاء المولدين من عاش قبل أن عرف التأليف في اللغة، فكيف يحكم على كلامهم بأنه لم يكن عربياً صحيحاً من دون كتب اللغة، على أن كل ما ألف في اللغة لم يكن مستقصياً لجميع مفرداتها. وعلى كل فكان ينبغي لمن أنكر الاحتجاج بكلام المولدين أن يبين عصرهم»[110].

ـ يلاحظ أن مقدمة كتاب «الجاسوس» خليط مضطرب من نقد المعاجم عامة والقاموس خاصة، وتاريخ المعاجم، وبعض المآخذ عليها، والخلاف بين اللغويين، وترجمة الجوهري، وابن سيدة، والصغاني ، وابن منظور. ولا يفصل الشدياق كل أمر من هذه الأمور عن الآخر، بل يخلط بينها أحياناً، ويكررها كثيراً، ويخرج من أحدها إلى الآخر. . . يضاف إلى ذلك أنه تناول فيها كثيراً من النقود المخصص لها فصول فيما بعد. . . والحق أن كتاب «الجاسوس» «ذخيرة غنية بالمعلومات عن «القاموس المحيط»

---

(108) المصدر نفسه، ص 619.

(109) المصدر نفسه، ص 118. وانظر الفنون الأدبية وأعلامها ، ص ص 174—175.

(110) الجاسوس ، ص 520.

وكثير غيره من المعجمات وأصحابها وخصائصها وعيوبها. ولا يعيبه غير الاضطراب الذي عرا بعض فصوله، وتكريره الكلام في الأمر الواحد في أكثر من فصل»[111].

- ذكر الشدياق أن صاحب «القاموس» قد ألف كتابه ليساعد طلاب العربية على تفهم معاني المفردات، ولذلك وضع كتابه موجزاً ليسهل عليهم حفظه، ولكن الشدياق لم يكن مرتاحاً لاختيار الفيروز آبادي ترتيب الصحاح أساساً يسير عليه، إذ كان الأوفق أن يختار الترتيب العادي الذي سار عليه ابن فارس في «مجمله»... ودعا الشدياق علماء اللغة إلى ترك النظم التقليدية واتباع الترتيب العادي، ولكن هو نفسه لم يلتزم ذلك في كتابه «سر اللّيال»... وعند ترتيبه للكلمات، نجد أنه رتبها بالنظر إلى أواخرها، أي حسب نظام القافية، فإن الباء في (حب) مثلاً، سابقة على الحاء في (بح)، والبحث عن (بر) مثلاً، يكون في (رب) وعن (جل) في (لج)... فإذا أردنا أن نعرف أين موضع الثلاثي كتب، فعلينا أن نعرف أن أصل مادتها (ك، ت)، وحيث إن (ت) مقدمة في قائمته على (ك) فنتوقع أن نجد الأصل (ت ك) الذي يندرج تحت مقلوبه (ك ت) في فصل التاء. والتزام الشدياق قلب الأفعال أدى به إلى قطع بعضها عن سلسلة نسقها. مثال ذلك أورد (بح) في قلب (حب)، وكان الأصل أن يكون بعد (أح). ولكن هذا ما اقتضاه نظام الترتيب الذي اختاره[112].

- كان لدعوة الشدياق ترك ترتيب القافية أثر كبير لدى العرب الذين تأثروا باتصالهم بالغرب، فأخذوا عنهم ثقافتهم، واهتموا باللغة اهتماماً عظيماً حتى إنهم أخرجوا لنا هذه المعجمات المطولة على الترتيب العادي...[113] فقد حاول بطرس البستاني أن يرسم الخطوط الكبرى

(111) المعجم العربي (نشأته وتطوره)، ص 616.

(112) إتجاهات البحث اللغوي الحديث في العالم العربي، 1—147.

(113) د. حكمت كشلي، المعجم العربي في لبنان، دار ابن خلدون، بيروت، ص 1، 1982، ص 99.

للمعجم الذي نحتاج إليه في عصرنا الحاضر في مقدمته «لبستان» الشيخ عبد الله البستاني، فوضع التخطيط، وعاب المعجمات القديمة[114]. وجمع الشيخ سعيد الشرتوني «أقرب الموارد إلى فصيح العربية والشوارد» وألف جرجس همام «معجم الطالب في المأنوس من متن اللغة والاصطلاحات العلميّة والعصريّة» وأخرج الأب لويس معلوف «المنجد» وألّف أمين المعلوف معجماً متخصصاً هو «معجم الحيوان» حيث أفاد فيه من كتاب الشدياق المترجم «شرح طبائع الحيوان».

ودعوة الشدياق في «الجاسوس» و«سر الليال» لاقت أذناً صاغية لدى جرجي زيدان في كتابه «فلسفة اللغة»، وإبراهيم اليازجي في مقالاته المعروفة باسم «الأمالي اللغوية»، وفي نقده «لسان العرب»، و«تاج العروس»... [115].

كما مهد الشدياق في نقده المعياري لأئمة اللغة ومعجمي التراث الطريق لمن جاء بعده، كرشيد عطية، وشاكر شقير، وإبراهيم الأحدب، وعبد الرحمن سلام، الذين عمقوا هذا الاتجاه المعياري، في نقد حملة الأقلام والشعراء[116].

ويبدو واضحاً أن الشدياق من القائلين بنظرية التقليد والمحاكاة في أصل اللغة ونشأتها، ولكن كثيراً من العلماء يرفضون هذه النظرية ويذهبون إلى غيرها من النظريات، لأنها تبني رأيها الرئيس على عدد محدد من الكلمات التي يماثل معناها صوت الظاهرة الطبيعية الصادر عنها، ومن المعلوم أن موضوع أصل اللغة ونشأتها يعد من أقدم الموضوعات التي شغلت المفكرين والعلماء والفلاسفة وحتى الحكام والملوك القدماء، فمنهم من

(114) الشيخ عبد الله البستاني، معجم البستان، المطبعة الأميركانية، بيروت، 1937، ج 1، ص 15 وما بعدها.

(115) انظر: ميخائيل صوايا، أحمد فارس الشدياق (حياته وآثاره)، دار الشرق الجديد، بيروت؛ 1962، ط1، ص 50، المعجم العربي في لبنان، ص 78.

(116) إتجاهات البحث اللغوي الحديث في العالم العربي، 1—273.

استند في دعم حجته إلى بعض القصص الدينية ومنهم من استند إلى الفلسفة والمنطق. وأبرز النظريات التي جاءت فيها آراء اللغويين القدماء والمحدثين: التوقيفية، والوضع والاصطلاح، والتقليد والمحاكاة Bow—Wow، والغريزية Pooh—Pooh، أو ما يسمى Ding—Dong، أو ما نطق به قوم بعينهم فالتزم به الأفراد وتسمى Yo—he—ho وكلها نظريات وافتراضات لا تملك دعماً علمياً.

يوسف مسلم أبو العدوس
جامعة اليرموك، إربد

أحمد فارس الشدياق
وقضايا المعجم العربي

بحث : الدكتور أحمد مختار عمر

مدخل

يعد أحمد فارس الشدياق (أو كما سمى نفسه بالفارياق نحتاً من كلمتي فارس وشدياق) واحداً من علماء اللغة القلائل الذين عشقوا اللغة العربية وافتتنوا بها، وألفوا حولها الكتب لكشف أسرارها وإبراز مواطن التفوق فيها. ولم يكتف بتأليف الكتب عنها، وإنما كان يحاول ـ في استخداماته اللغوية ومن خلال أساليب التعبير التي يختارها ـ أن يثبت تفوقها وتميزها، وأن يبرز أسرار الجمال فيها، حتى إنه صرح في مقدمة كتابه «الساق على الساق» بأنه هدف أولاً إلى «إبراز غرائب اللغة ونوادرها» (ص 1) كما أنه دافع عن كثرة استخدامه للغريب من الألفاظ وللمترادف والمتقارب منها بأنه قصد به «إبراز محاسن لغتنا هذه الشريفة، وتشويق القارئين» إليها (الساق ص 509). بل أكثر من هذا نراه يؤلف كتاباً يبحث فيه خصائص الحروف الهجائية عند العرب ويختار له عنواناً كاشفاً هو «منتهى العجب من خصائص لغة العرب». كما نراه يتجه في كتابه «سر الليال في القلب والإبدال» إلى رد كل فرع إلى أصله، وتنسيق معاني المادة تنسيقاً يبين مأخذها وعلاقتها ومناسبتها (سر الليال ص 13). ويكشف عن قصده في اختيار ترتيب يخالف الترتيب الهجائي المعروف مع البدء بالمضعف ـ يكشف عن قصده قائلاً «ولولا ما قصدت من الوصول إلى علم معاني الألفاظ والاطلاع على أصل وضعها وحكمة مبناها لما كان لي من عاذر على ارتكاب هذه المخالفة» (السابق

ص 22). وقد هداه تفكيره إلى خاصة فريدة في اللغة العربية وهي بناؤها على أصوات طبيعية «ولعمري إنّ من لم يكن يدري شيئاً من لغة العرب فإذا سمع مثلاً لفظة طنطن ودندن وجلجل ورنّم وكان ذا ذوق سليم فلا بد وأن يتوهم أنها حكاية أصوات. وكلما كانت اللغة مبنية على هذا المبنى الطبيعي كانت للنفس أشوق وبالطبع أعلق. ولو لم يكن للغة العرب إلا هذا الأسلوب البديع ليشهد بأنها أطبع اللغات وأبسطها لكفى» (السابق ص 25).

كما نراه يعبر عن مكنون نفسه تجاه هذه اللغة الشريفة فيقول في صدر كتابه «سر الليال»: «إن يكن المتقدمون قد اشتغلوا بهذه اللغة الشريفة فإني قد عشقتها عشقاً وكلفت بها حقاً حتى صرت لها رقاً فأزهرت لها ذبالي وسهرت فيها ليالي... فإني وجدتها قد مزنت بمزايا بديعة وزينت بصفات سنيعة، تظهر معها بهرجة ما سواها شنيعة» (ص 2).

وقد انعكس حبه وعشقه هذا في كثرة المؤلفات اللغوية والأعمال المعجمية التي تركها حول اللغة العربية، معجمها ونحوها وصرفها، ومن ذلك:

- المحاورة الإنسانية في اللغتين الإنجليزية والعربية.
- غنية الطالب ومنية الراغب في الصرف والنحو وحروف المعاني.
- كنز اللغات (فارسي - تركي - عربي).
- الجاسوس على القاموس.
- سر الليال في القلب والإبدال.
- منتهى العجب في خصائص لغة العرب.

(أحمد فارس الشدياق للدكتور محمد يوسف نجم ص 77—80).

هذا إلى جانب تفرق كثير من أبحاثه ومناظراته اللغوية في كتبه المختلفة وفي مقالاته في «الجوائب». فقد كان من عادته أن يستطرد في بعض المواضع إلى البحث اللغوي عندما يجد الجو مهيأ لذلك (السابق ص 196).

ولسنا هنا في مجال عرض كتبه اللغوية أو التعريف بها، وإنما ستتجه ببحثنا وجهة خاصة يكشف عنها عنوان البحث، وهي محاولة التعريف بجهود أحمد فارس الشدياق حول المعجم العربي وقضاياه. وكلمة «معجم» تطلق على معنيين مختلفين، وإن كانا مترابطين:

1 ـ فتطلق ـ في مفهومها الاصطلاحي ـ على الكتاب المصنف الذي يجمع بين دفتيه مفردات لغوية ما، ويرتبها بطريقة معينة.

2 ـ كما تطلق على مجموعة الرصيد أو السجل الذي يضم مفردات ناثر أو شاعر، وعلى المادة اللغوية الحية المستخدمة بالفعل.

وإذا كانت المعاجم المصنفة تقدم الكلمة والتعبير فإن استعمالها الفعلي هو الذي يخلع على مادة المعجم صفة الحياة، ويجعل عروقها تنبض بالدم فلا حياة للغة إذا كانت حبيسة المعجم، ولا قيمة لثروة لفظية لا تجد طريقها إلى الاستعمال.

وقد وجّه الشدياق قدراً كبيراً من جهده اللغوي للمعجم العربي بمعنييه السابقين، فناقش أسس «المعجم المصنف» وعرض لكثير من مشكلاته وقضاياه، وأبدى ملاحظات دقيقة على المعاجم العربية، كما كانت له جهود كبيرة في سبيل تنمية «المعجم الحي»، أو «المعجم العملي» مستغلاً قدراته اللغوية المتعددة، ومهاراته التعبيرية المتنوعة، ومستفيداً من ثروته اللغوية الضخمة التي بدأ في جمعها منذ نعومة أظفاره. وبذلك استطاع أن يحشد في مؤلفاته ـ حتى غير اللغوي منها ـ أكبر تجمع حي من الألفاظ والكلمات والتعبيرات، وأن يقدمها للقارىء في صورة جذابة وبأسلوب أدبي.

وسنبدأ بالمعجم المصنف لنرى أثر الشدياق فيه.

أولاً : المعجم المصنف

تمتاز ثقافة الشدياق باتساع الجانب اللغوي فيها، وتميزها في باب اللغة عنها في باب الأدب، ولذا يقول السندوبي: «هو أول من طرق أبواب

معجمات اللغة العربية من المتأخرين، واستثار كوامنها، وجرد نفسه لنقدها ومناقشة أصحابها الحساب على ما وهموا فيه من كلماتها، وما وقع لهم من الأغلاط في معانيها ومشتقات ألفاظها بما لم يعهد في سواه من الإنصاف والحرية وبعد النظر» (أحمد فارس الشدياق للدكتور محمد خلف الله ص 90).

ويكشف الشدياق عن ولعه منذ الصغر بالجانب اللغوي فيقول: «كان للفارياق ارتياح غريزي من صغره لقراءة الكلام الفصيح، وإمعان النظر فيه ولالتقاط الألفاظ الغريبة التي كان يجدها في الكتب» (الساق على الساق ص 24).

وعلى الرغم من أن الشدياق لم يصرف همه إلى تأليف معجم عربي[1]، فإن العمل المعجمي كان شغله الشاغل، وعمله الدائب. وقد جاء اهتمامه بالمعجم نتيجة معايشته اليومية له سواء أثناء احترافه التدريس، أو اشتغاله بالترجمة واطلاعه على بعض المعاجم في اللغات التي يترجم منها أو ينقل إليها (انظر خلف الله: الشدياق ص 110).

ويعد كتاباه «الجاسوس على القاموس»، «سر الليال» من الأعمال المعجمية إذ خصص الأول لنقد القاموس المحيط وبيان أخطائه التي بلغت أربعة وعشرين خطأ، وقدم له بدراسة عن التأليف المعجمي عند العرب، وخصص الثاني لتحقيق فكرة راودته حول المادة المعجمية تقوم على رد الفروع إلى الأصول وتنسيق معاني المادة بطريقة تكشف عن مآخذها وعلاقاتها ومناسباتها، واتخذ الفعل المضاعف أساساً لهذا الترتيب.

ومعظم آراء الشدياق عن المنهجيّة المعجمية تجدها في مقدمة «الجاسوس» وفي ثنايا نقداته للقاموس، كما أنه أشار إلى بعضها في كتابه «سر الليال» ومن هذا وذاك يمكن أن نستخلص الأسس الآتية:

1 ـ ترتيب المادة اللغوية :

ينتقد الشدياق ترتيب حروف المعجم «فإنه فصل بين الحروف الحلقية والمهموسة وغيرها، وأنكرُ من ذلك أنه أقصى الواو عن الهمزة، مع أن الواو كثيراً ما تقلب همزة لشدة ما بينهما من التآلف، كما في التوكيد والتأكيد، والتوقيت والتأقيت. . حتى قرر بعضهم أن كل واو كسرت أو ضمت فلك أن تقلبها همزة كما في وجوه وأجوه. . وغير ذلك مما لا يحصى، ولم نسمع قط أن الباء قلبت همزة مع أنها في الترتيب تاليتها. وأنكر من هذا وذاك أنهم جعلوا الياء آخر الحروف ونحن نرى الأطفال ينطقون بها وبالهمزة أول ما تنفتح أفواههم للنطق، ولا يخفى أن معظم الأفعال المعتلة واردة من المهموز، وأن الهمزة كثيراً ما تقلب حرف علة» (سر الليال ص 22). ولكنه لم يفطن إلى أن الترتيب الصوتي الذي اتبعه الخليل في معجم العين يحقق القدر الأكبر من مطالبه، إذ يجمع الأصوات المتحدة المخارج معاً، ويضع الهمزة إلى جانب الواو والياء. فكان حقه أن يتبنى في منهجيته الترتيب الصوتي، وهو ما يبدو أنه رفضه لصعوبته (الجاسوس ص 23) ولذا فإنه حين جاء إلى الاختيار اختار الترتيب الهجائي الذي نقده وأخذ يوازن بين طريقتي الصحاح وأساس البلاغة ثم اختار طريقة الأساس. يقول الشدياق في «سر الليال» بعد أن بين أن المضاعف هو الأصل وأن المعاني تدور على فاء الكلمة وعينها:

«وبذلك تعلم أن هذا النسق لم يجر على ألسنة العرب عفواً، وأن تبويب الكلام في كتب اللغة على أواخر حروفه مفرّق لمعاني الألفاظ ومشتِّت لمبانيها» (ص 27). ويعيد نفس الفكرة في كتابه «الجاسوس» فيقول: «لا جرم أن الترتيب الذي جري عليه الصحاح واللسان والقاموس مسهل للمطلوب وخصوصاً جمع القوافي، إلا أنه فاصل لتناسق معانيها ومُوارٍ لأسرار وضعها ومبانيها» (ص 26).

ثم يقول: «فالأولى عندي ترتيب الأساس للزمخشري والمصباح

للفيومي أعنى مراعاة أوائل الألفاظ دون أواخرها» (ص 26—27). ويرد على من فضل طريقة الصحاح قائلاً: «فإن قيل إن هذا الترتيب (الترتيب على الأوائل) لا يعين الشاعر على جمع الألفاظ التي تأتي على روى واحد فالأولى ترتيب الصحاح قلت: الخطب هين. فعلى اللغويين أن يبينوا سرّ الوضع وعلى الشعراء أن يؤلفوا كتاباً في القوافي» (ص 27).

وإلى جانب اختيار الشدياق لترتيب مادة المعجم على الأوائل طبقاً للترتيب الهجائي المعروف قدم طريقة أخرى طبقها بمهارة في كتابه «الساق على الساق»، وهي طريقة المجالات أو الحقول المعجمية. هذه الطريقة تقوم على تقسيم مادة اللغة إلى مفاهيم أو موضوعات يضم كل واحد منها الكلمات التي تندرج تحته مع بيان معنى كل لفظ وتوضيح علاقته بالكلمات الأخرى المصاحبة له في نفس المجال. (انظر علم الدلالة للدكتور أحمد مختار ص 79 وما بعدها).

وليس «الساق على الساق» معجماً حتى نتوقع منه أن يستوعب كل المجالات المعجمية، وإنما هو كتاب في السيرة الذاتية تناول حياة مؤلفه حتى قدومه الآستانة فقط (يوسف نجم: أحمد فارس الشدياق ص 105). ومع هذا نجد المؤلف في المقدمة يغفل هذا الغرض الأساسي، ويشير إلى غرضين: أولهما نص في العمل المعجمي، والآخر استطاع بثقافته اللغوية الخصبة أن يحوله إلى عمل شبه معجمي. يقول الشدياق: «جميع ما أودعته في هذا الكتاب مبنى على أمرين: أحدهما إبراز غرائب اللغة ونوادرها ويندرج تحت جنس الغريب نوع المترادف والمتجانس.. والقلب والإبدال وإيراد ألفاظ كثيرة متقاربة اللفظ والمعنى.. والأمر الثاني ذكر محامد النساء ومذامّهن، فمن هذه المحامد ترقى المرأة في الدراية والمعارف.. وحركات النساء الشائقة، وضروب محاسنهن المتنوعة التي لم يتصور منها شيء إلا وذكرته في هذا الكتاب..» (الساق ص 4 تنبيه).

ولهذا لا تغفل عين القارىء للكتاب عن هذا الغرض المعجمي الذي

تغلغل في ثنايا مادة الكتاب حتى طغى على هدفه الأساسي غير المعلن. وقد تنبه الدكتور محمد يوسف نجم إلى هذه الحقيقة فذكر أن من أهداف الكتاب إيراد الألفاظ المترادفة والمتجانسة التي رتبها حسب المواضيع (ص 86)، وأن ما ورد منها يشكل مجموعات طريفة من موضوعات مختلفة تتعلق بالفرد والكون والمجتمع مثل ألفاظ الأصوات، والعشق، والناسك، وأسماء آلات الحرب، والنجوم والفرش، والآنية، والطعام والشراب وسواها (ص 104).

ويقول ناشر الكتاب في مقدمته: «رأيته قد اشتمل على فوائد جزيلة من سرد ألفاظ كثيرة من المترادف والمتجانس... وخصوصاً لاشتماله على أخص ما يلزم معرفته من الآلات والأدوات، واستيفائه لجميع أصناف المأكول والمشروب والمشموم والملبوس والمركوب والحلى والجواهر مما لم يوجد في كتاب غيره على هذا النمط». ولم يكتف الشدياق بعرض الألفاظ المترادفة في أماكنها مصنفة حسب الموضوعات، فاستدرك ما أغفله منها في بابه «في الجدول المبين للألفاظ المترادفة» (مقدمة الناشر).

ب ـ الترتيب الداخلي للمادة:

أكثر ما ضايق الشدياق في المعاجم العربية، غياب النسق في عرض مفردات اللغة تحت المادة الواحدة. فما دامت المعاجم العربية قد اختارت طريقة الجذور في ترتيب الكلمات، وكانت هذه الطريقة تقتضي سوق العديد من الفروع والاشتقاقات تحت المدخل الواحد، فقد كان من المنطقي أن تتفطن هذه المعاجم إلى طريقة لترتيب هذه الفروع، وهو ما لم تفعله.

وقد ألح الشدياق على هذه النقطة في كتابيه «سر الليال» و«الجاسوس على القاموس» وبين الانعكاسات السلبية لهذه الفوضى على مستعمل المعجم. واقترح للخروج من هذه الفوضى منهجاً للترتيب الداخلي يقوم على أساسين هما اعتبار جانب اللفظ بتقديم المجرد على المزيد، والثلاثي على الرباعي، وجانب المعنى عن طريق البدء بالحسي قبل المعنوي،

والحقيقي قبل المجازي واستيفاء معاني الكلمة قبل الانتقال إلى كلمة أخرى.

وهذه هي آراؤه في نصوص كلماته:

1 ـ فيما يتعلق بالفوضى في سرد الكلمات يقول الشدياق: إن من أعظم الخلل وأشهر الزلل في كتب اللغة جميعاً، قديمها وحديثها، ومطولها ومختصرها، ومتونها وشروحها، وتعليقاتها وحواشيها خلط الأفعال الثلاثية، بالأفعال الرباعية والخماسية والسداسية، وخلط مشتقاتها. فربما رأيت فيها الفعل الخماسي والسداسي قبل الثلاثي والرباعي، أو رأيت أحد معاني الفعل في أول المادة وباقي معانيه في آخرها. ففي مادة (عرض) التي هي في القاموس أكثر المواد اشتقاقاً وتشعباً ذكر الجوهري المعارضة التي بمعنى المقابلة بعد المعارضة التي بمعنى المجانبة بثلاثة وثلاثين سطراً. وصاحب القاموس أورد (احتمل الصنيعة) أي: تقلدها في أول المادة، ثم (احتمل) أي أشترى الحميل للشيء المحمول من بلد إلى بلد في آخرها، وبينهما أكثر من ثلاثين سطراً. والشارح أورد في تاج العروس (اختلج) بمعنى تحرك بعد اختلج بمعنى نكح بنحو ستة وخمسين سطراً. ولهذا أنصح مطالعي كتب اللغة ألا يقتصروا على فهم اللفظ في موضع واحد، بل لا بد لهم أن يطالعوا المادة من أولها إلى آخرها. لا جرم أن هذا التخليط والتشويش في ذكر الألفاظ ليذهب بصبر المطالع ويحرمه من الفوز بالمطلوب فيعود حائراً بائراً. كما ذكر أن من سلبيات هذه الفوضى أنها تحوج الباحث إلى قراءة المادة كلها فيعود نشاطه ملالاً، وجده كلالا، «وربما تصفح المادة كلها واخطأه الغرض بخلاف ما إذا كانت الأفعال مرتبة على ترتيب الصرفيين فإنه ينظر أولاً إلى الفعل الثلاثي ومشتقاته في أول المادة، وإلى الخماسي والسداسي ومشتقاتهما في آخرها وإلى الرباعي ومشتقاته في وسطها، فلا يضيع له بذلك وقت ولا يكل له عزم، ولا يخيب سعي» (الجاسوس ص 10 - 11).

واعتبر من هذا النوع كذلك عدم بدء المادة بالفعل دائماً: «ومن ذلك

أنهم يبتدئون المادة باسم الفاعل أو المفعول أو الصفة المشبهة أو اسم المكان والآلة. . . عوضاً عن الابتداء بالفعل أو المصدر، كقول الجوهري في أول مادة جزر: الجزور من الإبل يقع على الذكر والأنثى، ثم قال بعد أربعة عشر سطراً: وجزرت الجزور واجتزرتها: إذا نحرتها وجلدتها فالجَزور على هذا فعول بمعنى مفعول فما معنى ذكره قبل الفعل؟ (الجاسوس ص 14).

بل رد الشدياق معظم ما فات اللغويين من ألفاظ صحيحة فصيحة إلى هذه الفوضى الداخلية فتراه يقول عن صاحب القاموس «إن المصنف أهمل كثيراً من الألفاظ التي ذكرها الجوهري مبسوطة مشروحة. . وأغربه ما كان في المواد القليلة الاشتقاق نحو (سهد) فإن المصنف أهمل فيها السهاد مع أن الجوهري ابتدأ المادة به. . وأعظم أسباب هذا الإهمال أنه لم ينسق ترتيب الأفعال ومشتقاتها على نسق الصرفيين. . فمن يخلط في ترتيب الكلام على هذا المثال فلا بد وأن يفوته منه شيء» (الجاسوس ص 107—108).

2 ـ أما بالنسبة لضرورة بدء المعاني بالحسي منها فإن الشدياق يقول:

* ابتدأ الفيروز آبادي مادة عبر بعبرت الرؤيا، والجوهري بالعبرة من الاعتبار، والفيومي بعبرت النهر. وهو الصواب لأن احتياج العرب إلى قطع النهر والوادي أشد من احتياجهم إلى تفسير الأحلام (سر الليال ص 61).

* «قد أجمعوا على أن المهذب للرجل الكامل مأخوذ من تهذيب الشجرة بناء على أن الأمور المعنوية أو العقلية مأخوذة من الأشياء الحسية. . ضرورة أن الحواس الظاهرة هي التي تبعث الحواس الباطنة على التفكير والتخيل وتقرير ذلك أن العقل مأخوذ من عقلت البعير. . والحِكْمة من حَكَمة اللجام والذكاء لتوقد الذهن من ذكاء النار. . وأصل معنى الإدراك من أدرك الرجل أحداً إذا لحقه. . .» (سر الليال ص 11).

3 ـ ويرى الشدياق كذلك ضرورة بدء المعاني الحسية بأبسطها فيقول:

«واعلم أنه متى ما اجتمع معنيان في فعل من الأفعال الكثيرة الوقوع والاستعمال ينبغي تقديم الأبسط منها، كما في سبح مثلاً، فإنه يدل على العوم والحفر فنقول إن الحفر أول المعنيين لأنه أدنى إلى الأحوال الطبيعية وألزم إلا أن كثرة الاستعمال غلبت المعنى الأول. وهذا الأمر قلما يعتبره أصحاب اللغة وخصوصاً صاحب القاموس، فإنه يبدأ بمتفرعات معنى المادة ويترك الأصل إلى آخرها» (سر الليال ص 13).

4 ـ ومما يراه الشدياق ضرورياً لتحقيق الترتيب الداخلي ذكر المعنى الحقيقي قبل المعنى المجازي، ولهذا اعتبر من خلل المعاجم العربية «تقديم المجاز على الحقيقة، أو العدول عن تفسير الألفاظ بحسب أصل وضعها» ومثل لذلك بمادة «كتب» حيث بدأ «صاحب القاموس بقوله: كتبه كتباً وكتاباً خطه، ومثله صاحب المصباح والزمخشري، مع أن أصل الكَتْب في اللغة للسقاء. يقال: كتب السقاء أي خرزه بسيرين، وهو من معنى الضم والجمع ومنه الكتيبة للجيش. ثم نقل هذا المعنى إلى كتب الكتاب، وحقيقة معناه: ضم حرف إلى آخر» (الجاسوس ص 11).

ويطرح الشدياق اعتراضاً قد يوجه إلى هذا المبدأ ويرد عليه قائلاً: «فإن قيل إن أئمة اللغة إنما يبتدئون المادة بأشرف ما فيها من المعاني، قلت كان عليهم بعد الفراغ من المجاز إذا كان أشرف المعاني أن يقولوا مثلاً: وأصل هذا المعنى من قولهم كذا وكذا. لا جرم أن الابتداء بالأصل لا يخل بالترتيب فإن الجوهري ابتدأ مادة (خلق) بخلق الأديم وهو تقديره قبل قطعه... وزاد الزمخشري على أن جعل خلق الله الخليقة مجازاً عنه (الجاسوس ص 11).

جـ ـ الربط بين المعاني الجزئية للمادة بمعنى عام يجمعها:

يرى الشدياق أن من واجبات المعجمي أن يقوم في كل مادة بالتماس المعنى العام أو المعاني العامة التي تردّ إليها جميع المعاني الجزئية للمادة، وهو ما يذكرنا بصنيع ابن فارس في معجمه المقاييس. بل قد حاول ما هو

أكثر من هذا في كتابه «سر الليال». حين قام بعملية الربط هذه بين المواد التي تختلف في بعض حروفها وتتفق في بعضها الآخر أو تختلف في ترتيبها، وهو ما يذكرنا من جهة بالاشتقاق الأكبر عند ابن جني؛ وما سماه بتصاقب الألفاظ لتصاقب المعنى من جهة أخرى (الخصائص 2—133—145).

والأمثلة كثيرة على النوع الثاني، ونكتفي منها بالمثالين الآتيين:

1 ـ يقول الشدياق : البحت: الصرف، والخالص من كل شيء. ومثله: المحت والحتم والمحض (سر الليال ص 47).

2 ـ ويقول: «لا بد من التسليم بأن العرب تعمدت معنى من المعاني ثم نسقت عليه الأفعال المتفقة حروف فائها وعينها نسقاً متفنناً فيه، فتارة قصدت نسبته إلى المعقول، وتارة إلى المحسوس، مثال ذلك لفظة (كَسَّ) أي دق دقاً شديداً فقد صاغت منه لفظة (الكسيس) للخبز المكسور، ثم قالت (كسأ) بمعنى ضرب، و(كسْء) من الليل: قطعة منه، فأجرت معنى الكسر على شيء غير محسوس، ثم قالت (كسب) فإذا تأمله وجدته لم ينقطع عن معنى الكسر أو القطع.. ثم قالوا (كسد) الشيء أي لم ينفق فضمنوه معنى القطع عن البيع، ثم قالوا (كسر) ومعناه ظاهر، ثم (الكسط) بمعنى الغبار فبقيت مناسبة الكسر فيه، ثم (كسعه) بالسيف.. ورجل (مكسَّع) إذا لم يتزوج، فضمنوه معنى منقطع عن الزواج، ثم (الكسفة) القطعة من الشيء.. (وكسفت) الشمس والقمر: احتجبا فضمن معنى الانقطاع عن النور، ثم (الكسل) فضمن معنى الانقطاع عن النشاط.. وانظر أيضاً إلى غمّ وغمت وغمد وغمر وغمس وغمص وغمض وغمط وغمق وغمل وغمن وغمى فإنها كلها تدل على الستر والتغطية مع اختلاف المعاني...» (سر الليال ص 27، وانظر ص 4—5).

أما النوع الأول الذي يقوم على ربط معاني المادة الواحدة بمعنى عام يجمعها، فهو الذي يهمنا هنا، وهو الذي ينبغي على المعاجم العربية أن

تتفطن إليه، وأمثلته في كتبه المتعددة كثيرة، ولذا سنقتصر على النماذج الآتية منه:

1 ـ تغليطه الفيروز آبادي في اشتقاقه السُّرّية من السر للجماع، وذهابه في اشتقاقها إلى أنها من السُّر بمعنى السرور. (الساق ص 11).

2 ـ اشتقاقه العمامة من عَمَّ بمعنى شمل، لأنها تعم الرأس (السابق ص 21).

3 ـ رده معنى (العبد) إلى عبد بمعنى غضب لأنه يغضب لمالكه (سر الليال 58).

4 ـ قوله إن «حمو الرجل» و«حمو المرأة» مأخوذ من حمو الشمس، وحقيقة معناه: من به حمو للغيرة على المرأة. ومثله لفظ الصهر للقرابة ولزوج بنت الرجل وزوج أخته فإن معناه في الأصل من الحرارة (السابق ص 58).

5 ـ ذكره أن للجبر معنيين أصليين هما ضد الكسر، والإجبار على الشيء ثم أطلق الجبر على الملك والشجاع ويصح أن يكونا من كلا المعنيين، ثم على الغلام لأن فيه جبراً لأبيه. ثم قيل من المعنى الأول: جبر العظم، وجبر الفقير. والمتجبِّر: الأسد، والجبار: الله تعالى لتكبره، والنخلة الطويلة الفتية، والجبيرة.. الخ (السابق ص 99).

6 ـ رده معنى «الفيء» إلى الرجوع، ومنه سمي الظل فيئاً لرجوعه من جانب إلى جانب. ومن معنى الرجوع أيضاً: الغنيمة والخراج، وفي الحديث: الفيء على ذي الرحم، أي العطف عليه والرجوع إليه بالبر (السابق ص 263).

7 ـ رده معنى «السبت» إلى القطع. ومنه جاء السبت بمعنى حلق الرأس، وضرب العنق، ويوم من أيام الأسبوع لانقطاع الأيام عنده ويوم الراحة لانقطاع الإنسان عن العمل (السابق 264).

د ـ وضوح التعريفات وتعدد طرق التفسير:

يشترط الشدياق لصحة التعريفات شروطاً ثلاثة هي:

أولاً : وضوحها، وعدم إيقاعها في لبس.
ثانياً : تعدد طرقها.
ثالثاً : خلوها من الدور والتسلسل.

أما بالنسبة لوضوح التعريفات فقد ألمح عليه في كتبه وبخاصة في «الجاسوس» (المقدمة ص 3)، وعد من عدم الـوضوح إيـراد ألفاظ في التعريف لا ترد في مظانها مع توقف المعنى عليها كقول الجوهري في ربح: ربح في تجارته أي استشف، ولم يذكر استشف في بابها، وقول ابن سيده في بلد: البلد: كل قطعة مستحيزة من الأرض. . ولم يذكر استحاز في حوز ولا في حيز (الجاسوس ص 14، وانظر سر الليال ص 260). كما عد منه ذكر اللفظ دون تفسيره كقول الفيروز آبادي في بعر: «والبعار: الشاة تباعر حالبها، وككتاب: الاسم»، قال الشدياق: «ولم يفسره. وعبارة المحكم: باعرت الناقة والشاة إلى حالبها: اسرعت، والاسم البعار» (الجاسوس ص 57). وكقوله في صيف: «صيفت الأرض كعنى فهي مصيفـة ومصيوفة» قال الشـدياق: «ولم يفسـره، وعبارة الصحـاح: صيفت الأرض فهي مصيفة ومصيوفة إذا أصابها مطر الصيف. وعبارة المحكم: الصيف: مطر الصيف ونباته، وصيفت الأرض فهي مصيفة ومصيوفة إذا أصابها الصيف (السابق ص 59). وعد منه كذلك غموض عبارة الشرح كقول الفيروز آبادي: «بخَّس وتبخَّس نقص ولم يبق إلا في السلامي والعين». قال الشدياق: «وهي عبارة مبهمة. والواضح ما قاله الجوهري: بخَّس المخُ تبخيساً: أي نقص ولم يبق إلا في السلامي والعين، وهو آخر ما يبقى» (سر الليال ص 55). ولهذا قسا على الفيروز آبادي في مقدمة جاسوسه لأنه ـ في نظره ـ يبدل عبارة المعاجم الفصيحة إلى عبارة غامضة مبهمة حشوها عجمة قبيحة. ومن كان شأنه هكذا قلت به الثقة. لأن تعريف الكلام العربي ينبغي أن يكون فصيحاً مبيناً،

محكماً رصيناً، وإلا مجه السمع، ونبا عنه الطبع» (الجاسوس ص 54). وفي مكان آخر يعقب على عبارة للفيروز آبادي بعد نقدها ـ يعقب بقوله «فإن كتب اللغة ليست ألغازاً» (ص 49).

وأما بالنسبة لتعدد طرق التفسير، فقد ذكر منها المرادف، والمضاد ووضع الكلمة في سياقاتها المختلفة. وليس له طريقة محددة يفضلها على غيرها فتارة يقنع بالمرادف وتارة يفضل المضاد عليه كتفضيله تفسير الحبس بضد التخلية على تفسيره بالمنع (سر الليال ص 42) كما أنه في كثير من الأحيان يحذر من التعريف بالمرادف لعدم وجود التطابق التام في اللغة. (انظر ما سبق عن رأيه في الترادف)، ولأنه ربما تعددت معاني اللفظ المفسِّر فلا يُعلم المراد منه بالتحديد، ولهذا فهو ينصح بالحذر في استعماله.

والاقتباسات الآتية تكشف عن صعوبة التفسير بالمرادف في نظر الشدياق:

1 ـ وصف الشدياق ابنة أحد الأمراء فقال: «كانت ذات طلعة بهية وشمائل مرضية تامة الظرف، ناعسة الطرف». ولكنه استدرك على وصف طرفها بالنعاس فقال: «ولكن ليس المراد من ذلك أنها كانت لا تبصر من يحبها كما يكون من به نعاس، وإنما المعنى أنها ذابلته». ولكنه عاد فاستدرك قائلاً «حتى ولا هذه العبارة مفصحة عما أريد أن أقوله فإنها توهم أنها كانت ذابلة مع أنها كانت غضة بضة»، وعقب بمقصوده من الكلمة قائلاً: «بل المقصود أن أقول إنها كانت تنظر عن تحشيف»، وعاد فاستدرك قائلاً: «ولكن مادة حشف لا تعجبني لأنها تدل على اليبوسة والخساسة والرداءة، بل المراد أنها كانت تكسر جفنيها عن النظر»، واستدرك للمرة الرابعة قائلاً: «ولا الكسر أيضاً لائق بها، فلا أدري كيف ألحن للقارىء ما أردت. ولعل الأوفق أن يقال إنها كانت ترمي بسهام من عينيها ولم يكن صغر سنها مانعاً من تقبيل من ينظرها» (الساق ص 62).

2 ـ عد الشدياق من قصور المعاجم أنها حين تعرف لفظة بأخرى لا

تهتم بذكر الفرق بينهما بالنظر إلى تعديتهما بحرف الجر كقول الجوهري مثلًا: الوجل: الخوف، مع أن وجل يتعدى بمن وخاف يتعدى بنفسه. وكقوله أيضاً الجنف: الميل.. وهو يوهم أنه يقال جنف عنه وعليه وإليه كما يقال مال عنه وعليه وإليه.. (الجاسوس ص 12).

3 ـ أخذ الشدياق على القاموس أنه يفسر الكلمة بكلمة أخرى لها معان مختلفة فلا يعلم المتعين منها، كقوله: البغس: السواد، وهو يطلق على اللون المعروف، وعلى الشخص، والمال الكثير، وعلى القرى، والعدد الكثير، وغير ذلك. وقوله: البند: العلم الكبير، وهو يطلق على الجبل، والراية، وسيد القوم، وغير ذلك (السابق ص 201).

أما وضع الكلمة في سياقاتها اللغوية المختلفة فهو أفضل وسيلة عند الشدياق، وهو بذلك يتفق مع أصحاب المدرسة السياقية الذين يرون أن معنى الكلمة هو تسييقها، أو وضعها في سياقاتها اللغوية المتعددة. والأمثلة كثيرة على حرص الشدياق على توضيح معنى الكلمة بذكر استعمالاتها المتنوعة والنص على مصاحباتها من الألفاظ، نذكر منها:

1 ـ عرضه الفعل باع في تعبيراته السياقية المتعددة، فيقال: باع زيداً الدار، وقد يقتصر على المفعول الثاني، ويجوز الاقتصار على المفعول الأول عند أمن اللبس كقولك: بعت الأمير، وقد تدخل «من» على المفعول الأول كقولك «بعت من زيد الدار» وربما دخلت اللام مكان «من» كقولك: بعتك الشيء، وبعته لك (سر الليال ص 64).

2 ـ ذكره لكلمات الألوان التي تأتي وصفاً للفظ الموت مثل:

- الموت الأحمر : وهو أن يتغير بصر الرجل من الهول فيرى الدنيا في عينيه حمراء وسوداء.
- الموت الأغبر : وهو الموت جوعاً، لأنه يغبّر في عينيه كل شيء.
- الموت الأسود : وهو الموت في غمة الماء.

● الموت الأبيض: وهو موت العافية، أو موت الفجأة، لأنه يأخذ الإنسان ببياض لونه (السابق ص 337).

3 ـ يمدح الشدياق الصحاح ويميزه على القاموس لحرصه على جملة أشياء منها «تعليم المركب من الكلام فضلاً عن تعريف المفردات»، ويمثل لذلك بقوله «ما كنت عَمًّا، ولقد عممت عمومة، وبيني وبين فلان عمومة، كما يقال أبوَّة وخؤولة، وعُمِّم الرجل: سُوِّد لأن العمائم تيجان العرب، كما قيل في العجم تُوِّج». وقوله: «أية غول أغْول من الغضب» وقوله: «دعني وعليَّ خطئي وصوبي، أي صوابي» وقوله «الإسجاح: حسن العفو، يقال ملكت فأسجح، ويقال: إذا سألت فأسجح، أي سهِّل ألفاظك وارفق».

ويُفَضِّل أساس البلاغة على جميع المعاجم لحرصه على عرض الألفاظ في تراكيبها فيقول: «وأشهر من تحرى تعليم المركبات مع السجع الزمخشري في أساس البلاغة، فهذا الأسلوب انتهى إليه» (الجاسوس ص 81).

أما بالنسبة للشرط الثالث، وهو خلو التعاريف من الدور والتسلسل، فقد تناوله أكثر من مرة في كتابه «الجاسوس» واعتبر عدم التزامه من خلل القاموس. يقول الشدياق في مقدمة كتابه: «ومن تعريفه الدوري والتسلسلي: باحة الدار: ساحتها، ثم قال في فصل السين: ساحة الدار باحتها. . ، تسنيم القبر: خلاف تسطيحه، وفي سطح: تسطيح القبر: خلاف تسنيمه. . ، تسور الحائط: تسلقه، وفي سلق: تسلق الحائط تسوره» (ص 86).

ويقول في نقده الرابع للقاموس: «في روح: الروح ما به حياة الأنفس وقال في تعريف النفس: إنها الروح، فيكون حاصل المعنى: الروح: ما به حياة الأرواح. فلو قال: الروح: ما به حياة الإنسان أو الجسد لسلم من العجمة» (ص 217). ويقول تعقيباً على قوله: «الضرس: السن»: وقال في

باب النون: السن: الضرس، وهو تعريف دوري. . والضرس غير السن، وهو المتعارف بين الناس» (ص 224). كما خصص النقد الثالث عشر من نقوده لتعريفات الفيروز آبادي الدورية والتسلسلية وضرب أمثلة كثيرة عليها (ص 302—303).

هـ ـ الوقوف عند اختصاص المعجم :

يرى الشدياق أن على المعجمي أن يقصر مادته على ألفاظ اللغة غير القياسية، ولذلك اعتبر من قبيل التجاوز لوظيفة المعجم أن يهتم المعجمي بما يعد من المعلومات الموسوعية، أو بما يعتبر من المشتقات القياسية، أو بما يدخل في باب الفضول أو الاستطراد الذي لا فائدة فيه. وقد انصب كثير من نقده للقاموس على هذه النقطة التي اعتبرها من أقبح أنواع الخلل فيه.

وقد اعتبر من باب المعلومات الموسوعية التي يجب أن يتجرد منها المعجم «خواص الأشياء ومضارها ومنافعها مما حرص عليه صاحب القاموس كل الحرص فكل يعلم أن موضعها كتب الطب لا كتب اللغة» (سر الليال ص 607 وانظر الجاسوس ص 317). وكذلك المعلومات الجغـرافية التي جعلت القاموس «عبارة عن كتاب في الجغرافية» (الجاسوس ص 32) وذكر الأعلام «كأسماء المحدّثين والفقهاء وغير ذلك مما لم تكن العرب تعرف له عيناً ولا أثراً، حتى إن المصنف من شدة تهافته على ذكر الأعلام أهمل ألفاظ القرآن الكريم والحديث الشريف. ففي مادة رحم أهمل الرحمن والرحيم وَاجْتَزَأَ عنهما بذكر محمد بن رحمويه. . ورحيم كزبير. . . ومرحوم العطار» (السابق ص 80—81 وانظر ص 305—308).

وقد اعتبر الشدياق تعرض الفيروز آبادي إلى ما ليس من اختصاصه السبب في وقوعه في الأخطاء والأوهام التي لا تكاد تقع تحت حصر: «إن حق اللغة اقتصّ من مصنفه فإنه ربكه في أغلاط كثيرة في ذكر تلك الأعلام التي فضلها على كلام العرب. . حيث جعل الابن أباً، والأب ابناً، والرجل

امرأة، والمرأة رجلاً، والمدينة جبلاً، والجبل مدينة، والغرب شرقاً، والشرق غرباً» (السابق ص 81).

واعتبر الشدياق كذلك من باب الفضول واللغو ذكر ما يمكن الاستغناء عنه من المشتقات لقياسيته، ولضرورة العلم به كإيراد الفعل المبني للمجهول بعد الفعل المبني للمعلوم، وكذكر مصدر غير الثلاثي، وكالنص على اسم المرة أو الهيئة أو الزمان أو المكان. . ومن الأمثلة الكثيرة التي ذكرها نلتقط ما يأتي:

1 ـ قال الجوهري: حابيته البيع محاباة. . ولو حذف المصدر وأتى بلفظة تفسر الفعل لكان أولى لأن المصدر قياسي لا يلزم ذكره (سر الليال ص 46).

2 ـ أهل اللغة لا يستوفون من كل فعل ثلاثي مشتقاته ومزيداته، إذ لم أر في القاموس والصحاح: استبخله: عده بخيلاً، ولا باخله: غالبه بالبخل، ولا تباخل: كما تقول تمارض وتباله (السابق ص 57).

3 ـ إيراد الفعل المجهول بعد الفعل المعلوم لغو لأنه حيثما وجد المعلوم المتعدي وجد المجهول. . نعم إذا ثبت أن العرب لم تنطق بفعل إلا مبنياً للمجهول فحينئذ يتعين ذكره (الجاسوس ص 241).

4 ـ عقد الشدياق فصلاً سماه «فيما ذكره من قبيل الفضول والحشو والمبالغة واللغة» ضمنه كثيراً من الصيغ القياسية التي لم يكن هناك داع لذكرها. (الجاسوس ص 303 وما بعدها).

أما ما يدخل في باب الفضول والاستطراد ، ولا يعد من باب اللغة في شيء، ولذا لا يصح للمعجمي أن يذكره فقد استقى الشدياق أمثلته من القاموس الذي بلغ الغاية في ذلك حتى تجاوز كل حد ومن ذلك:

1 ـ قول الشدياق: لم يزد القاموس شيئاً على العباب والمحكم إلا ما كان من قبيل الخرافات، التي لا يلتفت إليها الثقات الأثبات، وذلك كخرافة

الفقنس واللوف والزبعري والرخ والجزائر الخالـدات.. وغير ذلـك من المحالات. (الجاسوس ص 54).

2 ـ وقال الشدياق: ومما تصدى له من الحكايات التي لا تعلق لها باللغة أصلاً حكاية ثلاث بنات كنّ لهمام بن مرة وكان أبى أن يزوجهن فأنشدت كل واحدة منهُنّ بمسمعه بيتاً ينبيء عن اغتلامها. وهي حكاية سخيفة تنبو عنها كتب المجون. ذكر ذلك في قنف ومثله ما ذكره في زول (السابق ص 311 وما بعدها).

3 ـ ومن ذلك ذكره أسماء أصحـاب الكهف (ص 305) وأسماء جماعة من المخنثين (ص 307).

4 ـ وكذلك قول الفيروز آبادي: شحيثاً كلمة سريانية تنفتح بها الأغاليق وقد عقب الشدياق قائلاً: «قال المحشي: أي مناسبة بين هذا وبين كلام العرب ولغاتهم.. على أنه لغو من الكلام وباطل فلا تفتح به الأغاليق ولا ينبغي ذكره من المصنف لو كان صحيحاً ولا يليق» (ص 309).

وقد أوقع تعرض الفيروز آبادي لما ليس من اللغة في معجمه ـ أوقعه في الوهم والتخليط مما فتح الباب أمام الشدياق ليخصص نقده الثاني والعشرين لأوهام الفيروز آبادي فيما خرج عن اللغة، وعد منه حديث عن النسطورية والبطريق، وشمعون الصفا، والذبيـح، والسقالبـة، والإسكندر وغيرها، وكشف عن خلطه فيها واتخذه مادة للسخرية (الجاسـوس ص 396—403).

ثانياً: المعجم العملي

يتميز الشدياق في جميع كتاباته بحضور الجانب اللغوي فيها، حتى ما كان الغرض من تأليفه غير لغوي في المقام الأول.

وطريقته في الكتابة تذكرنا بكتابة المقامات، أو بطريقة أبي العلاء المعري في كل من عملية الأدبيين «رسالة الملائكة» و«رسالة الغفران» اللتين

هدفنا إلى تعليم اللغة من خلال نص أدبي، وإحياء الألفاظ عن طريق الحوار أو القالب القصصي. فكذلك كان يفعل الشدياق حين يعرض فكرته في قالب لفظي غني مليء بالمقتارب والمترادف، وحين يحشد ألفاظاً كثيرة غريبة يخرجها من بطون المعاجم ويمنحها الحياة بوضعها في قالب أدبي أو نص فكاهي.

وهناك مبدأ قرره الشدياق في صدر كتابه «الجاسوس» يبيح استعمال أي لفظ تذكره المعاجم أو ينقله الرواة عن العرب حتى لو كان قليل الاستعمال أو نادره، فلا غريب عنده ولا حوشي، وكل كلمة قديمة أو حديثة لها حق الحياة، ، ولهذا فهو يحشو كلامه بما قد نعده غريباً، ولكنه في نظره مجمَّد بترك الاستعمال وسيصبح شائعاً حين تتناقله الألسنة وتجري به الأقـلام يقول الشدياق: «إن ألسنة سائر الأمم تغيرت عن أصل وضعها فآلت كالشِّنان، ورميت بالشَّنآن. وهذا اللسان الرفيع الشَّان، باق كما كان، وسيبقى كذلك بحوله تعالى إلى آخر الزمان، وإذا كان قد طرأ عليه عَرَض تغيير في التخاطب فجوهره في الكتابة سالم، لم يعتره نقص ولا ذان، وما ذاك إلا منة من الرحمن» (ص 2).

فكأن الشدياق حين استعمل في كتاباته هذا الـرصيد الضخم من الكلمات المترادفة والمتقاربة قد هدف إلى أن يلفت النظر إلى عناصر الحياة في اللغة العربية، وإلى ما تملكه من إمكانات ضخمة تستطيع أن تنافس بها كل لغات العالم، وأنه من الممكن الامتياح من بئر اللغة العميق لمقابلة كل ما يجد في الحياة العربية من مظاهر حضارية وثقافيـة. كـما رمى إلى الرد على من رموا اللغة العربية بالعقم والجمود. يقول الشدياق في صدر مقدمة جاسوسه «إن هذا اللسان وإن يكن قد تضوع نشره، ونُشر تضوعه، وترفع قدره، وقُدر ترفعه، .. ووفت محامده، وحُمد وفاؤه، .. وسبق جواده، وجاد سابقه، فما أجدره بأن يكون لسان ذوي الحكمة والأحكام، وما أقدره على أن يصون مكان أولى الحرمة والأحلام. إلا أنّ ألسنة الأجانب زاحمته

في هذا العصر فكادت تحلىء عنه أهله، وتحجب عنهم ظله، وتحبس وابله وطله» ويقول: «أما من يتعاطون منا التجارة، ويحملون عبء الإمارة فإنهم يزعمون أن اللغة العربية لا تصلح في هذا الزمن لهاتين الخُطّتين فلا بد من الاستعانة بكلام الأجانب، وإن أدى ذلك إلى حطتين، كلا وربك ما بروا ولا صدقوا، وما دروا أنهم بالذي عاب نفسه لحقوا. لأنهم ما قالوا ذلك إلا لحرمانهم منها، وقصورهم عنها. فمن ثم مست الحاجة إلى زيادة تفصيل لمفردات لغتنا ومركباتها، وتبيين لأصولها من متفرعاتها.. بنوع لا يحمل القارىء على الملل، ولا يقنطه من تحصيل فوائد اللغة» (ص 3).

ويكرر الشدياق ـ في كتاب آخر له ـ دعوته إلى استخدام اللغة العربية لفضلها على اللغات الأعجمية فيقول: «العرب.. لم يقدروا لغتهم حق قدرها، ولا عرفوا أنها الفاضلة.. ألا ترى أنهم عدلوا عنها إلى لغات العجم، فاتخذوا من هذه ألفاظاً وهي في لغتهم أفصح وأحكم وأعذب منطقاً وأبهى رونقاً» (سر الليال ص 3).

إذن فالشدياق يرى أن اللغة بنت الحياة، وأن نموَّ اللغة في حياتها، وحياتَها في نموها: «إن اللغة كغيرها من الصنائع والموضوعات البشرية لا يحدث شيء منها تاماً كاملاً من أول وهلة ولكن على التدريج»، فما بالنا نقصي اللغة عن مجالات الاستعمال ثم نتهمها بالجمود؟ وما بالنا نخالف نواميس الطبيعة ونفرض على اللغة العربية أن تظل حبيسة القرون الخوالي فنربط حضارتنا الحديثة باللغة بدلاً من أن نربط اللغة بحضارتنا الحديثة «إن لغات الإفرنج بنيت في الغالب على التمدن، والتمدن عندنا بني على اللغة، فمن ثم ترى عندهم غالباً ألفاظاً تدل على القديم من هذه الأشياء وعلى الحديث الذي غير شكله بعد التمدن» (خلف الله: أحمد فارس الشدياق ص 97 نقلاً عن كنز الرغائب 1—179).

ولننظر الآن كيف عرض الشدياق ألفاظ اللغة وتراكيبها؟ وما الوسائل التي اتخذها لتعليمها والترويج لها، وإحياء ألفاظها؟

لقد سار الشدياق في اتجاهات ثلاثة أحيا فيها مفردات اللغة ومارس هوايته في اكتساب اللغة وإكسابها للآخرين «أيم الله إن استفادة كلمة واحدة من كلام العرب ثم إفادتها أحب إليّ من الرتوع في روضة زاهرة ناضرة، فيها شجر تحمل كل فاكهة فاخرة» (الجاسوس ص 521).

هذه الاتجاهات الثلاثة هي:

1 ـ ممارسة الكتابة بطريقته الخاصة.

2 ـ اشتغاله بالترجمة إلى اللغة العربية.

3 ـ ممارسة تعليم اللغات بعامة واللغةِ العربية بخاصة في كثير من البلاد التي زارها، وقيامه بالتصحيح في دار الطباعة العامرة بدار الخلافة وفي غيرها.

وسنكتفي بالتعرض للاتجاهين الأولين حيث لا تتوفر لنا مادة تتعلق بالاتجاه الثالث:

1 ـ كتاباته:

إلى جانب كتاباته الصحفية، وعمله في «الجوائب» تحريراً وتأليفاً فقد ألف عدة كتب تبرز خصائص كتاباته التي ترمي إلى غاية تعليمية وكثير منها لم يبق منه سوى عناوينه ولكن هذه العناوين كافية لإبراز هدفها التعليمي للغة بأسلوب التشويق والقصة، من هذه الكتب:

- النفائس في إنشاء أحمد فارس.
- الروض الناضر في أبيات ونوادر.
- اللفيف في كل معنى ظريف.

ويقول الدكتور يوسف نجم عن كتابه الأخير: وضعه ليدرس في الكُتّاب الذي كان قيماً عليه بمالطة، ويحوي ـ إلى جانب تمارينه اللغوية ـ قصصاً وخرافات تحوي عظات خلقية ومغازي تهذيبية. وفيه تكلم عن الطعام

والطريق والريح والأرض وأنواع الماء وألوان الخيل وأسماء التراب وأسماء المطر وصفات الإنسان الحميدة وصفاته الذميمة وخصال المرأة. كما يحوي قصصاً طريفة عن الحمقى والمغفلين، ومن نوادر جحا وقره قوش وأبي العنبس. . . (أحمد فارس ص 76—77).

وربما كان كتابه «الساق على الساق فيما هو الفارياق» أولى كتبه بالوقوف عنده. فرغم أنه ترجمة لحياة مؤلفه حتى قدومه الآستانة فإن الرغبة الفنية والأداء الأدبي والعرض القصصي لاتخطئها العين منذ اللحظة الأولى. ولعل تخصيص نحو من ثلث الكتاب (الذي تجاوز سبعمائة صفحة) لوصف النساء وبيان أخلاقهن وتصرفاتهن وعلاقاتهن بالرجل. . لعل اختياره هذا الموضوع بالذات كان لهدف جذب القارىء حتى يوقعه في شرك اللغة دون أن يدري.

2 ـ ترجماته إلى اللغة العربية :

اشتغل الشدياق بالترجمة إلى اللغة العربية، مما أحوجه إلى البحث عن المقابل العربي للمادة الأجنبية التي يترجمها، واضطره إلى استخدام طرق متعددة لوضع المصطلحات العلمية والحضارية. وكان هدفه الأساسي من وضع مقابلات عربية، واستعمال مصطلحات جديدة حفظ مكانة اللغة العربية وجعلها «لغة حية نامية لا تجمد على حال» وإنما تتطور بتطور المدنية والحضارة، وتتسع لكل ما تجيء به هذه»، بالإضافة إلى مجيئه إلى مصر في عهد محمد علي باشا، وقد كان هذا العهد عهد الترجمة وبخاصة في الميدان العلمي» (محمد خلف الله ص 122).

وقد مارس الشدياق الترجمة في عدة مجالات منها:

1 ـ ترجمة المقالات «التي كانت تنشرها الجرائد والمجلات الإنجليزية والفرنسية لينشرها في الجوائب. ولقد كانت هذه المقالات وكان ما تنشره الجوائب منها مما يخص مسائل الحضارة والمدنية، ومما يحتاج إلى وضع

مصطلحات. وعندك من أمثال ذلك هذه المقالات التي نشرتها الجوائب عن قوة البخار، واختراع الباخرة، وإبرة المغنطيس، والغاز والحديد، والقمر، وأصول السياسة، والفروق بين الشرق والغرب، وما إلى ذلك مما امتلأت به أعداد هذه المجلة مما لا عهد للعرب به» (السابق ص 123). وقد جمع قسم كبير من هذه المقالات في كتاب من سبعة أجزاء يحمل اسم «كنز الرغائب في منتخبات الجوائب» (محمد يوسف نجم ص 78).

2 ـ ترجمة كتاب «شرح طبائع الحيوان» عن اللغة الإنجليزية في جزأين طبع الأول منهما فقط في مالطة سنة 1841 (السابق ص 78—294).

3 ـ ترجمة التوراة عن اللغة الإنجليزية بدعوة من جمعية ترجمة الأسفار المقدسة وقد اشتغل بها قبل إسلامه مع الأستاذ لي المستشرق الإنجليزي لتعول عليها جمعية نشر الكنيسة في التبشير.

وقد أدت هذه الترجمات إلى تغذية اللغة العربية برصيد حي جديد من الكلمات والتعبيرات والتراكيب عن طريق الوضع والتعريب والنحت والاشتقاق وغيرها، وتنوع هذا الرصيد إلى ما يأتي:

أ ـ رصيد يلبي حاجة المسميات الحديثة، والمفاهيم الحضارية الطارئة، ومن الألفاظ التي وضعها الشدياق: الجريدة والباخرة والبطاقة والبهو والثقاب والبريد والبرق والحافلة والمنطاد وغيرها (يوسف نجم ص 244). كما اقترح استخدام «معمل» أو «مصنع» بدلاً من فابريقة و«مستشفى» بدلاً من بيمارستان، و«مأمر» بدلاً من ديوان.. (خلف الله ص 127).

ب ـ رصيد من المصطلحات العلمية التي تتعلق بألفاظ الحيوان، وقد استعمل منها: الكواسر، والنكّات (لأنه ينكت الرمل بمنقاره في البحث عن الديدان)، وخنزير الهند، وخَطّاف الذباب، والدابّ، والإنسان الوحشي وغيرها (السابق ص 295—296).

وقد حاول في كتابه هذا أن يراوح بين البساطة والصعوبة في التعبير،

لأنه كان رائداً يطوع أساليب البيان العربي لتسع الترجمة عن اللغات الأجنبية ولأن طبيعته اللغوية كانت تغلبه في بعض الأحيان، ومن ذلك قوله «ويتزأزأ فرقاً» ، و«يجعل له ربيئاً»، و«يدخل رأس لسانه الحاد في رواهشهم». (السابق ص 298).

جـ - كما حوت ترجمته للتوراة بعض التعبيرات والتراكيب التي ذكر الشدياق طرفاً منها لأنها كانت محل خلاف بينه وبين الدكتور لي المشرف على الترجمة (السابق ص 301).

وهكذا نجد فضل الشدياق على المعجم العربي لا يقتصر على الجانب النظري منه بل يتجاوزه ليغطي كذلك جانبه العملي، وهو الجانب الهام في اللغة لأنه دليل قدرتها وعنوان مجدها، وشاهد حياتها.

رحم الله الشدياق بقدر ما قدم للغة من أفضال، وأثابه على حبه لها، وغيرته عليها، وتكريس وقته وجهده لخدمتها.

أحمد مختار عمر

كلية دار العلوم، جامعة القاهرة

مراجع البحث

1 ـ أحمد فارس الشدياق ـ د. محمد يوسف نجم ـ رسالة دكتوراه من الجامعة الأمريكية ببيروت 1948.

2 ـ أحمد فارس الشدياق وآراؤه اللغوية والأدبية ـ د. محمد أحمد خلف الله معهد الدراسات العربية العالية 1955.

3 ـ الجاسوس على القاموس ـ أحمد فارس الشدياق ـ القسطنطينية ـ طبع الجوائب 1298هـ.

4 ـ الخصائص ـ ابن جني ـ دار الهدى ـ بيروت ـ ط. ثانية.

5 ـ الساق على الساق فيما هو الفارياق ـ أحمد فارس الشدياق ـ باريس 1855.

6 ـ سر الليال في القلب والإبدال ـ أحمد فارس الشدياق ـ الآستانة 1284 هـ.

7 ـ علم الدلالة ـ د. أحمد مختار عمر ـ دار العروبة بالكويت ـ 1982.

8 ـ القاموس المحيط للفيروز آبادي.

عَناصر المعْجم الحديث عند الشدْياق

بحث: د. محمد علي الزركان

تنوعت جهود الشدياق في ميدان الدراسات اللغوية، ما بين نقد آراء اللغويين القدماء، ودراسات حول المعاجم العربية ومشكلاتها بشكل عام، فهو في «الجاسوس في القاموس» يتجه إلى نقد القاموس المحيط متخذاً منه مثالاً لعيوب المعاجم العربية عامة، والتي كانت بما حوته من مادة لغوية بشكلها الراهن من أسباب رمي اللغة العربية بالانحطاط والتخلف عن مواكبة العصر الحديث، ومن ثم تفضيل اللغات الأجنبية عليها. وكان القاموس المحيط من أشهر المعاجم بين أيدي أهل العصر وما يزال فهاجمه الشدياق بعنف ليبين أن التقصير ناتج عن طبيعة وضع المعاجم لا عن اللغة نفسها. وقد اتخذ من هذا الهجوم وسيلة إلى الدعوة لوضع معجم عربي حديث يسهل الرجوع إليه والبحث فيه.

إن منهج الشدياق قائم على القصد في النقد، وترتيب أقواله على أربعة وعشرين نقداً مختلفاً قدم لها بمقدمة استوعبت ما في هذه النقود من العيوب التي وقعت لصاحب القاموس. وما كان الشدياق يستقصي الأخطاء في نقوده، بل كاف يكتفي بذكر نماذج معينة. وقد اعتمد في نقوده على نقول وثق منها، بعد أن رآها في غير واحد من كتب اللغة.

وكان الشدياق في أغلب الأحيان يورد قول القاموس، ثم يورد من المعجمات والكتب اللغوية الأخرى ما يدعم رأيه، ويوضح ما وقع فيه صاحب القاموس من خطأ.

ومما هو جدير بالذكر هنا أن الشدياق لم يكن أول الناقدين للقاموس ولا آخرهم «فالدراسات التي قامت حول القاموس المحيط كثيرة ومتنوعة جداً، حتى لقد اختلط كثير منها على القدماء أنفسهم، فجعلوا الحاشية شرحاً، والشرح نقداً أو استدراكاً، وخلطوا في عناوين كثيرة منها بسبب ما راعته من سجع قرب بينها جميعاً. ويمكن أن تجمل هذه الدراسات في الأصناف التالية: شرح مصطلحات القاموس ـ شرح مقدمته ـ تهذيبه ـ الاستدراك عليه ـ نقده ـ حواش وشروح ومختصرات ـ ويضاف إليها كثير من الكتب التي ترجمته إلى الفارسية أو التركية. . .»[1] وقد ذكر محمد مرتضى الزبيدي (ت 5021 هـ) الذي شرح القاموس في كتابه «تاج العروس» عدداً كبيراً من الكتب التي تناولت القاموس بالشرح والنقد والتعليق، وقد نافت على الأربعين ما بين مطوّل ومختصر.

ولا شك أن هذه المصنَّفات قد أفادت الشدياق في نقده القاموس إفادة كبرى، وبخاصة تلك النقود التي وجهها الزبيدي للقاموس، فكانت البذور التي نماها أحمد فارس الشدياق وألف كتابه «الجاسوس» من عصارتها.

ثم إن الشدياق تولى الإشراف على طبع معجم «لسان العرب» في المطبعة الأميرية في بولاق سنة 1300 هـ (1881 م)، كما قام بتحقيقه مع جماعة، فكشف له ذلك كثيراً من عيوب المعاجم العربية القديمة التي لم تكن ترضي ذوقه اللغوي، بما حوى أكثرها من حشو وخطإ وتصحيف وصعوبة في المراجعة، مما حمله على القيام بدراسة القاموس المحيط ونقده، خاصة وأن مفهوم الحضارة في تلك المعاجم يختلف عنها في عصره. «فإن المؤلفين الأولين ألفوا وبرعوا وأجادوا. . . غير أنهم ألفوا كتبهم على حسب أفهامهم وأذهانهم وأفهام أهل زمانهم، فاختصروا وأوجزوا وأشاروا ورمزوا»[2].

(1) نصار، حسين، 1968، المعجم العربي، نشأته وتطوره ط 2، القاهرة، 2/601، وخليل، حلمي، المولّد، 2/70.

(2) الجاسوس على القاموس، 3.

فالفكرة المعجمية من المسائل اللغوية الهامة التي استحوذت على الشدياق وفكره، وبخاصة بعد أن اطلع على المعاجم الغربية، وعانى من مشكلات الترجمة من العربية وإليها الشيء الكثير.

والمعجم في رأي الشدياق يجب أن يقوم على عناصر ذكرها في مقدمة «الجاسوس» وهي التي قادته إليها خبرته في اللغة وعمله في الترجمة، واطلاعه على بعض المعاجم في اللغات الأجنبية التي كان يترجم منها أو إليها.

والشدياق في سبيل تحقيق الفكرة المعجمية الجديدة يقوم بعملين:

الأول: منهما الحديث عن الأخطاء اللغوية التي وقع فيها اللغويون الأقدمون وتناولها في «الجاسوس».

الثاني: منهما تأليف كتاب يحقق فكرته اللغوية عن عمل المعاجم وتناولها في «سر الليال. . .».

ولعل الشدياق سعى نحو هذا الهدف في كتابيه اللذين ألفهما معاً وفي وقت واحد، وذلك حسب إشارته في كل واحد منهما عن الآخر.

يمكن القول أن كتاب «الجاسوس على القاموس» كان من أسبق المؤلفات اللغوية الداعية إلى الإصلاح المعجمي في القرن التاسع عشر، لأن مقدمة هذا الكتاب أتت تحمل دعوة صريحة إلى تأليف معجمات جديدة تتناسب والعصر، منطلقة من مواد القاموس المحيط متجاوزة الأخطاء والعيوب فيه، مستدركة ما فات صاحبه من ألفاظ وشروح، فبدأ الشدياق بذكر الأسباب الداعية إلى تأليف كتابه هذا فقال:

«وبعد: فإني لما رأيت في تعاريف القاموس المحيط للإمام القاضي مجد الدين الفيروز أبادي قصوراً وإبهاماً وإيجازاً وإيهاماً. وترتيب الأفعال ومشتقاتها فيه محوج إلى تعب في المراجعة، ونصب في المطالعة، والناس راوون منه وراضون عنه، أحببت أن أبين في هذا الكتاب من الأسباب ما

يحض أهل العربية في عصرنا هذا على تأليف كتاب في اللغة، يكون سهل الترتيب، واضح التعاريف، شاملاً للألفاظ التي استعملها الأدباء والكتّاب وكل من اشتهر بالتأليف، سهل المجتنى، داني الفوائد، بيِّن العبارة، وافي المقاصد»[3].

فالعناصر التي يجب توفرها في المعجم الذي يريده الشدياق تستخلص من النص السابق وهي:

1 ـ سهولة الترتيب.
2 ـ وضوح التعريف.
3 ـ الشمول للألفاظ التي استعملها الأدباء والكتّاب وكل من اشتهر بالتأليف.

أما الدافع الآخر إلى حمله على تأليف كتابه النقدي المعجمي «الجاسوس» فهو حث أهل العربية على حب لغتهم والتعلق بها، ثم حث أهل العلم فيها على تأليف معجم يفي بحاجات العصر المتجددة، وأن الترتيب الجيد للمادة اللغوية في المعجم العربي قد شغله فقال: «إنني لم ينشطني للتأليف سوى الرغبة في حث أهل العربية على حب لغتهم الشريفة وحث أهل العلم على تحرير كتاب فيها خالٍ من الإخلال ومقرب لما يطلبه الطالب منها دون كلال، فإني رأيت جميع كتب اللغة مشوشة الترتيب، كثر ذلك أو قل، وخصوصاً كتاب القاموس الذي عليه اليوم المعول، فإن مؤلفه التزم فيه الإيجاز حتى جعله ضرباً من الألغاز»[4].

ويبدو أن هذه الدعوة من جانب الشدياق إلى إعادة النظر في المعاجم العربية دعوة كان لها ما يسوغها في عصره، وما زالت حتى يومنا هذا. أما أسبابها في عصر الشدياق فيوضحها بقوله:

«فإن هذا اللسان، وإن يكن قد تضوع نشره، إلاَّ أن ألسنة الأجانب

(3) الجاسوس على القاموس، 2 - 3.
(4) الجاسوس على القاموس، 1.

زاحمته في هذا العصر، فكادت تحلّىء عنه أهله... لأن ترتيب كتب لغاتهم أسهل والوصول إليها أعجل، ولا سيما أنها قليلة المشتقات، وليس في تعريف ألفاظها كبير اختلافات»[5].

وخشي الشدياق أن يحمل هذا العناء في لغتنا أصحاب النفوس المريضة على أن يهجروا لغتهم إلى لغة أجنبية أخرى، وحرصهم الشديد على أن يتحدثوا بها، وعلى أن يجعلوها لغة التخاطب ولغة التعامل فيما بينهم، كما ردَّ على من يقول من أهل السياسة والتجارة أن اللغة العربية لا تصلح لهذا الزمن بقوله:

«أما من يتعاطون التجارة، ويحملون عبء الإمارة، فإنهم يزعمون أن اللغة العربية لا تصلح في هذا الزمن لهاتين الخطتين ، فلا بد من الاستعانة بكلام الأجانب وإن أدى ذلك إلى خطتين، كلا وربك ما بروا ولا صدقوا، وما دروا أنهم بالذي عاب نفسه لحقوا لأنهم ما قالوا ذلك إلّا لحرمانهم منها وقصورهم عنها»[6].

والشدياق في سبيل تحقيق الفكرة المعجمية الجديدة يتابع حديثه عن الأخطاء اللغوية التي وقع فيها اللغويون القدامى بوجه عام، وصاحب القاموس المحيط بوجه خاص، ويبيّن الحاجة إلى إصلاح الخطإ؛ وهو لا يريد بذلك تشهيراً ولا تنديداً، ثم ينتهي إلى ضرورة تنمية الثروة اللغوية وإعادة ترتيبها قائلاً:

«فمن ثم مسّت الحاجة إلى زيادة تفصيل لمفردات لغتنا ومركباتها، وتبيين لأصولها من متفرعاتها وإفراز لأفعالها من مشتقاتها، وذلك لا يتأتّى إلّا بإفراز ما في القاموس من القصور والخلل، بنوع لا يحمل القارىء على الملل، ولا يقنطه من تحصيل فوائد اللغة التي هي خير محصل، غير قاصد

(5) المصدر نفسه، 3.

(6) المصدر نفسه،3.

بذلك التنديد بالمعايب أو التعديد للمثالب»[7].

ثم إن الشدياق يرى أن اللغويين القدامى قد ألفوا لعصورهم، وجروا في كتب اللغة على ما كانت تقضي به الأصول اللغوية في ذلك الوقت، وأنه لا عيب عليهم في ذلك، وإنما العيب أن نقف حيث وقفوا، وألَّا نصدر نحن في عمل المعاجم عن فكرة جديدة تتفق وما في الحياة اللغوية من حركة واضطراب، ونمو وتجديد»[8].

«عناصر المعجم الحديث عند الشدياق»

أ ـ العنصر الأول: سهولة الترتيب.

فإذا ما عدنا إلى العناصر التي يجب توفرها في المعجم وجدنا أن العنصر الأول الذي تناول عملية الترتيب، كان أهمها في نظر الشدياق، وذلك بسبب تكرره في أكثر من موضع. فعملية الترتيب هذه يمكن أن تحقق غرضين هامين.

أولهما: سرعة الوصول إلى المعنى المطلوب.

وثانيهما: الوقوف على سر الوضع في العربية وبيان خصائصها.

والترتيب اللغوي يتناول:

1 ـ ترتيب المواد في المعجم.

2 ـ وترتيب المشتقات في المادة الواحدة، وقد تعرض الشدياق لكل منهما.

1 ـ ترتيب المواد في المعجم وأنواعه:

وتعرُّضُ الشدياق للترتيب اللغوي دفعَهُ إلى قراءة جميع ما وصلت إليه يده من كتب اللغة، وكانت قراءته لها حسب تاريخ تأليفها.

---

(7) الجاسوس على القاموس، 3.

(8) الجاسوس على القاموس، 3.

وَالملاحظ أنه أورد من خلال استعراضه التاريخي للمعاجم العربية القديمة ثلاثة أنواع من الترتيب، دفعت إليها ضرورات الحياة اللغوية من خلال تطورها وهي:

1 ـ الترتيب حسب مخارج الحروف وتسمى مرحلة التقليب.
2 ـ الترتيب حسب أواخر الحروف وتسمى مرحلة القافية.
3 ـ الترتيب حسب أوائل الحروف وتسمى مرحلة الهجائية العادية.

والشدياق من الذين يؤيدون الأخذ بالترتيب الأخير، ولهذا كان يفضل صنيع الزمخشري في «الأساس» والفيومي في «المصباح». وزاد عليهم شيئاً آخر أفاده من دراساته اللغوية للمعاجم الأخرى، هو أنه كان يذكر المادة ومقلوبها في كتابه «سر الليال» وذلك لاعتقاده بدلالة الأصوات على المعنى. وأن ترتيب الأصوات على تقديم وتأخير في الكلمة دال على أصالتها في اللغة، ودال على أصالة هذا المعنى ودورانه مع هذه الأحرف (الأصوات).

2 ـ ترتيب المشتقات داخل المادة الواحدة:

أما دراسة الشدياق للترتيب الثاني، وهو ترتيب المشتقات أو الصيغ داخل المادة الواحدة، فيرى أن كتب اللغة لم تجر في هذه الناحية على نظام معين. وأن اللغويين لم يكن لهم من هذا النظام أي هدف فقال:

«ثم إنني بعد أن أستميح الإجازة من أهل اللغة الذين يهمهم تهذيب دواوينها أقول: إن من أعظم الخلل، وأشهر الزلل في كتب اللغة جميعاً قديمها وحديثها ومطولها ومختصرها ومتونها وشروحها وتعليقاتها وحواشيها، خلطَ الأفعال الثلاثية بالأفعال الرباعية والخماسية والسداسية، وخلط مشتقاتها. فربما رأيت فيها الفعل الخماسي والسداسي قبل الثلاثي والرباعي، أو رأيت أحد معاني الفعل في أول المادة وباقي معانيه في آخرها» [9] ثم قال في مكان آخر:

(9) الجاسوس على القاموس، 10.

«وأشق ما يكون على مطالع كتب اللغة خصوصاً «القاموس» هو أنه لا يجد فيها الأفعال مرتبة على ترتيب الصرفيين، فيجد السداسي منها قبل الثلاثي، ويجد الرباعي مبثوثاً في عدة مواضع. بيان ذلك: إذا أردت أن تبحث في القاموس عن كلمة «أعرض» عنه، لزمك أن تقرأ كل ما ورد في مادة عرض من أولها إلى آخرها، فيمر بك أولاً عرّض واعترض وعارض واستعرض أو العكس، ثم أسماء فقهاء ومحدثين وشعراء وحيوانات وجبال وأنهار وحصون وبلاد ثم مشتقاتها قبل أن تصل إلى أعرض، وربما لم يكن ذكره مستوفى في موضع واحد، فترى في موضع أعرضه وفي موضع آخر أعرض عنه وهلم جراً»[10].

«ففي مادة «عرض» التي هي في «القاموس» أكثر المواد اشتقاقاً وتشعباً، ذكر الجوهري «المعارضة» التي بمعنى المقابلة بعد المعارضة التي بمعنى المجانبة بثلاثة وثلاثين سطراً»[11].

ثم نجد الشدياق يعجب كثيراً من عدم تنبه المصنفين لهذا الخلل، ويعزو ذلك إلى أن هدفهم كان جمع الألفاظ فقط بدون ترتيب فقال:

«وأعجب العجب أنه ما من أحد من المصنفين وكتاب الشروح والحواشي تنبه لهذا الخلل أعني خلط الأفعال ومشتقاتها، وما ذلك إلّا من إيثار التقليد على الاجتهاد.

فالظاهر أن أول من ألف في اللغة لم يكن من همه سوى جمع الألفاظ فقط، مع أن من مستلزمات الجمع، أي جمع كان الترتيب والانتظام ووضع كل شيء في محله»[12].

والشدياق في مثل هذه الحالة لا ينسى أن ينصح المطالعين ويصف

(10) الجاسوس على القاموس، 10 وسر الليال في القلب والإبدال، 20 - 21.

(11) الجاسوس على القاموس، 10.

(12) الجاسوس على القاموس، 11، وسر الليال في القلب والإبدال، 13.

لهم الدواء، وذلك كي ينتفعوا من القراءة في الكتب اللغوية القديمة أولاً، وليفيدوا في التأليف للمستقبل ثانياً فيقول: «ولهذا أنصح مطالعي كتب اللغة، أن لا يقتصروا على فهم اللفظ في موضع واحد، بل لا بد لهم أن يطالعوا المادة من أولها إلى آخرها، لا جرم أن هذا التخليط والتشويش في ذكر الألفاظ ليذهب بصبر المطالع، ويحرمه من الفوز بالمطلوب فيعود حائراً بائراً[13] فإذا رأى المطالع أن المادة تملأ صفحتين أو ثلاثاً، عاد نشاطه ملالاً وجده كلالا، فلربما تصفح المادة كلها وأخطأه الغرض، بخلاف ما إذا كانت الأفعال مرتبة على ترتيب الصرفيين، فإنه ينظر أولاً إلى الفعل الثلاثي ومشتقاته في أول المادة، وإلى الخماسي والسداسي ومشتقاتهما في آخرها، وإلى الرباعي ومشتقاته في وسطها فلا يضيع له بذلك وقت ولا يكل له عزم، ولا يخيب له سعي.

ولا بأس أيضاً أن يوضع حيال المواد الغزيرة رقم بالهندي على الحاشية، فيوضع رقم 3 مثلاً قبالة الفعل الثلاثي، و 4 قبالة الفعل الرباعي وهكذا»[14].

ومن المآخذ التي أخذها الشدياق في المعجميين القدامى تخبطهم في المصادر والأفعال فقال «ومن ذلك إبهامهم في المصادر، فإنهم يوردون المصدر من دون فعل، فيوهمون أنه اسم جامد، ثم يذكرون الفعل من دون مصدر، فيوهمون أن مصدره المصدر الأول مع أنه غيره في المعنى كقول الجوهري: «الشوق والاشتياق: نزاع النفس إلى الشيء، يقال شاقني الشيء فهو شائق، ونحوها عبارة المصنف». أما صاحب «المصباح» فإنه صرح بلا محاشاة بأن المصدر الثاني هو عين المصدر الأول...»[15] ثم قال الشدياق:

---

(13) الجاسوس على القاموس، 10.

(14) الجاسوس على القاموس، 10 - 11.

(15) الجاسوس على القاموس، 2.

«وللمصنف من هذا الإبهام المنكر النصيب الأوفر، كما تراه في محلة»[16].

كما أخذ عليهم ذكر «فاعل» دون مصدره، وإيراد الفعل الرباعي دون الثلاثي فقال: «ويلحق بذلك أنهم كثيراً ما يذكرون «فاعل» من دون مصدره وهو «المفاعلة»، واسم مصدره وهو «الفِعال» من دون تنبيه على مجيء الاسم وعدم مجيئه. فإن صاحب «المصباح» نص على أنه مقيس. . . . »[17].

«ومن ذلك إيرادهم الفعل الرباعي من دون الثلاثي، فيوهمون أن الثلاثي غير وارد كاقتصار الجوهري على «أسأر» أي أبقى دون «سئِر» . والأزهري نص عليه ولولا ذلك لما صح أن يقال: سائر الناس، وسيأتي مزيد بيانه في النقد الرابع»[18].

وقد لاحظ الشدياق أن من عيوب الترتيب داخل المادة اللغوية عند المعجميين القدامى، أنهم يبتدئون المادة اللغوية في معاجمهم بما لا يصح الابتداء به كاسم الفاعل واسم المفعول. . . والمُعرَّب فقال: «ومن ذلك أنهم يبتدئون المادة باسم الفاعل أو المفعول أو الصفة المشبهة أو اسم المكان والآلة أو المعرّب، عوضاً عن الابتداء بالفعل أو المصدر، كقول الجوهري في أول مادة «جزر» الجزور من الإبل يقع على الذكر والأنثى، ثم قال بعد أربعة عشر سطراً، وجزرت الجزور واجتزرتها إذا نحرتها وجلدتها. فالجزور على هذا فعول بمعنى مفعول، فما معنى ذكره قبل الفعل؟ وبقي النظر في تغليبه التأنيث على التذكير»[19].

ثم يتابع الشدياق نقده عيوب هذا الترتيب لدى المعجميين، وما وقع بينهم من خلافات في وضع الفعلين الثلاثي والرباعي في أوائل المواد فقال:

«ومن الخلاف الواقع بين اللغويين غير ما تقدم، وضع الفعل الثلاثي

---

(16) و (17) و (18) الجاسوس على القاموس، 13.

(19) الجاسوس على القاموس، ص 14.

والرباعي في أوائل المواد[20].

ثم عاب عليهم كذلك إيرادهم المعنى المجازي للكلمة قبل المعنى الحقيقي لها فقال: «ومما أحسبه من الخلل أيضاً تقديم المجاز على الحقيقة، أو العدول عن تفسير الألفاظ بحسب أصل وضعها، مثال ذلك لفظة «كتب». فإن الجوهري ابتدأ هذه المادة بقوله: «الكتاب معروف». وصاحب القاموس بقوله: «كتبه كتباً وكتاباً: خطّه» ومثله صاحب «المصباح» والزمخشري. مع أن أصل «الكَتْب» في اللغة للسقاء، يقال كتب السقاء أي خرزه بسيرين وهو من معنى الضم والجمع، ومنه الكتيبة للجيش ثم نقل هذا المعنى إلى كتب الكتاب، وحقيقة معناه ضم حرف إلى آخر[21].

وقد افترض الشدياق مناقشة بينه وبين معترض عليه فيما أورده فيقول: «فإن قيل: إن أئمة اللغة إنما يبتدئون المادة بأشرف ما فيها من المعاني، قلت: كان عليهم بعد الفراغ من المجاز إذا كان أشرف المعاني أن يقولوا مثلاً: وأصل هذا المعنى من قوله كذا وكذا، لأجرم أن الابتداء بالأصل لا يخل بالترتيب»[22].

ولقد تنبه الشدياق إلى قضية أخرى مهمَّة، وقع فيها مؤلفو المعاجم القديمة، في الترتيب المعجمي، هي عدم تفريقهم بين الحروف الأصلية والمزيدة في الكلمة الدخيلة، فظنوا أن نظام الزيادة والتجريد هذا ينطبق عليها كما ينطبق على الكلمات العربية الأصيلة، وبخاصة عندما رأوا بعض الحروف في هذه الكلمات تشبه من حيث اللفظ حروف الزيادة التي قد تلحق الكلمة العربية، فظنوها كذلك عن طريق التخمين، دون التحقق اللغوي العلمي. وهذا يعود إلى عدم معرفتهم اللغات الأعجمية التي انحدرت منها هذه المفردات، وكانوا يكتفون أحياناً بالإشارة إلى أنها أعجمية، أي إنها

(20) الجاسوس على القاموس، ص ص 39 - 40.

(21) الجاسوس على القاموس، 11، 52.

(22) الجاسوس على القاموس، ص 11.

دخلت العربية بهذا الشكل الذي هي عليه، ومع كل هذا طبقوا عليها النظام الصرفي العربي، وكأن هذا النظام ينطبق على اللغات الأخرى، وهذا خطأ أشار إليه الشدياق بقوله:

«ومن أمثلة الإجحاف... إيراد المصنف لفظة «الاستبرق» في برق، فأنزل الألف والسين والتاء فيها، وهي نصف الحروف منزلة «استخرج» مع أنه ذكر «الاسفيداج» في سفدج وكذلك أورد «الأرجوان» في رجو فأنزلها منزلة الأفعوان والأقحوان مع أنها عجمية، فكان ينبغي أن تعامل معاملة «العنفوان» وبهذا الاعتبار أبعدها عن أصل وضعها، لأن الطالب يعتقد أن الهمزة والواو والنون فيها أصلية. وإن حكم «سألتمونيها» لا يجري على الألفاظ العجمية»[23].

وقد أثار الشدياق مثل هذه القضايا في كتابه «سرّ اللّيال»، وقد ركزها على نقد «القاموس المحيط»، فقد سرد الشدياق أربعة وعشرين مثالاً على خلل ترتيب القاموس المحيط وهي قريبة في موضوعاتها من الأربعة والعشرين نقداً التي عقد عليها كتابه «الجاسوس على القاموس» ولكن هذه الأمثلة لا تقتصر في مضمونها على العنصر الأول وهو سوء الترتيب في المادة اللغوية الواحدة في المعجم، بل تناول بعض هذه الأمثلة شيئاً من العنصر الثاني وهو «غموض التعريف».

ـ ترتيب سر الليال ومنهج الشدياق فيه:

والشدياق في كتابه «سر الليال في القلب والإبدال» يسير على نسق من الترتيب ارتضاه، ودفعه إليه حرصه على الوصول إلى علم معاني الألفاظ، والاطلاع على أصل وضعها، وحكمة مبناها، ولولا هذا لما خالف ما جرى عليه الأقدمون، لأنه يعلم علم اليقين أن مخالفة ما أجمعوا عليه يعد بدعة فقال:

---

(23) الجاسوس على القاموس، 27 - 28.

«وهنا أستميح سماح السادة العلماء، والأئمة الفضلاء عما تجاسرت به من اتخاذ الفعل المضاعف أصلاً من دون قصد لخرم قواعد الصرف، وإنما القصد في ذلك التوصل إلى معرفة معاني الألفاظ، وهو أمر اعتباري لا يؤدي إلى إفساد اللغة، فإذا راعوا جانب هذا النفع العظيم في جانب ذلك الخلاف العقيم هان عليهم أن يستحسنوا عملي، أو في الأقل أن يغضوا النظر عن تقبيحه والقدح فيه، وذلك هو أملي. وليحسبوا صنيعي هذا من قبيل ترتيب حروف المعجم، فإنه فصل ما بين الحروف الحلقية والمهموسة وغيرها[24].

ولولا ما قصدت من الوصول إلى علم معاني الألفاظ، والاطلاع على أصل وضعها وحكمة مبناها، لما كان لي من عاذر على ارتكاب هذه المخالفة، فإني أعلم علم اليقين أن مخالفة ما أُجمع عليه، يُحْسَبُ بدعة، إلاَّ أن النفع الحاصل من هذا العدول كما تقدم أكثر من الضرر وأعظم.

هذا وحيث قد بنيت هذا الكتاب على ذلك الاعتبار، التزمت أن أزيد على المضاعف المختلفة أفعاله من عدة أوجه ما يظهر في بادىء الرأي أنه منقلب من وجه واحد ليكون الأسلوب مطرداً، وذلك كما في فثغه وفدغه وفدخه وفلغه وفلقه، وثلغه وثدغه وهدغه وهمغه ووشغه.

فإني جعلت فثغه من فثّ، وفدغه من فدّ، فإن وقع شيء بخلافه فهو سهو والكمال لله، وكل فعل زيد على الثلاثي، فلك أن تبقي فيه التشديد إذا قصدت المبالغة نحو: هذّ وهذّب وحسّ وحسّم»[25].

وأراد الشدياق أن يكون ترتيب أفعاله حسب مخارج الحروف، لكنه اعتذر عن تحقيق ذلك للمشقة الكبيرة، ورأى إن ترتيب الحروف أمر اصطلاحي ، فقد قال:

---

(24) المهموسة ليست قسيمة الحلقية، فالحلقية اسم مخرج والمهموسة اسم صفة للحروف، ولا ادري لم أوردها هنا.

(25) سر الليال في القلب والإبدال، 21 - 22.

«وكنت أود لو أن نسق هذه الأفعال كان بحسب قرب مخارج الحروف، فأورد مثلاً بعد أبّ أفّ وأمّ، وبعد أتّ أدّ وأطّ، إلاّ أن في ذلك من المشقة والجهد مع ضيق الوقت ما أحوج إلى سردها بحسب ترتيبها المتعارف، فلهذا لم يكن لي بد من الرجوع إلى بعض الحروف المسبوقة.

مثال ذلك أني جعلت أول الكتاب مبدوءاً بأبّ ثم أردفْتُه بحبّ وخبّ وعبّ وغبّ وهبّ ومقلوباتها لكونها جميعاً حروف حلق.

ثم رجعت إلى تبّ وأتبعته جبّ ودبّ وذبّ وزبّ وصبّ وأخواتها على التوالي ثم مقلوباتها. ولولا هذا الرجوع لما أمكنني إدراجها. على أن أسبقية الحروف أمر اعتباري، فلا ندري هل كان جبّ قبل حبّ أو حبّ قبل جبّ؟»[26].

إن هذا ليذكرنا بكتب اللغة التي قرأها الشدياق وسار على نهجها في اتخاذ الفعل الثنائي المضاعف أصلاً، ككتاب العين للخليل بن أحمد، والجمهرة لابن دريد والتهذيب للأزهري والمحكم لابن سيده والأفعال لابن القوطية ومقاييس اللغة والمجمل لابن فارس وغيرها.

ويبدو لنا أن تلك الكتب هي التي أوحت إلى الشدياق فكرة إنشاء معجمه «سر الليال في القلب والإبدال» على النحو الذي ارتضاه من اتخاذ الفعل الثنائي المضاعف أصلاً.

فالشدياق ليس أول من قال بأصلية الفعل الثنائي المضاعف مع ما يطرأ عليه من قلب وإبدال فقد سبقه إلى ذلك كثيرون، لكنه جدد إيمانه بها فأحياها ودعا إليها في مقالاته اللغوية في جريدة الجوائب التي كان يصدرها، وفي كتبه التي ألفها.

ونظرية الشدياق في كتابه «سر الليال» هي أنك إذا وقفت على الفعل الثنائي المضاعف وتأملت ما يتفرغ منه من أفعال، وجدت بينه وبينها تناسباً

(26) سر الليال في القلب والإبدال، 5.

وتجانساً، بحيث تلمح حقيقة الأصل وتدرك معناه. ولا ينكر ما في هذه النظرية من إجهاد. ولكن لا يمكن عدها قاعدة علمية مطردة، ومهما يكن من أمر فإنه من الجدير أن ينوه بما للشدياق في مباحثه اللغوية من قوة ملاحظة وجلد على الاستقراء، وهو أمر هام في كل بحث علمي، يضاف إلى ذلك ما وهب من قدرة على التحليل والتأويل.

إلا أن الشّدياق، في الحقيقة، قد وقع في اضطراب منهجيّ كبير في كتابه «سرّ الليال» فقد اختتم الجزء الأوّل - اليتيم - ببعض الملاحظات حول منهجه فيه وسماها «تنبيهات» أعادَ فيها ما قاله في المقدمة وقال: «اصطلاح هذا الكتاب: الابتداء بالمضاعف، ثم بالأجوف الواوي واليائي ثم بالمهموز، فإذا لم يكن مضاعف ذكرت الأجوف، وإذا لم يكن الأجوف ذكرت المهموز»[27]. وقد عرفنا أن الشدياق كان يدعو إلى الأخذ بطريقة ترتيب «الأساس» و«المصباح» وهي البدء بأوائل حروف الكلمة المجردة، لا بأواخرها كما هو شأن طريقة «الصحاح» و«اللسان» و«القاموس» والتي عابها الشدياق بكونها فاصلة لتناسق معاني الكلم وموارية لأسرار وضعها ومبانيها. لكن الشدياق خالف ما ارتضاه لغيره وما اختطه لنفسه، فأوقع المطالع والباحث في الحيرة والارتباك، حين ألف سر الليال على الترتيب الذي سار عليه، فوقع الشدياق فيما حذر منه غيره، ولقد اعترف هو نفسه بذلك فقال: «إني حيث التزمت قلب الأفعال، أدى ذلك إلى قطع بعضها عن سلسلة نسقها، مثال ذلك أني أوردت بحّ في قلب حبّ وكان الأصل أن يكون بعد أحّ ، ولكن هكذا اقتضى الاصطلاح. ومن ذلك تعلم أنك إذا رمت البحث عن لفظة وجب أن ترجع إلى أسبق الحروف ترتيباً بالنظر إلى أواخرها، فإن الباء في حبّ سابقة على الحاء في بحّ. والبحث عن برّ مثلاً يكون في ربّ، وعن جلّ في لجّ، وعن بدّ في دبّ، وعن بسّ في سبّ، فلا تغفل عن هذا»[28].

(27) سر الليال في القلب والإبدال ، 607.

(28) سر الليال في القلب والإبدال، 608.

فالشدياق بطريقته هذه قد خلط بين الترتيبين: الترتيب حسب أوائل الحروف لأصل المادة، والترتيب حسب أواخرها عندما يبدأ بالقلب والإبدال.

فهو يأتي بالفعل الثنائي المضاعف، ثم ينتقل إلى الأجوف الواوي ثم اليائي، ويحاول الربط بينه وبين الأصل الثنائي من حيث المعنى العام، ثم بعد ذلك يأخذ في سرد الثلاثي، مما زيد على الثنائي بحرف من آخره، ويتسلسل بالمزيد ابتداء مما كان آخره همزة، ثم الباء ثم التاء... إلخ مثال ذلك مادة «أبّ» فبعد أن شرح معناها أورد الأجوف الواوي منها وهو «أوب» ثم الأجوف اليائي «أيب» ثم خلص إلى ما زيد بحرف ثالث من الآخر فجاء بالمواد: آب ثم أبت ثم أبث[29]. وهو معتمد في كل ذلك على القاموس المحيط في معالجة مواد كتابه، وهو يشير بعبارة: «قال المصنف». ولكنه ما أن ينتهي من عرض المادة الثنائية المضاعفة بالشكل الذي بيناه قبل قليل، حتى يبدأ بالخروج عن الخطة التي رسمها لنفسه وحاول أن يلتزم بها وذلك حين يبدأ بالمجانسة والقلب، فيبعد عن الأصل كثيراً، حتى ليخيل للباحث أنه انتقل إلى مادة جديدة على طريقة استطرادية، وذلك كما في مادة «أبّ»، فقد افتتح الشدياق «سر الليال» بالهمزة مع الباء المضاعفة؛ ففسّر «أبّ».

ثم ليسرد جميع الأفعال التي تشارك «أبّ» في الهمزة والباء مع اختلاف الحرف الثالث متدرجاً حسب التسلسل التالي:

آب ـ أَيَّاب ـ الأُباءة ـ أَبت ـ أَبث ـ الأَبَج ـ أَبد ـ أَبَر أَبَز ـ أَبش ـ أَبَص ـ أَبَض ـ أَبَط ـ أَبِق ـ أَبِك ـ أَبَل ـ أَبَنَة ـ أَبْهَت ـ أَبى.

وعندما انتهى من أسرة «أبّ» شرحاً ونقداً وتعليقاً انتقل إلى صيغة جديدة فقال: «ثم جانس أبّ حبّ» فيسرد معاني حب، وما يثلث الحاء مع الباء على طريقته الأولى فيأتي بـ: الحوبة ـ الحَوْأَب ـ الحَبأ ـ الحَبَج ـ الحِبْر ـ الحَبْتر ـ الحَبْجر ـ الحَبْقر ـ الحَبَوْكر ـ الحَبْس... إلخ.

---

(29) سر الليال، 32 (أبّ).

والحق يقال إن سر الليال لا يرقى إلى مرتبة محيط المحيط للبستاني أو أقرب الموارد للشرتوني، من حيث الترتيب والتبويب، والتنـظيم وسرعـة الكشف عن المادة اللغوية المطلوبة، الأمر الذي جعل الباحثين والدارسين في القرن التاسع عشر لا يدرجون سر الليال في عداد المعاجم التي يمكن للباحث الإفادة منها، بخلاف محيط المحيط وقطر المحيط وأقرب الموارد، فأنت إذا طالعت واحداً من هذه المعاجم لشعرت أنك أمام عمل معجمي صحيح حيث بدأ بأوائل الكلمات وجعلها مداخل لمواده اللغوية.

ب ـ العنصر الثاني: وضوح التعريف:

هذا هو العنصر الثاني من العناصر الثلاثة التي يود الشدياق توفرها في المعجم العربي الحديث، فإن المعجميين القدامى وفي مقدمتهم صاحب القـاموس المحيط، قـد وقعوا في غمـوض التعريف في كثيـر من مواد معجماتهم، الأمر الذي يصعب فهمه علح المطالع والباحث. وقد تناثرت مآخذ الشدياق عليه بين ثنايا مقدمتي كتابيه اللغويين الجاسوس على القاموس وسر الليال في القلب والإبدال.

فغموض التعريف إنما يأتي في الغالب من الجهل أو الإهمال، وكل ذلك من الأمور التي يستطيع المؤلف أن يتحاشاهـا بشيء من الاهتمام والدقة. قال الشدياق يعدد أنواع هذا القصور في التعريف.

«ومن هذا القصور تعريفهم لفظة بلفظة، أخرى من دون ذكر الفرق بينهما بالنظر إلى تعديتهما بحرف الجر، كقول الجوهري مثلاً الوجـل: الخوف، ومثلها عبارة القاموس والمصباح، مـع أن «وَجِلَ» يتعـدى بمن و «خاف» يتعدى بنفسه»[30].

«ومن ذلك أنهم يفسرون اللفظ بلازم معناه ومفهومه ضمناً، كتفسيرهم الزهيد بالقليل وهو فعيل بمعنى مزهود فيه وإن كان كثيراً، ولكن لما كان

(30) الجاسوس على القاموس، 12، وسر الليال في القلب والإبدال، 21.

الناس يرغبون غالباً في الكثير ويزهدون في القليل غلب استعمال الزهيد في القليل»[31].

«ومن ذلك أنهم يوردون في التعريف ألفاظاً لا يذكرونها في مظانها مع توقف المعنى عليها كقول الجوهري: ربح في تجارته أي استشف، ولم يذكر استشف في بابها، وتبعه المصنف في ذلك، ثم قال في باب الفاء: واستشفه: نظر ما وراءه. وعبارة «المحكم» الربح: النماء في التجر. وكقول ابن فارس في «المجمل» في مادة «بلد» البلد صدر القرى، ولم يذكر في صدر سوى قوله صدر الإنسان وغيره. وكقول صاحب «المحكم» في هذه المادة: البلد كل قطعة مستحيزة من الأرض إلخ، ولم يذكر استحاز في حوز ولا في حيز»[32].

«ومن الصعب أيضاً معرفة تعلق الأفعال وما اشتق منها بمدلولاتها من حيث الإطلاق والتقييد كقول الجوهري مثلاً: سبأت الخمر إذا اشتريتها لتشربها، فقيد الشراء بقوله لتشربها. وقوله أيضاً فلان مُسْتَهْتَرَ بالشراب أي مولع به، لا يبالي ما قيل فيه. فقيد الاستهتار بالشراب. وكقول المصنف: نُتِجَت الناقة كعنِي نتاجاً وأنْتِجَت وقد نَتَجَها أهلُها، وأُنتجت الفرس: حان نَتاجُها.

فقيد الفعل المجهول من الثلاثي والرباعي بالناقة والمعلوم بالفرس، فهذا باب واسع من الإبهام يضيق عن استيفائه هذا المقام، فكن من القيد فيه على حذر. . .»[33].

غموض التعريف في القاموس المحيط:

قلنا فيما سبق إن الشدياق سرد في كتابه «سر الليال» أربعة وعشرين

---

(31) الجاسوس على القاموس، 13 - 14.

(32) الجاسوس على القاموس، 14.

(33) الجاسوس على القاموس، 21.

مثالاً حول خلل ترتيب القاموس، وهي مختصرة من النقود الأربعة والعشرين التي بنى عليها كتابه الآخر «الجاسوس على القاموس».

لكن هذه الأمثلة لم تتناول خلل الترتيب فحسب، وإنما تناولت غموض التعريف كذلك.

ويعزو الشدياق غموض التعريف في بعض مواد القاموس المحيط إلى أن صاحبه كان يعتمد على معرفة الناس معانيها فقال:

«منشأ هذا الخلل في القاموس أن مصنّفه كان يرى هذه الألفاظ مفسرة في الكتب التي نقل منها فأوردها من دون تفسير، إما لتوهمه أن المطالع قد اطلع عليها قبل مراجعته كتابه، أو إنه يعرفها من سياق عبارته»[34].

جـ ـ العنصر الثالث: شمول المعجم للألفاظ التي استعملها الأدباء والكتاب...

لعل من أهم ما دعا إليه الشدياق أن لا يقتصر المعجم الحديث على متن اللغة القديمة وحدها، بل يدوّن أيضاً ما جاء على ألسنة الشعراء والكتاب بعد عصور الاحتجاج، فهو يجيز إذن الاحتجاج بشعر المولدين، ويؤيد قوله هذا بأدلة من الواقع الاجتماعي واللغوي ومن هنا يجنح إلى ما يشعر بأنه يقدم كلمات المولدين على كلمات غيرهم من أهل الجاهلية.

ففي خاتمة كتاب الجاسوس على القاموس نراه يعطي أهمية كبيرة للألفاظ المولدة والاصطلاحية التي جرت على ألسنة كبار الكتاب والشعراء، ويرى ضرورة الاحتجاج بها كالألفاظ العربية القديمة سواء بسواء فيقول:

«وكنت نويت أن أجعل في مكان هذه الخاتمة نقداً يشتمل على ما فات صاحب القاموس من الألفاظ اللغوية والاصطلاحية الفصيحة، وكنت جمعت منها نحو خمسة كراريس مع مقدمة وازنت فيها بين العرب العاربة والعرب

(34) الجاسوس على القاموس، 349.

المولدين، والغرض من ذلك الاحتجاج بكلام هؤلاء إذا كانوا متضلعين من العربية، كجرير والفرزدق والأخطل وبشار بن برد ومهيار الديلمي وأبي نواس وأبي تمام والبحتري والمتنبي وأبي فراس وأضرابهم»[35].

ويستدل الشدياق على ما ذهب إليه بدليلين اثنين:

الأول منهما: «أن المولدين راعوا حقّ اللغة والتزموا قواعدها أكثر من العرب في الجاهلية لأنهم اعتقدوا أن اللغة وسيلة إلى فهم التنزيل والحديث الشريف، فبالغوا في ضبطها ما أمكن، وهذا الأمر لم يخطر ببال العرب قط. فإذا كان المولدون قد جاؤوا شيئاً مخالفاً للأصول والقواعد، فإنما كان لعدم وقوفهم على نص فيه، أو لأنهم كانوا قادرين على توجيهه وتخريجه، بخلاف العرب العاربة فإنهم خالفوا تلك الأصول لعدم المبالاة، ولهذا قيل: ما جاز للعرب المتقدمين لم يجز للمتأخرين»[36].

والثاني منهما: «أنه لا يمكن أن يخطر ببال عاقل منصف أن الشاعر البليغ من هذه الطبقة يخترع ألفاظاً ليس لها أصل في العربية وهو بين ظهراني علماء ينتقدون على الطائر طيرانه وعلى البعير وخدانه. على أنه لو كان أحد من المولدين ألف كتاباً في اللغة لقبل لا محالة، فليس من الإنصاف أن تقبل روايته في اللغة ويرد كلامه في الشعر، إلى غير ذلك من التنويه بتوثيق المولدين.

وإنما ألومهم على أنهم اقتصروا على الشعر ولم يؤلفوا في اللغة، غير أن هذا اللوم يشمل غيرهم أيضاً من أهل القرن الأول إلى يومنا هذا»[37].

والشدياق لا يكتفي بإيراد هذه الأدلة، وإنما يحاول أن يناقش أولئك الذين يقولون إن كلام المولدين لا يحتج به فيقول:

---

(35) الجاسوس على القاموس، 520.

(36) الجاسوس على القاموس، 520.

(37) الجاسوس على القاموس، 520.

«وبقي النظر في قول العلماء: إن كلام المولدين لا يحتج به، فإنهم لم يبينوا معنى المولدين فغاية ما قالوه في المولد إنه عربي غير محض، فإن كان المراد بذلك أنه الذي نشأ بعد الإسلام، فهو محض تعنت، لأن من هؤلاء المولدين من عاش قبل أن عرف التأليف في اللغة، فكيف يحكم على كلامهم بأنه لم يكن عربياً صحيحاً من دون كتب اللغة؟

على أن كل ما ألف في اللغة لم يكن مستقصياً لجميع مفرداتها، وعلى كل فكان ينبغي لمن أنكر الاحتجاج بكلام المولدين أن يبين عصرهم»[38].

محمد علي الزركان
كلية الآداب ـ جامعة حلب

---

(38) الجاسوس على القاموس، 520.

الجوائب ودورها في المعجمية الحديثة

بحث: الدكتور محمّد التونجي

لم يرتبط صحافي باسم جريدته كما ارتبط اسم الشدياق «بالجوائب». ولم تشتهر جريدة عربية منذ تأسيس الصحف العربية حتى مطالع القرن العشرين اشتهار «الجوائب». ولا بد لمن يبحث في تاريخ الصحافة من أن يرتكز على الشدياق ارتكازاً بارزاً. ولا بد لمن يريد دراسة النهضة الأدبيـة أو الحركة اللغوية في النصف الثاني من القرن 19 من أن يولي الشدياق وجوائبه اهتماماً خاصاً.

حلم غدَا حقيقة:

يحلم كل أديب بإنشاء مطبعة، وكذلك كل ناشر. وكان الحلم يراود مخيلة الشدياق وهو يعمل في المطبعة السلطانية: لمَ لا يؤسس جريدة عربية على غرار الجرائد الأجنبية؟ إنه يستطيع بها أن يبثّ بعض طموحاته نحو أمته. وينبىء الناس أخبارهم السياسية العالمية والداخلية من وراء المطبعة.

وهو حين حقق الحلم الأول بإصدار الجريدة، تابعه حلم تأسيس مطبعة تنشر له صحيفته وما يريد إحياءه من التراث العربي الدفين.. كل هذه الأحلام كانت تراوده وهو يعمل في الأستانة. فكان يعمل ويحلم، يحلم ويخطط، يخطط ويمهد.

ولا شك أن الطموح أكبر عامل على تحقيق الآمال، ويتلوه التصميم والشخصية. وإذا كان جوّ الامبراطورية العثمانية متأزماً آنئذٍ، فإن الأزمات هي

التي تخلق الصحف وتبعث الحمية في الأقلام الفتية. وفي هذا المعترك ولدت «الجوائب»، ومن هـذه الأحداث رضعت وحفلت، ومن شخصية الشدياق تدعمت وانطلقت.

تاريخ صدورها:

عرفت الأمة العربية بواكير الصحافة في مصر. فقد صدرت الجريدة الأولى في عهد نابليون عام 1794 واسمها «الحوادث اليومية». ولكنها توقفت عام 1801 بعودة نابليون. ولم تر الجريدة الثانية النور إلا عام 1822 على يد محمد علي باشا واسمها «الوقائع المصرية». أما الصحيفة الثالثة فكانت «المبشر» الجزائرية عام 1847، أصدرتها الحكومة الفرنسية المستعمرة ليسهل عليها التفاهم مع شعب الجزائر. وهكذا لم تكن الصحف الثلاث الأولى عربية الطابع، وإن كتبت بحرف عربي.

وأول صحيفة عربية وصاحبها عربي هي «مرآة الأحوال»، إذ أصدرها رزق الله حسون الحلبي عام 1855 في الأستانة. فَعُدَّ «رائد الصحافة العربية وزعيم الصحفيين العرب. ومع ذلك لم تحظ جريدته بما حظيت به «الجوائب» التي صدرت في الآستانة بعد خمس سنوات.

وفوجىء العالم الإسلامي بصدور جريدة في الأستانة تُعنى بأخبارهم وبأخبار العرب بتاريخ 21 ذي القعدة 1277 الموافق لـ 31 أيار 1861، تحمل اسماً يدل على أن صاحبها قصد سيرورة الجريدة في العالمين الإسلامي والعربي، وهو «الجوائب»، وقد أرَّخ حسين بيهم لصدورها شعراً فقال:

إنَّ الجوائبَ بالأخبارِ قد شَهدتْ ... بالسَّبقِ في كلِّ ميدانٍ لمُعرِبها
مِن كلِّ فاكهةٍ زوجين قد جَمعتْ ... فطابَ واردُها من طيبِ مَشربِها
تجوبُ دوماً جهاتِ الأرض جاليةً ... أخبارَ مَشرقها أرِّخ: لمَغرِبها

وقد حقق في عدده الأول أول مصطلح لغوي صحافي حين استعمل كلمة «جريدة» دلالة على مثل هذه النشرات الدورية.

طبعها ومطبعتها:

استمرت الجوائب تُطبع في المطبعة السلطانية في الآستانة مدة تسع سنوات. ولئن كان الفرح يعمّ الشدياق في بدء العمل فَلَقَدْ أحسَّ فيما بعدُ بتقصير المطبعة الرسمية أمام العمل الصحافي. لكنه ظلّ يكابد حتى تحقق له الحلم الثاني بإنشاء مطبعة خاصة بجريدته عام 1869، وبعد أن أصدر 425 عدداً. فقد أفاد من إعانات الخديو إسماعيل بمصر، ومصطفى باشا الخزندار بتونس وغيرهما في تأسيس مطبعة الجوائب، لتصدر بحرية أكثر ودقة أفضل. فجهزها بكل ما يلزمه من أدوات فنية، واقتنى لها نماذج مختلفة من الحروف. وما هي إلا مدة حتى غدت من أشهر المطابع في السلطنة العثمانية.

وسرعان ما حام الشدياق حول الحلم الثالث، وهو نشر الكتب. فإليه يعود الفضل الأكبر بإحياء التراث العربي القديم؛ فطبع عشرات من المخطوطات. ومما يؤسف له أنه لم يكن يذكر على أغلب هذه الكتب اسم المحقق، لنعرف فضله. كما طبع في مطبعته عدداً كبيراً من مؤلفاته ومؤلفات غيره من الأدباء.

دعمها وارتباطها:

كانت أغلب الصحف الأولى تسعى إلى كسب رضى بعض الجهات ليضمن صاحبها كسباً مادياً واستمراراً في النشر. فهل كان الشدياق كهؤلاء؟ لقد كانت الصحافة من الأمور الكمالية في الحياة. فما كل الناس يأبهون للصحف. ولا يتلقّفون أعدادها فور صدورها، تلقُّفهم الآن لمشهورات المجلات والصحف. كما لم تكن الإعلانات كافية لتغطية تكاليف الطباعة. فكان لا بد له من الاستعانة:

1 ـ بالسلطان العثماني، وموالاته ومدحه نثراً وشعراً، ولم يكن وحده في هذه الموالاة؛ فجميع الصحف التي كانت تصدر في الآستانة تسعى إلى

مرضاة السلطان. ولقد ساعدها السلطان عبد العزيز كثيراً لبثِّ فكرة الخلافة بين المسلمين المنتشرين خارج إطار الدولة العثمانية. وكان الشدياق يقبض لذلك 500 ليرة عثمانية سنوياً.

2 ـ بالخديو إسماعيل. بل إن ولاءه له كان أقوى من ولائه للسلطان، لأنه كان يكسب من عون السلطان أقل مما يكسبه من حاكم مصر.

3 ـ بالإنكليز؛ فقد كان معجباً بهم وبتربيتهم وبصحافتهم، ويقول عماد الصلح: «ولعل اندفاعه هذا تابع لدعم بريطانية للآستانة» آنئذٍ. ونحن إن حاولنا التغاضي عن ميوله هذه لإعجابه بالإنكليز إعجاباً معنوياً، ولمداهنتهم للسلطان، فلن نغفر له قبضَه ألف ليرة إنكليزية ليطبع في جريدته صورة المنشور الذي صدر من الباب العالي بإعلان عصيان عُرابي باشا. لأنه كان سبباً في اندحار هذا الصوت العربي الحر. وبالتالي أسقط من اعتبار الجوائب في عيون المسلمين عامة والمصريين خاصة.

4 ـ ببعض الشخصيات العربية والعثمانية البارزة فتتوافد عليه منهم معونات مالية ذات أهمية كفؤاد باشا الصدر الأعظم، وسامي باشا وزير المعارف، ومحمد الصادق باشا باي تونس..

العمل في الجريدة:

لا يظن المرء أن كلمة «جريدة» تعني له في تلك الأيام رئاسة هيئة تحرير، واختصاصاً بالمحررين، وموظفين، ومترجمين، وأصحاب زوايا، وكاتب مقال سياسي..

منذ صدرت الجوائب والعقبات الكأداء تلاحق الشدياق. فقد كان يكتب وحده، ويحرر، ويصحح، ويزور الدوائر الرسمية، ويراسل، ويستقبل البريد، ويغلف الصحف، ويلصق الطوابع على الطرود .. ولم ينزل ابنه سليم إلى ساحة العمل إلا بعد مرور عدة سنوات، وإثر تعذر العمل. ومع أن

ابنه ساند أباه في إدارة الجريدة وفي الإشراف على الطباعة، فإنه لم يكن ذا قلم سيال نقيّ.

وكانت المطبعة تعمل بالتدوير اليدوي. وكان العامل الوحيد الذي يرصف الحروف لا يعرف قراءة غير الخط النسخي. فكان على الشدياق إعادة الكتابة بالخط النسخي ليتمكن العامل (وهو غير عربي) من صفها. بل إنه اضطر مرة إلى نشر هذا الإعلان: «المرجو ممّن يروم نشر خبر في الجوائب أن يكتب بالخط النسخي، لأن من يصف حروف الجوائب لا يدري غير حروف الطبع».

وكان الشدياق يسعى إلى جمع الأخبار من الأقطار، ويترجم بنفسه المقالات المهمة من الصحف الأجنبية. وقد وفق إلى تعيين مراسلين لجريدته ووكلاء في عدد من أشهر المدن العربية والإسلامية والغربية.

عثرات الجوائب:

ذكرنا أن الجوائب منذ صدرت تشكو، وظلت تشكو حتى توقفت عن النشر تماماً. وقد كانت العثرات كبيرة جداً أحياناً، أهمها:

1 ـ قلة المال: فقد آمن الشدياق أن صدور الجريدة وانتشارها يتوقف على مقدار المال الذي يبذل لها. وكانت شكواه مستمرة لعدم انتظام العائدات المالية إلى الجوائب.

2 ـ الوكلاء الذين سهلوا عليه نشر الجوائب كانوا سبباً في تعثرها، فكثيراً ما كانوا يتهاونون في تحويل الأموال، أو في توزيع الجريدة.

3 ـ الصعوبة في جمع الأخبار من البلاط ومن الأمصار بالسرعة اللازمة.

4 ـ استحالة استمراره في إرضاء الباب العالي لكثرة المراقبة والضغط.

لهذا كانت الجوائب تعجز أحياناً وتحتجب أو تتأخر في الصدور فتكسد النسخ لديه. فيزداد الشامتون الذين يتحينون الفرص للطعن بكل ذي حيوية.

ولهذا نراه ينشر في أحد الأعداد قوله:

إلى الله أشكو من كسادِ الجوائبِ ومن شانيءٍ شاناً لها ومُشاغبِ
وما الذنبُ لي أني أفدتُ ولم أفِدْ وما الذأم بي أني أسفتُ مشاربي
ولكنها الأيامُ تكوي مقاصدي وتعكس آمالي بها ومآربي
ولو أنّ قومي أنصفوني لنوَّهوا بحسن وإحسانٍ لها في المخاطبِ

إقفالها:

لم تكن الصحافة في ظل الخلافة العثمانية حرة، كما لم تكن مُعانة العون الكافي. ولهذين السببين توقفت الجوائب مرتين، ثم أقفلت في الثالثة:

1 ـ أوقفها الشدياق بنفسه بعد أن صدر العدد 36 لعجزه عن متابعة الدفع لها. لكن السعادة واكبته حين صدر فرمان سلطاني يقضي بأن يتكلف البلاط بمصروفات الجوائب وقدرها 800 غرش في الشهر. وهذا المبلغ كافٍ لتغطية تكلفة الطبع دون النظر إلى احتياجات الشدياق الشخصية. ويعقّب عماد الصلح على هذا الخبر فيقول: «في زعمنا أن هذا الاتفاق اتصف بالنظافة. فلا الدولة اتخذت موقف الراثي فأغدقت المال دون مقابل، ولا صاحب الجريدة سلك سبيل الإسفاف فباع النفس والقلم».

2 ـ أصدر السلطان عبد الحميد في 11 جمادي الأولى 1294 (2 آذار مارس 1877) قانوناً يقضي بالحد من حرية الصحافة «. . وكل صاحب جريدة أو غيرها، إذا نشر شيئاً من شأنه الإخلال بالأمن والسلم تُعطل جريدته. . ». وكان هذا القانون سلاحاً فتاكاً ضد حرية الصحافة.

وصدف أن نَشرت جريدة «ترجمان حقيقت» التركية مقالة تطعن في الخديو إسماعيل. فطلبت إدارة المطبوعات ترجمة المقال ونشره في الجوائب. لكن الشدياق ـ وحباً في الخديو والحرية ـ امتنع عن نشره ونشر مقالة معاكسة بعنوان «سفاهت حقيقت». فاتخذت دائرة المطبوعات رده هذا

ذريعة بإقفالها لمدة ستة أشهر، في تموز 1879.

وقد أحدث تعطيلها هذا ضجة كبيرة في الأوساط السياسية والأدبية. ثم عادت الجوائب إلى الصدور بحلة أفضل. فأشرقت أسارير الأدباء، ولا سيما حين رأوها بحلتها القشيبة. فقال حسين بيهم يقرظها:

لئن حُجبتْ شمسُ الجوائب برهةً فذاكَ لسرٍّ قد بدا خيرُه فينا
حكت قمراً حين احتجابٍ وقد بدتْ كبدرٍ بأنواع المعارفِ يهدينا

وختم حنا مصعب قصيدته المدحية بقوله:

وأرجعَت للدنيا جوائبَ فارسٍ فسرَّت بها الأقطارُ من كل جانبِ
وفي عَودها قد قلت فالعودُ أحمدٌ فأهلاً وسهلاً ذرَّ بدرُ الثواقبِ

عادت الجوائب وهي تحمل كل جديد وتجديد. من ذلك أنه:

1 ـ أسس في تاريخ الصحافة العربية «المقالة الافتتاحية»، التي تُرتب على يمين الجريدة.
2 ـ نظم مسألة توزيع الصحف بتعيين موظفين مختصين لذلك.
3 ـ عين وكلاء عامين لإبراز أحداث العالم، في أشهر بقاع العالم من سنغافورة وبانكوك إلى لندرة وجزر الكومور، ناهيكم عن أبرز المدن العربية والإسلامية، لمتابعة الأحداث العالمية.
4 ـ خصص زوايا مترجمة تهمّ قراء الوطن العربي، فكانت أهم قناة تنقل الفكر الأوروبي الحديث إلى العالم العربي.
5 ـ أكثر من مقالات نقد الحكومة، كلما وجد تقصيراً منها أو من باشاواتها.

الجوائب ووجهها اللغوي:

لم تُحدث الجوائب انقلاباً في عالم الصحافة وحسب، بل كان لوجهها اللغوي والأدبي إشراق ورسوخ كبيران. فقد ازدحمت الجوائب بشتى المقالات اللغوية والأدبية. وسرعان ما اصطرعت على صفحاتها أقلام

اللغويين والأدباء، فالتهبت المناظرات الأدبية، واحتدَّت المعارك اللغوية. وكان لا بد للأديب من أن يعرض أفكاره بأفضل الألفاظ وأدقِّها. فكان أن أحيوا مواتَ الألفاظ القديمة، وهذَّبوا الدفين منها، وألهبوا حماس اللغويين ليبسطوا على صفحات الجوائب جياد اللغة، ويحاربوا السافَّ من التعبير، والعامي من الألفاظ، ولا شك أن الشدياق كان سباقاً إلى فتح المعارك اللغوية على مصراعيها تَحدوه الغيرة على عروبة لغته وأصالتها. ليواكبه محبون ومريدون، ويقارعه خصوم، ويصاوله أفذاذ.

ولا يعني قولنا هذا أن اللغويين راحوا ينبشون من معاجم العربية غريب اللفظ وشارد التعبير، بل كانوا ينقبون عن أسلس تعبير، وأطوع لفظ، لبسط أفكارهم وعرض آرائهم.

وقد قادت الجوائب الصحف الأخرى لكي تشاركها في صراعاتها اللغوية على ساحات صحفها بأقلام أدباء غدَوا فيما بعد أبطال الحركة اللغوية الحديثة، مما تَسَبَّب في إغناء المعجمات الحديثة المعاصرة بجديد القول أو بمجازيِّ التعبير. وغدت الجوائب العينَ الرقيبة التي يحسب حسابها في كل ما يكتب، فلم يعد أحدهم ينشر مقالة إلا بعد تهذيب وتدقيق واعتماد.

وهكذا ألهبت المناظرات الشدياقية والمناقشات الجوائبية حماس اللغويين، من أمثال: إبراهيم اليازجي، رشيد الدحداح، إبراهيم الأحدب، بطرس البستاني، رزق الله حسون، قسطاكي الحمصي، يوسف باخوس، سعيد الشرتوني، عبد الهادي نَجا الأبياري، محمود شكري الألوسي، وعشرات غيرهم.. لكي يُنشطوا أقلامهم، ويدعموا عصر النهضة الأدبي بتقديم تراث لغوي نعتز به اليوم. ولقد غطت حركة إحياء اللغة هذه ما قام به الشدياق نفسه من ترسيخ لدعائم فن المقالة الأدبية وفن المقالة السياسية قبل أكثر من مئة عام.

الجوائب والمصطلح الحديث:

وممّا اختص به الشدياق على صفحات جوائبه (خاصة) ما قدَّمه من مصطلحات حديثة مهمة، ما زالت موضع اهتمام الفئات المثقفة. ولئن أغنت مناقشاته ومناظراته مبدأ المعجمية الحديثة باللفظ المجدَّد والمولَّد وبالمعنى المجازي الدلالي بعد إذ اقتصر به القول قديماً على المعنى الحقيقي، لقد كانت مقالاته السياسية تقوده إلى قدح زناد ذهنه اللغوي لوضع اللفظ السياسي الحديث المناسب، ومن ذلك: إعلام، إعلان، جواز (السفر)، انتخاب..

ومعالجاته العديدة لكثير من القضايا الاجتماعية والاقتصادية هدته إلى وضع مسمَّيات مناسبة، منبثقة عن معان قديمة، من ذلك: المُلاكمة، الملهى، التمثيل، الممثّل، المعرِض، الشمسية، الجامعة، المُعتزل.

ولن ننسى طبعاً دور الترجمة في كشف المصطلحات الحديثة المناسبة. فكما أن النَّقَلة في العصر العباسي اضطروا إلى وضع مصطلحات علمية توائم معاني ما ينقلون في عصرهم، فإن الشدياق استطاع استخراج مصطلحات حديثة من بطون المعاجم القديمة، ساقته إليها ضرورات الترجمة التي تحمّل عبأها. ولا شك أن المصطلح الحديث يرسخه أمران؛ الأول هو ثقافة المترجم وغيرته على أداء اللفظة المناسبة. والثاني تأمين سيرورة هذا المصطلح. ومَن مثل الشدياق يترجم؟ وما مثل الجوائب ينشر المصطلحات المبتكرة في أطراف المعمورة العربية؛ مشرقية ومغربية؟

ولقد أحس الشدياق نفسه بصعوبة الترجمة ووعورة المسلك، لصعوبة تأمين المصطلح الحديث الدقيق. ولكنه صمَّم، وكم كانت تعترضه مصطلحات فكرية عانى كثيراً حين أنزل لها مسميات عربية صميمية، كقوله: مجلس الشورى، مجلس النواب، الاشتراكية، الطابع (وكان يطلق عليه لفظة «يُول» الفارسية)، ومصطلحات علمية وآلية، مثل: الأرجاف الكهربائي، المعمَل، المصنَع، الحافِلة، المِنطاد، الباخرة..

ولن ننسى كذلك أنه واضع مصطلح «الجَرِيدة» على الدوريات.

إقفالها ونقلها إلى القاهرة:

رغم كل مآخذنا التي أشرنا إليها سابقاً، حملت الجوائب على عاتقها أمر دعم الأقطار العربية، ومساندة الأمم الإسلامية. وقد سبب وقوف الشدياق إلى جانب السودان في أزمته عام 1884 ضد السلطان العثماني صدور أمر بتعطيلها تعطيلاً نهائياً.

صمتت الجوائب بعد أن أصدرت 1177 عدداً، وبعد أن صدحت بالحق ربع قرن من الزمان. ولم يشأ ابنه سليم أن يوقف حركة الجهد الكبير، فحول الجريدة إلى القاهرة ليصدرها باسم «القاهرة» ثم «القاهرة الحرة». ولكنها لم تعمر طويلاً. وحاول خليل مطران إحياء اسم الجوائب ثانية، فأصدر مجلة عام 1902 وأسماها «الجوائب المصرية»، ثم حولها إلى جريدة يومية. واستمرت في الصدور خمس سنوات، ثم احتجبت.

وفاة الشدياق:

توقف الشدياق عن العمل في الجوائب قبل سنتين من تعطيل جريدته، لكبر سنه، وكلل بصره. واحتلَّ ابنه سليم محله بعد أن امتصَّ خبرة والده، وانصقل قلمه. واستمر حياً حتى 1887،. وكان قد أوصى بأن يدفن بلبنان. ونُقل جثمانه بحراً إلى بيروت، وصُلِّي عليه بالجامع العمري ودفن بالحازمية. ورثاه الشعراء، ورثوا معه الجوائب التي ارتبطت به مسيرة ربع قرن. قال الشرتوني في وفاته:

قد كانَ يلعبُ بالعقولِ بَيانُه ... لعبَ المدامةَ بالنزيفِ الشاربِ
أبقَى الجوائبَ شاهداً من بعدهِ ... يُقضي له بالفضلِ غيرَ مواربِ
كانت عليها كالعيالِ جرائدٌ ... ترجو لقاها كالحبيبِ الغائبِ

ورثاه أنطون دي طرازي فقال:

بـاليُمن وافَى اليـومَ مسقطَ رأسـهِ   علَمٌ بـأرض فَـروقَ وافـاهُ الـرَّدى
ستينَ عـامـاً قـد قضى مُتَغـرِّبـاً   فالعَودُ أحمـدُ بعدَمـا طالَ المـدى
وللحـازميَّـةِ شيَّعـوا جثمـانَـهُ   فَعـلا النُّـواحُ مُـجـدَّداً ومُـردِدًا
وبنُـو القـوافي والحميَّـة أرَّخـوا: تـرثي الحميّةُ والقَـوافي أحمـدا

وهكذا انطفأ قلم واضع أساس الصحافة العربية، والناقد السياسي والاجتماعي الذي تحمَّل الكثير في سبيل أمته، وصاحب أكثر الصحف العربية انتشاراً، والتي كان سلاطين العرب والمسلمين وملوكهم وأمراؤهم وأدباؤهم في تركية وسائر الأمصار الإسلامية والأقطار العربية يقرأونها ، والذي لعب دوراً كبيراً في سياستهم العامة الداخلية والخارجية، وصاحب الأسلوب السهل المجدد، وواضع المصطلحات للمخترعات العلمية والاحتيـاجات الأدبية.

أهم مراجع البحث:

- فيليب دي طرازي: - تاريخ الصحافة العربية.
- عماد الصلح: - أحمد فارس الشدياق.
- شاكر مصطفى: - القصة في سورية.
- عثمان نوري: - حياة عبد الحميد.
- فروخ وخالدي: - التبشير والاستعمار.
- خليل صابات: - تاريخ الطباعة في الشرق العربي.
- شمس الدين الرفاعي: - تاريخ الصحافة السورية.

محمد التّونجي

جامعة حلب

قراءة تحليلية

لمقدمة الشدياق على لسان العرب

بحث: عبد العزيز بن يوسف كيلاني

تمهيد:

لقد عُرِفَ أحمد فارس الشدياق بأنه أديب متفنن وعالم لغوي تميز بدقة ملاحظته وعمق نقده للقضايا الاجتماعية واللغوية بأسلوب مبتكر جعله ضمن أعلام النثر العربي في القرن التاسع عشر فقد وصفه خير الدين الزركلي في الأعلام بأنه «عالم باللغة والآداب محقق» [1]. كما أشاد جرجي زيدان بقيمته الأدبية بقوله «امتاز بإتقان فني النظم والنثر والإجادة في كليهما فتراه إذا نظم أو نثر إنما يفعل ذلك عن سعة وارتياح كأنه وعى ألفاظ اللغة في صدره وأخذ عليها عهداً أن تأتيه صاغرة» [2].

وبالرغم من اتفاق مترجميه على الإشادة بمنزلته العلمية ومكانته الأدبية والصحفية في عصره وبعد عصره فإنه لم يحظ بما هو جدير به من دراسات معمقة مختصة إلا ما ورد مشتتاً مقتضباً ضمن البحوث والكتب المخصصة لدراسة المعجمات العربية خصوصاً أثناء نقد القاموس للفيروزابادي[3] والتعليق السريع على خصائص أدبه مضمونياً وأسلوبياً بالرغم من غزارة

---

(1) الأعلام للزركلي صفحة 58.

(2) أخذنا النص من كتاب «المحافظة والتجديد في النثر العربي المعاصر في مائة عام» لأنور الجندي ص 57.

(3) انظر مثلاً: ـ المعاجم العربية للدكتور عبد الله درويش صفحة 112 مطبعة الرسالة ـ المعجم العربي للدكتور حسين نصار ج 2 صفحة 615 دار مصر للطباعة.

مؤلفاته كما وكيفا فقد ذكر له الزركلي في الأعلام عشرة كتب مطبوعة وأربعة أخرى مخطوطة بن بينها ديوان شعر يشتمل على اثنين وعشرين ألف بيت وقد علق على شعره بقوله «في شعره رقة وحسن انسجام» [4].

وقد أرجع بعضهم قلة الإقبال على مؤلفاته إلى صعوبة أبحاثه اللغوية بالإضافة إلى عوامل أخرى [5] دينية وأخلاقية لتهجمه على رجال الدين ونزعته المجونية وذكر الألفاظ البذيئة والأخبار الفاحشة «كان يطلق قلمه غير محاذر وأظنه السبب فيما تراه في بعض مؤلفاته من المجون الذي تنفر منه طباعنا وتمجه أذواقنا» [6] كما يقول جرجي زيدان.

وإذا كانت المعايير الدينية والاجتماعية والذوقية السائدة في عصر الشدياق قد أسهمت في الغض من قيمة مؤلفاته فإنها لا ينبغي أن تحول في عصرنا الحاضر دون الانكباب على دراسة إنتاجه وتحليله ونقده نقداً موضوعياً بعيداً عن الاعتبارات العاطفية والأخلاقية والقيمية خصوصاً بعد أن بدأ الفكر العربي في التحرر من القيود المجمدة لطاقة الخلق وبعد أن تطورت مناهج النقد ومدارسه الحديثة. ولذا فإن «جمعية المعجمية العربية بتونس» قد أسدت خدمة جليلة للعربية وللرجل معاً بتنظيمها هذه الندوة وإحيائها الذكرى المائوية لهذا العالم اللغوي الذي أحب العربية وعمل على تطويرها.

وإسهاماً منا في إحياء هذه الذكرى اخترنا مقدمته على اللسان لما تحتله من قيمة لغوية ووثائقية وقد اعتمدها كثير من مترجمي ابن منظور المعاصرين ووصفها بعضهم بالفريدة الجهبذية واليتيمة الألمعية [7].

فما هي منهجية هذه المقدمة؟ وما قيمتها مضمونياً وأسلوبياً؟

---

(4) المرجع المذكورة أعلاه ص 59.

(5) انظر مقدمة مناهل الأدب العربي رقم - 3 - أحمد فارس الشدياق صفحة 5.

(6) نقلاً عن أنور الجندي في كتابه المذكور أعلاه.

(7) انظر التصدير المدرج في مستهل الجزء الأول من اللسان.

1 ـ التعريف بالمقدمة:

لقد حرر الشدياق المقدمة في 17 رجب 1300 هـ (1882 م) أي قبل وفاته بأربع سنوات ومعلوم أنه ولد سنة 1219 هـ ـ 1804 م وتوفي سنة 1304 هـ ـ 1887 م. فيكون قد مرت على تأليفها مائة وست سنوات أي بعد صدور كتابه «الجاسوس على القاموس» بسنة (طبعة 1299 هـ ـ 1881 م) وهي تقع في ثلاث صفحات من الحجم المتوسط في الطبعة المصورة عن طبعة بولاق الصادرة عن الدار المصرية للتأليف والترجمة وتعد 65 سطراً وقد أنهاها بهذه الجملة «كتبه الفقير إلى ربه الواهب أحمد فارس صاحب الجوائب». دون أن يذكر اللقب «الشدياق». أما بناؤها فإنه يقوم على أربعة محاور أساسية وأدرج ضمن كل محور أصلي منها محاور فرعية متكاملة.

والمحاور الأساسية هي:

1 ـ الافتتاح التقليدي بالبسملة والصلاة على النبي محمد وآله وصحبه وتقع في 3 أسطر.

2 ـ تمهيد عن خصائص اللغة العربية ويقع في 24 سطراً.

3 ـ التعريف بابن منظور ومعجمه لِسان العرب ويقع في 14 سطراً.

4 ـ الإشادة بفضل من عمل على إخراج اللسان وطبعه وتحقيقه ويقع في 24 سطراً.

فما هو محتوى هذه المحاور؟

2 ـ تحليل المحاور:

1 ـ الافتتاح:

بدأت المقدمة بالبسملة ومن الواضح أن الشدياق في هذا الافتتاح قد سلك المنهج التقليدي المتبع في المعاجم اللغوية بل سائر المؤلفات الإسلامية عملاً بقول النبي ﷺ «كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه ببسم الله الرحمن الرحيم فهو أبتر» أي ناقص وقليل البركة.

ثم استهل كلامه بقوله «الحمد لله **منطق اللسان** بتحميد صفاته **وملهم الجنان** إلى توحيد ذاته. . .».

ولئن بدا السياق التركيبي الذي استعملت فيه عبارة «منطق اللسان. . .» يوحي بالموقف التوقيفي في اللغة إذ إن الله أنطق اللسان بتحميد صفاته اعتماداً على قوله تعالى «وعلّم آدم الأسماء كلها» فهل إن الشدياق يشير إلى أن هذا النطق قد تأتّى بسبب الوحي الإلهي الذي نزل على بعض الأنبياء أم أنه يذهب إلى أن الله **قد خلق** في الإنسان **جهازاً صوتياً** يجعله قادراً على خلق الألوان الصوتية المعبرة عن وجدانه وفكره؟

وبناء على ما يتسم به تفكير الشدياق من نزعة عقلية واقعية فإننا نرجح أنه يقصد التفسير الثاني خصوصاً أن التفسيرين للتوقيف قد وردا في التراث اللغوي كما ذكر السيوطي ذلك في المزهر [8] ومهما يكن موقف الشدياق من قضية التوقيف والاصطلاح في اللغة فقد أصبح البحث فيها غير مجد بعد تطور البحث اللغوي وإن كانت قد استقطبت اهتمام اللغويين حتى نهاية القرن التاسع عشر بل إلى زمن قريب منا.

2 ـ المحور الثاني:

أ ـ الخصائص العامة للغة العربية:

ولئن انصرف علماء اللغة عن البحث في نشأة اللغة لعقم المشكلية فقد اتجهوا إلى المقارنة بين اللغات القديمة وتصنيفها إلى عائلات والنظر إلى خصائص كل منها وقد واكب اللغويون العرب هذا الاتجاه اللغوي ونجد صدى ذلك في كتاب «فلسفة اللغة» لجرجي زيدان الذي صدرت طبعته الأولى سنة 1886 [9].

ولئن أسهمت الدراسات المقارنة للغات السامية في إيضاح جوانب

---

(8) المزهر ج 1 «الطريق إلى علم اللغات» صفحة 25 دار إحياء الكتاب العربي.

(9) راجع خصوصاً القضية الرابعة «الضمائر في أمهات اللغات السامية» صفحة 113 دار الهلال.

كثيرة عن حياة اللغة العربية في عصرها السحيق فقد أفضت بعض النظريات الاستشراقية إلى اتهام الشعوب السامية بأن لغاتها لا تصلح للتعبير عن المعاني لأنها **لغات صورية مادية** [10] مما جعل العلماء العرب يتصدون خصوصاً في أواخر القرن الماضي الذي زامن احتلال مصر وتونس للرد دينياً ولغوياً ـ على تلك التهم وما تحمله من نزعات استعمارية بعيدة عن البحث العلمي الموضوعي [11].

ولا شك في أن الشدياق كان على وعي بأهداف تلك التهم بحكم احتكاكه المباشر بالحياة الأدبية واللغوية في انقليترا أو فرنسا لهذا نجده في المقدمة بجانب اعتماده منهج المقارنة بين العربية وغيرها يتخذ موقفاً باتاً في تفضيل العربية على سائر اللغات البشرية قديمها وجديدها ويتجلى ذلك في قوله «فقد اتفقت آراء الأمم العرب منهم والعجم الذين مارسوا اللغات وَدَرَوْا مَا فِيهَا من الفنون والحكم وأساليب التعبير عن كل معنى يجري على اللسان والقلم على أن لغة العرب **أوسعها وأسنعها وأخلصها وأنصعها وأشرفها وأفضلها وآصلها وأكملها**. . .» والذي يبدو من الجملة أنه تجاوز الجانب الوصفي التقريري للغة إلى الحكم الذاتي المُتحدّي لأعداء العربية وذلك باستعماله للجملة الفعلية الماضوية المؤكدة بقد واختياره لفعل «اتفق» الدال على الإجماع والشمول مع استخدام ثمانية أوزان بصيغة أفعل التفضيل «أوسع ـ أسنع ـ أخلص ـ أنصع ـ أشرف ـ أفضل ـ آصل ـ أكمل. . .» غير أن المتأمل لتراكم الأوصاف وتكثفها يلاحظ أن الشدياق وإن كان متأثراً في بعضها بما ورد في التراث اللغوي يقول الثعالبي في فقه اللغة «العربية خير اللغات والألسنة» [12] كما يقول السيوطي في المزهر «اللغة العربية **أفضل** اللغات **وأشرفها**» فإنه قد وسع مجالات المقارنة إذ إنه قد

---

(10) نظرات في اللغة أنيس فريحة صفحة 70.

(11) نجد صدى ذلك فيما كتبه جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده خصوصاً في العروة الوثقى.

(12) فقه اللغة المقدمة صفحة 3.

جمع من هذه الأوصاف ما لم يجمعه غيره واستطاع ترتيبها وصوغها صوغاً تأليفياً باستثمار خاصية الاشتقاق للتعبير من جهة عن الجانب الوصفي للعربية ولإصدار حكمه الخاص بواسطة «أفعل التفضيل المشارك للصفة المشبهة في الدلالة على الصفة الثابتة مع الزيادة عليها. وإذا تجاوزنا حكم الأفضلية وتفوق العربية على اللغات الأخرى وأردنا أن نستنشف من مجموع الصفات في معناها الثابت الخصائص العامة للعربية فإنه يمكن الاستنتاج بأن الشدياق يؤكد أن العربية تتميز كما وكيفا ـ آنياً وزمانياً ـ دينياً وتاريخياً بعناصر جوهرية تحدد هويتها وعبقريتها الخاصة والرسم البياني التالي يوضح ذلك:

(2) الكيف: الخلوص والنصاعة»

الزمانية

(4) القدم التاريخي: «الأصالة والكمال»

(3) البعد الديني: «الشرف والفضل»

الآنية

(1) الكم: «الاتساع والسنع»

التعليق على الرسم البياني:

يمكن أن نلاحظ ما يلي:

1 ـ الجانب الكمي:

لقد بات من المسلم به أن العربية لغة ثرية بموادها غنية بمفرداتها مما مكنها من استيعاب الحضارات الإنسانية القديمة وتعريب الدخيل وصهره في بوتقتها الخاصة. وبالرغم من أن معاجمها قد انتقت مادتها من الألفاظ المستخدمة في البادية حتى القرن الثاني الهجري فإنها تعتبر شاهداً على

(13) المزهر ج 1 صفحة 321.

اتساع العربية وغزارة مشتقاتها فقد أحصى عالمان مصريان [14] بواسطة الحاسب الالكتروني ـ جموع الجذور الواردة في اللسان بـ 9273 جذراً وفي تاج العروس بـ 11978 جذراً ـ وهكذا فإن الشدياق باستعماله لوصفي «أوسع وأسنع» الدالين على الوفرة والغزارة قد عبر ـ حدساً ـ عن واقع وحقيقة موضوعية وقد أثبت ذلك الإحصاء والبحث العلمي.

2 ـ الجانب الكيفي:

وبجانب ثراء المادة اللغوية فقد اتصفتْ العربية بالصفاء (أخلص وأنصع) ولا شك في أن الشدياق يشير بذلك إلى خاصية الفصاحة باعتبار أن العربية لغة لسانية هذبها الاستعمال الشفوي إذ هي أداة التواصل الأولى لدى البدوي العربي في الجاهلية ثم صقلها القرآن بإعجازه البياني الفصيح وبلاغته. وقد اهتم علماء البلاغة بهذا الجانب وتعمقوا في درسه: صوتياً وصرفياً وتركيبياً وأسلوبياً وألفوا فيه كتباً قيمة [15] تعد شاهداً على ثراء الدراسات الأسلوبية في العربية.

3 ـ البعد الديني:

لم يقنع الشدياق بالإشارة إلى الجانبين المعجمي والأسلوبي في وصف خصائص العربية بل أومأ بقوله «أشرف وأفضل» إلى البعد الديني ذلك لأن العربية لم تبلغ ما بلغته من عناية ودرس ومن خلود ونفوذ روحي لو لم تكن لغة القرآن فهو الذي أضفى عليها قيمة الشرف والفضل بل جعل منها لغة إنسانية بعد أن كانت لهجات بدوية.

---

(14) انظر بحث الأستاذ محمد صالح بن عمر «دراسة إحصائية بالحاسب الإلكتروني للجذور الواردة في «الصحاح» و«اللسان» و«التاج» صفحة 119 مجلة المعجمية العدد 1 1405 هـ 1985 م.

(15) يمكن أن نذكر خصوصاً على سبيل المثال لا الحصر: دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة للجرجاني وأطروحة عبد السلام المسدي التفكير اللساني في الحضارة العربية.

4 ـ البعد التاريخي :

الواقع أن العربية قد جمعت بين البعدين «الآني» و«الزمني» وإذا كانت في عصرنا الحديث تقتحم مجالات المعرفة الإنسانية المعاصرة وتستوعب مصطلحاتها العلمية والتكنولوجية فإنها تاريخياً قد حملت تراثاً إنسانياً تجمعت فيه أقدم الحضارات خصوصاً منها الحضارة الفارسية والهندية والصينية واليونانية واستطاعت خلق معابر وجسور لنقلها إلى الأجيال البشرية المتعاقبة عبر التاريخ الإنساني القديم والحديث فهي إذاً أصيلة معاصرة آنية زمنية تكاملت فيها القيم الروحية والمادية وهذه الخاصية لم تبلغ شأوها وتجذرها اللغات الحديثة الحية مما جعل المستشرق الفرنسي رجيس بلامنتير يعتبرها لغة تعتز بها الإنسانية [16].

وهكذا يتبين من التحليل أن الشدياق قد شحن أوصافه معاني متعددة ولئن بدت مترادفة مطلقة فإن المتفحص لدقائقها اللغوية وأبعادها المضمونية يدرك أن الرجل لا يعتز بخصائص لغته فحسب بل هو إلى جانب ذلك عالم يعتمد الوصف الموضوعي بواسطة اتقانه وإلمامه بأسرار العربية وكأنه تفطن إلى أن موقفه من العربية يحتاج إلى الدليل والمثال فانتقل من العام إلى الخاص باستعمال وسيلة الربط «ذلك» ولام التعليل «وذلك لغزارة مـوادها واطراد اشتقاقها. . .».

ونظراً إلى اكتناز كلماته وجمله مما يجعل أمر تحليلها كلمة كلمة أو جملة جملة يوقعنا حتماً في الإسهاب والإطالة فإننا سنركز على اختيار نماذج من أمثلته باعتبارها عناصر فرعية تمثل مواقفه من القضايا التي لا تزال تثير اهتمامنا في الوقت الحاضر. ولنبدأ أولاً بخاصية الاشتقاق.

ب ـ الاشتقاق :

من المعروف أن العربية لغة اشتقاقية وأن اللغويين العرب قد اهتموا

---

(16) عبر بلافشير عن هذا الموقف في محاضرة له نشرت بمجلة الفكر.

بهذه الخاصية معجمياً وصرفياً فصنفوا الاشتقاق إلى صغير وكبير وأكبر وكبار وهو النحت. لكن الشدياق باستعماله المصدر «اطراد» في قوله «اطراد اشتقاقها» أراد أن يؤكد أن العربية تتميز بخاصية الانتظام والتعميم في الاشتقاق وحتى اللغات السامية الأخرى «لا تصارع الاشتقاق العربي بتوسعه وقواعده المفصلة وتتميز اللغة العربية بأوزانها وبتعميم الوزن للدلالة على المعاني وبصوغ الكلمات حسب قواعد ثابتة وسنن مألوفة كما يقول الدكتور ريمون طحان في كتابه «الألسنية العربية» [17]. وبهذا يكون الشدياق قد عبر بصيغة واحدة عن تميز العربية بخاصية الاشتقاق بل انتظام هذه الخاصية فيها وهو سر عبقريتها وخلودها.

ج ـ الترادف:

وبالإضافة إلى ميزة الاشتقاق اهتم الشدياق بقضية الترادف «. . . ومن جملته تعدد المترادف الذي هو للبليغ خير راقد ورادف وما يأتي على روي واحد في القصائد مما يكسب النظم من التحسين وجوهاً لا نجد لها نظيراً في غيرها من لغات العجم شبيهاً».

ولئن أنكر بعضهم وقوع [18] الترادف واعتبره البعض [19] الآخر عيباً في العربية لكثرته وما يتضمنه من رصيد مهجور فإن الشدياق يعتبره علامة ثراء وغنى فأبرز قيمته في المجالين الشعري والعلمي.

أما في المجال الشعري فإن تعدد المترادفات يسمح للشاعر بالتعبير عن مختلف خوالجه النفسية وألوان صوره الفنية ونغماته الموسيقية خصوصاً أن الشعر العربي عمودي يعتمد القافية الموحدة ولا شك في أن ثراء المادة اللغوية يمكن الشاعر من الاختيار وانتقاء اللفظ المناسب للمعنى المقصود.

---

(17) الألسنية العربية ج 1 صفحة 111.

(18) يمكن الرجوع مثلاً إلى المزهر ج 1 صفحة 403.

(19) أنيس فريحة: نظرات في اللغة صفحة 98 ـ نحو عربية ميسرة صفحة 73.

ومما يؤيد اتجاه الشدياق في هذا المجال قول الأب رفائيل نخلة اليسوعي في كتابه قاموس المترادفات والمتجانسات «من أشهر مميزات لغتنا العربية غناها العجيب بالمترادفات والألفاظ المتجانسة المعنى مما لا يكاد يوجد له مثيل في أسمى الألسن مقاماً، تلك المزية الفريدة تمكن الناثر ولا سيما الشاعر من تنويع تعبيره عن الشيء ذاته ومن الدلالة على أدق الأمور بالكلمات المختصة بها»[20].

والشدياق لم يصدر في رأيه هذا باعتباره عالماً لغوياً ناقداً فحسب بل كان علاوة على ذلك شاعراً مارس أساليب الكلام وجابه معاناة الخلق الشعري وحاجة الفنان إلى الألوان الصوتية المعبرة عن تجربته الفنية. وبالنسبة إلى المجال العلمي فقد ربط بين تعدد المترادف وقدرة العربية على نقل فلسفة اليونان وصنائع أهل الصين «وهذا التفضيل يزداد بياناً وظهوراً ويزيد المتأمل تعجباً وتحييراً إذا اعتبرت أنها كانت لغة قوم أمّيين لم يكن لهم فلسفة اليونان ولا صنائع أهل الصين ومع ذلك فقد جعلت بحيث يعبر فيها عن خواطر هذين الجيلين بل سائر الأجيال».

د ـ اللفظ المفرد والنحت:

وإذا ثبت أن العربية هي لغة اشتقاقية فهي قادرة بواسطة اللفظ المفرد أي اسم الفاعل واسم المفعول والصفة المشبهة وأفعل التفضيل والمصدر الصناعي واسمي المكان والزمان واسم الآلة إلى خلق كلمات جديدة واستيعاب مختلف المصطلحات مهما دقت دون الحاجة إلى النحت وهو دمج كلمتين أو أكثر في كلمة واحدة وقد عرفه الثعالبي في فقه اللغة بقوله: العرب تنحت من كلمتين وثلاث كلمة واحدة وهو جنس من الاختصار كقولهم: رجل عبشمي منسوب إلى عبد شمس[21]» ولئن كان كلام الثعالبي يوحي بأن العرب تستعمل النحت إطراداً للاختصار فإن مجموع الكلمات الواردة في

---

(20) مقدمة الكتاب.

(21) فقه اللغة صفحة 578.

هذا الباب محدود مثل «بسمل وحوقل وحيعل وحمدل وعبشمي . . .

وقد ذكر ابن منظور في اللسان أمثلة منها [22] «تعبشم ـ تعبقس ـ جعفل ـ عبسمي ـ عبقسي ـ البسملة ـ السبحلة ـ الهيللة ـ الحوفلة ـ الجعفلة . . .

وابتداء من أواخر القرن التاسع عشر برزت قضية النحت بحدة لدى اللغويين العرب خصوصاً بعد مقارنة العربية باللغات الأوروبية وحاجة العرب إلى التعريب والترجمة لخلق المصطلحات العلمية. فهل يفتح باب الاجتهاد في النحت لتيسير النقل والترجمة أم يجب الاقتصار على الطريقة الاشتقاقية والاقتصار على اللفظ المفرد؟

ولا نريد هنا التعرض إلى الآراء المتضاربة في هذا الموضوع إنما الذي يهمنا هنا التعرف على موقف الشدياق من النحت.

الواقع أن الشدياق يرفض النحت باعتباره تلفيقاً غير مستحسن يقول «ومن لوازمه (الاستعمال) أن يكون المعنى المفرد وغير المفرد موضوعاً بإزائه لفظ مفرد في الوضع يخف النطق به على اللسان ويرتاح له الطبع وهو شأن العربية وكفاها فضلاً على ما سواها هذه المزية وإنما قلت مفرد في الوضع لأنا نرى معظم ألفاظ اليونانية وغيرها من اللغات الإفرنجية من قبيل النحت وشتان ما بينه وبين المفرد البحت فإن هذا يدل على الواضع فطن من أول الأمر إلى المعاني المقصودة التي يحتاج إليها لإفادة السامع بحسب اختلاف الأحوال والمواقع وذاك يدل على أن تلك المعاني لم تخطر بباله إلا عندما مست الحاجة إليها فلفق لها ألفاظاً كيفما اتفق واعتمد في الإفادة عليها . . .».

وبالرغم من هذا التنظير بَيْنَ اللفظ المفرد والنحت: تحليلاً وتعليلاً فإنه قدم مثالاً معمارياً جسَّم به مقارنته النظرية فشبه الواضع العربي للغة بمن بنى قصراً حسب مخطط مرسوم فجاء بناؤه متكاملاً منسجماً أما الواضع الإفرنجي

(22) لسان العرب ج 3 صفحة 226.

فإنه لم يخطط مبناه ولم يتفطن إلى ما لزم لمبناه إلا بعد السكن فتدارك ما فرط منه تدارك من لهوج فعجز. ومهما تكن قيمة التنظير والمثال ومدى وجاهتهما وقدرتهما على الإقناع فإنهما يعكسان رفض الشدياق لطريقة النحت باعتبارها عملاً تلفيقياً فضلاً عن استغلالها في تطوير العربية.

ولئن كان للشدياق الحق في أن يتخذ الموقف الذي يراه سديداً في قضية النحت فإنه ليس من حقه أن يستهين بطبيعة النحت وقيمته في اللغات الإفرنجية إذ لكل لغة خصائصها البنيوية وعبقريتها المتميزة خصوصاً أن معاصره جرجي زيدان (1861 - 1914 م) يعتبر النحت ناموساً فاعلاً وغاية ما يفعله فيها هو الاختصار في نطقها تسهيلاً للفظها واقتصاداً في الوقت بقدر الإمكان. وهذا الناموس لم تنج من فتكه لغة من لغات البشر أدناها وأسماها بل قد جرى فيها على السواء من أول نشأتها ولم يزل حتى الآن ولن يزال إلى ما شاء الله [23].

وهكذا فإن جرجي زيدان لا يفسر قانون النحت بكونه تلفيقاً وعجزاً وإنما هو اقتصاد لساني يدفع إليه بذل أدنى مجهود والحصول على أكبر منفعة.

والذي يبدو لنا أن الشدياق لم يصدر في موقفه عن جهل بطبيعة اللغات الإفرنجية لأنه كان على معرفة بها ترجمة وتأليفاً فقد ذكر خير الدين الزركلي أنه ألف كتابين مطبوعين وهما «الباكورة الشهية في نحو اللغة الإنكليزية» ـ «والسند الراوي في الصرف الفرنساوي» [24] بالإضافة إلى قدرته على الترجمة [25] مما يدل على أنه مطلع على خصائص اللغات خصوصاً

---

(23) فلسفة اللغة صفحة   كذلك يرى بعض المعجميين ضرورة النحت منهم عباس حسن عضو مجمع اللغة العربية في كتابه «اللغة والنحو» من القديم والحديث صفحة 257.

(24) الأعلام صفحة 59.

(25) أنور الجندي في كتابه المذكور أعلاه صفحة 57.

الانكليزية والفرنسية غير أن اعتزازه بلغته العربية اعتزازاً طاغياً وجنوحه إلى المقارنة السريعة بين اللغات مع التحدي الاستشراقي المستنقص لفضل العربية كلها عوامل تجمعت وتكاملت لرفضه النحت رفضاً مطلقاً.

أما فيما يخص النحت في العربية فإن وجهة نظر الشدياق فيه لا تزال موضع قبول واستحسان لدى كثير من اللسانيين المعاصرين فهذا أنيس فريحة يقول «أما رأينا فهو أن الجذور العربية تأبى النحت»[26]. أما الدكتور عبد السلام المسدي فإنه يقول في كتابه «قاموس اللسانيات» أثناء كلامه عن النحت في العربية «وظَلَّ النحت أسلوباً ناشزاً وقلّما وفق اللاجئون إليه ولو في ضرورات المصطلح العلمي «وذكر أمثلة من قبيل شارجبة عوض» شاردة موجبة، وشارسبة عوض شارده سالبه... إلخ[27]، ولسنا ـ هنا ـ في مجال دراسة قضية النحت إنما أردنا فقط الكشف عن موقف الشدياق منها وتحليل مقاصده التزاماً بطبيعة النحت.

ولننتقل الآن إلى موقف الشدياق من البلاغة في العربية واللغات الأخرى.

هـ ـ البلاغة بين العربية وغيرها من اللغات:

بعد الكلام عَلَى الاشتقاق والترادف والوضع يتوج الشدياق المحور الأول من مقدمته ببحث قضية البلاغة فيقول «هذا من حيث كون الألفاظ مفردة كما أسلفت مفصلاً فأما من حيث كونها تركب جملاً وتكسي من منوال البلاغة حللاً فنسبة تلك اللغات إلى العربية كنسبة العريان إلى الكاسي والظمآن إلى الحاسي ولا ينكر ذلك إلا مكابر على جحد الحق مثابر وحسبك أنه ليس في تلك اللغات من أنواع البديع إلا التشبيه والمجاز وما سوى ذلك يحسب فيها من قبيل الإعجاز». فهذه الفقرة بالإضافة إلى ما تؤكده من نزعة

---

(26) نظرات في اللغة صفحة 71.

(27) قاموس اللسانيات صفحة 30.

التفضيل المطلق للعربية تتضمن عنصراً جديداً وهو نعت المخالف لموقفه بالمكابر الجاحد للحق، وهذا الحكم لا يخلو من مبالغة إذ لكل لغة مقاييسها الذوقية والنقدية والأسلوبية تمليها طبيعتها الخاصة ومميزاتها الأدبية والفنية، فكيف يمكن أن نتهم غيرنا بالمكابرة في الوقت الذي نعيب عليه تعصبه وغضه من قيمة لغتنا وخصائصها البلاغة؟ وخلاصة المحور الأول أن الشدياق لئن بدا موضوعياً في تحليل خصائص العربية ملماً بأسرارها ودقائقها فإنه قد جنح إلى شيء من الشطط في تحليله لقضيتي النحت والبلاغة، وتجاوز ما تقتضيه المقارنة من تجرد وتثبت وإنصاف دون انهيار أو تجن.

وإذا كانت هذه مواقفه من خصائص العربية فما هو موقفه من لسان العرب لابن منظور؟

3 ـ المحور الثالث:

لسان العرب:

لقد تخلص الشدياق إلى جوهر المقدمة وهو الكلام على لسان العرب بجملة تلخيصية مهد بها لترجمة ابن منظور وتحليل خصائص اللسان وهي «كما أني قررت أن اللغة العربية أشرف اللغات كذلك أقرر أن أعظم كتاب ألف في مفرداتها كتاب لسان العرب».

فهذه الجملة تدل بوضوح على أنه يعتبر لسان العرب أعظم المعجمات العربية باعتباره مثالاً حَيّاً يجسم عبقرية اللغة العربية وخصائصها وسنركز تحليلنا لهذا المحور على أربعة عناصر بدت لنا هامة:

أ ـ مكان ولادة ابن منظور:

عرّف الشدياق ابن منظور بقوله «الإمام المتقن جمال الدين محمد بن جلال الدين الأنصاري الخزرجي الإفريقي نزيل مصر ويعرف بابن مكرم وابن منظور»، ولئن شغل مكان ولادة ابن منظور مترجميه من المعاصرين فقد أصبح من الثابت أنه ولد بالقاهرة بعد العثور على ما يؤيد ذلك من مصادر

قديمة غير أن الشدياق قال إنه «نزيل مصر» فهل اعتمد على مرجع معين في ذلك أم أنه اجتهد في تفسير عبارة القدماء «الإفريقي ثم المصري» التي تدل على أنه ولد بتونس ثم انتقل إلى مصر؟

ونحن نـرجح الاحتمـال الثاني خصـوصاً بعـد أن أزالت المصادر المكتشفة هذا اللبس «القاضي الرئيس أبـو الفضل محمـد بن مكرم. . . الإفريقي الأصل ثم المصري ولد بالقاهرة «فيكون النزيل هو جده الأدنى نجيب الدين أبو الحسن علي الأنصاري الذي هاجر من تونس إلى مصر وقد حقق ذلك الأستاذ أبو القاسم محمد .كرو في بحث له نشر ضمن دراسات الملتقى الثـاني لابن منـظور المنعقـد بقفصة سنـة 1972 صفحـة 104 بعنوان «حقائق جديدة عن ابن منظور» وقد اعتمد في تحقيقه على معجمين أحدهما للبرزالي وثانيهما هو «معجم شيوخ الذهبي» وهما من تلاميذ ابن منظور.

ب ـ تاريخ ميلاد ابن منظور ووفاته:

لقد اتفق مترجمُـو ابن منظور أنه ولد سنة 630 هـ وتوفي سنة 711 غير أن الشدياق حسب المقدمة قد شذ فذكر أنه ولد سنة 690 وتوفي سنة 771 وقد اعتبر المحقق اللغوي أحمد تيمور التاريخ المذكور وهما من الشدياق والذي يبدو لنا أن هذا العالم اللغوي يبعد أن يخطىء في ضبط هذا التاريخ إذ يحتمل أن يكون هذا الخطأ قد تسرب من الناسخ أثنـاء طبع المقدمة خصوصاً أن الغلط واضح حسب تقديرنا إذ هو منحصر في الرقم الوسط العشري فالتشابه بين رقمي 3 و9 وبين ـ1 — 7ـ حسب الأرقام الهندية مع عدم وضوحهما قد يوقعان الناسخ ـ سهواً ـ في إثبات رقم عوض آخر لا سيما أن الأرقام لم تسجل بواسطة الألفاظ المعبرة وقد احتاط القدماء مثل السيوطي فرسموا الأرقام بالحروف ولسنا ننزه الشدياق عن الغفلة والسهو وإنما أردنا فقط أن نبعد عن الرجل تهمة «الوهم» خصوصاً بعدما رددها بعض مترجمي ابن منظور من المعاصرين «والأغرب. . أن أحمد فارس الشدياق قد جعل

وفاته سنة 771 هـ وهذا ضرب من التوهم الذي وقع فيه الشدياق»[28].

ومما يؤكد ذلك الخطأ المطبعي أنه ذكر الشهر الذي ولد فيه ابن منظور وهو «المحرم» طبقاً لما ورد في المصادر القديمة مثل نكت الهميان للصفدي [29] وبغية الوعاة للسيوطي والدرر الكامنة لابن حجر العسقلاني فكيف يصيب الشدياق في ضبط الشهر ويتوهم فيجازف بتأخير ميلاد الرجل بستين سنة وإن اتفق مع مترجميه في أنه عاش إحدى وثمانين سنة؟

ج ـ مصادر اللسان:

اتفق دارسو اللسان على أن ابن منظور قد اعتمد في تأليف معجمه على مصادر خمسة وهي التهذيب للأزهري والمحكم لابن سيده والصحاح للجوهري وحاشية ابن بري على الصحاح والنهاية لابن الأثير غير أن الشدياق في المحور الثاني من المقدمة بعد عدِّهِ لهذه المصادر أضاف مصدراً آخر وهو الجمهرة لابن دريد مع عبارة «وغير ذلك»، وهذه الإضافة يراها أحمد تيمور وَهْماً ثانياً وقع فيه الشدياق والواقع أن أدراج الجمهرة ضمن مصادر اللسان قد ورد في التراث المعجمي مثل بغية الوعاة للسيوطي ولا شك في أن الشدياق قد اطلع على ذلك بل لعله اكتشف مصادر أخرى في تحرير اللسان غير المصادر الخمسة المذكورة بدليل قوله «وغير ذلك» وهذا ما يشير إليه الدكتور رشاد الحمزاوي بقوله «إننا نرى بالاعتماد على مادة «عرب» أن طريقة اللسان في تحرير مادته لا تقتصر على الجمع البحث إطلاقاً كما كنا نظن إلى يومنا هذا؟ [30]، وهكذا يكون الشدياق أول من شك في التزام ابن منظور بالمصادر

(28) مجلة البلاغ العراقيّة العدد السابع السنة السابعة 1978. بحث الأستاذ فاروق الحبوبي بعنوان «ابن منظور صاحب لسان العرب صفحة 69 وقد نقل المحقق المعروف إبراهيم الأبياري هذا الخطأ أثناء ترجمته لابن منظور في كتاب «مختار الأغاني» ح: ل ـ لابن منظور.

(29) ذكر ذلك في ترجمة ابن منظور صفحة 275.

(30) ذكر ذلك في بحث له بعنوان «طريقة ابن منظور في تحرير مادة اللسان» نشر ضمن دراسات الملتقى الثاني لابن منظور 1972 صفحة 17.

الخمسة المذكورة «وليس لي في هذا الكتاب فضيلة أمت بها ولا وسيلة أتمسك بها سوى أني جمعت فيه ما تفرق في تلك الكتب من العلوم (مقدمة اللسان).

د ـ بين اللسان والقاموس:

من المعلوم أن الشدياق قد نقد القاموس للفيروزآبادي في كتابه «الجاسوس على القاموس» وقد آخذه بجملة من المآخذ [31] منها: عدم ارتياحه لترتيب المفردات حسب القافية ودعوته إلى الترتيب العادي لأنه أسهل من الناحية العملية، عدم تسجيل المشتقات حسب نظام معين بل وضعت جزافاً ـ الاستطراد إلى ذكر أسماء الأعشاب الطبية وأسماء الأعلام... ولئن امتاز اللسان بسعة مادته فإنه قد وقع في المآخذ التي وقع فيها القاموس من اتباع ترتيب القافية وسوء تنظيم المشتقات مع كثرة الاستطراد ولكن الشدياق رغم ذلك يشيد بمنهجه على لسان محمد بن الطيب محشّي القاموس في قوله «وهو عجيب في نقوله وتهذيبه وتنقيحه وترتيبه إلا أنه قليل بالنسبة لغيره من المصنفات المتداولة وزاحم عصره عصر صاحب القاموس...».

ويعزُو الشدياق قلة تداوله إلى «كبر حجمه وتطويل عباراته... فالمادة التي تملأ في القاموس صفحة واحدة تملأ فيه أربع صفحات بل أكثر ولهذا عجزت طلبة العلم عن تحصيله والانتفاع به».

ومما يمكن استنتاجه في مجال المقارنة بين اللسان القاموس أن الشدياق يميز بين منهج القاموس المعدّ أساساً للطلاب الذي يقتضي التبسيط والتنظيم والمساعدة على تفهم معاني المفردات وبين منهج اللسان الموسوعي الجامع الذي يهدف إلى خدمة البحث العلمي والتعمق في الدراسات اللغوية ولهذا نجده قد حوصل بدقة وإيجاز محتوى اللسان في قوله «وبالجملة فهو كتاب لغة ونحو وصرف وفقه وأدب وشرح للحديث الشريف وتفسير للقرآن

---

(31) حددها الدكتور درويش في المرجع المذكور أعلاه أثناء كلامه عن الجاسوس صفحة 113.

الكريم فصدق عليه المثل أن من الحسن لشقوة. . .» وفعلاً لقد أصبح اللسان في عصرنا الحاضر مرجعاً أساسياً للباحثين الجامعيين خصوصاً في الدراسات اللسانية بعد أن سادت المختصرات والملاحظات الاتجاه الفكري واللغوي طوال عصر الانحطاط.

4 ـ المحور الرابع:

إن هذا المحور يكتسي صبغة وثائقية تتمثل فيما يلي:

1 ـ الإشادة بالخديوي محمد توفيق (1852 م ـ 1892 م) وحسين حسني بك ناظر مطبعة بولاق وحسين أفندي علي الديك وكل من أعان على تحقيق اللسان وإخراجه.

2 ـ تحقيق اللسان بجمع شوارد النسخ المعتبرة من ضمنها نسخة منسوبة للمؤلف.

3 ـ الصعوبات المبذولة في التصحيح والتدقيق.

ولا شك في أن هذا المحور يهم خصوصاً محققي التواريخ لطبعات لسان العرب وقد تلت هذه الطبعة البولاقية طبعات أخرى كطبعة المطبعة السلفية القاهرة 1374 هـ وطبعة صادرة في أجزاء بيروت ابتداء من 1374 هـ ـ 1955 م ثم طبعة لسان العرب المحيط. . .

3 ـ الاستنتاج العام:

تلك هي أهم المحاور الرئيسية والفرعية التي تقوم عليها مقدمة الشدياق على اللسان وهي بالرغم من اختصارها تبدو مكتنزة بعيدة الإشارات والدلالات قد بنيت بناء محكماً متناسقاً.

ففي المستوى المنهجي نلاحظ أنه اعتمد المقارنة بين العربية وغيرها من اللغات وبين لسان العرب وغيره من المعجمات مما يجعلنا ندرج اتجاهه الفكري واللغوي في إطار المنهج المقارن الذي سيطر على التفكير اللغوي

في عصره ولئن طغت على بعض مقارناته صيغة التفضيل المطلق للعربية فقد كان في مقارناته الأخرى موضوعياً قد وصف العربيـة وخصائصهـا بدقـة ووضوح. وبغض النظر عن مدى إلمامه باللغات الأجنبية كما وكَيْفـا وتعمقه في درسها فقد اعتمدها في مجال المقارنة خصوصـاً اليونـانية واللغـات الإفرنجية.

وفيما يخص البناء الهيكلي للمقدمة فقد جاءت عناصرهـا الأصلية والفرعية متماسكة متكاملة فالكلام على خصائص العربية هو الإطار النظري العام للموضوع والحديث عن لسان العرب ليس إلا المثال التطبيقي المجسم لتلك الخصائص ولا يمكن التعرض في مثل هذه المقدمة إلى العربية ولسانها دون تقريظ من تولى السهر على إخراج المعجم وطبعه هذا من جهة ومن جهة أخرى فقد ترابطت العناصر الفرعية بواسطة أدوات منتقاة مهدت للانتقال من العام إلى الخاص ومن المستوى المعجمي والصرفي إلى المستوى النحوي والبلاغي ومن التعريف العام باللسان وصاحبه إلى تفصيل خصائصه ومقارنته بالقاموس وأخيراً الإشادة بناشره ولئن جاءت المحاور الكبرى غير متوازنة شكلاً فهي متكاملة مضموناً وبالجملة فإن بناء المقدمة يتسم بالتدرج ووضوح المراحل مما يجعلها وحدة نصية متناسقة.

وبالنسبة إلى قيمة الآراء الواردة في المقدمة فإنها تتجلى خصوصاً في وضوح الرؤية وصدقها وقدرة صاحبها على اقتحام القضايا ولو كانت شائكة مثل موقفه من النحت والبلاغة في اللغات الأجنبية ولعل الرؤية الواضحة الجريئة للقضايا الاجتماعية واللغوية هي التي جلبت له نقد معاصريه وكانت الحائل دون نشر مؤلفاته والإقبال عليها.

أما المستوى الأسلوبي فلئن كان لا ينفصل عن المستويين المنهجي والمضموني في تضافر الدلالة على شخصية الكاتب ومواقفه فإننا أفردناه لما يتوفر في أسلوب المقدمة من خصائص تجعله متميزاً.

وأول ما يلاحظ أن الشدياق قد انتقى مفرداته بدقة وأحكم تنسيقها

والتأليف بينها في جمل تبدو أحياناً ممتدة النفس محافظة على السجع وتساوي فقرة ولئن تخللت بعض ألفاظه مفردات غريبة أو اشتقاقات نادرة فإن ذلك يندرج ضمن سجله اللغوي الحافل الثري إذ هو عالم لغوي عايش المعجمات القديمة ونقدها فكان من الطبيعي أن يتأثر بأساليب مقدماتها خصوصاً وهو يحرر مقدمة لمعجم لسان العرب.

وبجانب اللفظ المختار نلاحظ أيضاً دقة في التراكيب ومتانة في العبارة مما جعل جُمَلَه ثرية المعاني عميقة الأبعاد تدفع القارىء إلى مزيد التأمل والتفحص والاستنباط.

وبالإضافة إلى ذلك فقد استخدم في أسلوبه التشبيه والمجاز والمحسّنات البديعية وراوح بين مختلف الوسائل التعبيرية مراوحة الفنان القادر على التصرف والزخرفة والتلوين.

الخلاصة:

هذه ملاحظات عن مقدمة الشدياق على لسان العرب أردنا تسجيلها بهذه المناسبة وأننا لم نستقص في الواقع جزئيات تضمنها النص لضيق المقام والرغبة في الاختصار والإيجاز.

ومن الواضح أن لكل قارىء قراءته الخاصة للأثر لما يحتمله الكلام من أوجه التفسير والتأويل... فالنص العلمي بالرغم من صبغته الموضوعية الدقيقة متنوع القراءات كالنص الأدبي خصوصاً إذا كان عميق المحتوى يعالج قضايا تتعلق بخصائص اللغة ومميزات معاجمها وهذا ما يمكن أن نفسر به ما يزخر به تراثنا العلمي من تعدد أوجه الاختلاف بين العلماء في استنطاق النص اللغوي أو الفقهي أو غيرهما وبروز ذلك في أشكال من الشروح والتفاسير والتعاليق المتنوعة.

على أنه يمكن أن نستخلص في خاتمة البحث الملاحظات التالية:

ـ أن هذه المقدمة تعتبر وثيقة تاريخية اعتمدها كثير من المعجميين

المعاصرين في ترجمة ابن منظور والتعريف بمعجمه.

- تفطن الشدياق المبكر لقيمة لسان العرب وفضله «بعد أن كان دهراً طويلاً كالكنز المدفون والدر المكنون» مع الإشادة بعلو منزلته «فدونك كتاباً علا بقدمه على هام السها وغازل أفئدة البلغاء مغازلة ندمان الصفاء عيون المها».

ولعل انتشار القاموس لاختصاره واتجاهه إلى الطلاب كان السبب الرئيسي في طغيانه على اللسان خصوصاً أن النزعة التعليمية السائدة في عصر الشدياق وقبله تجنح إلى المختصرات في اللغة وغيرها من العلوم تسهيلاً للطلب والدرس لذلك قال الشدياق في اللسان «ولهذا عجزت طلبة العلم على تحصيله والانتفاع به».

- تَمْييز الشدياق بين معجم الطلاب الذي يقتضي التيسير والإيجاز والوضوح وهذا ما حَدَا به إلى نقد القاموس وبين المعجم الموسوعي الخاص بالباحثين في خصائص العربية وأسرارها. ومن هنا جاءت دعوته إلى تأليف معجم ميسر للطلاب «يكون سهل الترتيب واضح التعاريف شاملاً للألفاظ التي استعملها الأدباء والكتاب وكل من اشتهر بالتأليف...»[32] وهو بهذه الدعوة الجديدة يحث على إدراج الرصيد اللغوي المحدث بعد عصور الاحتجاج في المعجمات الحديثة حتى تواكب العربية الحياة العصرية.

من كل ما ذكرنا يتضح أن العامل الذي دفعه للنقد والمقارنة والتأليف في المجال اللغوي هو حبه للعربية واعتزازه بها وحرصه على تطويرها «ويشهد الله تعالى المطلع على ما تكنه الصدور المجازي كل إنسان بحسب عمله من باد ومستور، أني لم ينشطني للتأليف سوى الرغبة في حث أهل العربية على

(32) مقدمة «الجاسوس على القاموس».

حب لغتهم الشريفة والرتوع في ساحتها المنيفة وحث أهل العلم على تحرير كتاب فيها خالٍ من الإخلال يقرب لما يطّلبه الطالب منها من دون كلال. . . »[33].

وإذا كانت هذه مقاصد الرجل ومنزلته في خدمة العربية فهل وفينا نحن العرب بحقه في نشر مؤلفاته والتعريف بها وتجاوزنا المعايير الأخلاقية والدينية في تقويم تراثنا تقويماً علمياً موضوعياً؟

عبد العزيز بن يوسف كيلاني
وزارة التربية القوميّة
تونس

(33) المرجع السابق.

ملحق

نصّ مقدمة الشدياق على اللسان

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله منطق اللسان بتحميد صفاته وملهم الجنان إلى توحيد ذاته والصلاة والسلام على سيدنا محمد أشرف مخلوقاته وعلى آله وصحبه الذين اقتدوا بقداته واهتدوا بسماته (وبعد).

فقد اتفقت آراء الأمم العرب منهم والعجم الذين مارسوا اللغات ودروا ما فيها من الفنون والحكم وأساليب التعبير عن كل معنى يجري على اللسان والقلم على أنَّ لغة العرب أوسعها وأسنعها وأخلصها وأنصعها وأشرفها وأفضلها وآصلها وأكملها وذلك لغزارة موادّها واطراد اشتقاقها وسرارة جوادّها واتحاد انتساقها ومن جملته تعدّد المترادف الذي هو للبليغ خير رافد ورادف وما يأتي على روي واحد في القصائد مما يكسب النظم من التحسين وجوهاً لا تجدلها في غيرها من لغات العجم شبيهاً وهذا التفضيل يزداد بياناً وظهوراً ويزيد المتأمل تعجباً وتحييراً إذا اعتبرت أنها كانت لغة قوم أميّين لم يكن لهم فلسفة اليونانيين ولا صنائع أهل الصين ومع ذلك فقد جعلت بحيث يعبر فيها عن خواطر هذين الجيلين بل سائر الأجيال إذاً كانت جديرة بأن يُشغل بها البال وتحسن في الاستعمال الذي من لوازمه أن يكون المعنى المفرد وغير المفرد موضوعاً بإزائه لفظ مفرد في الوضع يخف النطق به على اللسان ويرتاح له الطبع وهو شأن العربية وكفاها فضلاً على ما سواها هذه المزية وإنما قلت مفرد في الوضع لأنا نرى معظم ألفاظ اليونانية وغيرها من اللغات الإفرنجية من قبيل النحت وشتان ما بينه وبين المفرد البحت فإنّ هذا يدل

على أنّ الواضع فطن من أول الأمر إلى المعاني المقصودة التي يحتاج إليها لإفادة السامع بحسب اختلاف الأحوال والمواقع وذاك يدل على أن تلك المعاني لم تخطر بباله إلا عندما مست الحاجة إليها فلفق لها ألفاظاً كيفما اتفق واعتمد في الإفادة عليها فمثل من وضع اللفظ المفرد مثل من بنى صرحاً لينعم فيه ويقصد فقدّر من قبل البناء كل ما لزم له من المداخل والمخارج والمرافق والمدارج ومنافذ النور والهواء والمناظر المطلة على المنازه الفيحاء. وهكذا أتم بناءه كما قدّره وشاءه ومثل من عمد إلى النحت والتلفيق مثل من بنى من غير تقدير ولا تنسيق فلم يفطن إلى ما لزم لمبناه إلا بعد أن سكنه وشعر بأنه لا يصيب فيه سكنه فتدارك ما فرط منه تدارك من لهوج فعجز فجاء بناؤه سداداً من عوز هذا من حيث كون الألفاظ مفردة كما أسلفت مفصلاً فأما من حيث كونها تركب جملاً وتكسي من منوال البلاغة حللاً فنسبة تلك اللغات إلى العربية كنسبة العريان إلى الكاسي والظمآن إلى الحاسي ولا ينكر ذلك إلا مكابر على جحد الحق مثابر وحسبك أنه ليس في تلك اللغات من أنواع البديع إلا التشبيه والمجاز وما سوى ذلك يحسب فيها من قبيل الإعجاز هذا وكما أني قرّرت أنّ اللغة العربية أشرف اللغات كذلك أقرر أن أعظم كتاب ألف في مفرداتها كتاب لسان العرب للإمام المتقن جمال الدين محمد بن جلال الدين الأنصاري الخزرجي الإفريقي نزيل مصر ويعرف بابن مكرم وابن منظور ولد في سنة 690 وتوفي سنة 771 وقد جمع في كتابه هذا الصحاح للجوهري وحاشيته لابن بري والتهذيب للأزهري والمحكم لابن سيده والجمهرة لابن دريد والنهاية لابن الأثير وغير ذلك فهو يغني عن سائر كتب اللغة إذ هي بجملتها لم تبلغ منها ما بلغه قال الإمام محمد بن الطيب محشي القاموس وهو عجيب في نقوله وتهذيبه وتنقيحه وترتيبه إلا أنه قليل بالنسبة لغيره من المصنفات المتداولة وزاحم عصره عصر صاحب القاموس رحم الله الجميع انتهى وسبب قلته كبر حجمه وتطويل عبارته فإنه ثلاثون مجلداً فالمادّة التي تملأ في القاموس صفحة واحدة تملأ فيه أربع صفحات بل أكثر ولهذا عجزت طلبة العلم عن تحصيله والانتفاع به وبالجملة

فهو كتاب لغة ونحو وصرف وفقه وأدب وشرح للحديث الشريف وتفسير للقرآن الكريم فصدق عليه المثل أن من الحسن لشقوة ولولا أنَّ الله تبارك وتعالى أودع فيه سراً مخصوصاً لما بقي إلى الآن بل كان لحق بنظرائه من الأمَّهات المطوَّلة التي اغتالتها طوارق الحدثان كالموعب لعيسى بن غالب التياني والبارع لأبي علي القالي والجامع للقزاز وغيرها مما لم يبق له عين ولا أثر إلا في ذكر اللغويين حين ينوّهون بمن ألف في اللغة وأثر فالحمد لله مولى النعم ومؤتي الهمم على أن حفظه لنا مصوناً من تعاقب الأحوال وتناوب الأحوال كما نحمده على أن ألهم في هذه الأيام سيدنا الخديو المعظم العزيز ابن العزيز ابن العزيز محمد توفيق المحمود بين العرب والعجم والمحفوف بالتوفيق لكل صرح جمّ وفلاح عمّ إلى أن يكون هذا الكتاب الفريد بالطبع منشوراً ونفعه في جميع الأقطار مشهوراً بعد أن كان دهراً طويلاً كالكنز المدفون والدرّ المكنون وذلك بمساعي أمين دولته وشاكر نعمته الشهم الهمام الذي ذاعت مآثره بين الأنام وسرت محامده في الآفاق حسين حسني بك ناظر مطبعة بولاق وهمة ذي العزم المتين والفضل المكين الراقي في معارج الكمال إلى الأوج العلم الفرد الذي يفضل كل فوج من إذا ادلهم عليك أمر يرشدك بصائب فكره ويهديك حضرة حسين أفندي علي الديك فإنه حفظه الله شمر ساعد الجدّ حتّى احتمل عبء هذا الكتاب وبذل في تحصيله نفيس ماله رغبة في عموم نفعه واغتناماً لجميل الثناء وجزيل الثواب فدونك كتاباً علا بقدمه على هام السها وغازل أفئدة البلغاء مغازلة ندمان الصفاء عيون المها ورد علينا أنموذجه فإذا هو يتيم اللؤلؤ منضداً في سموط النضار يروق نظيمه الألباب ويبهج نثيره الأنظار بلغ من حسن الطبع وجماله ما شهرته ورؤيته تغنيك عن الإطراء ومن جيد الصحة ما قام به الجمّ الغفير من جهابذة النجباء جمعوا له على ما بلغنا شوارد النسخ المعتبرة والمحتاج إليه من الموادّ وعثروا أثناء ذلك على نسخة منسوبة للمؤلف فبلغوا من مقصودهم المراد وجلبوا غير ذلك من خزائن الملوك ومن كل فج وأنجدوا في تصحيح فرائده واتهموا وانتجعوا في تطبيق شواهده كل منتجع وتيمموا حتى بلغوا أقَاصِيَ الشام

والعراق ووج أعانهم الله على صنيعهم حتى يصل إلى حدّ الكمال وأتمّ لهم نسيجهم على أحكم منوال وجزى الله حضرة ناظرهم أحسن الجزاء وشكره على حسن مساعيه وحباه جميل الحباء فإن هذه نعمة كبرى على جميع المسلمين يجب أن يقابلوها بالشكر والدعاء على ممرّ السنين كلما تلوا أنّ الله يحب المحسنين والصلاة والسلام على سيد المرسلين.

كتبه الفقير إلى ربه الواهب

أحمد فارس صاحب الجوائب

في 17 رجب المعظم 1300

علم المعاجم عند أحمد فارس الشدياق

بحث: الدكتور حلمي خليل

مقدمة

تنوّعت جهود الشدياق[1] في ميدان الدراسة اللغوية بين نقد لآراء علماء اللغة القدماء ووضع أبحاث ودراسات حول المعاجم العربية وتنمية اللغة ومشكلاتها بشكل عام، ففي كتابه «الجاسوس على القاموس» نراه يتّجه إلى نقد القاموس المحيط للفيروزابادي (ت 817هـ) متخذاً منه نموذجاً للمعاجم العربية القديمة التي كانت بما حوته من مادة لغوية من أسباب وصم العربية بالتخلف عن متابعة التطور الحضاري الحديث ومن ثم تفضيـل اللغات والمعاجم الأجنبية عليها لملاحقتها لهذا التطور.

---

(1) انظر حول حياة الشدياق وآثاره وثقافته وآرائه:

أولاً: ما أورده من معلومات حول حياته وأسفاره في:

1 ـ الساق على الساق (1852م).

2 ـ الواسطة إلى معرفة أحوال مالطة (1866م).

3 ـ كشف المخبا عن فنون أوربا (1866م).

ثانياً: ما كتب حول سيرته وأعماله مثل:

1 ـ جرجي زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية 4 / 235 - 236.

2 ـ د. محمد أحمد خلف الله، أحمد فارس الشدياق وآراؤه اللغوية والأدبية (1955م).

3 ـ الأستاذ المرحوم محمد خلف الله أحمد، معالم التطور الحديث في اللغة العربية وآدابها ص 113 - 119.

4 ـ د. خالد الكركي، الإنجليز في أدب أحمد فارس الشدياق، بحث منشور في أعمال الملتقى الدولي حول الأدب المقارن عند العرب، الجزائر ـ عنّابة في الفترة من 14 - 19 مايو 1983 ـ ص 259 - 321.

وكان القاموس المحيط ـ وما يزال ـ من أشهر المعاجم العربية القديمة وقد هاجمه الشدياق ليبين أن القصور ناتج عن وضع المعاجم وطريقة تأليفها لا من اللغة وخصائصها، وقد توسّل بهذا النقد إلى الدعوة لوضع معجم عربي حديث يسهل الرجوع إليه والبحث فيه، وكان من أهم ما نادى به في هذا الصدد، ألاّ يقتصر المعجم العربي على المفردات العربية القديمة وحدها بل يضاف إليها ما استعمله العلماء والكتاب والشعراء بعد عصور الاحتجاج. يقول في مقدمة كتابه الجاسوس «أحببت أن أبين في هذا الكتاب من الأسباب ما يحض أهل العربية في عصرنا هذا على تأليف كتاب في اللغة يكون سهل الترتيب واضح التعاريف شاملاً للألفاظ التي استعملها الأدباء والكتّاب وكل من اشتهر بالتأليف»[2].

وهذه الدعوة من الشدياق إلى إعادة النظر في المعاجم العربية مادة وترتيباً دعوة لها ما يبررها في عصره ـ وما زالت حتى يومنا هذا ـ، أما أسبابها في عصره فيوضحها لنا بقوله: «فإن هذا اللسان قد تضَوّعَ نشْرُه... إلاّ أن أَلْسِنَةَ الأجانب زاحمتْهُ في هذا العصر... لأن ترتيب كتب لغاتهم أسْهَلُ والوصول إليها أعجل ولاسيما أنها قليلة المشتقات وليس في تعريف ألفاظها كبير اختلاف في الروايات، أما من يتعاطون منا التجارة ويحملون عبء الإمارة، فإنهم يزعمون أن اللغة العربية لا تصلح في هذا الزمان لهاتين الخطتين فلا بد من الاستعانة بكلام الأجانب»[3].

ولذلك يرى ضرورة تنمية الثروة اللفظية وإعادة ترتيبها ترتيباً يسهل استعمالها؛ يقول: «ومن ثم مست الحاجة إلى زيادة تفصيل لمفردات لغتنا ومركباتها وتبيّن لأصولها من متفرعاتها وإفراز لأفعالها من مشتقاتها»[4].

وهذا الشعور بتخلّف العربية عن مسايرة التطور الحضاري وحاجتها إلى

(2) الجاسوس ص 3.
(3) المصدر السابق، نفس الصفحة.
(4) المصدر السابق، نفس الصفحة.

النمو اللغوي يبدو لنا بصورة أوضح فيما كتبه في جريدة الجوائب تحت عنوان «في فوائد سر الليال» ونشر هذه المقالة وغيرها من مقالاته مجموعة في كتاب أسماه «كنز الرغائب في منتخبات الجوائب» وفي هذه المقالة يقول: «لا شك في أن مفردات اللغة العربية غير تامة بالنظر إلى ما استحدث بعد العرب من الفنون والصنائع مما لم يكن يخطر ببال الأولين وهو غير شين على العربية إذ لا يحتمل أن واضع اللغة يضع أسماء لمسمّيات غير موجودة، وإنما الشين علينا الآن في أن نستعير هذه الأسماء من اللغات الأجنبية مع قدرتنا على صوغها من لغتنا»[5].

وهكذا نجد أن جانباً هاماً من جهود الشدياق اللغوية كان موجهاً إلى قضية المعجم العربي مادة وترتيباً وشرحاً أي بعبارة أخرى نستطيع أن ندرس ما أسهم به في هذا الميدان من خلال موضوعات ثلاثة تتصل بعلم المعاجم وهي:

1 ـ المعنى المعجمي.
2 ـ فن صناعة المعجم.
3 ـ تنمية المادة المعجمية.

ولكن هذه الموضوعات تتصل أيضاً بثلاثة فروع أساسية انبثقت من علم اللغة الحديث وهي:

1 ـ علم الدلالة Semantics.
2 ـ علم المفردات Vocabulary.
3 ـ علم المعاجم Lexicology.

أما علم الدلالة، فهو كما يعرفه علماء اللغة العلم الذي يدرس المعنى سواء على مستوى الكلمة المفردة أو التركيب؛ وتنتهي هذه الدراسة غالباً بوضع

(5) كنز الرغائب 1/202.

نظريات علمية في دراسة المعنى تختلف من مدرسة لغوية إلى أخرى[6].

غير أن بعض علماء المعاجم المعاصرين يعرفون علم الدلالة بأنه ذلك الفرع من علم اللغة الذي يدرس المعنى المعجمي Lexical meaning[7] أي أن علماء المعاجم ينظرون إلى علم الدلالة على أنه يختص بدراسة المفردات ودلالتها دون النظريات المختلفة التي قد يتطرّق إليها علماء اللغة عند دراستهم للدلالة ويؤكد ذلك ما يشعر به بعض علماء المعاجم اليوم من وجود هوة عميقة تفصل بين النظريات الدلالية الحديثة والدراسة المعجمية وتطبيقاتها التي ما زالت حتى الآن تعتمد على تقاليد راسخة، ولكن هذا الشعور لا يحول دون اعترافهم بأهمّيّة الاطلاع على النظريات الحديثة في علم الدلالة لمعرفة طبيعة الدلالة اللغوية وماهيتها وجهاتها المختلفة والعلاقات الدلالية التي تربط المفردات بعضها ببعض، إلّا أنهم في الوقت نفسه يترددون كثيراً في الاعتماد على النظريات غير المؤكدة ـ كما يقولون ـ للدراسات الحديثة والمعاصرة التي تدور حول طبيعة الدلالة لأنهم يرون أن هذه النظريات أوسع من الحدود التي ينبغي على المعجميين العمل فيها[8].

أما علم المفردات Vocabulary فهو علم يدرس المفردات بما لها من صلة بمجالات محددة مثل:

1 ـ حصيلة المفردات التي يتصرّف فيها المتكلم أو الكاتب أو الشاعر.

---

(6) حول إختلاف المدارس اللغوية الحديثة والمعاصرة في نظرية المعنى انظر:

1 - Lyons, John, Semantics, Vol. I, II London, 1979.

2 — Leech Geoffrey, Semantics. Pelican Books, London, 1976.

وباللغة العربية انظر:

1 ـ د. محمود السعران، علم اللغة ص 283 - 341.

2 ـ د. كمال بشر، دراسات في علم اللغة ص 121 - 184.

3 ـ د. أحمد مختار عمر، علم الدلالة، الكويت، 1982.

(7) Zgusta, Ladislev, Manual of Lexicography P. 28.

(8) Zgusta, Op. Cit., P. 19

2 ـ مقدار الثروة اللفظية في لغة أو لهجة معينة.
3 ـ مجموعة المصطلحات التي تستخدم في دائرة علمية أو فنية محددة.
4 ـ إحصاء ومقارنة المفردات المستعملة في عدة لغات أو لهجات طبقاً لحاجة المتكلمين بها.
5 ـ أنواع المعاجم المستعملة في كل لغة وطرق تصنيفها.
6 ـ حصر وإحصاء الألفاظ المقترضة من اللغات الأخرى داخل لغة معينة(9).

وغالباً ما يستخدم هذا العلم إحصاء الكلمات **Word Count** للوصول إلى نتائج أكثر دقة؛ غير أن الكلمات تختلف أثناء الاستعمال من حيث النشاط والركود ولذلك يفرّق هذا العلم بين نوعين من المفردات هما:

1 ـ المفردات النشطة Active Vocabulary
2 ـ المفردات الخاملة Passive Vocabulary

وذلك لكي يميّز بين المفردات التي يستعملها المتكلم عادة وتلك التي يستطيع إدراك معناها ولكنه لا يستعملها، كما قامت أيضاً في نطاق هذا العلم محاولات لعمل مجموعات من الكلمات تتصل فيما بينها بفكرة محددة أو تعبر عن جوانب ثابتة في الحياة الإنسانية لا تتغير أو تختلف مثل المفردات الدالة على خلق الإنسان أو القرابة أو الألوان فيما يطلق عليه علم الدلالة الحقول الدلالية(10) Semantics Field ويتمثّل ذلك في الرسائل اللغوية الأولى التي جمعها رواة اللغة في العربية كما يتمثّل على مستوى المعاجم العربية في معجم المخصص لابن سيده (ت 458هـ) مع اختلاف في الأسس والأصول النظرية بين العرب وعلماء اللغة في العصر الحديث.

ومعنى هذا أن علم المفردات وإن انفرد بموضوعات خاصة فهو يضم كذلك موضوعات ودراسات وثيقة الصلة بعلم الدلالة.

(9) Hartmann and Stork, Dict. of Lang. and Ling. P. 251.
(10) Leech, Op. Cit., P. 232.

وأما علم المعاجم Lexicology فهو فرع من فروع علم اللغة يقوم بتصنيف ودراسة مفردات أي لغة بالإضافة إلى شـرح معناهـا أو دلالتها المعجمية Lexical meaning استعداداً لعمل المعجم. وهنا لا بد أن نفرّق بين هذا العلم والفرع التطبيقي له أي علم صناعة المعاجم Lexicography الذي يختص بفن صناعة المعجم والأصول التي تقوم عليها أنواع المعاجم ونظم ترتيب المفردات وشرحهـا داخل المعجم[11]. ومعنى هـذا أن علم المعاجم هو علم نظري يدرس المعنى المعجمي وما يتصل به من جهات الدلالة وعلاقتها في حين أن فن صناعة المعجم هو علم تطبيقي يختص بصنـاعة المعجم ولكن علمـاء اللغة يستعملون مصـطلح علم المعـاجم Lexicography للدلالة على الفرعين معاً.

وهكذا نجد أن بين هذه الفروع من علم اللغة أعني علم الدلالة وعلم المفردات وعلم المعاجم صلات وثيقة وموضوعات مشتركة؛ فإذا نظرنا في ضوء ذلك إلى الموضوعات التي شغلت الشدياق فيما يتصل بالمعجم العربي وأشرنا إليها من قبل وهي دراسة المعنى المعجمي وفن صناعة المعاجم من حيث مادتها وترتيبها وشرحها وتنمية الثروة اللفظية أو مادة المعجم العربي ـ وجدنا أن هذه الموضوعات الثلاثة تتصل بهذه الفروع الثلاثة من علم اللغة والتي ذكرناها آنفاً.

فشرح دلالة المفردات يتصل بدراسة المعنى المعجمي وترتيبها يتصل بفن صناعة المعاجم كما تتصل دراسة المعنى بعلم الدلالة وتنمية الثروة اللفظية أو مادة المعجم تتصل بعلم المفردات من ناحية وبعلم الدلالة من ناحية أخرى، كما أن نوع المعجم ومادتـه يتصلان بعلم المعـاجم وعلم المفردات ولذلك سوف نقسم هذا البحث إلى ثلاثة أقسام أساسية وهي:

1 ـ الشدياق ودراسة المعنى المعجمي.

---

(11) Zagusta, Op. Cit., P. 21, P. 74 - 89.

2 ـ الشدياق وفن صناعة المعجم.
3 ـ الشدياق وتنمية مادة المعجم العربي.

وفيما يلي سنحاول أن نتناول كل قسم من هذه الأقسام بالدراسة من خلال ما كتبه الشدياق وذلك في ضوء ما توصل إليه علماء اللغة في العصر الحديث من نتائج وما أذاعوه من نتائج وآراء، ولعلي بذلك أكون قد أسهمت في الكشف عن جهد معجمي لعالم من علماء المعاجم العربية أحب اللغة العربية ووجد ارتياحاً غريزياً كما يقول منذ نعومة أظفاره لقراءة الكلام الفصيح وإمعان النظر فيه.

1 ـ الشدياق ودراسة المعنى المعجمي:

علم المعاجم النظري Lexicology هو ذلك الفرع من علم المعاجم الذي يدرس المعنى المعجمي Lexical meaning. ويرى علماء المعاجم أن هذه الدراسة تأتي في مقدمة الأمور التي يهتم بها المعجمي لأن كثيراً من قراراته تتوقف سواء بصورة مباشرة أو غير مباشرة على فهمه لطبيعة هذا المعنى والطريقة التي يتعامل بها معه في المعجم[12].

ويتفق علماء اللغة المحدثون ومعهم علماء المعاجم على أن المعنى المعجمي ـ إذا حللناه ـ يتألف من عناصر متعددة يمكن حصرها في ثلاثة عنارصر أساسية هي:

1 ـ ما تشير إليه الكلمة (الدلالة الأصيلة)Denotation.
2 ـ ما تتضمنه الكلمة من دلالات غير الدلالة الأصيلة (الدلالة الهامشية)Connotation.
٣ ـ درجة التّطابق بين العنصرين الأول والثاني[13]Rang of application.

---

(12) Zgusta, Op., P. 21 .
(13) Ibid., P. 27 .
وانظر أيضاً: Lyons, Op. Cit., Vol. I, P. 206.

وقبل أن نتناول كل عنصر من هذه العناصر لا بد أن نفرّق أولاً بين مجموعتين من الكلمات وهما:

1 ـ المجموعة الأولى وتتمثل في الكلمات التي بينها وبين دلالتها المعجمية علاقة طبيعية وهو ما يطلق عليه علماء العربية القدماء «حكاية الصوت»[14] ويطلق عليها علماء اللغة وعلماء المعاجم حديثاً الكلمات ذات الجرس المعبر Echo-words أو Onomatopic Words[15] مثل الخرير والنشيش والصليل والخضم والقضم في العربية، وهذه المجموعة تمثل عادة كمية ضئيلة من الألفاظ في كل لغة.

2 ـ المجموعة الثانية وهي التي تمثل أكبر قدر من الكلمات في معظم اللغات وهي التي ترتبط بدلالتها ارتباطاً رمزياً إصطلاحياً.

وهذا النوع الثاني من الكلمات هو ما يهتم به علماء المعاجم أكثر من غيره لأنه يشكل الجزء الأكبر والأهم من متن اللغة وهو أيضاً المتداول على ألسنة المتكلمين بأي لغة. وتشير كل كلمة من هذه المجموعة الثانية غالباً إلى موجود في العالم الخارج عن اللغة Extralinguistic world أو إلى مفهوم أو فكرة تتخذ من الكلمة رمزاً لها.

فإذا تجاوزنا عن المناقشات الفلسفية والنظرية التي يخوض فيها علماء اللغة المعاصرون[16] وتصورنا مثلاً أن المرء إذا ما احتاج إلى الحديث عن شيء ما بلا كلمات تدل عليه فمن الضروري أن يوجد هذا الشيء معه أو يعمل على إحضاره أمام السامع لكي يشير إليه أي أنه يستعيض عن الكلمات بالإشارة إلى الأشياء، فإذا تيسّر ذلك ـ وهو غير متيسّر دائماً من الناحية العملية ـ فإن الصعوبة تتحول إلى إستحالة عندما يتحدث الإنسان عن المعاني المجردة والمفاهيم غير المادية مثل الحرية والحق والعدل والسلام،

(14) انظر الثعالبي، فقه اللغة ص 167، حيث يقدم نمادج من هذه الكلمات.

(15) Hartmann and Stork, Op. Cit., P. 158.

(16) راجع: Lyons, Op. Cit., Vol. I PP. 206 - 216.

ولذلك استعاض الإنسان عن تلك المشقة بوسيلة أبسط وأكثر مرونة وذلك في مرحلة من التاريخ لا يعرف العلم عنها شيئاً عندما اكتشف أنه عن طريق إحداث بعض الأصوات من خلال أعضاء ليست للنطق أصلاً ولكنه طوعها لذلك كي يستحضر الأشياء مادية كانت أو غير مادية وكذا ليتصل بغيره من الناس ويقيم حياة إجتماعية قائمة على التفاهم المتبادل.

وهنا نجد أن الكلمات ـ على الأقل من الناحية النظرية ـ كانت تشير في الأصل إلى أشياء حسية فكان الإسم الذي يطلق على شيء ما شاهداً على وجود هذا الشيء ولهذا نجد في كثير من اللغات القديمة تعبيرات باقية من تلك الفترة المبكرة في حياة الإنسان كقولهم في اللغة البابلية إذا ما أرادوا التعبير عن مفهوم عبارة «كل شيء» قالوا «كل ما له إسم يسمى به» وكناية عن الهلاك والبوار كانوا يقولون «لم يعد له اسم»[17] فإذا كان الإسم في لغة الإنسان القديم قد اقترن دائماً بوجود المسمى فلا عجب إذاً من أن نجد أن الكلمات في الأصل كانت تدل على أشياء محسومة أي أصبح لكل كلمة معادل يتمثل في الأشياء وهو ما أطلق عليه علماء المعاجم Denotation أي ما تشير إليه الكلمة أصلاً وهو العنصر الأول من عناصر المعنى المعجمي أي الدلالة الأصلية الحسية للكلمة. ولكن لا بد من الإشارة في هذا الصدد أن جانب النسبية لا بد أن يؤخذ في الحسبان أي أن ما تشير إليه الكلمة سواء كان مادياً أو غير مادي هو غالباً عبارة عن تصوّر المتكلم باللغة عن هذا الشيء في ذهنه هو وليس كما هو في الخارج أو بعبارة أدق هو التصور الذي يقف بين الكلمة والحقيقة ومن هنا تصبح الكلمة رمزاً لأشياء وليست هي عين الأشياء[18].

وعندما بدأ الإنسان يتطلع إلى آفاق أوسع من المحسوسات إلى المعقولات والمجردات وارتبطت الكلمات بتجارب شعورية ونفسية نقلت كثير

(17) حسن ظاظا، كلام العرب ص 42.

(18) Zgusta, Op. Cit., P. 32.

من الكلمات من الدلالة الحسية إلى دلالات معنوية، فالشك أصله الوخز والعقل أصله الربط والشر أصله من شرار النار والعقيدة من العقد والشرع أصله الاتجاه إلى الماء. . . الخ ومن ثم أصبحت الكلمات ترمز إلى أكثر من معنى بجانب الدلالة الأصلية وهو ما يمثل العنصر الثاني من عناصر المعنى المعجمي في بعض جوانبه، فالدلالة المتضمنة أو الهامشية Connotation عبارة عن تلك الدلالات التي ترتبط بالدلالة الأصلية أي تلك الدلالة التي تستدعيها وتوحي بها الدلالة الأصلية في ذهن المتكلم بلغة ما.

ففي لسان العرب مثلاً نجد ابن منظور (ت 711 هـ) يشرح الدلالة الأصلية لكلمة «ثعلب» من حيث هو حيوان معروف كما يقول ولكنه يضيف إلى معنى الكلمة أيضاً الاحتيال والمراوغة، ومن هذا المعنى يقال تثعلب الرجل إذا أشبه الثعلب في الاحتيال[19] وهو المعنى الهامشي للكلمة ومثل ذلك أيضاً عندما نقول: «مات فلان» و«تُوُفِّيَ فلان» حيث نجد في الفعل «تُوفِيَ» دلالات هامشية دينية إسلامية لا نجدها في الفعل «مات». وأهم خصيصة من خصائص الدلالة الهامشية أنها متعددة وغير ثابتة بل قد تختلف من شخص إلى شخص آخر من أبناء اللغة الواحدة ولذلك استغل علماء النفس هذا الجانب الشخصي من الدلالة في التحليل النفسي.

أما العنصر الثالث والأخير من عناصر المعنى المعجمي فهو يتمثل في درجة التطابق Rang of Application بين الدلالة الأصلية Denotation والدلالات الهامشية Connotation وهو عنصر غير متحقق في ذات الكلمات وإنما تصوّره علماء اللغة لكي يفصل في قضايا الترادف والمشترك اللفظي والأضداد أي في العلاقات الدلالية بين الكلمات. فمثلاً كلمة «الماهية» وكلمة «الأجر» بينهما علاقة دلالية فكل منهما تشير إلى ما يتسلمه المرء من نقود لقاء عمله ومع ذلك فبينهما فرق يكمن في درجة التطابق حيث تستعمل الأولى للدلالة على ما يتسلمه الموظفون مع نهاية كل شهر في حين تدل كلمة «أجر»

---

(19) لسان العرب مادة ث ع ل ب.

على الأجر اليومي أو الأسبوعي للعمال ومن في حكمهم ويَعْنِي هذا أن هناك فرقاً بين الكلمتين، وإن ظن بعض الناس أنهما مترادفتان، ودرجة التطابق هي التي تفرّق بينهما.

المعنى المعجمي للكلمة إذن يشمل هذه العناصر الثلاثة معاً وهذه العناصر معاً ترمز إليها وحدات صوتية نسميها الكلمات وهي تعبّر عن تصوّر عام لهذا المعنى وقد يتطور هذا التصور بتطور حياة الإنسان ويبقى الرمز كما هو ومن ثم يتطور المعنى المعجمي وما يرتبط به من عناصر، ولذلك يرى علماء المعاجم أن أبرز خصيصة من خصائص المعنى المعجمي أنه عام ومتعدد وغير ثابت، مما يبين لنا الصعوبات التي يتعرض لها المعجمي عند شرح الدلالة داخل المعجم وتتركز هذه الصعوبات في تحديده للمعاني المعجمية للكلمات بدقة.

فإذا حاولنا البحث عن تصور الشدياق على ضوء ذلك لماهية المعنى المعجمي وحقيقته وجدناه شديد الإيمان بنظرية «حكاية الصوت» أي محاكاة اللغة لأصوات الطبيعة وهي نظريّة قديمة قدم البحث في اللغة نادى بها علماء اللغة وغير علماء اللغة[20] وقد أشار ابن جني (ت 392 هـ) إلى هذه النظرية بقوله: «وذهب بعضهم إلى أن أصل اللغة كلها من الأصوات المسموعات كدوي الريح وحنين الرعد وخرير الماء وشحيج الحمار ونعيق الغراب وصهيل الفرس ونزيب الظبي ونحو ذلك ثم ولدت اللغات عن ذلك فيما بعد وهذا عندي وجه صالح ومذهب متقبل»[21].

ولكن الشدياق يتوسع في هذه النظرية ويتخذ منها أساساً لشرح المعنى المعجمي لكلمات اللغة العربية ويحاول أن يرد هذا المعنى والمعاني الأخر التي تدور حولها المشتقات إلى هذا الصوت أو ذاك من أصوات الطبيعة. يقول:

---

(20) راجع: Robins, A Short History of Linguistics, P. 18.

(21) ابن جني، الخصائص، 1/ 46 - 47.

«إني رأيت أن معظم اللغة مأخوذ من حكاية الصوت أو حكاية صفه وأن حكاية الصوت تأتي من المضاعف نحو دب ودف ودق وهز وفر، فإذا أرادوا الزيادة في المعنى ضاعفوا الحروف فقالوا دبدب ودفدف ودقدق وهزهز. . . فلما بنوه هكذا احتاجوا إلى التسكين، وظهور هـذا السر في المـاضي المضاعف أكثر منه في المصادر»[22].

ولذلك اتخذ من الفعل المضاعف أصلاً لأنه الصيغة التي تتحقق بها حكاية الصوت مثل دبدب وزلزل وقرقر وهزهز. . . الخ، ويمضي الشدياق في تصوره هذا للقيمة الدلالية للأصوات عندما يقرر ما قرره من قبـل الخليل بن أحمد (ت 175 هـ)، وسيبويه (ت 180 هـ) وابن جني (ت 392 هـ) أن لكل صوت مفرد قيمة دلالية خاصة به، وقد جمع ابن جني أقوال الخليل وسيبويه وزاد عليها في باب عقده في الخصائص بعنوان «باب في أساس الألفاظ أشباه المعاني». يقول: «اعلم أن هذا موضع شريف لطيف وقد نبّه عليه الخليل وسيبويه وتلقّتـه الجماعة بالقبول والاعتراف بصحته. قال الخليل كأنهم توهموا في صوت الجندب استطالة ومداً فقالوا صـر وتوهموا في صوت البازي تقطيعاً فقالوا صرصر وقال سيبويه في المصادر التي جاءت على الفَعَلَان إنها تأتي للاضطراب والحركة نحو الغليان والغثيان ووجدت أنا من هذا الحديث أشياء كثيرة على سمت ما حداه ومنهاج ما مثلاه وذلك أنك تجد المصادر الـرباعيـة المضعفة تـأتي للتكريـر نحو الـزعزعـة والقلقلة والصّلصلة»[23].

وفي موضع آخر يقول: «فأما مقابلة الألفاظ بما يشاكل أصواتها من الأحداث فباب عظيم واسع ومنهج متلئب عند عارفيه مأموم، وذلك أنهم كثيراً ما يجعلون أصوات الحروف على سمت الأحداث المعبر عنها فيعدلونهـا بها ويحتذونها عليها وذلك أكثر مما تقدره وأضعاف ما نستشعره. من ذلك قولهم

---

(22) سر الليال ص 22.

(23) الخصائص 2/153 - 152.

خضم وقضم، فالخضم لأكل الرطب كالبطيخ والقثاء وما كان نحوهما من المأكول الرطب والقضم للصلب اليابس. . . فاختاروا الخاء لرخاوتها للرطب والقاف لصلابتها لليابس حذو المسموع الأصوات على محسوس الأحداث»[24].

ويمضي الشدياق مع هذه الأمثلة وغيرها حتى يحولها إلى قانون عام يحكم به على حروف اللغة العربية، يقول: «إن كل حرف يختص بمعنى من المعاني دون غيره، وهو من أسرار اللغة العربية التي قلّ من تنبّه لها. . . فمن خصائص حرف الحاء السعة والانبساط نحو الابتحاح والبداح والبراح والأبطح والجح والرحرح والروح والسفوح والانسياح إلى آخر الباب ويلحق به ألفاظ كثيرة خفية الاتصال لا تدرك إلاّ بإمعان النظر نحو الاسحاح والتسريح والسماحة. ومن خصائص حرف الدال اللين والنعومة نحو الراخد، والقيد والتأد والثعد والتوهد والتهمد والخود والأملود إلى آخر الباب»[25].

ولكنه يجد أن حرف الدال قد يدخل في بناء ألفاظ تدل على الشدة والقوة مما يخالف ما ذهب إليه من دلالته على اللين والنعومة، فيقول: «وربما عادلوا في بعض الحروف أي راعوا فيها الإكثار من النقيض فإن حرف الدال يشتمل أيضاً على ألفاظ كثيرة تدل على الصلابة والقوة والشدة وذلك نحو التأدد والتأكيد والتأييد والجلعد والجلمود والصلخد والعجرد والعربد. . . إلى آخر»[26]. ومع ذلك يمضي مع نظريته فيرى أن من خصائص حرف الميم القطع والاستئصال والكسر ومن خصائص حرف الهاء الحمق والغفلة وعلى هذا الأساس أقام كتابه «منتهى العجب في خصائص لغة العرب»[27].

ولكي تكتمل نظرية الشدياق حول المعنى المعجمي من حيث هو

(24) المصدر السابق 2/158 - 157.
(25) الساق على الساق ص 66 - 65.
(26) المصدر السابق ص 66.
(27) المصدر السابق ص 65.

«حكاية صوت» عول الشدياق على فكرة التقليب التي اصطنعها الخليل بن أحمد في حصر المستعمل والمهمل من الكلمات العربية[28] والتي تقوم على فكرة رياضية تتصل بنظرية الاحتمالات، وهي الفكرة التي طورها ابن جني فيما بعد وأطلق عليها مصطلح «الاشتقاق الأكبر». يقول: «هذا باب القول على الفصل بين الكلام والقول وتقدم أمام القول على الفرق بينهما طرفاً من ذكر أحوال تصاريفهما واشتقاقهما مع تقليب حروفهما فإن هذا موضع يتجاوز قدر الاشتقاق ويعلوه إلى ما فوقه وستراه فتجده طريقاً غريباً ومسلكاً من هذه اللغة الشريفة عجيباً، فإن معنى (ق و ل) أين وجدت وكيف وقعت مع تقدم بعض حروفها على بعض وتأخره عنه إنما هو للخفوف والحركة وجهات تراكيبها الست مستعملة لم يهمل شيء منها»[29].

وفكرة اتصال تقاليب الجذر (ق و ل) بمعنى معجمي واحد هي فكرة ابن جني، أما التقاليب للوصول إلى ما استعملته العرب وما أهملته إنما هي للخليل بن أحمد، وهي الفكرة التي حاول الشدياق أن يوظفها في محاولة لوضع إطار عام لنظريته؛ يقول: «ولا يكاد الثلاثي يأتي حكاية صوت إلّا وكان مقلوبه وما يجانسه كذلك»[30]. ويمثل للتقليب بالفعلين دق، قد وما يجانسه فيمثل له بالأفعال قس، قص، قط[31] ثم يلتزم بالمضاعف أصلاً لأنه يستجيب لفكرة التقليب مع حكاية الصوت؛ يقول: «وقد التزمت أن أزيد على المضاعف المختلف من عدة أوجه فما يظهر في بادىء الرأي أنه متقلب من وجه واحد ليكون الأسلوب مطرداً، وذلك مثل فثقه وفدغه وفدخه وفلغه وفلقه وثلقه وثدغه وهدغه وهمغه ووشفه فإني جعلت فثغه من فث وفدغه من فد، فإن وقع شيء بخلافه فهو سهو والكمال لله وحده»[32].

---

(28) راجع كتاب العين ص 66.

(29) ابن جني، الخصائص 5/1.

(30) سر الليال ص22.

(31) المصدر السابق نفس الصفحة وانظر أيضاً ص46 حيث يفصل القول في حب ومقلوبها بح وص 54 في خب ومقلوبها بخ وص 63 في عب ومقلوبها بع وص 72 في غب وبغ.

(32) سر الليال ص22.

ولكي تستقيم له نظرية أن المعنى المعجمي هو الأصل في الأسماء والصفات كما استقامت له في الأفعال يفرّق الشدياق بين الفعل والاسم من حيث أن الأصل في كل منهما حكاية الصوت أيضاً فيقول: «إن الفعل في الأصل كالاسم في كونه يوقف عليه بالسكون قبل اتصاله بفاعله فإذا اتصل بفاعله فتح، وتقرير ذلك أن الواضع لمّا وضع قد ودق ودف لم يقصد بها في أول الأمر أن تكون فعلاً ولا اسماً بل مجرد حكاية لصوت توهمه بقطع النظر عن أي شيء آخر، فلما وصل دق بفاعله قال دقَّ الرجلُ ولما أراد تخصيصه بأن يكون اسماً قال دقُّ الرجلِ ولهذا كثيراً ما نرى صيغة الاسم والفعل في هذا الباب واحدة»[33].

وفي موضع آخر يوضح العلاقة بين الصفات وحكاية الصوت فيقول: «وأما حكاية الصفة فهي نظم حروف يتوهم الناظم فيها أنها تدل على صفة شيء باعتبار ما في تلك الحروف من اللين والترخيم أو الشدة والتفخيم كقولهم مثلاً شيء منمنم أي مزخرف... وشيء ململم أي مدور مضموم مجتمع وقولهم حبنجاب لرخاوة الشيء المضطرب... وكقولهم امرأة رجراجة أي يترجرج عليها لحمها وربما التبست هنا حكاية الصفة بحكاية الصوت... نحو السلسل للماء العذب أو البارد والسلس للسهل اللين... والوسوسة لحديث النفس والهمس للصوت الخفي»[34] وهو هنا لا يستند إلى القيمة الدلالية للصوت فحسب، وإنما إلى الصفات الصوتية أيضاً من حيث الشدة واللين والتفخيم والترقيق.

أما من حيث ترتيب المشتقات داخل المادة فقد ابتدأ بالمضاعف لأنه الأصل في رأيه ثم الأجوف الواوي ثم اليائي ثم المهموز، فإذا لم يجد المضاعف ذكر الأجوف، وإذا لم يكن الأجوف ذكر المهموز، كما استخدم

---

(33) المصدر السابق نفس الصفحة.

(34) المصدر السابق ص31.

أيضاً رموز القاموس المحيط بـ ع = موضع، د = بلد، هـ = بلده، م = معروف، ج = جمع، ج ج = جمع الجمع[35].

وهكذا وضع الشدياق نظريته في المعنى العجمي لمفردات اللغة العربية ثم وضعها موضع التجريب من خلال معجمه «سر الليال» وذلك وفق الأصول والمبادىء الآتية:

1 ـ إن أصل المعنى المعجمي هو حكاية الصوت الطبيعي.
2 ـ إن للحروف قيمة دلالية خاصة تختلف من حرف إلى حرف.
3 ـ إن الأصل في بنية الكلمة العربية هو المضاعف أو مقلوبه أو ما زيد عليه.

وهو لا يكتفي بتطبيق نظريته تلك على اللغة العربية وحدها بل يحاول أن يدلل على أنها نظرية عامة تستجيب لها اللغات الأخرى، فهو يرى أن اللغات الإنجليزية والفرنسية والتركية واليونانية والفارسية وغيرها فيها ما يشبه حكاية الصوت في العربية[36] وهو يرى في ذلك ظاهرة طبيعية؛ يقول: «وكلما كانت اللغة مبنية على هذا المبنى الطبيعي كانت للنفس أشوق وبالطّبع أعلق»[37] وأن «زيادة حرف على المضاعف أليق بحكمة الواضع في التفنن من نقصه إذ لو جعلت السالم أصلاً لزم العدول عنه من الكمال إلى النقصان»[38].

ولكن عند تطبيق النظرية على مادة المعجم العربي لا تستقيم له دائماً. فهو كما رأينا يتخذ من حكاية الصوت نواة للمعنى المعجمي والتي تتحقق في المضاعف ومقلوبه وما زيد عليه ثم يحاول رد جميع المشتقات إلى هذه الدلالة الأصلية على أساس أنّ الدّلالات الحسّية تأتي قبل الدلالات المجردة. وهو يعتمد على مادة معجمية غزيرة جمعها من المعاجم العربية وبخاصة من

(35) المصدر السابق ص 607.
(36) سر الليال ص24.
(37) المصدر السابق ص 25.
(38) المصدر السابق، نفس الصفحة.

القاموس المحيط فنراه مثلاً في مادة (أ ب) يقول:

«وعندي أن أول هذه المعاني أ ب الشيء حركة وهو حكاية صوت ونحوه هب وهف لحركة الريح وخب لعدو الفرس وحف لصوت ركضه، وقب لصوت ناب الفحل، وعب لصوت جرع الماء وأب للسير أي تهيأ من معنى الحركة، ونحو عبأ المتاع والأمر هيأه، وجاء أيضاً أهب للأمر وتأهب أي استعد ومن هذا المعنى قيل أب هزم بحملة وإلى وطنه اشتاق، جاء الوب التهيؤ للحملة في الحرب... ونحو أب أبه أم أمة وحم حمة وأمته وعمته، والأب الكلأ من معنى القصد، ولك أن تقول إنه من معنى الحركة المقرونة بالاشتياق، إذ هو عند العرب شيء أعظم ما يتشوّق إليه... ومن معنى القصد والاشتياق جاء أيضاً الإياب بمعنى الماء، وهو بالفارسية أحد قطري اللفظ العربي أعني آب، وأما إطلاقه على السراب فمن تسمية المكروه بما يستحب كقولهم نام أي مات»[39].

على هذا النحو يمضي الشدياق في بقية مواد معجمه يحاول بالتأويل تارة وبالافتراض تارة أخرى أن يرجع بعض المواد والمشتقات إلى هذا الأصل أو ذاك مما يدل على حكاية الصوت، ولكنه أحياناً يعجز عن ذلك. ففي مادة (حب) يحاول جاهداً ربط المعنى المعجمي بدلالة الصوت فلا يجد سبيلاً إلى ذلك فيقول: «في هذه المادة ربك شاق وتخليط لا يطاق»[40] ثم يقول: «وعندي أن أول المعاني حبه وأحبه ذلك فيه أوجه: أحدها أن ترجع به إلى معنى أب أي اشتاق والثاني أن يكون من حبة القلب... والثالث أن يكون من معنى حباب الماء أي معظمه... والرابع من حبة الحنطة ونحوها»[41].

وعلى الرغم من الجهد الضخم الذي بذله الشدياق في إعداد معجمه

---

(39) المصدر السابق ص 32.
(40) المصدر السابق ص 38.
(41) المصدر السابق ص 38 - 39.

«سر الليال» وفق نظرية حكاية الصوت فإنه وقع فريسة النظريات التي كانت تبحث في نشأة اللغة وأصلها والتي سيطرت على الفكر اللغوي في القرن التاسع عشر[42] وكانت نظرية محاكاة أصوات الطبيعة من أوسع النظريات انتشاراً حينئذٍ. ولا شك أن وجود هذه النظرية في التراث اللغوي العربي قد قوى من إيمان الشدياق بها ويبدو أنها كانت واسعة الانتشار أيضاً حتى أنها أخذت تردد في تراث المعتزلة الذين اشتهروا بالاحتكام إلى العقل ومنطقه، يروى السيوطي (ت 911هـ) أن عباد بن سليمان الصيمري من المعتزلة كان يرى أن بين اللفظ ومدلوله مناسبة طبيعية حامله للواضع أن يضع هذه اللفظة أو تلك إزاء هذا المعنى أو ذاك. وكان يقول إنَّه يعرف معنى اللفظ من أصواته، فسئل ما يسمى «أذغاغ» وهو بالفارسية الحجر فقال أجد فيه يبساً شديداً وأراه الحجر[43].

ولكن هذه النظرية تسلحت عند الأوروبيين بآراء فلسفية وكان العالم الألماني هردر Herder من أشد المدافعين عنها[44] وكان الدليل اللغوي الوحيد الذي قدمه أصحابُها سواء في الشرق أو الغرب هو وجود مجموعة من الكلمات التي أشرنا إليها من قبل والتي أطلق عليها علماء اللغة مصطلح الكلمات ذات الجرس المعبر Onomatopic Words والتي تمثل جزءاً ضئيلاً من الثروة اللفظية في أي لغة ومع ذلك فإن وجود هذه الألفاظ ليس دليلاً مطلقاً على صحة النظرية لأننا قد نجد اختلافاً بين اللغات في نطاق هذه الألفاظ نفسها، فأحياناً نجد حكاية الصوت تختلف من لغة إلى لغة للشيء الواحد أو للصوت الواحد ولذلك كثيراً ما يلجأ المدافعون عن هذه النظرية إلى الافتراضات والتفسيرات الميتافيزيقية التي تبعد عن البحث اللغوي العلمي. كما أن هذه النظرية لا تستطيع أن تفسّر الجانب الأكبر من الثروة

(42) راجع «فندريس»، اللغة ص ص 29 - 42، وانظر أيضاً: Robins, Op. Cit., P. 149.
(43) السيوطي، المزهر 1/ 47.
(44) Robins, Op. Cit., P. 151 - 153.

اللفظية في أي لغة والتي لا نجد في كلماتها أدنى علاقة بمحاكاة الصوت، فما العلاقة بيْن كلمات مثل: الحرية، العدل، الحق، الخيـر، الكرم، الشجاعة، بل ما العلاقة الصوتية ومحاكاة الصوت بين القطار والمذياع والهاتف والسيارة والسيف والريح والزيت والمصباح وغيرها من آلاف الكلمات والأسماء مما يتصل بالمأكل والملبس والمشرب ناهيك بما يتصل بالفلسفة والفكر من مجردات، ولعل ذلك ما دفع بعلماء اللغة في العصر الحديث إلى تنحية مثل هذه الموضوعات من منهاج العلم الصحيح، بل إنّ بعض علماء أصول الفقه ـ كما يروي السيوطي ـ رأى أن البحث في نشأة اللغة وما يتصل بها من نظريات ليست من العلم في شيء فقال «إن بحثها في الأصول فضول»[45] وهو ما يؤكده علماء اللغة الآن إذ يرفضون الاعتراف بالقيمة الدلالية الخاصة للصوت اللغوي. فالتحليل العلمي للغة قد أثبت أن أصغر وحدة لغوية وهي الفونيم Phoneme ليس لها معنى في ذاتها ولكنها مع غيرها من الفونيمات تشترك في تحديد المعنى الاصطلاحي لكلمة ما[46]. فالكلمة في أبسط تعريف لها عبارة عن مجموعة من الفونيمات بينها علاقة تقابل وبينها وبين الفونيمات في كلمة أخرى علاقة تبادل، ومعنى هذا أن القيمة الحقيقية للفونيم هي قيمة تبادلية وتقابلية ولا معنى له في نفسه.

فالنون في الفعل (نام) هو فونيم يشترك مع الفونيمات الأخرى في تحديد المدلول الاصطلاحي لهذا الفعل وفي ذات الوقت يجعل هذا الفعل مختلفاً عن فعل مثل (قام) أو (صام). وتتضح هذه القيمة إذا ما استبدلنا أحد فونيمات الفعل بآخر كأن نستبدل فونيم القاف في (قام) بفونيم العين فيصبح الفعل (عام) ويستوي ذلك في الصّوامت Consonants أو الصوائت Vowels

---

(45) السيوطي، المرجع السابق 1/ 26.

(46) راجع: Ducrot and Todvov, Encyclopedic Dict. of Sciences of Lang. PP. 171 - 174
وباللغة العربية انظر: كتابنا الكلمة، دراسة لغوية ص 41 - 46.

فاسم الفاعل من غير الثلاثي يفرّق بينه وبين اسم المفعول بفونيم واحد هو الكسرة في الأول والفتحة في الثاني مثل مرسِل ومرسَل ومعنى هذا أن فونيم الغين في غم وغمت وغمد وغمر وغمس وغمص وغمط وغمل وغمن ليس له قيمة دلالية خاصة أي يدل على الستر والتغطية كما ذهب الشدياق[47]. وإذا كان هذا هو المعنى المعجمي لهذه الكلمات تشترك فيه وتتحقق فيها جميعاً فليس الفضل في ذلك لوجود الغين فيها جميعاً وإنما في اشتراك هذا الفونيم مع غيره من الفونيمات الأخرى بحيث يصبح لكل كلمة منها دلالة تختلف عن الأخرى في إطار معنى الستر والتغطية وإلّا صح استعمال كل منها مكان الأخرى في سياق واحد فنقول مثلاً: غمده بالماء وغمره بالسيف، وهو فرق دلالي يرجع إلى مكونات كل كلمة على حدة.

ومع ذلك فإن الفونيمات بما هي أصوات لها سمات وملامح صوتية مميزة مثل الجهر والهمس والشدة والرخاوة وغير ذلك من الصفات، إلّا أن هذه الصفات والملامح الصوتية ليس لها معنى أيضاً وإنما هي خصائص صوتية تميّز كل فونيم عن الآخر وهذا لا يمنع من أن تتشابه عدة فونيمات في عدة لغات ولكنها مع غيرها لا يمكن أن تؤدي إلى تشابه المعنى أيضاً كما ذهب إلى ذلك الشدياق أحياناً.

يضاف إلى هذا أن العلاقة بين الصوت والمعنى هي علاقة رمزية اعتباطية Arbitrainess[48]. وهذه العلاقة الرمزية هي المسؤولة عن تحريك الدلالات الهامشية Connotation فيما أشرنا إليه سلفاً، بجانب الاشارة إلى المعنى المعجمي للكلمة من حيث أن الرمز بالنسبة للكلمة ما هو إلّا نوع من الاشارات العقلية التي يمكن نطقها وهي تعمل كما يعمل أي رمز آخر من حيث استدعاء الصورة أو المفهوم، وبذلك لا تكون الكلمة مجرد تقليد أو حكاية صوت الطبيعة وإنما هي بالنسبة لابن اللغة رمز لأشياء وتصورات

---

(47) سر الليال ص27.

(48) Ducrot and Todorv, Op. Cit. pp. 130 - 133

وخبرات لا يمكن أن تتمثل في أصواتها بأي حال.

غير أن القارىء لكتاب الشدياق «سر الليال» - وهو يمثّل الجانب التطبيقي لنظريته في المعنى المعجمي - لا يستطيع أن يملك نفسه من الإعجاب بالجهد الدّؤوب الذي بذله الرجل في إعداد هذا المعجم وجمع مادته لكي يخرج نظريته من حيز النظر إلى حيّز التطبيق. ولعل الفترة التاريخية التي عاشها هذا المعجمي مسؤولة إلى حد كبير عن توجيه جهده هذه الوجه التي كشف علم اللغة قناع الوهم عنها. ولكن يبقى للشدياق جهد قل أن نلقاه في عمل المعاجم اليوم والذي يظهر جلياً في تصوره الدقيق لفن صناعة المعاجم وهو ما سنتناوله في القسم الثاني من هذا البحث.

2 - الشدياق وفن صناعة المعاجم:

فن صناعة المعاجم Lexicography هو الفرع التطبيقي لعلم المعاجم Lexicology. وموضوع هذا الفن هو المبادىء والأصول التي تقوم عليها صناعة المعاجم من حيث جمع المادة وترتيب المداخل Entries والمشتقات وشرحها وذلك في ضوء المعجم المُراد وضعه وحجمه والهدف منه[49].

وفن صناعة المعجم من الفنون العريقة في التراث العربي. فأول معجم عرفته اللغة العربية هو معجم «العين» للخليل بن أحمد (ت 175هـ) قد مضى على وضعه أكثر من ألف عام، ثم توالى من بعده التأليف في المعاجم العربية، فظهرت أنواع من المعاجم مختلفة الترتيب والحجم والهدف، وقد حاول كثير من المحدثين - عرب ومستشرقين - دراسة المعاجم العربية من حيث نشأتها وتطورها وأنواعها والمدارس المختلفة التي تعاورت على صناعتها[50]. بل لقد امتد أثر المعاجم العربية وفن صناعتها إلى المعاجم

---

(49) راجع: Zugusta, Op. Cit., P. 198 - 217

وانظر أيضاً د. حسن ظاظا، كلام العرب ص 124 - 128.

(50) حول نشأة المعجم العربي وتطوره، انظر الدراسة القيمة التي كتبها الدكتور حسين نصار في جزئين كبيرين بعنوان: «المعجم العربي نشأته وتطوره» القاهرة، مطبعة مصر، ط الثانية =

الأوربية وتأثرت بها[51]. ولكن دراسة أحمد فارس الشدياق لهذه المعاجم وبخاصة دراسته «للقاموس المحيط» تعد إحدى العلامات البارزة في تاريخ دراسة المعجم العربي؛ فقد عكف الشدياق على هذا القاموس قراءة وفحصاً حتى كاد يستظهره ومن ثم درسه دراسة دقيقة جمع فيها كثيراً من الكتب التي دارت حوله شارحة ومحشية وناقدة، وكانت ثمرة هذه الدراسة كتابه «الجاسوس على القاموس» الذي يعد كما يقول د. حسين نصار من أحسن الكتب التي نقدت القاموس المحيط[52]. وفي ثنايا هذا النقد تعرّض الشدياق للمعاجم العربية عامة، مما جعل كتابه الجاسوس يتجاوز حدود نقد القاموس إلى دراسة المعاجم العربية الأخرى ونقدها، فجاء الكتاب موسوعة غنية بالمعلومات عن المعاجم العربية وأصحابها وخصائصها وعيوبها، وفي هذا الكتاب تظهر موهبة الشدياق الحقيقية وعلمه الواسع بالتراث اللغوي العربي، كما يظهر تصوره لما ينبغي أن يكون عليه المعجم العربي. وهو عندما يكتب في هذا الفن يكتب في الحقيقة من موقع الخبير المتمرس بالمعاجم وأنواعها وطرق وضعها سواء في العربية أو في غيرها من اللغات، وهذه الخبرة هي بعض ثمار معاناته وعمله في الترجمة الذي دفعه إلى الاطلاع على كثير من المعاجم في اللغات الأخرى التي يترجم عنها أو ينقل إليها وتصور بعض عباراته هذه المعاناة؛ يقول: «أقول لك الحق ولا أكتمه عنك وهو أني أكره الترجمة من كلام المعجم فأكتب هذه الفصول تخلصاً من عذاب الترجمة»[53].

ولكن تصوّر الشدياق لعلم المعاجم بشقّيْه النظري والتطبيقي نجده موزعاً بين كتابيه «الجاسوس» و«سر الليال» الذي أعاد فيه تلخيص نقده

= 1968، ومن أهم الدراسات التي قامت حول المعاجم العربية دراسة المستشرق الإنجليزي جون هايود. انظر مقدمة كتابه: Haywood, John, Arabic Lexicography, Leiden, 1965.

(51) انظر: Haywood, Op. Cit., PP. 127 - 131.

(52) د. حسين نصار، المرجع السابق، 3/1 ,615/2 - 617.

(53) كنز الرغائب 1/ 100.

للقاموس كما شرح فيه نظريته في المعنى المعجمي كما أشرنا إلى ذلك في القسم الأول من هذا البحث. فإذا استثنينا مقدمة كتابه «سر الليال» وجدنا هذا الكتاب يخلص إلى فن صناعة المعجم كما تصوّره الشدياق بالإضافة إلى ملاحظاته النظرية التي أودعها نقدَه للقاموس المحيط في كتابه «الجاسوس» ولذلك كثيراً ما كان يشر إلى «سر الليال» في «الجاسوس»[54].

ومنذ الوهلة الأولى في نقده للقاموس المحيط نراه يتخذ من تصوره لما ينبغي أن يكون عليه المعجم معياراً للحكم على هذه المعجم وغيره من المعاجم العربية. يقول: «وبعد، فإني لما رأيت في تعاريف القاموس للإمام القاضي مجد الدين الفيروزأبادي قصوراً وإبهاماً وإيجازاً وإيهاماً، وترتيب الأفعال ومشتقاتها فيه مُحوِج إلى تعب في المراجعة ونصب في المطالعة والناس راوون فيه راضون عنه أحببت أن أبيّن في هذا الكتاب من الأسباب ما يحض أهل العربية في عصرنا هذا على تأليف كتاب في اللغة يكون سهل الترتيب واضح التعاريف شاملاً للألفاظ التي استعملها الأدباء والكتاب وكل من اشتهر بالتأليف سهل المجتبى داني الفوائد بيّن العبارة وافي المقاصد»[55].

ومعنى هذا أن العناصر التي يرى الشدياق ضرورة توافرها في المعجم العربي المنشود تتمثّل فيما يلي:

1 - الشمول: أي أن يكون المعجم شاملاً لألفاظ العربية في عصورها المختلفة كما تتمثل في لغة الكتّاب والشعراء وكلّ من اشتهر بالتأليف وليست مقصورة على عصر دون عصر.
2 - سهولة ترتيب مواد المعجم ومشتقاته.
3 - وضوح تعريف المعنى المعجمي وشرحه.

(54) انظر الجاسوس ص 86.
(55) الجاسوس ص 2 - 3.

وعلى هدي من هذه المبادىء والأصول أخذ الشدياق في نقد القاموس المحيط خاصة والمعاجم العربية عامة.

وعلى الرغم من أن الشدياق كان حريصاً ـ كما يقول ـ على القصد في النقد[56] فإن انتقاداته للقاموس امتدت حتى بلغت أربعة وعشرين نقداً[57] تمثل في مجموعها مادة كتابه الجاسوس، ثم أعاد تلخيصها تلخيصاً وافياً في مقدمة كتابه «سر الليال» كما أشرنا من قبل. ومن هذا التلخيص يتبين لنا أن مآخذ الشدياق على المعاجم العربية وفي مقدمتها القاموس المحيط تتمثل فيما يلي:

1 ـ عدم اشتمال المعجم العربي على مادة لغوية تمثل أطوار اللغة العربية وعصورها المختلفة.
2 ـ الإبهام وعدم الوضوح في شرح المعنى المعجمي.
3 ـ سوء ترتيب المشتقات داخل المادة الواحدة وعدم ذكر أصل المشتقات على رأس المادة.

ولكنه آثر أن يفصل ويفرع فأخذ يذكر أمثلة لأخطاء كثيرة وقع فيها صاحب القاموس المحيط وغيره من أصحاب المعاجم العربية ولكن هذه الأخطاء تتصل في النهاية بواحد من الأمور الثلاثة السابقة.

غير أنه يعطى لمبدأ ترتيب المشتقات داخل المادة أهمية واضحة لأن عملية الترتيب عنده يتحقق بها غرضان هامان هما:

1 ـ سرعة الوصول إلى المعنى المراد.
2 ـ الوقوف على سر الوضع في العربية وبيان خصائصها[58].

فإذا تجاوزنا عن مسألة «سر الوضع» هذه لأنها ليست من مهام المعاجم

(56) المصدر السابق ص6.
(57) المصدر السابق ص7 - 8.
(58) المصدر السابق ص 27.

أو أهدافها وجدنا أن اهتمام الشدياق ينصب على أربعة مبادىء أو موضوعات أساسية في فن صناعة المعاجم بل هي محور اهتمام هذا الفن وأصوله وهي :

1 ـ مادة المعجم.
2 ـ ترتيب المداخل.
3 ـ ترتيب المشتقات داخل كل مادة.
4 ـ شرح المعنى المعجمي[59].

وهي موضوعات تداخلت وتوزعت في كتابات الشدياق المختلفة حتى داخل كتابيه «الجاسوس» و «سر الليال». وفيما يلي سنتناول كل موضوع منها وفق الترتيب المشار إليه .

أولاً ـ مادة المعجم:

ونقصد بمادة المعجم الألفاظ التي يقوم المعجمي بجمعها وترتيبها وشرح دلالاتها، وهذه المادة تختلف من معجم إلى معجم تبعاً للغرض الذي يوضع من أجله ولذلك تعددت أنواع المعاجم واختلفت باختلاف مادتها والهدف منها، فهناك المعاجم الموسوعية Encyclopedic dictionaries والمعاجم اللغوية Linguistic Dictionaries والمعاجم التاريخية الاشتقاقية Historical and Etymological والمعاجم الوصفية (الآنية) Synchronic والمعاجم الخاصة والعامة التي قد تتناول دائرة محددة من الاستعمالات أو دائرة عامة والمعاجم الأحادية اللغة Monolingual والمعاجم الثنائية اللغة Bilingual والمعاجم الموضوعية أو معاجم المعاني[60].

ويرى الدكتور حسن ظاظا أن المعجم الثنائي اللغة هو أول المعاجم ظهوراً في تاريخ الإنسانية إذ الأصل أن المتكلّم بلغته القومية لا يحتاج إلى

(59) راجع: Zgusta, Op. Cit., P. 240
(60) Ibid., PP. 198 - 213
وانظر أيضاً د. حسن ظاظا «كلام العرب» ص 124 - 127.

شرح لفظ أو بيان معنى كلمة ما، وإنما قد يحتاج إلى معرفة معنى لفظ في لغة غير لغته القومية، ولذلك كان المعجم الثنائي اللغة من أقدم المعاجم التي عثر عليها في الحضارات القديمة وبخاصة في الحضارتين السّومريّة والأكادية[61]. ثم يأتي بعد ذلك سبب آخر للتفكير في وضع المعجم الأحادي اللغة، أي المعاجم التي تشرح دلالات اللغة القومية لأبنائها وخاصة بالنسبة للاستعمالات النادرة أو الغريبة داخل اللغة القومية، لأن اللغة عادة ما تورث من جيل إلى جيل كما يورث بقية التراث الفكري والحضاري لهذه اللغة. وخلال المسيرة الطويلة التي قد تقطعها لغة ما، يحدث أن تختفي بعض الكلمات من الاستعمال أو من ذاكرة المتكلمين بهذه اللغة لأسباب كثيرة. وعندما يطلع الأبناء على ما خلفه الآباء يجدون ألفاظاً من هذا النوع لا يفهمون مدلولها ولذلك تدعو الحاجة إلى وضع معجم يشرح مثل هذه الألفاظ، يضاف إلى ذلك أن ذاكرة ابن اللغة لا تستوعب إلاّ عدداً محدوداً من مفردات الثروة اللفظية فليس غريباً أن يصادف عند السماع أو القراءة كلمات مستعملة في لغة لا يعرف معناها بدقة ووضوح.

ومعنى هذا أن الوظيفة الأساسية للمعجم كانت في الأصل وظيفة دعت إليها حاجات عملية وهي إما لبيان مقابل لفظه من لغة بلفظه في لغة أخرى، أو شرح دلالة لفظه في اللغة القومية ولم يكن مبدأ «حفظ اللغة» هو الدافع الأول لعمل ووضع المعاجم، ولكن تصور علماء اللغة العربية القدماء غلب وظيفة الحفظ على وظيفة الاستعمال لأسباب تاريخية ولغوية تتلخص في مبدأ تنقية اللغة العربية صوتياً وصرفياً ونحوياً ومعجمياً مما أصابها على ألسنة المتكلمين بها من غير العرب سواء ممن دخلوا الإسلام عشية الفتح الإسلامي وتطلعوا إلى لغة الدين الجديد أو ممن ظلوا على دينهم وتطلعوا إلى لغة السلطة الجديدة، ولذلك حرص علماء المعاجم العربية تطبيقاً لمبدأ التنقية على أن تكون مادة المعجم العربي من الألفاظ عربية أعرابيّة أي مما استعمله

(61) د. حسن ظاظا ـ المرجع السابق ص 123.

العرب الخلص دون غيرهم، ومن ثم أهدروا كل استعمال لم تنطق به العرب الخلص في الحواضر إلى نهاية القرن الثاني الهجري، وفي البوادي إلى نهاية القرن الرابع فيما عرف عند علماء العربية بالاحتجاج[62].

ولكن المتتبع لتطور اللغة العربية يلحظ أن هذه اللغة قد بلغت مع نهاية القرن الرابع الهجري قمة نموها في الوقت الذي بلغت فيه الحضارة الإسلامية من علوم وفنون وآداب ذروتها، وكانت العربية طوال هذه القرون تواكب التطور الحضاري وتسير معه جنباً إلى جنب رغم الرقابة الصارمة التي فرضها علماء اللغة، فخلفت ثروة هائلة من الألفاظ والمصطلحات في شتى نواحي الحياة من علوم سياسية وفكرية وعسكرية ومال وإدارة وتجارة ناهيك بالفنون القولية والتّشكيلية. وبناءً على هذا النحو نستطيع أن نقسم مفردات اللغة العربية إلى مجموعتين كبيرتين:

1 ـ المجموعة الأولى وتتمثل في المفردات العربية البدوية المتمثلة في لغة الشعر الجاهلي والتي جمعها الرواة في صورة رسائل لغوية ذات موضوعات محددة مثل الرسائل التي جمعت عن المفردات المتصلة بالحيوان والنبات والحشرات وخلق الإنسان والمفردات النادرة وغريب القرآن والحديث ولغات القرآن وغيرها[63] وكل ذلك يمثل الرصيد الكلاسيكي للعربية كما كانت تستعمل في العصر الجاهلي وصدر الإسلام.

2 ـ المجموعة الثانية وتتمثل في المفردات والمصطلحات العلمية والحضارية التي أخذت تظهر مع تطور الحياة العربية من البداوة إلى الحضارة وشاعت في بيئات العامة والخاصة على السواء.

ولكن عندما بدأ علماء المعاجم في تنظيم هذه المادة اللغوية الضخمة

---

(62) حول آثار هذه النظرية على مادة المعجم العربي انظر: حلمي خليل، المولد في العربية ص 168 - 180 ط الثانية.

(63) راجع د. حسين نصار، المعجم العربي نشأته وتطوره ص 39 وما بعدها.

سيطر على أذهانهم مبدأ تنقية اللغة ومن ثم انصب جهدهم على جمع وتنظيم المجموعة الأولى من المفردات. ولعل تسمية الجوهري (ت 393هـ) معجمه بالصحاح أثر باق من آثار سيطرة هذا المبدأ.

وبذلك أخذ اللغويون وعلماء المعاجم موقفاً ثابتاً من المجموعة الثانية من المفردات التي كانت تمثل في الحقيقة الجزء الحي من اللغة كما كانت تمثل جزءاً غير يسير من الثروة اللفظية في العربية؛ وكان الاتجاه السائد بينهم هو استبعاد هذه المفردات من معاجمهم باعتبار أنها ألفاظ لم يستعملها العرب الخلّص أو ليس مما استعملته العرب. ولم يشذ سوى صاحب القاموس المحيط الذي حاول إدخال بعض هذه الألفاظ في معجمه ولكنه لم يسلم من ألسنة النقاد. وهكذا أصبحت المعاجم العربية القديمة لا تمثل حقيقة النمو اللغوي الذي بلغته العربية وإذا حدث وتسربت بعض الألفاظ من النوع الثاني إلى المعاجم طاردتها الرقابة بكلمة «مولد» أو «ليست من كلام العرب» ومن ثم أصبح مدار النقد المعجمي القديم وبعض الحديث في البيئات التقليدية يدور فيما يتصل عادة بمادة العجم العربي حول أصالة الكلمات أو عدم أصالتها.

وقد ظل الأمر على هذا المنوال حتى مطلع العصر الحديث عندما أحس المتكلمون بالعربية بأن المعجم اللغوي العربي لا يمثّل اللغة التي يستخدمونها، كما أن اتصالهم بالحضارة الغربية الحديثة ورغبتهم في مسايرتها في العلوم والفنون والآداب والمأكل والملبس والأدوات وغيرها أشعرتهم بحاجتهم إلى معجم جديد يدفع عنهم هذا الفيض من الكلمات الأجنبية الذي أخذ يغزو العربية في صورة هذه الحضارة الحديثة، ولذلك أخذوا ينظرون إلى المفردات العربية نظرة جديدة تجاوزت حدود الزمان والمكان والجنس التي تحكمت في مادة المعجم العربي القديم فشملت تلك النظرة المفردات العربية كلها بحثاً عن استعمالات عربية أو مولدة تؤدي عنهم جوانب من هذه الحضارة الوافدة.

وكان الشدياق واحداً من الرواد الذين رفضوا الحدود والقيود التي

وضعها علماء العربية القدماء على مادة المعجم العربي باسم الاحتجاج وحفظ اللغة ومن ثم نظر إلى المادة التي ينبغي أن يضمها المعجم نظرة شاملة ورأى أن المعجم ينبغي أيضاً أن يعد اللغة للاستعمال لا الحفظ فقط. يقول: «اعلم هداك الله ووفقك لما ارتضاه، أنّي كنت نويت أن أجعل مكان هذه الخاتمة نقداً يشتمل على ما فات صاحب القاموس من الألفاظ اللغوية الاصطلاحيَّة الفصيحة وكنت جمعت منها نحو خمسة كراريس مع مقدمة وازنت فيها بين العرب العاربة والعرب المولدين والغرض من ذلك الاحتجاج بكلام هؤلاء إذ كانوا متضلعين من العربية كجرير والفرزدق والأخطل وبشار ابن برد ومهيار الديلمي وأبي نواس وأبي تمام والبحتري والمتنبي وأبي فراس وأضرابهم، وأقمت عدة بينات من جملتها أن المولدين راعوا حق اللغة والتزموا قواعدها أكثر من العرب في الجاهلية لأنهم اعتقدوا أن اللغة وسيلة إلى فهم التنزيل والحديث الشريف، فبالغوا في ضبطها ما أمكن، وهذا أمر لم يخطر ببال العرب قط. فإذا كان المولدون قد جاؤا شيئاً مخالفاً للأصول والقواعد فإنما كان لعدم وقوفهم على نص فيه، أو لأنهم كانوا قادرين على تخريجه، بخلاف العرب العاربة فإنهم خالفوا تلك الأصول لعدم المبالاة ولهذا قيل ما جاز للعرب المتقدمين لم يجز للمتأخرين»[64].

والشدياق هنا يردد بصورة ما ما سبق أن قاله ابن جني في باب عَقَدَهُ في الخصائص عن أغلاط العرب لأنهم ليست لهم أصول يرجعون إليها ولا قوانين يعتصمون بها وإنما تهجم بهم طباعهم على ما ينطقون به فزاغوا عن القصد[65]. إلاّ أن الشدياق يتوسع في هذا بحيث يخرج به عن حدود مخالفة

(64) الجاسوس ص 520.

(65) الخصائص 3/ 273 وابن جني والشدياق قد جانبهم الصواب في هذا الحكم لأن القواعد والقوانين تابعة لاستعمالات ابن اللغة وليس العكس، ولذلك قال بعض علماء اللغة المحدثين إن كتاب النحو قد يصبح غير صالح للاستعمال فور الانتهاء من تأليفه لأن اللغة لا تنتظر النحوي حتى يضع قواعد ليتكلم الناس تبعاً لها، ومثل ذلك قالوا أيضاً في المعجم الذي يستغرق إعداده أعواماً طويلة ومن ثم قد تتغير كثير من الألفاظ والدلالات وخاصة في عصرنا الحاضر الّذي تلعب فيه الإذاعة المسموعة والمرئية والصحف والمجلات دوراً خطيراً

القواعد الصرفية والنحوية التي وقع فيها العرب العاربة ـ كما يزعم ـ لكي يعطى المولدين حق الوضع على مستوى المفردات لأن لهم قوانين تعصمهم من الخطأ. يقول: «أما قول العلماء إن كلام المولدين لا يحتج به فإنهم لم يبينوا معنى المولدين. فغاية ما قالوه في المولد أنه عربي غير محض، فإن كان المراد بذلك أنه الذي نشأ بعد الإسلام فهو محض تعنت لأن من هؤلاء المولدين من عاش قبل أن يعرف التأليف في اللغة فكيف يحكم على كلامهم بأنه لم يكن عربياً صحيحاً من دون كتب اللغة»[66].

والشدياق يشعر هنا بالخلط الذي وقع فيه القدماء بين المولدين من حيث هم جماعة بشرية وبين التوليد من حيث هو ظاهرة في كل اللغات تتصل بالتطور اللغوي خاصة على مستوى المفردات ودلالتها، ولذلك فإن الأحكام التي أصدرها القدماء على بعض الاستعمالات لم تكن أحكاماً دقيقة لعدم وجود مصادر بين أيديهم لمعرفة المولد من غيره واللوم في ذلك يقع على رواة اللغة في القرن الأول ـ كما يرى الشدياق ـ لأن جمعهم لمفرداتها لم يكن مستقصياً. «كان يجب على أهل القرن الأول عقب تشييد أركان الإسلام أن يقصدوا العرب في البادية ويستقروا قبائلهم قبيلة قبيلة وشعوبهم شعباً شعباً ويدونوا عنهم لغاتهم بالضبط والإتقان والترتيب»[67].

التوثيق إذن وعدم دقة الجمع والخلط بين المولد والمولدين هو السبب الأول لرفض الشدياق لنظرية الاحتجاج.

أما السبب الثاني الذي رفض من أجله الشدياق هذه النظرية وما ترتب عليها من آثار في مادة المعجم العربي فهو كما يقول:

«إنه لا يمكن أن يخطر ببال عاقل منصف أن الشاعر البليغ من هذه

في حركة الثّروة اللفظية ولذلك لا بد أن تكون هناك متابعة دائمة لاستعمالات أبناء اللغة وتلك مهمة المجامع اللغوية وغيرها من الهيئات المعنية بشؤون اللغة.

(66) الجاسوس ص 520.

(67) المصدر السابق ص 521.

الطبقة (يقصد طبقة المولدين من الشعراء) يخترع ألفاظاً ليس لها أصل في العربية. . . على أنه لو كان أحد من المولدين ألف كتاباً في اللغة لقبل لا محالة، فليس من الإنصاف أن تقبل روايته في اللغة ويرد كلامه في الشعر»[68].

وهكذا يرى الشدياق أن لغة الكتّاب والشعراء والعلماء، أي لغة الحضارة، لها الحق في الدخول إلى حرم المعجم العربي على قدم المساواة مع لغة الشعر الجاهلي وصدر الإسلام، وهي نظرة تنبع من إدراك لطبيعة التطور اللغوي، لأن المفردات الجديدة التي عرفها الكتاب والشعراء والعلماء إنما وجدت لعدم وجود مرادف أو مقابل لها في اللغة أو كما يقول «فصارت من هذا القبيل جزءاً ضرورياً منها، كيف لا والذين اصطلحوا عليها كانوا أئمة ورعين فلو لم يروا لزوماً ما تداولوها»[69].

وكان شعور الشدياق بضرورة إدخال هذه المفردات التي جرت في حياة العربية وخاصة في عصور ازدهارها في العصر العباسي نابعاً من وعي بحاجة مادة المعجم العربي إلى الشمول لكي تستجيب للمقتضيات الفكرية والحضارية التي شاهدها في أوربا وانعكست في المعاجم اللغوية التي اطلع عليها. ولم يقف جهد الشدياق في هذا الصدد عند حدود الدعوة النظرية بل اتخذ خطوات عملية في هذا السبيل فقام بوضع العديد من الألفاظ التي رأى أن العربية تحتاج إليها في التعبير عن بعض مظاهر الحضارة الحديثة، كما سنرى ذلك في القسم الثالث والأخير من هذا البحث.

ثانياً ـ ترتيب المداخل:

المدخل Entry هو عبارة عن الوحدة اللغوية التي ستوضع تحتها بقية الوحدات اللغوية الأخرى أو المشتقات[70]؛ وهو في اللغة العربية واللغات

(68) المصدر السابق ص 520.

(69) الجاسوس ص 345.

(70) Zgusta, Op. Cit., P. 240

الاشتقاقية يتكوّن غالباً من الحروف التي تكوّن البنية الأساسية الثابتة للكلمات والمشتقات أي الجذرRoot وهو غالباً ما يتكوّن في اللغة العربية واللغات السامية من حروف صامتة Consonants أما في غير العربية فقد يتكوّن من صوامت وصوائت Vowels.

وغالباً ما تلتزم المعاجم بالترتيب الألفبائي Alphabetical Sequence سواء على مستوى المدخل الواحد أو على مستوى مداخل المعجم كلها [71]، ولكن المعاجم العربية شهدت أنواعاً وطرقاً أخرى من ترتيب المداخل غير هذا الترتيب.

ولكي يحدد الشدياق الطريقة المثلى في ترتيب المداخل يأخذ في دراسة طرق الترتيب المختلفة التي ابتدعها علماء المعاجم العربية على مر العصور مبنياً مميزات كل طريقة وعيوبها فبدأ أولاً بمدرسة الترتيب المخرجي وهي المدرَسة التي وضع أصولها الخيل بن أحمد (175هـ) في كتاب «العين» حينما رتّب المداخل تبعاً لمخارجها من جهاز النطق مبتدئاً بأقصاها مخرجاً في الحلق وهو صوت العين ـ كما تصوّر ـ ومنتهياً بما يخرج من الشفتين وهو الميم فاستقام له ترتيب أصوات العربية أو الصوامت على النحو التالي: ع خ هـ غ ـ ق ك ـ ح ش ض ـ ص س ز ـ ط ر ت ظ ذ ث ـ ر ل ن ـ ف ب م، ثم حروف المد واللين أو الحركات الطويلة أ و ي[72].

وقد أخذ الخليل من هذا الترتيب المخرجي أساساً لترتيب المداخل أولاً على مستوى المدخل الواحد ثم على مستوى المعجم، ولذلك قسم معجمه إلى كتب، جمع مادة كل كتاب منها تحت حرف من هذه الحروف حسب ترتيبها السابق، وسمى كل كتاب باسم الحرف الذي يبدأ به فبدأ بكتاب العين ثم كتاب الحاء ثم كتاب الهاء وهكذا وتحت كل مدخل بدأ

---

(71) Ibid., P. 280

(72) الجاسوس ص 23، وانظر أيضاً كتاب العين ص 65.

بالثنائي ثم الثلاثي الصحيح ثم الثلاثي المعتل ثم اللّفيف ثم الرباعي والخماسي مع مقلوباتها[73].

وقد مثل الشدياق لهذه المدرسة بعد كتاب العين بمعجم «الجمهرة» لإبن دريد (ت 321 هـ) ويحكم على هذه المدرسة بأن البحث في معاجمها «صعب جداً لأنك إذا أردت أن تبحث مثلاً عن لفظة «رقب» لم تدر هل هي الأصل فتبحث عنها في الراء أو مقلوبه عن «قرب» فتبحث عنها في القاف أو عن برق، وما بين هذه الحروف مسافة بعيدة» ثم يقول بعد ذلك: «وكل منها عسر المهلك ومنهل وعسر المسلك، كأن واضعها شرع للناس مورداً عذباً وحلأهم هنه، وارتاد لهم مرتعاً قريباً ومنعهم منه، قد أخر وقدم، وقصد أن يعرّف فأعجم فرق الذهن بين الثنائي والمضاعف والمقلوب، وبعد الفكر باللفيف والمعتل والرباعي والخماسي فضاع المطلوب. وليس لذلك سبب إلّا سوء الترتيب وتخليط التفصيل والتبويب»[74].

ثم ينتقل بعد ذلك إلى ترتيب المداخل حسب أوائلها وأواخرها، ومثل لهذا الاتجاه بصحاح الجوهري (ت 393هـ) وهو رأس المدرسة ثم اللسان لابن منظور (ت 711هـ) ثم القاموس المحيط للفيروز ابادي (ت 807هـ) فيرى أن هذا الترتيب «مسهل للمطلوب وخصوصاً جمع القوافي إلّا أنه فاصل لتناسق معانيها وموار لأسرار وضعها ومبانيها... وفيه مع ذلك إجحاف بأحرف الكلمة»[75].

ثم ينتهي إلى مدرسة الترتيب الألف بائي ومثل لها بأساس البلاغة للزمخشري (ت 538هـ) والمصباح المنير للفيومي (ت 770هـ) وهذه المدرسة عنده أفضل المدارس الثلاث ترتيباً. يقول: «فالأولى عندي ترتيب الأساس للزمخشري والمصباح للفيومي، أعني مراعاة أوائل الألفاظ دون أواخرها...

(73) راجع كتاب العين ص 45.
(74) الجاسوس ص23.
(75) الجاسوس 26.

فهذا النسق أعني ترتيب الكلام من دون مراعاة أواخره هو الذي يظهر حكمة وضع الواضع»[76].

وحكمة الواضع عند الشدياق ـ كما رأينا من قبل ـ تتمثل في حكاية الصوت، ولكنه يقدم سبباً آخر لتفضيله الترتيب الألف بائي لأن معظم معاجم اللغات الأخرى تلتزم هذه الترتيب. يقول: «وعلى هذا النسق رتّب اليونانيون والرومانيون والسريان والإفرنج كتب لغتهم فإن نسق حروف الهجاء عندهم الألف ثم الباء»[77].

وهكذا يختار الشدياق الترتيب الألفبائي بعد دراسة لطرق ترتيب المعاجم العربية والأجنبية ومن ثم يلزم في عمله التطبيقي في «سر الليالي» بهذها الترتيب.

ثالثاً ـ ترتيب المشتقات:

ويتمثل في وضع الكلمات والمشتقات تحت المدخل أيها يأتي أولاً وأيها يأتي ثانياً، وإذا كانت المعاجم العربية القديمة قد اختلفت في ترتيب المداخل على النحو الذي عرض له الشدياق وعرضنا له، فإن الاختلاف بل الاضطراب أو تشتيت المشتقات ـ كما يقول الشدياق ـ[78] تحت المدخل الواحد، كان أشد وأعظم بحيث يصعب على الباحث أن يجد منهجاً واضحاً اتّبعه علماء المعاجم القدماء في سرد الكلمات والمشتقات داخل المادة الواحدة، فقد يبدأ المعجمي بعد المدخل بذكر الفعل أو الاسم أو الصفة، وقد يبدأ بالأفعال الرباعية قبل الثلاثية وقد يقدم المجاز على الحقيقة وقد يتكرر ذكر المشتق في أكثر من موضع وقد يختلط المتعدي باللازم وقد يأتي الجمع قبل المفرد، وقد تذكر الكلمات المعربة والدخيلة في مداخل مستقلة وأحياناً تذكر مع المداخل العربية الأصل.

(76) المصدر السابق 26 - 27.

(77) المصدر السابق ص 25.

(78) المصدر السابق ص 275.

ويبدو أن هذا الداء قديم يرجع إلى الطريقة والمنهج اللذين تم بهما جمع مادة المعجم فلم يسلم منه معجم، وهو ما لحظه الشدياق، كما لحظه كل من تصدى لدراسة المعاجم العربية[79]؛ غير أن الشدياق كان أشدهم استقصاء لهذا الخلل يقول: «إن من أعظم الخلل وأشهر الزلل في كتب اللغة جميعاً قديمها وحديثها ومطولها ومختصرها متونها وشروحها وتعليقاتها وحواشيها، خلط الأفعال الثلاثية بالأفعال الرباعية والخماسية والسداسية، وخلط مشتقاتها، فربما رأيت فيها الفعل الخماسي والسداسي قبل الثلاثي والرباعي، أو رأيت أحد معاني الفعل في أول المادة وباقي معانيه في آخرها، ففي مادة «عرض» التي هي في القاموس[80]أكثر المواد اشتقاقاً وتشعباً ذكر الجوهري المعارضة التي بمعنى المقابلة بعد المعارضة التي بمعنى المجانبة بثلاثة وثلاثين سطراً. وصاحب القاموس أورد[81]: احتمل الصنيعة أي تقلدها في أول المادة ثم احتمل أي اشترى الحميل للشيء المحمول من بلد إلى بلد في آخرها وبينهما أكثر من ثلاثين سطراً، والشارح أورد في تاج العروس اختلج بمعنى تحرك بعد اختلج بمعنى نكح بنحو ستة وخمسين سطراً»[82] وبناء على ذلك الاضطراب في تنسيق الكلمات يقدم الشدياق نصحه لمستعملي المعاجم العربية يقول: «ولهذا أنصح مطالعي كتب اللغة أن لا يقتصروا على فهم اللفظ في موضع واحد بل لا بد لهم أن يطالعوا المادة من أولها إلى آخرها. لا جرم أن هذا التخليط والتشويش في ذكر الألفاظ ليذهب بصبر المطالع ويحرمه من الفوز بالمطلوب فيعود حائراً بائراً»[83].

ولأن المعجم ليس لحفظ اللغة بل لاستعمالها فإن الشدياق يفرّق بين

---

(79) انظر د. حسين نصار، المعجم العربي نشأته وتطوره 2/ 747 وما بعدها. وانظر: Haywood, Op. Cit., P. 82.

(80) لعله يقصد بالقاموس المعجم بصورة عامة كما سيتضح من سياق الكلام بعد ذلك.

(81) يقصد أورد في مادة ح م ل.

(82) الجاسوس ص10.

(83) المصدر السابق، نفس الصفحة.

الجمع والترتيب من أجل وضع المعجم والجمع بلا هدف أو ترتيب. يقول: «إن من مستلزمات الجمع أي جمع كان الترتيب والنظام ووضع كل شيء في محله»[84]. وانطلاقاً من هذا الفهم لفلسفة الترتيب يقترح الشدياق الالتزام بطريقة الصرفيين في ترتيب المشتقات وذلك على النحو التالي:

1 ـ وضع الفعل الثلاثي ومشتقاته في أول المادة بعد المدخل.
2 ـ وضع الفعل الرباعي ومشتقاته في وسطها.
3 ـ وضع الخماسي والسداسي ومشتقاتها في آخرها.

ولا بأس ـ كما يقول ـ من استخدام الأرقام حيال المواد الغزيرة المشتقات فيوضع رقم «3» مقابل الفعل الثلاثي ورقم «4» قبالة الفعل الرباعي وهكذا[85].

وعندما يقترح الشدياق وضع الفعل سواء كان ثلاثياً أو رباعياً أو أكثر من ذلك، في أول المادة، يعطى أولوية للدلالات الحسية على الدلالات غير الحسية أو المجردة وهو بذلك يفسّر معنى ما يقصده من اتخاذ ترتيب الصرفيين الذي قد يفهم منه أن المصدر يأتي أولاً إذ هو أصل المشتقات عند البصريين في حين يرى الكوفيون أن الفعل هو أصل المشتقات[86]. وهذا الخلاف هو أحد الأسباب التي أدت إلى سوء الترتيب وتشتيت المشتقات داخل المادة، ولذلك حرص الشدياق على تفسير ما يقصده بتقدم الفعل، إذ الفعل عنده ليس أصلاً للمشتقات، وإنما يمثل الأصل الحسي أو المعنى المعجمي للمادة، ويظهر ذلك بوضوح عندما بدأ في عرض نظريته في أصل المعنى المعجمي. يقول: «إن الأمور المعنوية أو العقلية مأخوذة من الأشياء الحسية وذلك موجود في جميع اللغات، إن الحواس الظاهرة هي التي تبعث الحواس الباطنة على التفكير والتخيل... فالعقل مأخوذ من عقلت البعير

---

(84) المصدر السابق ص 11.

(85) المصدر السابق، نفس الصفحة.

(86) راجع الأنباري، الإنصاف في مسائل الخلاف 1/ 129 - 137.

والحكمة من حكمة اللجام والذكاء لتوقد الذهن من ذكاء النار»[87].

ولكن هل معنى تقدم الحسي على المعنوي وتقدم الفعل على الاسم وهو الترتيب الذي يراه الشدياق، أنه كان يعتقد ـ كما اعتقد الكوفيون من قبل ـ أن الفعل هو أصل المشتقات ومن ثم حرص على وضعه في صدر المادة ؟

الحقيقة أن الشدياق عندما أخذ في تطبيق مبدأ ترتيب المشتقات داخل المادة في معجمه «سر اللّيال» بدأ بالاصل الثنائي وفق نظريته في أصل المعنى المعجمي فجعل المدخل لهذا الأصل رمزاً لهذا المعنى وهو ما يرجح أن الشدياق لم يكن يؤمن بأن المصدر أصل أو حتى الفعل وإنما كان يرى أن الجذر أو المدخل هو الذي يرمز إلى المعنى المعجمي ولذلك حرص على بيان ترتيب الجذور أو المداخل فأشار إلى أنه بدأ بالمضاعف ثم الأجوف الواوي ثم اليائي ثم المهموز، فإذا لم يكن المضاعف بدأ بالأجوف وإذا لم يكن الأجوف بدأ بالمهموز[88]، أما السبب الذي جعله يبدأ بالمضاعف فهو إيمانه «بحكاية الصوت».

ومعنى هذا أن تصور الشدياق لترتيب المشتقات قائم على مبدأ أن الجذر هو المدخل الطبيعي الذي يرتب ترتيبا ألفبائياً على مستوى المعجم ثم ترتيب المشتقات داخل المادة من حيث البدء بالمعنى الحسي المتمثل في الفعل. ويؤكد ذلك كثرة استخدام الشدياق للجذر في الإشارة إلى المشتقات التي كان يناقش فيها صاحب القاموس[89]. ومعنى هذا أيضاً أن استخدام الشدياق للجذر يحل ذلك الخلاف الذي نشب بين علماء العربية القدماء حول أصل المشتقات وبناء على ذلك فإن المصدر عند الشدياق يأتي في الترتيب بعد الأفعال، أي ان المصدر مشتق لأن صيغته هي إحدى الصيغ

---

(87) سر الليالي ص11.

(88) المصدر السابق ص 207.

(89) انظر على سبيل المثال، المصدر السابق ، صفحات 13 ,14 15.

التي يتقلب عليها الجذر، وكذلك يتعيّن أن يكون الفعل الماضي مشتقاً متصرفاً وليس أصلاً للمشتقات، وبذلك يكون الشدياق قد «رد كل فرع إلى أصله ونسق معاني المادة نسقاً يبيّن مأخذها وعلاقتها ومناسبتها»[90].

رابعاً ـ شرح المعنى المعجمي:

يستخدم الشدياق مصطلح «التعريب» ليدل بـه على شرح المعنى المعجمي، كما يستخدم مصطلح «الإبهام» للدّلالة على غموض الشرح. ولكن هذا المصطلح الأخير كثيراً ما يدل عنده على أمرين:

1 ـ الإبهام في التعريب أي الشرح ويقصد به غموض شرح المفردات سواء في عبارة المعجمي نفسه أو نتيجة لاستخدامه ألفاظاً تحتاج هي نفسها إلـى شرح فيما يطلق عليه الشدياق الشرح الدوري أو التسلسلي.

2 ـ الخطأ في ذكر المشتقات أو عدم ترتيبها أو ذكر بعضها دون بعض.

وحول هذين الأمرين يدور معظم نقد الشدياق حيث يقدم نماذج وأمثلة متعددة على هذا الإبهام، ذلك لأنه يرى ـ ويتفق معه في ذلك علمـاء المعاجم ـ أن الشرح أو التعريب هو مهمة المعجم الأولى التي وضع من أجلها ومن ثم لا بدّ أن يكون دقيقاً واضحاً لا لبس ولا غموض فيه أي كما يقول الشدياق: «ينبغي أن يكون المعجم واضح التعاريف»[91] وإلّا انتفت وظيفة المعجم الأولى من حيث هو المصدر الذي يعتمد عليه في معرفة الدلالات.

وبناء على هذا الفهم لوظيفة الشرح يتتبع الشدياق بالتفصيل مظاهر الغموض المختلفة التي وجدها في المعاجم العربية القديمة، وهو بهذا التتبع

---

(90) المصدر السابق ص13.

(91) انظر على سبيل المثال، الجاسوس، النقد الثالث ص 188 - 213 . والنقد الثالث عشر ص 302، وانظر ملخصاً وافياً لكل ما أخذه الشدياق على القاموس المحيط والمعاجم العربية من غموض الشرح وأنواعه في سر اللّيال ص 13 - 21.

يشير بطريق غير مباشر إلى ما ينبغي أن يكون عليه شرح المعجم لدلالات المفردات والكلمات. وعلى الرغم من أن علماء المعاجم حديثاً يرون أن شرح المعنى المعجمي من أشق المهام التي يقوم بها المعجمي وأكثرها دقة[92]، إلّا أننا نستطيع من خلال الملاحظات التي ذكرها الشدياق أن نعتبر أَنَّ الشرح الأمثل للمعنى كما تصوره الشدياق هو ما تتوافر فيه الشروط الآتية :

1 ـ إحكام ضبط نطق الكلمة إما على مثال أو بالنص على حركاتها لأن عدم الضبط قد يؤدي إلى لبس في الدلالة.
2 ـ ذكر الشائع المشهور من المعاني دون المهجور.
3 ـ ذكر المعاني الأصلية قبل المعاني المجازية.
4 ـ عدم استخدام كلمات لم يسبق شرحها في تعريف المعنى.
5 ـ عدم استخدام التعريف الدوري أو التسلسلي مثل «باحة الدار ساحتها، وساحة الدار باحتها».
6 ـ عدم تشتيت المعنى فيما يتصل بالثلاثي ومزيده.
7 ـ الالتزام بذكر معنى المفرد أولاً ثم الجمع بصورة مطردة.
8 ـ التمييز بين دلالة الفعل الذي يتعدى بنفسه والفعل الذي يتعدى بالحرف.
9 ـ التميز بين الأفعال والصفات والأسماء.
01 ـ التقليل من ذكر الشواهد إلّا مع الكلمات النادرة الاستعمال.

وقد استفاد المعجميون العرب من انتقادات الشدياق للمعاجم العربية القديمة وخاصة في شرحها للمعنى المعجمي فحاول كثير منهم وضع معاجم عربية حديثة خالية من هذه العيوب ملتزمة بالشرح الأمثل الذي تصوره الشدياق[93].

---

(92) مقدمة الجاسوس ص 3 - 2، وانظر أيضاً: Zgusta, Op. Cit., P. 21, P. 252 - 254.

(93) راجع مقدمة المعجم الوسيط ص 13 - 15. وانظر أيضاً: د. حسين نصار المعجم العربي نشأته وتطوره ص 770 - 774.

3 ـ الشدياق وتنمية المادة المعجمية:

لعل المعجمي دون بقية علماء اللغة هو القادر حقاً على معرفة طبيعة الثروة اللفظية في إطار اللغة التي يعمل من خلالها. فالمعجم في نهاية الأمر هو صورة لحضارة الأمة تتطور مادته بتطور الحضارة التي تستخدم هذه المادة اللغوية ممثلة في الثروة اللفظية. وهذا التأثير المتبادل بين تطور حياة أمة من الأمم والثروة اللفظية التي في معاجمها نراه واضحاً في اللغات التي عاشت قروناً طويلة وتعاقبت عليها حضارات متعددة مثل اللغة العربية، فقد درجت هذه اللغة مع أسلافنا منذ قديم الزمان وسايرتهم في حضارتهم واتسعت فيه وتمت لكل ما أرادوها عليه ولكن المادة المعجمية الموجودة في المعاجم العربية القديمة لا تعكس هذا التطور في الثروة اللفظية وإنما أراد لها المعجميون واللغويون القدماء أن تقف عند حدود زمانية ومكانية لا تتخطّاها فأصبح المعجم القديم لا يعكس هذه الحضارة التي تقلبت فيها العربية.

وفجأة وجدت العربية نفسها أمام حضارة أخرى ذات ألوان مختلفة لم تنبت في أرضها أو بيئتها بحيث نخرج وعليها طابع هذه اللغة ووسمها، وقد انحدرت هذه الحضارة منذ مطلع العصر الحديث بأسمائها وألفاظها الأعجمية بحيث عجزت المادة المعجميَّة أو الثروة اللفظية عن التصدي لها بمفردات عربية تعبر عن هذه العلوم والفنون الحديثة. ويصوّر ذلك أصدق تصوير ما كتبه إبراهيم اليازجي (ت 1906م) عام 1900م في مجلة «الضياء» مطالباً بتنمية اللغة العربية فقال: «إذا نظرنا إلى حال الأمة العربية في هذا القرن وما انتشر فيها من التّمدّن الغربي، وجدنا أنها قد أفضت إلى حال انتقلت فيها عن أفقها دفعة واحدة، وهجمت على تمدن فجائي قد نبت في غير أرضها. فوجدت بين أيديها من أنواع الملبس والمفرش والماعون وأدوات الترف والزينة ومصطلحات العلم والتجارة والصناعة والسياسية وفنون الأحاديث والتصورات وغير ذلك، ما هو مباين لما عندها وأصبح الكاتب فيها مضطراً إلى وضع مئات بل آلاف من الأسماء التي لا يجد دريفاً في لسانه... فإذا

لم نبادر إلى سن طرق يمكن بها وضع ألفاظ لهذه المستحدثات أو سبك ألفاظها في قالب عربي لا تتشوه به هيئة اللغة لم نلبث أن نرى الأقلام قد تقيدت عن الكتابة في هذه الأمور البتة أو أصبح أكثر اللغة أعجمياً»[94].

ولذا كان الشعور السائد أمام هذا الفيض الأعجمي هو عجز اللغة عن الوفاء بمطالب العلوم والفنون الحديثة، وقد شاعت هذه المقالة شيوعاً جعل الشدياق يتصدى للدفاع عن العربية محاولاً إثبات قدرتها على مسايرة الحياة والتطور، ولكن دفاع الشدياق كان يتجاوز أحياناً العلم وموضوعيته إلى نوع من العشق الذي لا يرى في المعشوق غير الكمال المطلق[95] ولكنه رغم ذلك يشخص الداء فيرى أن القصور ليس في اللغة وإنما في أبنائها قدماء ومحدثين.

أما القدماء فلانهم قد سارعوا إلى رد بعض الألفاظ العربية الأصل - في رأيه - إلى اللغات الأجنبية دون تحقيق أو تمحيص[96] وأما المحدثون فلأنهم يتهالكون على اللغات الأجنبية يتحدثون بها ويتعاملون من خلالها حتى زاحمت اللسان العربي، فكاد تُجلي عنه أهله وتحجب عنهم ظله[97].

وعلى الرغم من إيمان الشدياق المطلق بكمال اللغة العربية وأفضليتها على اللغات الأخرى، فإنه كان يعرف أيضاً أن اللغة ظاهرة اجتماعية وأنها لم تنشأ دفعة واحدة وإنما تنمو وتتطور كما تنمو وتتطور سائر الظواهر الاجتماعية الأخرى. يقول: «إن اللغة كغيرها من الصنائع والموضوعات البشرية لا يحدث شيء منها تاماً كاملاً من أول وهلة ولكن على التدرج»[98]. ومن هذا الإيمان

---

(94) انظر مجلة الضياء، أبريل عام 1900م ص 449 - 450.

(95) انظر على سبيل المثال حديثه عن العربية وكمالها وأفضليتها على كل اللغات في:

1 ـ سر اللّيال ص 2 - 3.

2 ـ كنز الرغائب 1/ 205.

(96) كنزل الرغائب 1/ 190.

(97) الجاسوس ص3.

(98) سرّ اللّيال ص 25.

بالنمو والتطور يقر الشدياق حق المتكلمين بالعربية في تنمية الثروة اللفظية بوضع كلمات جديدة وضمها إلى المادة المعجمية وبهذا النمو تستطيع العربية أن تعبر عن حاجات وأشياء وأفكار لم تكن موجودة من قبل وهو ما صنعه علماء العصر العباسي شريطة أن يكون هذا الوضع على سنن العربية في صوغ الألفاظ. يقول: «لو أن العرب الأولين شاهدوا البواخر وسكك الحديد وأسلاك التلغراف والغاز والبوسطة ونحو ذلك مما اخترعه الإفرنج لوضعوا له أسماء خاصة ناصة فهم على ذلك غير ملومين وإنما اللوم علينا حالة كوننا قد ورثنا لغتهم وشاهدنا هذه الأمور بأعيننا ولم نتنبه لوضع أسماء لها على النسق الذي ألفه العرب في الاختصار والإيجاز، أفيظن أحد أن لفظة المشير والسفير والوالي والمتصرف والمدير ومجلس الشورى لا ينبغي أن تعد من الألفاظ العربية لأنها لم تكن معروفة للدولة العباسية، فإذا برأ أحد تلك الدولة لعدم اتخاذها هذه الألفاظ إذ الحاجة لم تمسّ إليها لم يكن له أن يلوم دولة أخرى على اتخاذها مع وجود الحاجة فقس عليها غيرها»[99].

وبرغم أن العربية قد عرفت الوالي والتصرف في العصر العباسي، إلّا أن ملاحظة الشدياق تبقى لها أهميتها من حيث هي إقرار بأن اللغة ملك للمتكلمين بها ومن حقهم التصرف فيها وفق احتياجاتهم وهي فكرة تختلف عما استقر عليه الفكر اللغوي عند أصحاب المعاجم القدماء الذين آمنوا بأن المعجم ما هو إلّا خزانة لحفظ اللغة التي استعملها العرب الخلص في العصر الجاهلي وصدر الاسلام وكل ما زاد على ذلك فهو من كلام المولدين الذين لا يعتد بعربيتهم ولا يسمح لها بدخول حرم المعاجم اللغوية وإذا تسرّبت كلمة وصمت بأنها من غير كلام العرب أو مولدة أو محدثة أو غير ذلك من مصطلحات تحذر من استخدام هذه الكلمات أكثر من التنبيه على مجرد اختلافها عن العربية القديمة ولذلك نرى الشدياق يلح على أهمية الاعتداد بكلام المولدين والاعتراف به من حيث هو جزء من الاستعمال كما

---

(99) كنز الرغائب 1/ 205.

انتهت إليه العربية في عصورهم[100] ولـذلك كـانت قضية تنميـة المادة المعجمية من بين هموم الشدياق اللغوية التي حاول عن طريقها حل جزء من أزمة اللغة في مواجهة الحضارة الحديثة ومن ثم كتب كثيراً عن الطرق والوسائل اللغوية التي يمكن بواسطتها القيام بهذه التنمية بل لقد شرع في وضع ألفاظ جديدة من خلال كتاباته حتى تحل محل الألفاظ الأعجمية التي كان كثير الشكوى من تسربها إلى العربية.

ومن خلال كتابات الشدياق حول ذلك نستطيع أن نرصد الطرق التي اعتمدها في إمداد العربية بحاجتها من الألفاظ فيما يلي:

1 ـ **التوليد**: وذلك عن طريق تغير دلالات بعض الكلمات القديمة إلى دلالات أخرى مثل الهاتف والتليفون والمذياع للراديو والسيارة للأتومبيل والبرق للتّلغراف. وقد استغل الشدياق هذه الوسيلة في وضع كثير من الكلمات الجديدة بينها في مؤلفاتها مثل «الواسطة في معرفة أحوال مالطة» و«كشف المخبا عن فنون أوربا» كما سنرى من بعض الأمثلة التي سنذكرها فيما بعد.

2 ـ **الاشتقاق**: وكان الشدياق يراه وسيلة أخرى من وسائل تنمية المادة المعجمية فَصِيَغُ اسم الآلة واسم المكان وغيرها من الصيغ والأوزان العربية قادرة على إمداد اللغة بكلمات جديدة من خلال أصول عربية وفي ذلك يقول:

«إن أكثر هذه الأسماء (يقصد الأسماء الأعجمية) هو من قبيل إسم المكان أو الآلة، وصوغ إسم المكان أو الآلة في العربية مطرد من كل فعل ثلاثي، فما الحاجة إلى أن تقول فبريقه أو كارخانه ولا تقول معمل أو مصنع أو تقول بيمارستان ولا تقول مستشفى أو تقول ديوان ولا تقول مأمر أو تقول اسطرلاب ولا تقول منظر»[101].

---

(100) راجع الجاسوس 520.

(101) كنز الرغائب 1/ 202.

ومعنى هذا أن الشدياق يرى في الاشتقاق وسيلة من وسائل تنمية مادة المعجم العربي ينبغي أن تستغل بدلاً من استعمال الألفاظ الأجنبية. ولكن الاشتقاق كما نعلم تحكمه علاقة عضوية بالصيغ والأوزان حتى أننا لا نكاد نظفر بكلمات جديدة إلّا في حدود الصيغ المعروفة. ولكن هذا الجمود الظاهري يعوضه أحياناً دلالة الصيغة الواحدة على معان متعددة فمثلاً وزن «فعيل» قد يدلّ أصلاً على الصفة الثابتة مثل كريم وبخيل وشريف وخبير ولكنه قد يدل أيضاً على الصوت مثل زئير وعويل؛ ووزن «فِعال» يدل على مصادر مثل قتال وسياق ولكنه أيضاً يدل على آلات وأدوات مثل إناء وحزام وشعار ودثار ورداء وغطاء كما يدل أيضاً على جمع فعيل ومن كرام وطوال وهكذا. وكل هذا يعطي هذه الصيغ التي قد تبدو لنا ثابتة ومحددة نوعاً من التجدد والحيوية ينبغي أن تستغل في وضع ألفاظ جديدة، يضاف إلى ذلك استغلال الصيغ الجديدة التي قد تظهر على ألسنة المتكلمين مثل الصيغة الناشئة من إضافة الألف والنون مع ياء النسب مثل روحاني وجسماني وهي صيغة جديدة لم تضف بعد إلى صيغ العربية وكذلك صيغة المصدر الصناعي التي أمدت العربية بكثير من الألفاظ والكلمات وهي صيغة جديدة لم تعرفها العربية القديمة إلّا نادراً.

وبذلك يكون الاشتقاق سواء بصيغته القديمة المعروفة ذات الدلالات المتعددة أو بصيغته الجديدة وسيلة متجددة لإمداد المعجم العربي بمادة جديدة.

3 ـ النحت:

وهو وسيلة أخرى يحتفل بها الشدياق ويعول عليها كثيراً في إمداد المعجم العربي بمادة لغوية جديدة من الكلمات والمصطلحات. يقول: «وهناك وجه آخر في العربية يصوغ ألفاظاً تسد مسد الألفاظ الأعجمية التي اضطررنا إليها وهو باب النّحت... وكيفما كان الأمر فإن النحت طريقة حسنة تكثر بها مواد اللغة وتتسع أساليبها ولها نظير في اللغة اليونانية وسائر

اللغات الإفرنجية، وهي التي كثرت مواد لغتهم وأحوجتنا إلى الأخذ منهم، فقولنا الجغرافيا والفلسفة والجومتريا والجولوجيا، كلها ألفاظ يونانية مركبة ولولا هذا التركيب لما كان للغة اليونانية فضل على غيرها بشيء، وهي إن فضلت لغات الإفرنج لا تفضل لغتنا لأن الألفاظ البسيطة عندنا أكثر من المركبة وهي أفضل ما لم يحوج الضرورة إلى التركيب أو النحت وحينئذ يعمد إليه»[102].

ونلاحظ هنا أن الشدياق لم يفرق بين التركيب والنحت واعتبرهما شيئاً واحداً. فالنحت في العربية هو جنس من الاختصار عرفته منذ العصر الجاهلي في قولهم عبدري وعبقسي وعبشمي وغير ذلك من الألفاظ التي رواها الرواة حيث ينحتون من كلمتين أو أكثر كلمة واحدة وهو بلا شك نتيجة من نتائج كثرة استعمال كلمتين أو أكثر معاً[103]. أما التركيب فهو قائم على السابق Prefixes واللواحق Suffixes وغالباً ما تبقى السوابق أو اللواحق دون نقصان وحتى إذا ركب من كلمتين كلمة واحدة، يبقى كل منها غالباً كما هي دون نقصان أيضاً مثل قولنا في العربية حيوان «برمائي».

ومع ذلك فإن الأمثلة القليلة التي قدمها الشدياق للنحت تدل على أنه كان يرى أن هذه الوسيلة لا تصلح إلاّ في لغة العلوم ولوضع المصطلحات فقط وهو ما انتهى إليه مجمع اللغة العربية بعد دراسة النحت كوسيلة من وسائل النمو اللغوي حيث وضع شروطاً لا بد أن تتوافر في الكلمات المنحوتة وهي:

1 ـ ألاّ يكون اللفظ المنحوت نابياً في الجرس عن سليقة العربية.
2 ـ أن يكون المنحوت على وزن عربي نطق به الغرب على قدر الإمكان.
3 ـ أن تؤدي الكلمة المنحوتة حاجات اللغة من إفراد وتثنية ونسب وإعراب.

---

(102) كنز الرغائب 1/ 203 - 204.

(103) راجع السيوطي، المزْهر 1/ 482.

ولذلك اتخذ المجمع قراره بجواز النحت في لغة العلوم عند الضرورة مع مراعاة طبيعة العربية في ذلك[104].

4 ـ التعريب:

لا يخفي الشدياق في كتاباته ضيقة الشديد بالكلمات المعربة والدخيلة ونفوره منها؛ والمقارنة التي عقدها في إحدى مقالاته[105] بين اللغات الإنجليزية والفرنسية والعربية تبيّن حقيقة فهمه لظاهرة الاقتراض اللغوي، كما أن سيطرة مبدأ أفضلية اللغة العربية أو أفضلية اللغة المقرضة على اللغة المقترضة حال بينه وبين النظر الموضوعي لهذه الظاهرة، فاللغات تقترض من بعضها البعض نتيجة لاحتياجات فكرية وحضارية وليس لمجرد التشدق باللفظ الأجنبي. والاقتراض بهذا المعنى قانون عام عرفته كل اللغات قديماً وحديثاً، عرفته العربية في العصر الجاهلي وفي العصر العباسي وفي العصر الحديث، كما عرفته اللغات الأخرى التي اتصلت بالعربية واقترضت منها آلاف الكلمات مثل الفارسةي والتركية بل وبعض اللغات الأوروبية الحديثة فيما يتصل بالحضارة الإسلامية وعلومها وبعض الفلسفات الإسلامية وغير ذلك.

فالعربية ليست أفضل من الإنجليزية أو الفرنسية إذا استعملت الإنجليزية كلمة Understand أو استعملت الفرنسية Comprendre للدّلالة على «تفهّم» في العربية لأن هذه الألفاظ التي اصطلح عليها الإفرنج كما يرى الشدياق خالية المعنى[106] ومع ذلك فإن كثرة المعرب والدخيل لا شك نذير خطير لا بد من التصدي له خاصة إذا استشرى في غير ضرورة علمية أو تقنية.

ويبدو أن الشدياق استشعر شيئاً من هذا الخطر على العربية لذلك نراه يهيب برفاعة الطهطاوي وزملائه من محرري «روضة المدارس» لكي

---

(104) راجع مجموعة قرارات مجمع اللغة العربية في مصر 3/ 6.

(105) انظر كنز الرغائب 1/ 204.

(106) المرجع السابق نفس الصفحة.

يستخدموا النحت أفضل من التعريب. يقول: «إن اللغة العربية أحسن اللغات صيغاً وأساليب وأتمها وأكملها نسقاً وتأليفاً مع توسيع النحت عند اقتضاء الضرورة، كان لنا أن نرجو من الأساتذة الكرام الـذين يحررون روضـة المدارس أن يتواطؤا من هذا الباب أي باب النحت على ألفاظ تغنينا عن الألفاظ الأعجمية التي أحـوجتنا إلى استعمـالها وذلـك نحو الكـوميسون والكونستيتوسيون والقرنقراس وما أشبه ذلك. . . فالمرجوّ إذا من همّة كتاب الروضة ولا سيما العالم الشهير عزّت أو رفاعة بك أن يريحونا من الألفاظ الأعجمية أراحهم الله وأغناهم عن التعريب الذي هو أشد عذاباً على من عاناه»[107].

وهكذا نجد الشدياق يشعر شعوراً قوياً بحاجة المادة المعجمية في اللغة العربية إلى النمو ولاسيما في عصره الذي واجهت فيه العربية لأول مرة حضارة لم تنبت في أرضها، كما واكب قدوم الشدياق إلى مصر حركة واسعة للترجمة وخاصة في ميادين العلوم كالطب والهندسة واشتغل هو بالتّرجمة فترجم العديد من المقالات عن الإنجليزية والفرنسية وكانت هذه المقالات تتصل بجوانب الحضارة الحديثة التي تتطلب مصطلحات وكلمات لم تعرفها العربية من قبل، فقد امتلأت جريدة «الجوائب» بمقالات عن البخار واختراع الباخرة وابرة المغناطيسية والبالونات والأقمار والسياسية والاجتماع وكلهـا موضوعات لم تعرفها العربية ولذلك أعطى الشدياق لنفسه حرية وضع كثير من الألفاظ والتراكيب للدلالة على أشياء أو أفكار لم تعرفها الحضارة العربية.

وختاماً لهذا البحث نقدّم طائفة من الكلمات التي وضعها الشدياق والتقطناها من كتابيه «الواسطة في معرفة أحوال مالطة» و«كشف المخبا عن فنون أوربا» وقد نشرهما معاً في مطبعة «الجوائب» عام 1299 هـ. والكتابان يصوران رحلة الشدياق إلى أوربا واحتكاكه بمظاهر الحضـارة الأوروبية الحديثة.

---

(107) كنز الرغائب 1/ 250.

أولاً ـ الألفاظ:

المخدع	: مكان حفظ المأكولات.
البدل	: داء المفاصل.
القاعدة	: العاصمة.
العواجل	: السيارات والعربات.
العقاقيرية	: الصيدلية.
الخموم	: حفظ الأسماك.
الترسيم	: التلقين.
المساجلة	: الحوار[108].
الرتل	: عربات القطار.
المتشبعون	: الأرستقراطيون.
الناقل	: القطار يسير ببطء
الشاروخ	: القطار يسير بسرعة.
المترجيات	: القاطرات.
الموقف	: المحطة.
المحترفات	: المكاتب التجارية والورش.
الفقع	: البطاطس.
الامتحان	: تحقيق الشرطة.
التكيس	: الأتيكيت.
الدوائية	: الصيدلية.
المرأب	: البنسيون.
المشيخة	: الأكاديمية.
الأزج	: قوس النصر.
السباهلة	: العاطلون.

(109) انظر الواسطة، صفحات: 14, 18, 22, 29, 46, 47, 50 على التوالي.

المناصع : دورات المياه.
المصبر : المحنط.
الفرد : المسدس.
المشاغل : المصانع[110].

ثانياً ـ التراكيب:

لعب النار : الصواريخ النارية.
المدرسة الجامعية : الجامعة أو الكلية.
حافلة المجد : القطار السريع.
طيار النار : الإكسبريس.
أغصان الميلاد : شجرة عيد الميلاد.
مجلس الشورى : البرلمان.
قمر العسل : شهر العسل.
مواضع الفرج : الملاهي ودور اللهو.
لعب الإشارة : التمثيل الصامت (البنتوميم).
الأرجاف الكهربائي : التيار الكهربي.
آلة النار : الآلة البخارية
المرايا المكبرة : التلسكوب.
اليد القصيرة : الاختزال[111].

وهكذا نجد أن الشدياق لم يكتف بالحديث النظري عن مشكلة المعجم العربي وإنما حاول بكل ما يملك من طاقة وعلم وحب للغة العربية أن يشارك في تطوير المعجم اللغوي دراسة ووضعاً وتنمية لمفرداته وهي

---

(110) انظر كشف المخبا صفحات: 77، 100، 103، 104، 116، 135، 143، 176، 228، 230، 255، 273، 289، 312، 315، 317، 344 على التوالي.
(111) انظر الواسطة صفحات: 23 - 45 وكشف المخبا صفحات 70، 100، 128، 132، 174، 255، 310، 313، 328، 350، 352.

مواجهة لازمت اللّغة العربية في العصر الحديث لو أنها استمرت بقوة الدفع هذه التي شهدتها منذ القرن التاسع عشر سواء على يد الشدياق وغيره من علماء عصره لكان للمعجم العربي شأن آخر غير ما هو عليه الآن.

خاتمة ونتائج

وبعد، فقد حاول هذا البحث أن يلقي الضوء على جانب مهم من جهود الشدياق اللغوية وهو علم المعاجم وذلك من خلال تصور علماء المعاجم في هذا العصر لماهية هذا العلم وأصوله النظرية والتطبيقية. لذا فقد بدأ هذا البحث بمقدمة تلقي الضوء على المعالم الكبرى لهذا العلم حيث وجدنا أن هذا العلم يتفرع إلى فرعين أساسيين أحدهما علـم المعاجم النظري وهو يختص بدراسة طبيعة المعنى المعجمي Lexical meaning وجوانبه وحدوده أما الثاني فهو علم المعاجم التطبيقي أو فن صناعة المعاجم وهو يهتم بجوانب أساسية أيضاً في وضع المعجم وبنائه من حيث المادة المعجمية وطريقة ترتيب المداخل وشرح المعنى أو التعريب، ثم تنمية المادة المعجمية، ولكن يتبيّن وجود هذه الأصول النظرية والعملية عند الشدياق قسمنا البحث إلى أقسام ثلاثة:

أما القسم الأول فقد تناول بالدراسة نـظرية الشـدياق في المعنى المعجمي وأصله ورأينا كيف كان الشدياق مؤمناً بنظرية «حكاية الصوت» واتخذ منها أصلاً لدراسة هذا المعنى وكانت هذه النظرية من أكثر النظريات شيوعاً في عصره بل قبل عصره ولكن الشدياق كان أول من أقام على هذه النظرية معجماً هو «سر اللّيال». وإذا كان علم اللغة الحديث والمعاصر لا يؤمن كثيراً بهذه النظرية الآن فإن ذلك لا يقلل من جهد الشدياق في محاولة استقصاء مفردات العربية بحيث تستجيب لهذه النظرية كما تصورها.

وفي القسم الثاني تناول هذا البحث جهود الشـدياق وفن صنـاعة المعجم حيث تبدو بحق قدرته الحقيقية ومعرفته الواسعة بالمعاجم العربية.

وفي هذا القسم من البحث تناولنا بالدراسة أهم جوانب هذا الفن كما يتمثل في عمل الشدياق المعجمي من حيث مادة المعجم وترتيب المداخل والمشتقات ثم شرح المعنى المعجمي والتعريف. وقد تناول الشدياق كل هذه الجوانب من فن صناعة المعاجم وتوقف عندها شارحاً ومبيناً رأيه وموقفه منها مما عرض له البحث بالتفصيل.

أما القسم الثالث والأخير فقد تناول جهود الشدياق في تنمية الثروة اللفظية في اللغة العربية وهي المادة التي يتكوّن منها المعجم العربي فيبين موقفه من آراء القدماء في مادة المعجم أو الألفاظ التي ينبغي أن توضع فيه ورفضه لنظرية الاحتجاج التي وجهت مادة المعجم العربي وجهة غير صحيحة ودعوته إلى رفع هذه القيود والحدود عن المادة اللغوية كما تناول هذا القسم أيضاً أهم طرق نمو الثروة اللفظية التي رآها الشدياق من الوسائل التي تساعد على نمو هذه الثروة مثل النحت والتوليد والاشتقاق والتعريب الذي كان له منه موقف رافض. وفي ختام هذا القسم قدم البحث نموذجاً من الألفاظ التي وضعها الشدياق مقابل بعض الكلمات الأعجميّة أو غير العربية لكي يدلل على جانب آخر من جهود الشدياق يتصل بتنمية المعجم العربي وتطوره.

فإذا حاولنا أن نرصد أهم النتائج التي أسفر عنها هذا البحث وجدناها تتمثل فيما يلّي:

1 ـ إن الشدياق من علماء العربية القلائل الذين اهتموا بدراسة المعاجم العربية من الناحيتين النظرية والعملية.

2 ـ إن الشدياق كان يدرس هذه المعاجم وفق تصور علميّ لم يهتم كثيراً بشرح أصوله النظرية وإنما طبقه على المعاجم العربية كما تصوره.

3 ـ إن الشدياق عندما آمن بنظرية «حكاية الصوت» تفسيراً لأصل المعنى المعجمي كان متأثراً في ذلك بنظريّات في اللغة شاعت خلال القرن التاسع عشر كما اطلع على آثار لها في التراث العربي القديم ولعل ذلك كان دافعاً له على الإيمان بها.

4 ـ إذا نحينا جانباً نظرية «حكاية الصوت» فإن معجم الشدياق «سر اللّيال» من المحاولات المبكرة لوضع معجم عربي حديث من حيث الشرح وترتيب المداخل والمشتقات.

5 ـ واجه الشدياق تهمة تخلف العربية عن مواكبة الحضارة الحديثة مواجهة علمية وعملية؛ أمّا علمياً ففي الدراسات المعجمية وغير المعجمية التي وضعها ونادى فيها بتطوير اللغة العربية وأمّا عملياً ففي وضعه لكثير من الألفاظ الجديدة التي قدم هذا البحث جانباً منها.

ولعلنا بهذا الجهد المتواضع نكون قد شاركنا في الكشف عن جهد واحد من علماء المعاجم العربية لم يَحْظَ عمله بالدراسة والبحث الجدير بهما. وهو ما يستحق عليه منظمو هذه الندوة العلمية الشكر والتقدير.

حلمي خليل
جامعة الإسكندرية ـ كلية الآداب

المصادر والمراجع

أولاً ـ المصادر والمراجع العربية :

أ ـ مؤلفات الشدياق:

1 ـ الجاسوس على القاموس، القسطنطينية، مطبعة الجوائب، 1299هـ.
2 ـ الساق على الساق فيما هو الفارياق، بيروت، دار مكتبة الحياة، بدون تاريخ.
3 ـ سر اللّيال في القلب والإبدال، الأستانة، المطبعة العامرة السلطانية، 1284هـ.
4 ـ كنز الرغائب في منتخبات الجوائب، الأستانة، مطبعة الأستانة العليا، 1288هـ.
5 ـ الواسطة في معرفة أحوال مالطة وكشف المخبا عن فنون أوربا، القسطنطينية، مطبعة الجوائب، الطبعة الثانية 1288هـ.

ب ـ كتب أخرى:

1 ـ ابن جنى، أبو الفتح عثمان:
الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، القاهرة، مطبعة دار الكتب المصرية، الجزء الأول، 1952، الثاني 1955، الثالث 1956.

2 ـ ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن زكريا:
الصاحبي، تحقيق السيد صقر، القاهرة، مكتبة عيسى البابي الحلبي، 1977.

3 ـ ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم:
لسان العرب، القاهرة، مطبعة بولاق الأميرية، الطبعة الأولى 1300هـ.

4 ـ أحمد مختار عمر، علم الدلالة، الكويت، مكتب دار العروبة للنشر والتوزيع، 1982م.

5 ـ الأنباري، كمال الدين عبد الرحمن بن محمد:
الإنصاف في مسائل الخلاف، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، القاهرة، المكتبة التجارية، الطبعة الثانية، 1955م.

6 ـ الثعالبي، أبو منصور عبد الملك بن محمد بن اسماعيل:
فقه اللغة وسر العربية، مصر، المطبعة الأدبية، الطبعة الأولى، 1317هـ.

7 ـ جورجي زيدان: تاريخ آداب اللغة العربية، القاهرة، دار الهلال، الجزء الرابع، بدون تاريخ.

8 ـ حسن ظاظا: كلام العرب، الإسكندريّة مطبعة المصري، 1971.

9 ـ حسين نصار: المعجم العربي نشأته وتطوره، القاهرة، مكتبة مصر، الطبعة الثانية 1968.

10 ـ حلمي خليل: المولد في العربية، بيروت، دار النهضة العربية، الطبعة الثانية، 1985.

11 ـ حلمي خليل: الكلمة، دراسة لغوية معجمية، الإسكندرية، الهيئة المصرية العامة للكتاب 1980م.

12 ـ خالد الكركي: الانجليز في أدب أحمد فارس الشدياق، بحث منشور في أعمال الملتقى الدولي حول الأدب المقارن عند العرب، الجزائر ديوان المطبوعات الجامعية، 1983.

13 ـ الخليل بن أحمد الفراهيدي: كتاب العين، تحقيق د. عبد الله درويش، بغداد، مطبعة العاني 1967.

14 ـ السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن:
المزهر في علوم اللغة وأنواعها، تحقيق محمد أحمد جاد المولى وآخرين، القاهرة، دار إحياء الكتب المصرية، بدون تاريخ.

15 ـ فندريس، ج: اللغة ترجمة عبد الحميد الدواخلي ومحمد القصاص، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، 1950م.

16 ـ كمال بشر: دراسات في علم اللغة. القاهرة، دار المعارف، الطبعة الثانية، 1971م.

17 ـ محمد أحمد خلف الله : أحمد فارس الشدياق وآراؤه اللغوية والأدبية القاهرة، معهد الدراسات العربية العالية، 1955م.

18 ـ محمد خلف الله أحمد: معالم التطور الحديث في اللغة العربية وآدابها، القاهرة، دار إحياء الكتب العربية، 1961 م.

19 ـ محمد خلف الله أحمد وشوقي أمين: مجموعة القرارات العلمية لمجمع اللغة العربية، القاهرة، المطابع الأميرية، 1963م.

20 ـ محمود السعران: علم اللغة، القاهرة، دار المعارف، 1962م.

ج ـ الدوريات:

مجلة الضياء، المجلد الثاني 1900م.

ثانياً ـ المراجع الأجنبية:

1 - Ducrot, Oswal and Tzvetan Todorv:
Encyclopedic Dictionary of the Scinces of Language, United Kingdom, 1981.

2 - Hartmann, R. and Stork, F. :
Dictionary of Language and Linguistics, London, 1972.

3 - Haywood, John:
Arabic Lexicography, Leiden, 1965.

4 - Leech, Geoffrey:
Semantics, Pelican Book, London, 1976.

5 - Lyons, Jhon: Semantics, Cambridge University Press, London, 1977.

6 - Robins, R. H.:
A Short History of Linguistics, Longman, London, 1967.

7 - Zgusta, Ladislav:
Manual of Lexicography, Mouton, The Hage, Paris, 1971.



منزلة الحركة المعجمية في القرن التاسع عشر

بحث: فرحات الدريسي

شغلت النهضة العربية الإسلامية الحديثة الدارسين على اختلاف مشاربهم فانبروا يؤرخون للحركة النهضوية ويعينون زعماءها ويبينون أسبابها ويدرسون اتجاهات الفكر العربي في عصر البعث ويحددون أعلامه ويرسمون المؤثرات الأجنبية والداخلية في الفكر العربي السياسي والاجتماعي والأدبي وينظرون في نشأة الشعوب الإسلامية وتاريخها وأصولها وفي النقد الأدبي وأصوله ومناهجه وقضاياه وأسسه الفنية ويسجّلون تاريخ الأدب العربي والحركات الأدبية ودورها في تطوير الأدب العربي الحديث وتجديد فنونه المختلفة ويضبطون تاريخ الترجمة ومؤسساتها والحركة الثقافية وأركانها التي وسمت الخطاب النهضوي الحديث المتأسس في القرن 19 على مَعْلَم بارز عَلِق بصلة الشرق بالغرب وإن حدّ هذه الصلة غرب متغلّب ما انفكّ يدعم تسرّبه الاقتصادي ونفوذه السياسي وحضوره الثقافي عبر مسالك شرق متقادم الهياكل سياسة واقتصاداً وثقافة: شرق مغلوب بهره مظهر حضارة الغرب المادي ونفّره مظهرها الأخلاقي العَقَدي.

ولعل عناية الدّارسين بالحركة الثقافية بمعناها العام وبعلاقتها بالخطاب النّهضويّ المعاصر قد طمست شيئاً من معالم الحركة المعجمية اللغوية وبخستها حظّها الحضاري بدلالاته الفكرية وحدودها السياسيّة والاجتماعية والنفسية والذهنية إذ لا نكاد نظفر بدراسات مفردة تبرز إسهام الحركة المعجمية، في غياب الحديث عن الظاهرة الثقافية وحركة الترجمة وعلاقتها

بالنهضة حديثاً ضافياً تمحي فيه خصائص الحركة المعجمية، وإن لم نغفل عن أن الحركة المعجمية مظهر من مظاهر الحركة الثقافية المتأصلة في نشاط العرب اللغوي، على وجه العموم. وقد دفعنا هذا التداخل الذي من شأنه أن يصهر حدود الفرع المتميز المتفرد في حدود الأصل الجامع الحاوي، إلى أن نسعى إلى تحديد منزلة الحركة المعجمية في الخطاب النهضوي المعاصر في حدود القرن التاسع عشر، على وجه الخصوص.

ولعل طبيعة هذا العمل المحدود مادة وغرضاً ومكاناً وزماناً تفترض حداً من الوصف والإحصاء يكون منطلقاً للتحليل والملاحظة والاستنتاج والتقويم في المستويين النظري والتطبيقي. إنّه ليس بوسع دارس النهضة العربية الإسلامية أن يدحض أنّ الحركة الثقافية قديماً أو حديثاً قد تأسست على الاستعانة بالمعاجم الخاصة أو العامة، معاجم الألفاظ أو المعاني، بجمع اللغة العربية وآدابها وإن اختلفت مناهج الاستعانة ومعاييرها؛ ولا أن يتردد في التسليم بأن هذه الاستعانة قد قامت قديماً سنداً للغة القرآن وإعجازه واعتمدت ـ حديثاً ـ على إعادة طبع المعاجم العربية القديمة التي نخص منها بالذكر:

ـ أولى طبعات معجم الجوهري «تاج اللغة وصحاح العربية». سنة 1282هـ / 1865م.
ـ ومعجم الرازي «مختار الصّحاح» سنة 1287هـ/ 1870م.
ـ ومعجم الفيروز أبادي «القاموس المحيط» سنة 1289هـ/ 1872م.
ـ ومعجم ابن منظور «لسان العرب» سنة 1300هـ / 1882م.
ـ ومعجم الزمخشري «أساس البلاغة» سنة 1300هـ / 1882م.
ـ ومعجم الزبيدي «تاج العروس» بين سنتيّ 1287 و1307هـ / 1870م ـ 1889م...

ولئن تم إحياء هذه المعاجم وغيرها، على علاتها فإنها لم تكن بمعزل

عن حركة معجمية إحيائية موازية ناجمة عن ظاهرة الموازنة بين المعاجم، مادة ومنهجاً تنظيراً وتطبيقاً؛ حركة افتتحها:

- بطرس البستاني بمعجمه «محيط المحيط» بجزءيه سنة 1869م والذي اختصره في «قطر المحيط» (ج 1).
- وتابعه فيها: أحمد فارس الشدياق: بمعجمه «الجاسوس على القاموس» (قاموس الفيروز أبادي). سنة 1299هـ / 1881م.
- والمستشرق الهولندي دوزي (ت 1883م) بمعجمه: تتمة المعاجم العربية (Supplement aux Dictionnaires Arabes). ط. ليدن. سنة 1299 هـ / 1881م. وقد استدرك به ما فات المعاجم العربية.

ولم تنحصر معالجة قضايا اللغة في القرن التاسع عشر - على وجه الخصوص - في إقبال العرب من ذوي الانتماء العَقَديّ إلى الحضارة العربية الإسلامية أو الانتماء التاريخي الثقافي الحضاري، على إحياء المعاجم القديمة أو على تتبع سقطاتها ولا في اهتمام بعض المستشرقين من مزدوجي اللسان بالمعاجم العربية، استدراكاً أو تذييلاً أو استحداثاً، بأكثر من لغة.

وإنما شملت لغة الجرائد (إبراهيم اليازجي: 1847م - 1906م) والصحافة عموماً ومراسيم الإدارة الملزمة باستعمال اللغة العربية وأساليب الترجمة تعريباً وتصويباً وتصليحاً[1]، وإن تردد ظاهر الغايات بين دوافع ضبط منهجية ومشاعر وطنية تضعف أو تشتد من حيث الالتزام بالمنهج، وتفتر أو تحتدّ من حيث الإستجابة للعاطفة، من شخص إلى آخر.

وقد علق بهذا الموقف اللغوي العام أفراد نهضوا بالحركة المعجمية في القرن التاسع عشر، عن قرب أو عن بعد؛ ولئن جمعت بينهم المادة اللغوية

(1) رشاد الحمزاوي: مجمع اللغة العربية بالقاهرة: تاريخه وأعماله (بالفرنسية). ط.1، تونس 1975. الباب الأول. ص ص 29 - 52.

فإن طرق تعاملهم مع هذه المادة المدروسة قد اختلفت.

ولعل في إبراز جوانب الائتلاف والاختلاف بين هذه المواقف ـ تنظيراً وتطبيقاً ـ سبيلاً إلى إدراك ما قد تخفيه هذه المواقف اللغوية الفردية أو الجمعية، من مواقف فكرية وسياسية واجتماعية ونفسية، تنير منزلة الحركة التي تدوم وحدها في المسار النهضوي المخصوص.

إننا نميّز في مسار الحركة المعجمية في حدود القرن التاسع عشر ـ ثلاثة إتجاهات فكرية ارتبطت بمناهج لغوية عبّرت عن مواقف حضارية انبثقت تاريخياً من علاقة الشرق بالغرب لسبب من الأسباب المباشرة أو غير المباشرة الذاتية أو الموضوعية. وإن لم نعدم حركة سجالية بين هذه الاتجاهات في بعض مراحل الحركة المعجمية الفرع المرتبط بالحركة الفكرية الثقافية الأصل.

ولعل رفاعة الطهطاوي (ت 1871م) قد كان الشارة الأولى في مسار الحركة المعجمية المرصودة ـ في حدود ما توفر من وثائق ـ ولا يعنينا من كتبه سوى ما ارتبط منها بفكره اللغوي، ولعل فصوله من «تخليص الإبريز إلى تلخيص باريس». ط ـ بولاق 1940بسط فيها القول عن اعتناء باريس بالعلوم والفنون وتقسيم اللغات واصطلاح اللغة الفرنساوية والمحالّ العلمية، تكشف أنه شرّع في التعريب الاقتراض اللغوي منهجاً واستعان بالدخيل أو المعرّب مسلكاً، وإذ أننا إلى الحركة المعجمية مشدودون فإننا نسجّل أنّه لم تغب عن رفاعة الطهطاوي قيمة القواميس ودورها في النهضة العلمية إذ قال ـ في معرض حديثه عن المحالّ العلمية. ص 138. «فأول علماء باريس بل وعلماء فرنسا ديوان العلوم المسمى أكدمة الفرنسيس وأهلها أربعون عالماً كل واحد من الأربعين يسمى عضواً... وفي الغالب أن أرباب هذا الدّيوان لهم فضل عظيم على من عداهم من الفرنساوية ووظيفتهم تأليف القواميس الفرنساوية وأنهم يمتحنون مؤلفات العلوم الأدبية وكتب التاريخ» وإن وازى العمل المعجمي اشتغال بـ«تدوين العلوم الأدبية وحفظ غريبها حتى لا تفسد لغة

الفرنسيس. . . [و] اشتغال بتصحيح اللغة وتجديد اصطلاحات أو إبقاء الاصطلاحات القديمة» . ص 140.

إن هذه العناية بالقواميس لم تكن في نظر الطهطاوي بمعزل عن واقع العلوم التي كانت على حد تعبيره في ص 131 «تتقدم كل يوم فهي دائماً في الزيادة فإنها لا تمضي سنة إلاّ ويكشفون شيئاً جديداً فإنهم قد يكشفون في السنة عدة فنون جديدة أو صناعات جديدة أو وسايط أو تكميلات» ون بثّ في ثنايا الكتاب المرصود آراء انطباعية قد تحدّ من قيمة فكره اللغوي وقد تكشف عن قصوره بالقياس إلى ما بلغته علوم اللغة في يومنا، ومن هذه الآراء نسوق قوله في ص 131. «ومن جملة ما يعين الفرنساوية على التقدم في العلوم والفنون سهولة لغتهم وسائر ما يكملها فإنّ لغتهم لا تحتاج إلى معالجة كثيرة في تعلّمها».

ويبدو أن وعي الطهطاوي النظري بدور ثبت المعجم في الترجمة قد هداه إلى ظاهرة الملاحق الاصطلاحية في ترجماته إذ يقول في مقدمة «قلائد المفاخر في غريب موائد الأوائل والأواخر» «لما كانت هذه الألفاظ في الأغلب أعجمية فلم ترتب إلى الآن في كتب اللغة العربية وكان يتوقف فهم هذا الكتاب عليها عرّبناها بأسهل ما يمكن التلفّظ به فيها على وجه التقريب حتى إنه يمكن أن تصير على مر الأيام دخيلة في لغتنا كغيرها من الألفاظ المعرّبة عن الفارسية واليونانية، ولو صنع المترجون نظير ذلك في كل كتاب ترجم في دولة أفندينا. . . لانتهى الأمر بالتقاط سائر الألفاظ المرتبة على حروف الهجا[ء] ونظمها في قاموس مشتمل على سائر الألفاظ المستحدثة التي ليس لها مرادف أو مقابل في لغة العرب أو الترك فإن هذا مما يفيد التسهيل على الطلاب وبه تحصل الإعانة على فهم كل علم أو كتاب[2] فهي

(2) جمال الدين الشيّال: تاريخ الترجمة والحركة الثقافية في عصر محمد علي. ط. مصر. 1951. الفصل الخامس: القواميس والمعاجم. (نقلاً عن مقدمة قلائد المفاخر في غريب عوائد الأوائل والأواخر).

حينئذ حركة ترجمة ظاهرها جمع بين العلم ومصطلحاته وباطنها رصد علم الغرب أولاً ثم مصطلحاته بنقلها إلى اللغتين العربية والتركية عبر الدخيل في حدود الدرجة الأولى من مراتب التجريد الإصطلاحي معنى وذهناً: درجة التلقي الحرفي مبنى وضبطاً[3] فالحركة المعجمية قد غنمت من حركة ترجمة الكتب العلمية ـ خاصة ـ المصطلحات، ولم تقف العناية بالمصطلحات عند حد الملاحق وإنما تبعتها عناية كبيرة بالقواميس في مختلف اللغات الشرقية والغربية فترجمت إلى اللغة العربية قواميس إيطالية وفرنسية وفارسية وتركية[4]. فحركة الترجمة قد خدمت تعريب العلوم الأوروبية ثم أوحت إلى حد كبير بضرورة العناية بالقواميس العربية والأعجمية[5].

وقد شغل الخط الثاني جماعة قصروا نشاطهم اللغوي على العناية بالمعاجم العربية القديمة بإعادة طبعها ونشرها وقد يتجاوزون هذا الدور إلى إعادة ترتيب المادة اللغوية ترتيباً يحقق ـ في نظرهم ـ سهولة الاستعمال ويسر البحث والترغيب في اللغة.

ويتنزل هذا الضرب من النشاط المعجمي في موقف تراثيّ قد يعبّر ـ في ظاهره ـ عن سلفيّة لغويّة اتّخذت من إحياء المعاجم موقفاً فكريّاً صفويّاً دفاعيّاً لعلّه يقابل موقف الطهطاوي وجماعته، وإن وفّر الموقف التراثي الإحيائي مادة اصطلاحية تمّ تحديث معانيها عبر النقل والمجاز كلّما تكشّفت قرينة لغوية مجيزة، ظاهرة أو مستفادة (الصّحاح 1288هـ / 1865م ـ أساس البلاغة 1300هـ / 1882م . . .).

ويقع بين هذين الموقفين موقف ثالث نهض به عرب مسيحيون وبعض المستشرقين ممن تعدّدت أنشطته الثقافية ومشاغله الفكرية، ونخصّ منهم

(3) عبد السلام المسدي: قاموس اللسانيات. ط. الدار العربية للكتاب. تونس 1984. الباب الخامس. مراتب التجريد الإصطلاحي.

(4) الشيّال. ص 224.

(5) نفس المرجع. صص 185 - 194.

بطرس البستاني وأحمد فارس الشدياق ودوزي، ويقوم هذا الموقف على أن المعجم العربي في نشأته وتطوّره بين ماضيه وحاضره، يستجيب لأجيال عاشت في عصور اختلف مفهوم الحضارة فيها عن مفهومها في العصر الحديث: عصر المخترعات الجديدة والمصطلحات العلمية الحديثة في علم الطبيعة والعلوم الطبيعيّة والتطبيقية... ولئن تجرأ أصحاب هذا الموقف على نقد المعجم العربي في مواطن عديدة فإن صناعتهم المعجمية كانت ضرباً من ضروب التوفيق بين النزعة الإحيائية المقيدة بماضي المعجم العربي وبين نزعة التحرر أو التجديد المطلقة التي نهجت الإقتراض اللغوي... في صناعة المعجم العربي في القرن 19، ولذلك لم يتجاوز إسهامهم محاولة التيسير على الطالب في البحث والتسهيل عليه في الاستعمال والاستدراك والتذييل صلة وتكملة(6).

فلقد حرص أحمد فارس الشدياق ـ على سبيل المثال المعبّر عن الموقف الثالث ـ في: «الجاسوس على القاموس» على إبراز المطاعن المنهجية النظرية والعلمية التي بلغت ثلاثة وعشرين مطعناً في صناعة معجم القاموس نورد منها مآخذ قد توضح شيئاً مما نرصده:

1 ـ إن صاحب القاموس خلط المجاز بالحقيقة والغريب باللغوي والعامي بالخاص ومزج العجمية بالعربية على غير عادة اللغويين الذين لا يتعرضون لغير كلام العرب.

2 ـ وخروجه على السّلف.

3 ـ وتعمّقه في الاشتقاق وما هو بالمؤهل لذلك.

4 ـ وعنايته بالأعلام أكثر من مادة اللغة(7).

إن نشاط البستاني والشدياق ودوزي لا يمثّل نشازاً في حركة صناعة

---

(6) أحمد فارس الشدياق: الجاسوس على القاموس. ط. الجوانب، 1299هـ. المقدمة. (وانظر، على سبيل الاطلاع، مقدمة محيط المحيط للبستاني).

(7) المرجع السابق.

المعجم العربي لأنه نشاط يندرج في حركة نقدية لغوية متأصلة في ماضي المعجم العربي ومستمرة في حاضره؛ ولعل الحركة النقدية اللغوية التي أحدثها الفيروز أبادي (ت 817هـ ـ 818) بقاموسه المحيط الذي ألّفه للسلطان اليمني اسماعيل الغساني (ت 803هـ) دالّة على ما سبق ذكره، إذ استدرك على القاموس:

- جلال الدين السيوطي (ت 911هـ): الإفصاح في زائد القامـوس على الصّحاح.
- عبد الله بن الإمام شرف الدين اليمني (ت 973هـ): كسر الناموس، شرح القاموس.
- بدر الدين القرافـي «المصري» (ت 1008هـ): القول المأنوس بتحرير ما في القاموس. مخ. مصر. لغة. خط. 43.
- محمد الدّاودي (ت 1017هـ): الدر اللقيط في أغلاط القاموس المحيط.
- عبد الله بن المهدي بن إبراهيم بن محمد بن المسعود الحوالي الحميري (ت 1061هـ): له كتاب ضخم استدرك فيه على صحاح الجوهري وعلى القاموس المحيط.
- أبو العباس السجلماسي المغربي (ت 1070هـ): فتـح القـدوس في شرح خطبة القاموس.
- وذيله: إضاءة الأدموس ورياضة النفوس من اصطلاح صاحب القاموس. (مخ. مصر).
- محمد بن الطيب الفاسي (ت 1170هـ): إضاءة الراموس وإفاضة الناموس على أضاة القاموس.
- وحاشية على القاموس: التكملة أو التكميل. 3 مج. مخ. مصر (لغة. خط 500).
- محمد بن المرتضى الزبيدي اليمني (ت 1205هـ): تاج العزوس شرح القاموس.
- أحمد تيمور: تصحيح القاموس المحيط. ط. ق. سنة 1343هـ.

وقديماً اختصر أبو بكر الزبيدي (ت 379هـ) الأندلسي كتاب العين للخيل واستدرك عليه، وأنشأ الصغاني (ت 650هـ): إلى جانب العباب الزاخر واللباب الفاخر في اللغة، التكملة والذيل والصلة في اللغة.

وحديثاً أنشأ بطرس البستاني محيط المحيط، سنة 1869، على حروف الهجاء وفق أوائل الألفاظ ثم اختصره في «قطر المحيط» ثم استدرك الأب أستاس الكرملي على محيط المحيط منذ سنة 1883 حتى سنة 1938. في «المعجم المساعد»، مثلما لم يسلم «محيط المحيط» من تعليقات إبراهيم اليازجي ولا من تنبيهات دوزي في معجمه[8].

إننا لا نكاد نعثر على رؤية لغوية متكاملة عند غير الشدياق: رؤية هي سندنا في تقديمه على غيره، وهي تقوم على موقف مبدئي من اللغة العربية ما انفك يردده في تآليفه ويذكّر بدوافعه قائلاً: «إني قد عشقتها عشقاً وكلفت بها حقاً حتى صرت لها رقاً»[9]... ويتبعه موقف آخر لغوي مبدئي من اللغات عامة يسجّل اقتناع الشدياق بظاهرة الشغور اللغوي الحاصل في العربية إذ «لا شك في أن مفردات العربية غير تامة بالنظر إلى ما استحدث بعد العرب من الفنون والصنائع مما لم يكن يخطر ببال الأولين[10] وتسليمه بظاهرة الاقتراض اللغوي في العربية «فهو لا ينكر أن يكون قد دخل في لغة العرب بعض ألفاظ من لغة العجم وهي أسماء لأشياء لم تكن معروفة عند العرب[11] وهي ظاهرة لغوية لا تقتصر على لغة دون أخرى إذ «كل لغة من اللغات فلا بد من أن يكون فيها دخيل فاللغة هي بمنزلة المتكلمين بها فلا

---

(8) محمد مصطفى رضوان: دراسات في القاموس المحيط. ط 1. ليبيا. 1393هـ / 1973م. ص. 267.

(9) الشدياق: سر اللّيال في القلب والإبدال. ط. 1284هـ. (وانظر ـ على سبيل اطّلاع: منتهى العجب في خصائص لغة العرب).

(10) الشدياق: كنز الرغائب في منتخبات الجوائب. ط. الأستانة 1288هـ. 3ج. يهمنا منهاج 1. 202/1.

(11) المرجع السابق. 190/1.

يمكن لأمة أن تعيش وحدها من دون أن تختلط بأمّة أخرى وهذا هو أصل التّمدّن»[12].

ويتنزل هذا الموقفان المبدئيان في مفهوم حضاري ينشيء بين التمدن واللغة علاقة تلازمية تصهرها حاجة المتكلم إلى البلاد إذ «أن الوضع إنما يراعي به اللزوم والضرورة وتهذيب اللغة عن أن تشان بالألفاظ العجمية»[13]. ويدفعه اقتران اللغة بالمجتمع إلى نوع من الموازنة بين شرق وغرب: «فإنهم قد وطّنوا أنفسهم على أن لغاتهم حسنة لا تحتاج إلى تهذيب... وقد قوّى اعتقادهم هذا ما يخترعونه من الآلات الغريبة مما هو معدوم عندنا فإذا اعترضنا عليهم في أساليب اللغة سألونا عن أسماء تلك الآلات بلغتنا إفحاماً لنا»[14].

«إن لغاتهم بنيت في الغالب على التمدّن والتمدن عندنا بني على اللغة[15] وإن سعى إلى الدفاع عن العربية وتبرير موقف اللغويين القدامى فهو «غير شين على العربية إذ لا يحتمل أن واضع اللغة يضع أسماء لمسميات غير موجودة»[16].

«ولو أن العرب الأوّلين شاهدوا البواخر وسكك الحديد وأسلاك التلغراف والغاز والبوسطة ونحو ذلك مما اخترعه الإفرنج لوضعُوا له أسماء خاصة فهم على هذا غير ملومين»[17]. وشنّع على المحدثين الذين لم يسعوا إلى التأصيل اللغوي «وإنما الشين علينا الآن في أن نستعير هذه الأسماء من اللغات الأجنبية مع قدرتنا على صوغها من لغتنا، فما الحاجة إلى أن نقول فبريقة أو كارخانة ولا نقول معمل أو مصنع (كذا بالاصل) وأن نقول

(12) المرجع السابق. 202/1.
(13) المرجع السابق. 203/1.
(14) المرجع السابق. 202/1.
(15) المرجع السابق. 179/1.
(16) المرجع السابق. 202/1.
(17) المرجع السابق. 205/1.

بيمارستان ولا نقول مستشفى أو أن نقول ديوان (كذا بالاصل) ولا نقول مأمر (كذا بالاصل) أو أن نقول أسطرلاب ولا نقول منظر (كذا بالاصل)[18]. «وإنما اللوم علينا حالة كوننا قد ورثنا لغتهم وشاهدنا هذه الأمور بأعيننا ولم ننبه لوضع أسماء لها على النسق الذي ألّفته العرب وهو الاختصار والإيجاز»[19].

ويتجاوز الشدياق المواقف المبدئية الخاصة والعامة، الذاتية والموضوعية والجمع بين التمدن واللغة والمجتمع واللغة ومرحلة التقويم إلى حل لغوي أغرق قسمه النظري في الماضي لتسجيل امتناع الوجود الذي لا يمنع بالضرورة إمكان الوجود في الحاضر إذ «لو نشأ في القرن الأول من الإسلام جمعية أدبية كما ترى الآن في ممالك أوربا مما يعرف عندهم بلفظة أكادمي لما دخلت ألفاظ العجم في لغتنا. . . هذا الدخيل إنما يغضى عنه إذا لم يوجد في أصل اللغة ما يرادفه أو لم يمكن صوغ مثله فأما مع وجود هذا الإمكان فالإغضاء عنه بخس لحقّ اللغة لا محالة»[20].

وحدّ القسم العملي بباب النحت «فإن النحت طريقة حسنة تكثر بها مواد اللغة وتتسع أساليبها ولها نظير في اللغة اليونانية وسائر اللغات الإفرنجية وهي التي كثرت مواد لغاتهم وأحوجتنا إلى الأخذ منها»[21].

ويلحّ الشدياق على الأساتذة الناهضين بحركة الترجمة كي «يتواطأوا (كذا بالاصل) من هذا الباب أي باب النحت على ألفاظ تغنينا عن الألفاظ العجمية التي أحوجتنا إلى استعمالها وذلك نحو الكوميسون والكونستيتوسيون والقونفرانس وما أشبه ذلك»[22].

---

(18) المرجع السابق. 202/1.
(19) المرجع السابق. 205/1.
(20) المرجع السابق. 202/1.
(21) المرجع السابق. 203/1.
(22) المرجع السابق. 205/1.

وكان يرى أن هذا الدور موكول إلى مشائخ مصر «فإذا قرروا طريقة لصوغ الألفاظ المنحوتة اقتدى بهم جميع الكتّاب والمؤلفين»[23].

ويرجو من «كتّاب الروضة ولاسيما العالم الشهير... رفاعة بك أن يريحونا من الألفاظ العجمية...»[24].

«... وغني عن القول أن النحت لم يكن يوماً من وسائل نمو اللغة العربية أو تطورها خلال تاريخها... و«...لا يعتد به في القياس اللغوي»[25].

ولئن ميّزنا في حركة الترجمة بالمشرق العربي حركة معجمية صنعوية أكثر منها نظرية فإننا نميّز في حركة الترجمة بالمغرب العربي ـ ونخص تونس ـ مواقف فكرية تنسب إلى البعض ممن مارس في النقل إلى اللسان العربي أو زاول التدريس به في مدرسة باردو الحربية 1840)م) وخاصة الشيخ «محمود قبادو» الذي ألحّ على التأصيل العلمي في قصيدة هنّأ بها الوزير مصطفى خزندار بقدوم نجليه محمد والمنجي من سفر التعليم بفرنسا ونقتطف منها:

[الطويل]

...وما خسر الإنسان وجه سعادة	إذا من فنون العلم وفّر سهمه
... لذاك ترى ملك الفرنج مؤشك	بعلم على الأيام يمتد يمّه
ومملكة الإسلام يقلص ظلّها	وينقص من أطرافها ما تضمّه
... فلم يجد المستعبدون لعزّها	سوى العلم نهجاً للرئاسة أمّه
فمن لم يجس خبراً أربّاً وملكها	ولم يتغلغل في المصانع فهمه

(23) المرجع السابق. 205/1.

(24) المرجع السابق. 206/1 .

(25) مجلة المجمع العلمي العراقي. ج 3. مج 34 (1403 هـ/1983 م). مقال: جميل الملائكة: المصطلح العلمي ووحدة الفكر.

فذلك في كن (كنه) البلاهة داجن وفي مضجع العادات يلهيه حلمه
ومن لـزم الأوطان أصبح كالكلا بمنبتـه منمـاه ثـمـة حـطمـه
هم غـرسـوا روح التمـدّن فـرعـه الرياضي والعلم الطبيعي جذمه[26]

وأما خير الدين التونسي فلم يفته ـ في كتابه : أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك. ط 2. تونس 1072. تسجيل العلاقة التلازمية بين تأصيل المادة اللغوية وتأصيل الفكر الأدبي أو العلمي بقسميه النظري والتطبيقي، سواء من حديثه عن الطباعة ونشر أشعار اللغة اللاتينيـة «التي عاد إلى استعمالها أهل إيطاليا وتكاثرت بها أشعارهم بعد أن تناسوها وهي وإن لم تأخذ مأخذها في التوصل بها إلى المعاني الدقيقة واللطائف البديعة فقد رجعت إلى ما كانت عليه من الطلاوة وحسن السبك»[27] أو من حديثه عن عنايتهم بخزائن الكتب في القرن 15 الخامس عشر واستكثارهم نسخ الكتب القديمة «التي جعلوا عليها تعليقات نافعة وملاحظات غريبة وبذلك ارتفع عن محاسن الأقدمين القناع الذي تكاثف بتطاول السنين[28].

ولعل إشارة خير الدين إلى دور الشعر في ترقية الرصيد اللغوي ـ في معرض حديثه عن الشاعرين Aristo أريوستو و Le Tasse، اللذين «أشهر اللسان الطلياني المستعمل [الذي] أخذ في ذلك الوقت مأخذه من السلاسلة وحسن السبك وألّفت به تآليف عديدة في فنون شتى»[29] ومراعاته ـ في حكمه على منزلة فرنسا الجمع بين التمدن وفصاحة اللسان إذ قال: «وإن بلغت في هذا الوقت [القرن 16م] ما بلغته من التمدّن والتهذيب وفاقت أمماً كثيرة ممن تقدمها إلّا أنها لم تضاه نظائرها حيث لم يكن لسانها في ذلك الوقت خالصاً

(26) انظر ديوان قبادو (1220هـ ـ 1288هـ). ج1. جمع أبي عبد الله محمد السنوسي ط. تونس 1294هـ.

(27) خير الدين التونسي: أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك. ط. 2. تونس 1972ص ص 170 - 171.

(28) المرجع السابق. ص171.

(29) المرجع السابق. ص 172.

من الشوائب[30]. وحرصه على أن يسجّل وظائف المؤسسات التعليمية الفرنسية واعتناءها «بتصفية اللغة وتحرير أوضاعها [أو بـ]ـتحرير الأقلام القديمة واستخلاص الألسنة العلمية والنظر في الهياكل القديمة والتاريخ [أو] نشر الرسائل في سائر أنواع العلوم»[31] مما قد يدفعنا إلى أن نسجّل وعي خير الدين علاقة اللسان المتينة «بأنواع التمدّن المكتسب بالمعارف»[32]، ومنزلة اللسان في المحافظة على كتب المعارف؛ وإن كنا على يقين بأن آراء خير الدين اللغوية المبثوثة في ثنايا فصول معدودة تبدو ثانوية بالقياس إلى قضية التمدّن الذي شغل ذهنه وطغت أسسه المعرفية المادية على مواضيع الكتاب.
إن حظ الحركة المعجمية من حركة الترجمة في تونس في القرن 19 التاسع عشر لا يكاد يذكر في حدود ما هو معلوم من الوثائق، ولعل ذلك دليل على أنها حركة غير متمكّنة، فهي حركة فردية ومعزولة عن القرار السياسي الذي ما أن توفّر في حركة الترجمة بمصر حتى أخصب حركة معجمية تعددت فيها اللغات ونمتها الترجمة المنظّمة انطلاقاً من سنة 1821م تاريخ أول قاموس ايطالياني وعربي وضعته الراهبة رفائيل زاخور[33].

إننا نميّز حينئذ مواقف لغوية ارتبطت بأعلام، فموقف الطهطهاوي موقف ترجمان شغله الاقتباس عن الغرب لانبهاره بمظاهر تقدم الغرب المادية: غرب العلوم والفنون التي حرص على نقلها إلى العربية فلم يتجاوز انشغاله بالمصطلح حدود التشكيل اللغوي عبر الدخيل أو المعرّب الصوتي، تعبيراً عن شعور بالحاجة إلى سد شغور علمي صادف مرحلة التلقي الحرفي معنى ومبنى: «المرحلة الأولى من مراحل التعامل بين المفهوم الطارىء والقاموس القائم»[34]، ولئن كانت دعوته إلى التأصيل العلمي على شاكلة

---

(30) المرجع السابق ص ص 175 - 176.
(31) المرجع السابق. ص. 197.
(32) المرجع السابق. ص 166.
(33) الشيّال. الفصل الخامس: القواميس والمعاجم.
(34) المسدي: الباب الخامس: مراتب التجريد الاصطلاحي.

الغرب مستفادة ـ نظرياً وتطبيقياً ـ فإن مرحلة تأصيل المصطلح في اللغة العربية كانت مفتقدة من ترجماته، على وجه العموم؛ وكان موقف الشدياق والبستاني ودوزي. . . موقفاً كثيراً ما وسمه الحرص على التأصيل اللغوي من جهة، وغياب التأصيل العلمي المرتبط بمزاولة ترجمة الكتب العلمية ـ في حدود فهم قسم من النهضويين المسيحيين في القرن 19 ـ من جهة ثانية، فقد انحصر نشاط هذه الجماعة في دائرة التنميط أو التقييس على شاكلة معايير القدامى اللغوية من حقيقة ومجاز واستعارة وترادف وتضمين واشتراك وفصيح وحوشي ومعرّب ودخيل ومستعمل ومهجور، وهي مرحلة سعوا عبرها إلى امتلاك دلالات المصطلح الصرفية والصوتية والنحوية والمعجمية على غرار ما أورده الشدياق في الجاسوس على القاموس. ص 292. متحدثاً عن وهم الجوهري أنّه: «ذكر الكيمياء في كام وكمى، فقال في الأولى الكيمياء بالكسر الأكسير أو دواء يحمل على معدني فيجريه في الفلك الشمسي أو القمري، وقال في الثانية الكيمياء بالكسر والمد، وقال في الراء الأكسير الكيمياء، وكان عليه أن يذكر هل هو عربي أو معرّب ومن أي لغة عرّب وهل هو مذكر أو مؤنث».

ولعل هذا الحرص على التأصيل اللغوي أسّ من أسس سلفية لغوية تستجيب لرغبة سياسية أيّدتها نخبة من المثقفين العرب المسيحيين والمسلمين في زمن (القرن 19م) ولّدت فيه تناقضات الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية التي حفت بالعرب في الداخل وفي الخارج، ضرباً من التنسيق استوعبته اللغة كظاهرة ثقافية متينة الصلة بالمجتمع على وجه الخصوص، وإن تردد هذا التنسيق بين الدعوة إلى الجامعة الإسلامية بالنسبة إلى العرب المسلمين وبين جذور الدعوة إلى القومية العربية بالنسبة إلى العرب المسيحيين.

وقد شهدت تونس موقفاً نهضوياً عبّر عنه قبادو شعراً وخير الدين نثراً؛ فقد دعا الشاعر ـ نظرياً ـ إلى التأصيل العلمي بالأخذ عن أوروبا وزاول التأثر

شيئاً من التشكيل اللغوي بالدخيل والمعرّب لاستيعاب منجزات الغرب المادية من علوم وصنائع دون أن يتجاوز دائرة الفكر السياسي التبريري النظري والعملي إلى دائرة الفكر العلمي العملي الذي برز في أعمال الطهطاوي في حقل الترجمة؛ فموقف النهضويين التونسيين اللغوي في القرن 19 باهت إن لم نقل عرضياً لانشغالهم بالفكر السياسي القائم على تمدن الغرب وعمرانه، في حين كان موقف المشارقة في القرن 19. قد تجاوز الانشغال بالفكر السياسي النظري إلى طور إرساء حركة علمية عملية زكّاها القرار السياسي إرادة واختياراً وجسّمها بالبعثات العلمية المنظمة وبتأسيس مدرسة الألسن التطبيقية، فأفادت الترجمة «اللغة العربية فائدتين ـ مباشرة وغير مباشرة ـ أما الفائدة المباشرة فكانت بنقل الكتب الكثيرة في العلم والفنون المختلفة، إليها، وأما الفائدة غير المباشرة فكانت بالعناية بالقواميس الأجنبية والعربية جميعاً»[35].

ولعل موقف الطهطاوي اللغوي وموقف خير الدين الحضاري، معبّران عن واقع البلدان العربية الإسلامية العلمي والثقافي: واقع التخلف المادي الذي قضى بترجمة علوم الغرب وفنونه، مدخلاً للتمدن وفرض الاقتراض اللغوي موقفاً وشرع الدخيل منهجاً، بينما يكون موقف الشدياق والبستاني ودوزي... اللغوي عملاً معجمياً قام على التصحيح والاستدراك والتكملة، سعى به أصحابه إلى توفير مادة لغوية مستعملة أو مهملة، شائعة أو مهجورة، من شأنها أن تحيط بدلالات المصطلحات عامة والعلمية خاصة، إحياء أو استحداثاً، تطويراً أو تجديداً. فهو موقف اتخذ من التراث مرجعاً ومن المعجم العربي بين ماضيه وحاضره أصلاً، ومن طرق اللغويين القدامى في تنمية اللغة العربية الاشتقاقية منهجاً، عموماً تصريحاً بشجاعة العربية أو إشعاراً بحاجتها إلى سد مواطن شغور معرفية.

إنه لئن كان الفعل يدنو إلى علم الغرب وكانت الذات مشدودة إلى

(35) الشيّال. ص 224.

التراث فإننا نستوحي من المواقف السابقة موقفاً يوفق ـ على دراية ووعي ـ بين الاقتراض اللغوي بأيسر السبل وبين التأصيل اللغوي بأعلق السبل بلغتنا، فنحقق مصالحة بين الذات والفعل أي بين واقع لغتنا وعلاقته بالنمو الاقتصادي والاجتماعي وبين بناء الذات وسلّم متطلباتها، إنه إن سلمنا بأن المصطلح العلمي يحوي النظرية العلمية ويتضمنها وبأن مراتب نشوئه وتجريده تشهد على مراحل النظرية العلمية حتى استقرارها، وسعنا أن نتمثل الوحدة الموضوعية والعضوية والمنطقية بين المصطلح والنظرية العلمية وجاز لنا أن نؤلف ـ انطلاقاً من واقعنا اللغوي والعلمي والاقتصادي والاجتماعي والسياسي والتربوي ـ من الاقتراض اللغوي والتأصيل اللغوي والتأصيل العلمي، رأياً يقوم على الجمع بين ثلاثتها بتشجيع دراسة اللغات الأعجمية لترجمة علوم الأمم المتمدنة ترجمة تخضع لمؤسسات علمية تضم كثيراً من النقلة المهرة والمعجميين والعلماء المختصين في جميع المعارف على أن تختلف أدوارهم باختلاف اختصاصاتهم وفق الحاجة إليهم، وأن يوازي هذه الحركة اللغوية طلب علوم الأمم المتمدنة وصنائعها وتحصيلها من مصادرها وبلغاتها دون سواها ـ في مرحلة أولى ـ وفي تخطيط تربوي صارم وآجل يدعمه قرار سياسي واع وتلتزم به الأمة جمعاء لأننا نعتقد أن حركة ترجمة أو حركة معجمية تُعنى بالاقتراض أو بالتأصيل اللغويين، بعزل المصطلح عن نظريته العلمية حركة ضالة وأن حركة تهدف إلى التأصيل العلمي عبر الترجمة في غياب حركة معجمية، حركة منبتّة ومعزولة بدورها عن اللغة المنقول منها وعن اللغة المنقول إليها في الوقت نفسه، وأن لا حل بحركة ترجمة تسع العلماء والمعجميين والنقلة معاً ما لم ترض حركة الترجمة هذه مراصدُ فلكية ومخابر فيزيائية وكيميائية ونظريات حسابية وهندسية ومصانع... ونواد علمية.

إن التوافق بين الوعي اللغوي والوعي الحضاري هو عمود. الحركة النهضوية العربية في القرن 19 وهو منحى الحركة المعجمية التي طغت بدرجات متفاوتة على نهضويي القرن 19. فهم وإن أجمعوا نظرياً على أن

تمدن الغرب المادي غاية وتفاوتوا في درجات الوعي اللغوي عملياً فقد غاب عنهم التوافق بين تأصيل العلوم التجريبية التي تتحاصُها مادة العلم ورموزه من جهة وبين التمدن اقتصاداً واجتماعاً وسياسة من جهة أخرى رغم أن هذا الضرب من التوافق ليس غريباً عن الفكر العربي الإسلامي حتى العصور الوسطى، لأن الامتحان أو التجريب أو الاعتبار سبل معاناة في صناعة المعجم العلمي المختص بلغة أصحاب العلم النظري والتطبيقي. ولعل هذه المواقف تصلنا بمواقف شهدتها الحركة المعجمية العربية في أطوارها الأولى انطلاقاً من الرسائل المفردة حتى اكتمال صناعة المعجم العربي القديم بتأسيس حركة معجمية متطورة عبر الزمن وموصولة بترقية العلوم العربية الإسلامية وانتشارها الذي استوجب إنشاء المعاجم الخاصة في رؤية فكرية كان يشغلها تأصيل النظرية العلمية بأكثر من لسان تحقيقاً للموقف العلمي الموسوم بحاجة العالم إلى تبليغ المفهوم العلمي بدقة ووضوح وإيجاز...

إن موازنة بين الحركة المعجمية الحديثة والحركة المعجمية القديمة تستوجبها طبيعة الحركة المعجمية الحديثة التي تأسست في جوهرها في التراث المعجمي واستوعبت مادته ومناهجه إحياء أو تجاوزاً أو هما معاً، بحكم طبيعة العمل المعجمي الذي يضمّ حصيلة تجربة الجماعة عبر تاريخها المشترك. ولعل الفرق الجوهري بين الحركتين المعجميتين يكمن في أن الحركة المعجمية القديمة عرفت تلازماً بين التأصيل العلمي نقلاً وتصحيحاً وتشكيكاً وامتحاناً وإفادة وبين التأصيل الإصطلاحي بأكثر من لسان فاكتملت النظريات العلمية واتضحت مناهجها واستقرّت إلى حد كبير مصطلحاتها وأنشئت معاجمها، في حين أن الحركة المعجمية الحديثة استحدثها صدام حضاري افتقدت فيه التزامن أو التوافق بين التأصيل العلمي والتأصيل الإصطلاحي.

فرحات الدريسي
كلية الآداب والعلوم الإنسانية، تونس

المصادر

- البستاني (بطرس): محيط المحيط. ط بيروت 1869/ 2 .1870مج.
- التونسي (خير الدين) أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك. ط 2. تونس 1972.
- دوزي: تكملة المعاجم العربية. ط. ليدن 1881.
- الشدياق (أحمد فارس) سر الليال في القلب والإبدال. ط. 1284هـ.

كنز الرغائب في منتخبات الجوائب. ط. الأستانة. 1288هـ. 3ج.

الجاسوس على القاموس. ط. دار صادر. بيروت. 1299هـ.
- الطهطاوي (رفاعة رافع) تخليص الأبريز إلى تخليص باريس. ط. بولاق 1840.
- قبادو (محمود): الديوان. 2ج. جمع أبي عبد الله محمد السنوسي. ط. تونس 1294هـ.

- المراجع -

- الحمزاوي (رشاد): مجمع اللغة العربية بالقاهرة. ط. تونس. 1975.
- رضوان (محمد مصطفى): دراسات في القاموس المحيط. ط 1. ليبيا. 1973.
- الشيّال (جمال الدين): تاريخ الترجمة والحركة الثقافية في عصر محمد علي. ط. مصر. 1951.
- المسدي (عبد السلام): قاموس اللسانيات. ط. تونس. 1984.
- الملائكة (جميل) مقال: المصطلح العلمي ووحدة الفكر. مجلة المجمع العلمي العراقي مج 34، ج 3، 1983.

كتاب رياض النفوس للمالكي
مصدراً من مصادر معجم دوزي

بحث: محمد العروسي المطوي

تمهيد:

من نافلة القول التنويه بالعمل الكبير الذي قام به العلّامة «رينحارت دوزي». فقد قضى في هذا العمل عديد السنين منقّباً وباحثاً. وعاد إلى أكثر من أربعمائة مرجع، وطالع الآلاف العديدة من الصفحات المخطوطة والمطبوعة وبعدد من اللغات حتى أخرج معجمه الذي ما يزال نسيج وحده وعلى رأس قائمة أمثاله. وأهمية هذا المعجم لا تكمن في الزيادات والإضافات لما طرأ على اللغة العربية من مفردات واستعمالات فقط بل في اعتبار ذلك المعجم خطوة كبيرة في تأريخ استعمالات المفردة العربية والمعربة. وهو نقص كبير ما تزال تشكوه اللغة العربية، وما زالت المؤسسات ذات العلاقة محجمة عنه.

وقد أوضَحَ دوزي في مقدمة معجمه «تكملة المعاجم العربية»[1] طريقة عمله وما بذله من جهد دون أن يدعي الكمال أو يغمط حق غيره، ودون أن يدعي الاستيعاب أو السلامة من الخطأ أو التغلّب على كلّ المشاكل لاسيما عند قراءة المخطوطات أو المطبوعات طبعاً غير منهجي ولا علمي حتى قال: ربما أهملت كلمات كان لها أن لا تهمل وأثبتّ أخرى كان لا بدّ لها أن تغفل[2].

(1) طبع أولاً في ليدن فيما بين (1877 - 1881). ثم طبع عدة مرات منها الطبعة الثالثة في باريس سنة 1967 وهي المعتمدة في بحثنا هذا.

(2) مقدمة الكتاب ص 27 تعريب المرحوم د. سليم النعيمي.

ورغم مرور أكثر من قرن على صدور هذا المعجم فإنه لم يلق حظه الكامل من الدراسة والنقد، ولعل من أبكر المهتمين به من العرب العلاّمة إبراهيم اليازجي فقد نشر ثلاث مقالات ينقد فيها معجم دوزي[3] كما نشرت بعض الملاحظات عنه في مجلة «لغة العرب»[4] ولعل أشد الاهتمامات بهذا المعجم ما قام به المرحوم الدكتور سليم النعيمي عندما أقدم على تعريبه[5].

ولعل من أهم ما لوحظ على دوزي أمران: الأول أن كثيراً من الألفاظ ورد لها ذكر في المعاجم العربية بنفس المعنى الذي ذكره دوزي مما يجافي مدلول «التكملة» أو «الملحق» أو «المستدرك» على المعاجم العربية[6].

والأمر الثاني عيبهم عليه استعمال أو حشر كلمات غير عربية. ونحن نعتقد أن هذا النقد في غير محله لأنه يتصل بألفاظٍ موجودة في كتب تراثية قديمة كان من الضروري البحث عنها والكشف عن معانيها حتى لا تبقى منغلقة أو غير مفهومة لاسيما إذا كانت على وشك الاندثار أو اندثرت من الاستعمال. بالإضافة إلى ما قاله دوزي نفسه «... إنني لم أقبل من الكلمات الأعجمية إلاّ التي عرّبها العرب وتكلموا بها. ولذلك فقد أقصيت عن معجمي كثيراً من الكلمات التي يذكرها الرحالة وينسبونها إلى لغات مختلفة وأخص بالذكر ابن بطوطة. وأرى أني قد أحسنت في ذلك صنعاً»[7].

كانت المصادر التونسية في قائمة مصادر دوزي قليلة نسبياً (حوالي

(3) نشرها في مجلة «الطبيب» سنة 1884 صفحات 286, 205, 346 وعثر على قسم بخط مؤلفها أحمد زيدان في المتحف العراقي فنشرها بمجلة المورد (مج 11 عدد 4) ولم يعد إلى مجلة الطبيب بل رجع إلى مجلة «الضياء» المكتوب اسمها على المخطوطة فظنها نشرت بالضياء فبحث فيها دون جدوى.

(4) ينظر مثلاً صفحات227, 296, 535.

(5) صدر منه خمسة أجزاء عن وزارة الثقافة والإعلام (إلى نهاية حرف الزاي) وقد توفي المعرّب رحمه الله. ولا أدري ـ شخصياً ـ هل عرّب كل المعجم أولاً. والأمل في وزارة الثقافة والإعلام العراقية في إتمام هذا العمل الجليل.

(6) الأكثر تداولاً هو «تكملة المعاجم العربية».

(7) المقدمة ص27 من تعريب د. سليم النعيمي.

ثمانية كتب). وكان من أهمها وأكثرها ذكراً كتاب «رياض النفوس» لأبي بكر عبد الله المالكي من رجالات القرن الخامس الهجري[8] لطبيعة الكتاب المتصلة بحياة العلماء والزهاد والنساك وأخبارهم وأخبار مجتمعهم.

ولكن الاعتماد على نسخة واحدة[9] قد جعل المؤلف يقع في بعض الهنات ستتعرض للبعض منها فيما بعد.

مع رياض النفوس:

كان أول ما لَفَتَ نظري إلى صِلَةِ دوزي برياض النفوس ما ورد في الجزء الأول من رياض النفوس الذي حَقّقه الدكتور حسين مؤنس ونشره سنة 1951[10] ففي صفحة 206 ورد تعليق على لفظة في نص الرياض كتبت بهذا الشكل «تالمة». وكان التعليق هو الآتي «... رسمها النساخ في الأصل خطأ: التاكما. وقد جاء في ملحق القواميس العربية لدوزي ما يلي: تالمة:

Espéce de scorsonére, Daumas V.A. 382, salsifis sauvage. (Daumas. V.A. 382) Dozy: Supplement aux Dictionnaires Arabes, 1/139.

أي إنه نوع من الحشائش البرية التي تؤكل...».

ويوهم النص كأنه قراءة دوزي للتاكما فحولها إلى تالمة. والواقع أن دوزي لم ينقل اللفظة عن رياض النفوس بل نقلها عن مصادر أخرى[11] وفوق ذلك فإن سياق الخبر في رياض النفوس لا يعني نوعاً من النبات الذي يؤكل. وإنما يعني شيئاً يوضع فيه الحشيش الذي يجمعه المزارعون، وهو ما تدل عليه لفظة «التاكما» وتعني الصرّة في اللسان البربري استمداداً وتحويراً للفظة «تكمّست». وإلى الآن في الجنوب التونسي وخاصة في الأرياف والبوادي

(8) حققه كاملاً بشير البكوش في جزئين عدا الفهارس. نشر دار الغرب الإسلامي. بيروت 1983/84 تنظر مقدمة المحقق عن تاريخ أبي بكر المالكي وكتابه...

(9) رقمها 752 وقد أصبح الرقم حالياً 2153. ينظر رياض النفوس مقدمة التحقيق ص 24 وص 31.

(10) لجنة الجامعيين لنشر العلم. نشر مكتبة النهضة المصرية. القاهرة 1951.

(11) دوزي 1: 139.

يطلق لفظ «التوكامية» أو «التّكمية» على الصرة الصغيرة التي تربط بجناح الوزرة أو الإحرام وبواسطتها يستعمل الجانب الخلفي من الوزرة أو الإحرام شبه كيس مفتوح يوضع فيه الحشيش وخلافه[12].

لفظة ثانية لفتت نظري مما نقله دوزي عن رياض النفوس هي لفظة «قلقط» فقد ضبطها د. حسين مؤنس بقاف ثم فاء استناداً على ما جاء في معجم دوزي[13] قال: هكذا رسمها دوزي دون أن يعقب عليه بشيء. وقد استشهد دوزي بما جاء في ترجمة أبي هارون الأندلسي عن أبي بكر الصقلّي: . . . إذا برجل على كتفه مشنّة فيها حوتان من قلفط. . . - ثم يقول بعد كلام - . . . أرسلني أبو هارون إلى المنستير أشتري له حوت قلفط اشتهاه. . .»[14] هكذا يعيد دوزي اللفظة ثلاث مرات بقاف ثم فاء. والصحيح أن الكلمة هي «قلقط» بقاف أولى وقاف ثانية. وهو اسم لسمك معروف إلى الآن في بعض السواحل التونسية بهذا الاسم وفي المنستير بالذات[15].

وقضية الإعجام عند دوزي معضلة خاصةً في أسماء الاسماك التي أهمل الكثير منها لحيرته ماذا يرجّح. وقد ذكر ذلك في مقدمة معجمه[16].

على أن هذا التصحيف قد يحصل مع غير الأسماك كذلك مثلما حصل في مادة «حور» بناء على قراءة دوزي لنص في الرياض، في ترجمة أحمد بن يزيد القرشي. أثبت دوزي هذا النص «. . . R N 52. V°... = فرأيت في جدار بيته القبلي حواراً - وهي الخطوط - فقلت له: أصلحك الله ما هذه الخطوط التي في الحائط. . . فقال: هذه سبعة عشر ألف ختمة ختمتها لله

(12) ينظر تصدير المراجعة لرياض النفوس: 8 م - 9 م.
(13) رياض النفوس (ط1) 1 :422، دوزي 2 :397
(14) رياض النفوس (ط م 1 :522 لكن رسمها حسب الإصلاح المنوّه به.
(15) رياض النفوس (ط 2) ص 9 م - 10 م من المقدمة.
(16) دوزي: المقدمة ص 29.

على قدمي». وجعل لفظة «حوار» تعني الطباشير الأبيض Craie Blanche اعتماداً على هربرت (ص 172) أو أرض «مستبيضة» جافة اعتماداً على المصدر السابق وعلى بقطر (B C)[17] بينما قرأها حسين مؤنس «حزازا»[18] جمع حز ويعْنِي خطوطاً محفورة على الجدار بالطباشير ومثله لا يمكن أن تبقى أكثر من أربعين سنة على فرض أنه كان يختم كل ليلة ختمة قرآنية.

وقضية الإعجام للحرف أو عدمه لوحظ الخطأ فيه عند دوزي منذ القديم فقد جاء في مجلة لغة العرب ما يلي: «... ذكر دوزي في معجمه هذه الكلمة (الخشفاء بالفاء) ثم قال: وهذه الرواية ليست مضبوطة. وهو اسم حيوان يتخذ من عرفه وذنبه مذاب (مراوح) ويضع بعضهم منه في أطراف الأعلام. قاله دي جنك. انتهى.

قلنا هذا وهو الخشقا تعريب خشقاو أو غركاو. وهو أيضاً القطاس أي A C K فقوله خشفاء بالفاء غلط صريح[19].

ورغم ذلك فلم يقع إصلاح ذلك الخطأ في الطبعات التي صدرت فيما بعد[20].

نماذج من الاستشهاد

وبقطع النظر عن هذا وذاك فإن اعتماد دوزي على مخطوطة باريس من رياض النفوس كان اعتماداً كبيراً وقد هيّأت لحد الآن أكثر من مائة جذاذة سوف أستعمل نماذج منها فقط في هذه الدراسة الموجزة. وكانت طريقة دوزي في الاستشهاد بنصوص رياض النفوس تسلك مسالك متعددة. وسنذكر البعض من ذلك.

---

(17) دوزي 1: 334.

(18) رياض النفوس (ط 1) ص 375.

(19) لغة العرب ج 3 س 6 ص 227.

(20) ينظر مثلاً الطبعة الثالثة سنة 1967 (1: 373).

أ ـ في بعض الأحيان يطيل ـ نسبياً ـ من النص المنقول عن المالكي. ولعل من أطول تلك النصوص مانقله عن ترجمة أحمد بن يزيد الدبّاغ. وهو النص التالي «. . . رأيت بمكة شاباً كريم الأخلاق عليه جبة صوف (وقد طال شعره، وعلاه شحوب ونحول)[21] فقلت له: السلام عليك يا صوفي. فقال لي: وعليك السلام يا قطني. فقلت له: إن لباس القطن مع وجود التقى لا يضر. ولباس الصوف مع عدم التقى لا ينفع. فقال لي: صدقت»[22].

وأطول من ذلك النص ما جاء في ترجمة جبلة بن حمود وهو: «. . . وخرج ليلة ليتوضأ فوجد بعض الزوار يطبخ بيسارا وغرفه في صحفة وجعله لهم. فصبّ فيه الماء من إبريق كان معه. ثم مضى فجاء القوم فقالوا: من أفسد علينا بيسارنا (وصب فيه) الماء؟ فقال لهم جبلة: أنا، فلا تظنوا إلاّ خيراً. ظننت أنه فسد عليكم فأردت أن أزيدكم فيه الماء»[23].

ولعلّ دوزي لاحظ هذا الطول فعقب عليه بما مؤداه: «. . . إن المؤلف ذكر هذه الطرفة ليدلّ بها على أن جبلة بن حمود المشغول كثيراً بالحياة الأخرى ينبه لأشياء هذا الكون. . .»[24].

ومن النصوص الأقل طولاً ما جاء عند استشهاده بلفظة «تردة» في ترجمة واصل بن عطاء «. . . فتح الجراب فأخرج منه منديلاً فيه اثنتا عشرة تردة ما رأيت مثل بياض شحومها وهي مسلوقة. . .»[25].

وفي ترجمة زيد بن بشر ينقل دوزي عن رياض النفوس «. . . فإذا خرّاز يقول لجار له: ما رأيت أوحش من هذا الشيخ ولا أوحش لباساً من

---

(21) ما بين القوسين لم يذكره دوزي.

(22) دوزي 2 :377، الرياض 2 :271 محل الاستشهاد «قطني».

(23) دوزي 1 :134، الرياض 2 :32 محل الاستشهاد «بيسار».

(24) دوزي 1 :134.

(25) دوزي 1 :144، الرياض 1 :390.

لباسه. وكان يزيد يلبس المفرّج...»[26] وهو نوع من الثياب كان يلبس في القيروان يبدو أنه كان من الثياب المفتوحة أو الفضفاضة وفي أساس البلاغة[27] يطلق «الفروج» على القباء المشقوق من وراء.

ب ـ في بعض الأحيان يستشهد دوزي بالكلمات المقصودة من النص أي دون ذكر بقية الخبر فيكون لفظة فقط أو عبارة قصيرة مما لا يساعد كثيراً على فهم الاستشهاد للمعنى المقصود، لأن ذكر اللفظة مفردة عما يربطها قد لا يوضح المعنى تمام الوضوح وقد لا يجعل القارىء مشاركاً لمؤلف المعجم في فهم الاستعمال المقصود. ومن أمثلة تلك الاستشهادات:

1 ـ يكتفي دوزي بذكر لفظة «غسّانية» شارحاً معناها بالفرنسية بقوله: «Mets composés de semoule, de miel et de safran». أيْ طعام مكوّن من سميذ وعسل وزعفران. واللفظة جاءت في ترجمة أبي الفضل الغدامسي الذي ظل سنوات يشتهي «غسّانية». وذات يوم أعطى لخادمه دينارين ورثهما عن أمه، وقال له: «... خذهما وامض إلى سوسة فاشتر لنا سميذاً طيباً وعسلاً وما يصلح، وتأتي بطباخ يتولّى لنا طبخها (أي الغسانية...)[28].

2 ـ وفي مادة فروج استند في شرح «فرّوج» بـ«الديك» على «ألكالا» و«دونباي». وانتقى عبارة «خصي سمنّاه» من نص في رياض النفوس يمكن استعماله لفهم المعنيين على حد سواء. وهو ما جاء في ترجمة عمر بن يزيد الصدفي عندما «... سئلت امرأته ـ وكانت ذات دين وتقى: ما سبب الفرّوج الذي كان عندك. وما قصته؟ قالت كان (خصياً فسمناه) في عيد فطر قرب منّا»[29] وشرحه لفرّوج بالديك لا يخلو من التعميم.

3 ـ وقد يعمد إلى ذلك الاختصار رغم الحاجة إلى ما يرد في النص

---

(26) دوزي 2 :248، الرياض 1 :390.
(27) أساس البلاغة (فرج) وينظر المعجم الوسيط.
(28) دوزي 2 :213، 2 :448.
(29) الرياض 2 :457، دوزي 2 :248.

تالياً فيستشهد بكلمة أو تعبير يأتيانِ فيما بعد. مثال ذلك ما ورد في ترجمة السبائي «. . . قال لي أبو إسحاق قد فرغ الزيت فأحب أن تشتري لي حلالاً. فأقمت أياماً ألتمس له حتى أتى رجل براوية زيت له (أصل)[30]فأتيت بالراوية وبصاحبها وقلت له: (هذا زيت له أصل)[31].

ومن ذلك تفسير لفظة (طيافير) بمعنى أطباق، فقد وردا في خبر واحد ولكن دوزي لم يثبت إلّا ما جاء بين قوسين في الفقرة التالية المنقولة من ترجمة الحسن بن نصر «. . . قرع علينا الباب ففتحنا (فإذا ثلاثة من الخدم على رؤوسهم طيافير مغطاة) فقلنا لهم: ما هذا ؟، فقالوا: إن ذلك من عند رجل من فقهاء سوسة جليل القدر. قال: فأخذنا (الأطباق) وتركناها على حالها مغطاة حتى دخل الشيخ المسجد»[32].

ج ـ في حالات أخرى نجده يذكر اللفظة واضعاً بعدها علامة استفهام كدليل على تشككه في مدلولها الصحيح. وهذا ما وقع له مثلاً مع لفظة «درني» في عبارة «. . . وسبب موته (عبد الرحمان بن زياد) فيما ذكر أبو العرب أنه أكل حيتاناً درنية[33] وشرب لبناً. . . وكان قبل ذلك يخوّف الناس من أكل الحيتان مع اللبن[34] وكان إثبات الجملة الأخيرة لإبعاد معنى الدرن والأدران الطبي الذي افتتح به معاني «درن». ولكن دوزي ظل ـ بلا شك ـ غير عارف لمدلول «الحيتان الدرنية» وقد رجح السيد بشير البكوش، محقق رياض النفوس بأنه نوع من الحوت البوري ينسب إلى درنة الواقعة بين باجة وطبرقة[36] وفي المغرب للبكري أن الناس لم يزالوا «. . . يتنافسون في ولاية

---

(30) ما بين القوس هو ما أثبته دوزي من كل النص.

(31) دوزي 1 :27، الرياض 2 :248.

(32) الرياض 2 :395، دوزي 2 :27.

(33) في الأصل: درنيا وأبقاها دوزي بدون تغيير.

(34) الرياض 1 :160 - 161.

(35) المصدر السابق.

(36) البكري ص 57.

باجة. وكان المتداولون فيها لذاك بنو علي بن حميد الوزير فإذا عزل منهم أحد لم يزل يسعى ويتلطف ويهادي ويتاحف حتى يـرجع إليهـا. فقيل لبعضهم: لم ترغبون في ولاية باجة؟ فقال: لأربعة أشياء: قمح عندة، وسفرجل زانة، وعنب بلطة، وحوت درنة. وبها حوت بوري ليس له في الآفاق نظير»[36].

د ـ في بعض الأحيان تفوت دوزي الدقة في المعنى المراد من ذلك ما يذكره عن لفظة البحيرة من أنها تفيد البستـان الكبير. وكـان من جملة النصوص التي استشهد بها نص وارد في رياض النفوس أثناء ترجمة أبي يونس المتعبد من «... أن أخاً له اشتكى أرنباً كانت أفسدت عليه بحيرة له بجوار قصر الطوب فدعا عليها فلم تلبث إلّا يسيراً حتى ماتت»[37]. وإذا كانت لفظة البحيرة تعني فيما تعنيه السهل أو السبخة وحتى البستان الكبير فإن المقصود به في هذا النص هو إطلاق خاص ما يزال مستعملاً في بعض الجهات التونسية إلى اليوم، وهو البستان الخاص بزراعة القثـاء والبطيخ الذي كثيراً ما كان عرضة للعبث من الأرانب خاصة[38].

وفي أحيان أخرى تفوته دقة المدلول لعدم التثبت، من ذلك ما حصل في مدلول لفظة «الرهادنة» ففي مرةساير الإطلاق الذي يفسّرها بأنها تعني سوق المنسوجات من كتان أو قطن حسبما جاء على لسان أبي ميسرة الفقيه «... رمتني والدتي عند رجل من الرهادنة وأنا صبي، وعنده صبيان. وكان يعطيهم سلع الناس يبيعونها ولا يعطيني أنا من تلك السلع شيئاً»[39] ولكن دوزي يضيف: أنه يوجد أيضاً في هذا الكتاب (رياض النفوس V° 29 ما قد يفيد أنه اسم حي بالقيروان[40]. والنص الذي يشير إليه دوزي هو هذا «...

(37) دوزي 1 :54، الرياض 2 :125.
(38) ينظر مثلاً جريدة الصباح 1986/4/20.
(39) دوزي 1 :562، الرياض 2 :365.
(40) الرياض 1 :280.

ذكر سليمان بن محمد عن الصف القبلي من الرهادنة والـرفائين وبعض حوانيت الكتانين وما وراء ذلك أنها كانت دوراً لقوم فبنيت حوانيت وسمّيت الحوانيت الجديدة ونقل الناس من أسواقهم إليها. . .» فمفهوم النص أنها كانت حياً سكنياً فبنيت حوانيت وأسواقاً منها سوق الرهادنة.

هـ ـ ومن الملاحظات الجديرة بالتنصيص عليها هي إهمـال الاعتماد على رياض النفوس في كثير من الاستشهادات، ويتمثل ذلك في نوعين:

الأول يذكر نصوصاً أخرى دون ذكر الرياض.

الثاني إهمال اللفظ بتاتاً رغم ذكره في الرياض.

فمن النوع الأول نذكر مثلاً:

1 ـ لفظة «دكان» أو دكانة يعني مقعداً من حجر وما يشبه ذلك للجلوس وحتى للنوم فإننا نجد دوزي يستند على عدد من المصادر[42] دون ذكر رياض النفوس. وقد جاء في ترجمة أبي الفضل الغدامسي ما يلي:

«. . . وأن ذلك الحجر الذي أطلع عليه إلى الدكان خير عندي منه. لأن الحجر ينفعني وذلك لا ينفعني»[42].

2 ـ وكذلك نجد دوزي في استشهاده بلفظة «الطاجن» فإنه استند إلى مصادر متعددة دون الاستشهاد برياض النفوس رغم أنه ذكر اللفظة أكثر من مرة. من ذلك قوله في تـرجمة أبي هـارون الأندلسي «. . . فتشمـرت وغسلتهما (حوتان) وجعلتهما في طاجن وأدخلتهما الفرن»[43]. ولا يمكن أن يقال: إن دوزي لم يطلع على الصفحة التي فيها ذكر الطاجن لأن في تلك الصفحة بالذات (ورقة 57 ظ من مخطوطة باريس) وقبل عدة أسطر نقل لفظة «قلقط» محرفة إلى «قلفط» وقد ناقشناه في ذلك في بداية هذا البحث.

---

(41) ينظر دوزي 1 :454.

(42) الرياض 2 :450 والحديث عن كسب المال وإنفاقه في وجوه البر.

(43) الرياض: 1 :523.

3 ـ وهذا الإهمال أو الغفلة عن بقية نص رياض النفوس جعله يتخلّى عن الاستشهاد برياض النفوس في مادة مهمة هي مادة «طرح» بمعنى أجهض. فبخصوص هذه المادة نجده يستشهد بمصادر لا تعتبر أساسية بنسبة رياض النفوس الذي إذا تابعنا ما بعد لفظة الطاجن السابقة مباشرة نجد هذه الفقرة «يا أخي هذه المرأة حامل ـ وأشار بيده إلى امرأة ـ وقد شمت رائحة الطاجن الذي معك، ويخشى أن تطرح. إن رأيت أن تتفضل وتعطيها منها شيئاً»[44].

4 ـ من هذا أيضاً عدم اعتماده رياض النفوس في مادة «القيام» وتعني سدى النسيج. فعندما ذكر دوزي «القيام»[45] اعتمد معجم بقُطر وبعْض المعَاجم والنّصوص الأخرى، وأهمل نصاً هاماً جداً في رياض النفوس فيه أكثر من مادة قدْ فَاتَتْهُ فلمْ يُدَوِّنْها منه. وهه المواد هي: شقة ـ طعمة ـ قيام ـ اصطبة. وقد جاءت في الخبر التالي: «... يا بني خذ هذه الشقة فقل لأخيك يبيعها وأخبره أنه قد دخل في طعمتها كذا وكذا. وتبيّن لمن تبيعها منه أن قيامها أصطبه»[46].

فالشقة بمعنى قطعة من قماش أو كتان اعتمد فيها دوزي على بقطر، وألكالا و«القرطاس» ـ وهو اختصار «الانيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس» لابن أبي زرع ـ دُون هذا النص من الرياض مثلما فعل في لفظة «قيام».

أما لفظة أصطبّة فأمرها أهم من ذلك، فبالإضافة إلى عدم ذكر نص رياض النفوس فقد أرجع الكلمة إلى أصل إسباني واعتَمد في شرْحِها على «ابن ليون»[47]. والدقة تقتضي أن الكلمة مأخوذة من اليونانية أو ـ على

(44) م ـ س.
(45) دوزي 2 :426.
(46) رياض النفوس 1 :360.
(47) دوزي 1 :26.

الأقل ـ اللاتينية لأن اللفظة مستعملة عند العرب من قبل فتح الأندلس. ونجد نصوصاً تاريخية منذ صدر الإسلام تذكر كلمة أصطبة (أو أسطبة) بمعنى مشاقة الكتان. من ذلك ما جاء في النهاية لابن الأثير نقلاً عن أبي موسى الأصفهاني لهذا الأثر: «. . . رأيت أبا هريرة وعليه إزار فيه عَلَقٌ وقد خيّطه بالاصطبة. والأصطبة مشاقة الكتان. . .»[48].

والنوع الثاني مما فات دوزي في الرياض هي الألفاظ التي أهملها ولم يعتمد فيها على الرياض أو غيْره من المرَاجع. من ذلك:

1 ـ لفظة بطة التي أصبح لها مدلول مكيالي خاص حتى حدد مقدار كيلها باللتر والكيلوغرام[49] وقد تعدّد ذكر البطة في رياض النفوس ثلاث مرات على الأقل من ذلك قوله «. . . أقامت بطة زيت في بيته أتته من طرابلس وثمنة فول معلقة تسع سنين فما نظر إليها حتى أعطاها للزوّار»[50].

ومن ذلك لفظة البين تعني الريح، ورغم ذكره لمادة «بان» واستشهد برياض النفوس في عبارة «أبان عن نفسه وكشف عن الشبه المرفوعة عليه»[51] فإنه فاته أن يذكر هذا المعنى الطريف لكلمة «البين» وذلك في قوله «. . . وقطع لك البين ـ يعني الريح ـ نحو خمسين ومائة شجرة»[52].

ومن ذلك أيضاً مادة «رفد» بمعنى أسند في قول الرياض «. . . ولما أمر السلطان بإنشاء المراكب للخروج فيها إلى صقلية هدم الذين ينشؤونها مقابر المسلمين ورفدوا بها المراكب إلاّ قبر يحيى بن عمر. . .»[53] وقد شرح

(48) النهاية في غريب الحديث والآثار 1 :52.
(49) ينظر المكاييل والأوزان الإسلامية ص60.
(50) الرياض 2 :433. وينظر كذلك 1 :414 و 2 :481.
(51) دوزي: 1 :137.
(52) الرياض 1 :366.
(53) الرياض (ط 2) 1 :494.

اللفظة المرحوم حسن حسني عبد الوهاب بقوله: «... رفدوا المراكب بمعنى أن أعوان السلطان ثقلوها برخام القبور حتى لا تلعب بها أمواج البحر»[54].

ومن ذلك عبارة «تركيب الأعمال» كمصطلح موسيقي. وبالرغم من أن دوزي استعمل عبارة «تركيب الطرب، والركبي على أنه لحن متفرع عن الدوكاه»[55] فإن «تركيب الأعمال» لم يشر إليها دوزي وقد وردت في هذا النص «... وكانوا يقولون فيه أشعار أبي معدان في الزهد والمواعظ وأهوال يوم القيامة وصفات أولياء الله تعالى ويركبون عليها أعمالها على طريق الحزن والخوف»[56].

وهذه أيضاً شرحها المرحوم حسن حسني عبد الوهاب في تحقيق د. حسين مؤنس للرياض بقوله «... أي يركبون عليها أعمال الألحان. وهذا إصطلاح معروف عندنا في إفريقية والمغرب في فن الأغاني الموسيقية والشعرية...»[57].

وفي بعض الأحيان يهمل الكلمة بسبب اعتماده على مخطوطة باريس فقط من ذلك أنه لم يذكر عبارة «فقيه البدن» التي تعني في إصطلاح العصر «الطبيب». ومرجع ذلك أن مكان لفظة «البدن» بياض في نسخة باريس بينما اللفظة موجودة في نسخة القاهرة[58] وكان يطلق هذا الاسم على «أناس من المنتسبين إلى علوم الدين ومن رجال الجيش يتعاطون شيئاً من التطبيب بما اضطلعوا به من التجربة وأخذوه بالتقليد الموروث»[59].

---

(54) الرياض (ط 1) ص 400 هامش رقم 3.

(55) دوزي 1 :553.

(56) الرياض (ط 2) 1 :495 - 496.

(57) الرياض (ط 1) 1 :401.

(58) الرياض 2 :162.

(59) ينظر ح. ح. عبد الوهاب الورقات 1 :272.

وبعد،

فهذه عيّنات مما ذكره دوزي اعتماداً على نصوص من رياض النفوس للمالكي. وإذا ذكرت أمثلة من المآخذ فهي قليلة بالنسبة للجهود والأنقال الموفقة التي أثبتها دوزي في معجمه الكبير والهام. كما قصدت بذلك أيضاً لفت أنظار المختصين إلى ضرورة الاهتمام بهذا المعجم ودراسته دراسة نقدية تقييمية حتى يعاد إخراجه في شكل أكثر سلامة ودقة. وأحسب أن مثل هذا العمل يتطلب جهوداً جماعية من المختصين في المعجمية واللغات واللهجات من أقطار وأمصار مختلفة لها علاقة بالمصادر التي استند عليها دوزي وهي كثيرة ومتنوعة. والله الموفّق.

محمد العروسي المطوي
رئيس اتحاد الكتاب التونسيين

منزلة مستدرك دوزي
من المُعجميّة العربيّة

بحث : إبراهيم بن مراد

لقد كَانَ لدوزي منذ بداية اهتمامه بالمعجميّة العربيّة حواليْ سنة 1842 تصوّرٌ واضِحٌ للتّأليف المعجميّ العربيّ. فقد قال في مقدّمة كتاب «المعْجَم المفصّل في أسماء الملابس عند العرب» الصادر سنة 1845 : «عندما أتحدّثُ عن «معجم عربي» فإني أعني مُعْجَماً يُعَرّفُنَا بوضوح ودِقّة، كُلّمَا طلبْنَا فيه المعْنَى الدقيق لأيّ لفظٍ في أصْل استعماله، بمختلف الدّلاَلاَتِ [المسْتَحْدثَة] التي طرَأتْ عَليْه في جزيرة العرب وبلاد فارِس والشّام والمغرب... إلخ، أيْ في كلّ الأمْصار التي كَوَّنَتْ تلك الامبراطوريّة الشاسِعَة التي امتدَّت ما بيْن بلادِ الهِنْد والحدُود الفرنسيّة. هو معجم يَرْسُمُ لنا بالاعتماد على الشواهد والنّصوص اعتماداً مستمِرّاً تاريخ كلّ لفظٍ وكُلّ عِبَارَةٍ، ويُميّز بيْن المعَانِي الخاصّة بكلّ لفظ في مِصْرٍ عربيّ مّا والمعَاني التي كان يُفيدُها في مِصْرٍ آخر، بين مَدْلول كُلّ لفظ عند الشعَراءِ ومَدْلولِه عنْد النّاثرين. ثم هو مُعْجَم يشتمل على كلّ مصطلحات العُلُوم والفنون مُفَسّرةً تفسيراً منهَجيّاً. لكنّني أعيدُ القول بأنّ الزمَن الذي يمكننا فيه وَضْعُ مثل هذا المعْجَم لا يزال بَعيداً. وفي انتظار أن يَحِينَ يمكنُنَا التقدّم بالتّأليف المعْجَميّ بثلاث طُرُقٍ: أولاها هي كتَابةُ حَوَاشٍ مُعْجَميّة شرْحاً [لألفاظ] مُصَنَّفٍ مّا، أو بتذييلِ نَصٍ يُنْشَرُ مُحَقّقاً لأحَدِ المؤلّفين بمسْرَدٍ لُغويّ يكُونُ مستدركاً على المعْجَم [العربيّ]. وهذه الطّريقة هي المتّبعَة إلى حَدّ الآن؛ وثانيَتُها هي

جمْع ألفاظِ مجالٍ بعيْنِه؛ وثالثتُها هي الاقتصَارُ على تدوين لُغة عَصْرٍ بعينِه، أو مِصْرٍ بعيْنِه»[1].

ويُسْتَنْتَجُ من هذا الرأي أنّ المعجم المثاليّ في نظر دُوزي هو المعجم اللغَويّ التّاريخيّ الجامعُ الذي يُدَوّن شتات ألفاظ اللغة العربيّة وعباراتِها، ويؤرِّخُ لمختلف دلاَلاَتِها في مختلف العُصُور والأمصَارِ، بالاعتماد على اسْتِقْرَاء النصوص. إلاّ أنّ مُدَوّنَةً مِثاليّة للّغة العربيّة مثل هذه يَصْعُبُ وضعُها في عَصْره[2]، ولذلك فهو يَرَى الاستعَاضَةَ عنْها آنيّاً بوضْع مُسْتَدْركاتٍ على المعْجم العَرَبيّ يُنْطَلَقُ فيها من أعْمالٍ مُفْرَدَةٍ يُدَوَّنُ فيها مُعْجَمُ مُؤلِّفٍ بعيْنِه في كامل أعْماله أو في عمل له مُفْرَدٍ، أوْ مُعْجَمُ مَجَالٍ من المعرفة مُسْتَقِلّ، أوْ مُعْجَمُ عَصْرٍ من العصورِ، أوْ معْجَمُ مِصْرٍ من الأمْصَارِ. ثمَّ تكوِّن تلك المستدركَاتُ جميعُها عند الانتهاءِ منها «مستدركَ المسْتَدْركات» أو «المستدرك الجامع» على المعْجَم العربيّ[3].

وقد نحَا دُوزي في كلّ أعْماله المعجميّة تقريباً منْحَى الاستدْراكِ باتباعِ الطريقتيْن الأولى والثّانية من الطرق الثّلاث التي ذكَرها، فجمَع مَا استطاع من ألفاظ مجال بعيْنه هو الملابسُ العربيّة في «المعجم المفصّل في ألفاظ الملابس عند العرب» الصادر سنة 1845، وذَيَّلَ نصُوصاً حقّقَها أوْ شارك في تحقيقهَا لَمؤلّفين عربٍ قُدَامَى بمساردَ لُغَويّة آهتمَّ فيها بمعْجَم المؤلِّفِ أساساً وانطلاقاً منه بمعْجَم العَصْر والمِصْـر والمجالِ التي يَنْتَمي إليْهـا النصُّ المحَقَّقُ أو مؤلّف النصّ نفْسُه. ومن أهمّ المسَارد التي وَضعَها ما ذيّل به شرحَ قصيدة ابن عبدوَن لابن بدرون الأندلسيّ (1846)، والبَيَان المغرب لابن عذاري المراكشيّ (1848 - 1851) والقسم الخاصّ ببلاد إفريقيّة والأندلُس من نُزْهَة المشتاق في اختراق الآفاق للشريف الإدريسي (1866)، وقد شاركَهُ في

(1) Dictionnaire détaillé des noms des vêtements chez les Arabes, Amsterdam, 1845, pp. V - VI.

(2) ذكر بعْضاً من أسباب تلك الصّعوبة في مقدّمة المستدرك: Supplément aux Dictionnaires Arabes, 3 eme éd. Leyde - Paris, 1967, 1/ VII.

(3) انظر أيضاً نفس المصدر السّابق، 1/VII - VIII.

تحقيقه المستشرقُ الهُولَندي دِي خويه (De Goeje)، ويمكن أن ندْرِجَ ضمن تلك المسَارد «رسالة إلى فليشر» (1871) [4]، وهي رسالة مطوّلة ردّ بها دوزي على المستشرق الألماني فليشر (Fleischer) في انتقاداته لتحقيق الجُزْئيْن الأوّل والثاني من كتاب «نفح الطيب» للمقرّي، وقد شارك دُوزي في تحقيقهما ثلاثةُ مستشرقين هم دُغا (Dugat) وكْرَهْل (Krehl) ورَايْتْ (Wright). وقد كان دوزي ـ إضافة إلى ما أصْدَره من أعْمال ـ حريصاً على تدوين ملاحظاته واستدراكاته المعْجَميّة على المعاجم العربيّة ومعاجم المستشرقين الثُّنائية اللّغَة وعلى مَا يقعُ بيْن يَدَيْه من كتب التراث العربيّ، وقد تجمّع له أثناءَ هذه المرحَلة التي استغرقت حواليْ أربعين سنة من البحث والتّنْقيب رصيدٌ معجميٌ جديد وافرٌ كانت خُلاَصَتُهُ «المستدرك على المعَاجم العَربيّة» (Supplément aux Dictionnaires Arabes) الذي صدر في طبعته الأولى النّهائية في ليدن سنة 1881، أي قبْل وفاةِ المؤلّف سنة 1883 بسَنَتَيْن. والكتابُ في الحقيقة إضافة مُهمّة جدّاً إلى المعْجَم العَرَبيّ لا نعْرف أن أحَداً من المستشرقين أو من العرب المحدَثين قد أتى بمثلها. ولكنّ هذا الكتَاب ـ على أهميّته الكبْرى ـ لمْ يُدْرَس ـ حسب علمنا ـ إلى حدّ الآن ولم يُقيَّم من حيْث المادّة والمنْهَجُ [5] تقييماً علميّاً دقيقاً رغم مرور أكثرَ من قرْنٍ على ظهُوره. وليْسَت غايتُنا هنا نحن أيضاً أن نحيط بكلّ القضايَا التي يثيرُها هذا المسْتدركُ، فذلك ما لا تفي به عُجَالة كهذه. إنما نريدُ أنْ ندرسَ منزلَتَهُ من المعجميّة العربيّة بالنظر في قضيّتَيْن اثنتيْن هما قضيّتا الجمْع والوَضع،

---

(4) Lettre à M. Fleischer, Leyde, 1871

(5) إلاّ مَا كتبه البعض من انتقادٍ لبعْض المظاهر فيه، وهو انتقاد منطلقهُ في الغالب الصفويّة اللغويّة. انظر مثلاً: نقد إبراهيم اليازجيّ له في مجلة الطبيب، سنة 1884، ص286 وص 305 وص 347؛ والأب أنستاس ماري الكرملي: «مجلّة المجمع العلميّ العربيّ وأوهامها» في مجلة لغة العرب، 8 (1930)، ص ص 351 - 363، وفي آخره نقد لدوزي في مستدركه. أمّا نقل الكتاب إلى العربيّة فلم يُعْنَ به إلا في السنوات الأخيرة، فقد شرع المرحوم سليم النعيمي في ترجمته قبل وفاته ونشر من الترجمة خمسة أجزاء ظهر آخرها سنة 1982، وقد بلغ فيه نهاية حرف الزّاي.

أي الرصيدُ المعجميّ المدوّن في الكتاب والمنْهَجُ المتّبَعُ في تقديمِه.

1 ـ المادّة المعْجَميّة في الكتابَ:

يَفْضُل مُسْتَدْرَكُ دوزي معاجم اللغة العربيّة ـ قديمَها وحَدِيثَها ـ في مُسْتَوى الجمْع بميزات عديدة تنزّله منزلة رفيعة في تاريخ المعجميّة العربيّة. فالمؤلّفُ قد انطلق في جمع مادّته المعجميّة مُنْطَلَقاتٍ تختلف اختلافاً جذْريّاً عن مُنْطلقات المعجميّين القدمَاءِ والمعَاصِرين لَهُ. ذلك أنّ القدَمَاءَ قد عُنُوا بتدوين الفَصِيح من ألْفَاظِ اللغة، وقيّدُوا أنْفُسَهم في ذلك بمفْهوم ضيّق للفصاحة والفصَحَاء فلم يتجاوزُوا مِصْراً بعيْنِه هو جزيرةُ العرب وتُخُومُها وعَصْراً بعيْنِه هو عَصْرُ الاحتجاج، إلاّ قليلاً. أمّا المحدَثُون في عصر المؤلّف ـ وقد ألحّ على ذكر ثَلاَثَةٍ منْهم هم المستشرق الألمانيّ فرايتاغ (ت 1861) في معجمه العربيّ اللاتيني (1830) [6] والمستشرق الأنكليزيّ لان (ت. 1876) في معجمه العربيّ الانكليزي (1863 - 1877) [7] وبطرس البُسْتَانيّ (ت. 1883) في «محيط المحيط» (1870) ـ فقد اقتَفَوْا في الغالب آثار المعجميّين القدماءِ فاكتفَوْا بتدوين المادّة المعجميّة القديمة ولم يضيفوا إليْها إلاّ قليلاً من مُسْتَحْدَثِ الألفَاظِ بَعْدَ عَصْرِ الاحتجاج [8]. فكان الحديثُ ـ لذلك ـ في الغالب مرآة للقديم، وكانت الصّفَةُ الغَالِبَة عَلَى القدماء والمحدثين على السّوَاء الصفويّةَ المفرطةَ أحْياناً في جمْع اللغة وتدوينها، وذلك مُخالفٌ في نظر دوزي لقانون التّطوّر. فاللغة العربيّة لم تُصْبِحْ لغةً حيّة بحَقّ تعبّر عن مسْتَحْدَثاتِ العلم والفنّ والحضارة إلاّ في نهاية عصر الاحتجاج، أي في القرن الرابع للهجرة، ولَيْسَتْ جزيرةُ العرب هي التي مدّت العربيّة بطاقاتِها الجديدة بل الأمصَارُ. ولذلك وجب تَدْوِينُ المولّدِ

---

(6) Freytag (G.W) : Lexicon Arabico - Latinum - Halis Saxonum, 1830 - 1837 (4 vol.).

(7) Lane (E.W.): An Arabic - English Lexicon, Londres, 1863 - 1893, (8 vol.).
على أن الأجزاء الثلاثة الأخيرة منه من إتمام ابن المؤلّف.

(8) انظر نقد المؤلّف لمؤلفي المعاجم في: Supplément, I/ V - VI, XI .

والمسْتَحْدَثِ من الألفاظ والعبارات والدّلالات الجديدة التي طرأت على الألفاظ القديمة في مختلف الأمْصَار الإسلاميّة وفي مختلف العصُور. وذلك مَا حاوَل دُوزي أنْ يَقُومَ به ـ فقد استقرأ عدداً هائلاً من المصَادِر بلغ حوالي 450 مصْدَراً يَنْتَمِي معظمها إلى مَا بيْن القرن الرّابع والقرن العَاشر للهجرة؛ ثم إنّ معظم مصادِره نصُوصٌ نثريّة ممثّلة لاختصاصات عَديدة وضروب مختلفة من المعَارِف، أهمّها كتب التاريخ والتّراجم والطبقات والرحلة والجغرافية والإجازَات والشهادات والعقود والقصص والأخبار والموسوعات الأدبيّة والمجاميع والكنانيش وكتب الطبّ والنّبَات والفلاحة ومدوّنات الفِقْه[9].

وقد جمّع من تلك المصادر رَصيداً معجميّاً كبيراً ملأ جزئين كبيرين ذَوَيْ 1720 صفحة من القِطْع الكبير. والرَّصيد المدَوّن من الألفاظ والمصطلحات والعباراتِ مُمَثّل لمسْتوياتٍ مختلفة من اللّغة هي المولّد والعَاميّ والملحُون والمحرّف والشّاذّ والمعَرَّبُ والدّخيل. واهتمام المؤلّف بهذه المستويات يَدْعو إلى إبْدَاءِ ملاحظتَيْن: أولاهما هي أنّه دَالّ على مُنَاهضة المؤلّف للصّفَويّة اللّغويّة انْطِلاَقاً مِن مبدإ أنّ اللغة تتطوّر بتطوّر المجتمع وتطوّر حَاجَاتِ المجموعة التي تتكلّمهَا. وثانيتّهُما هي أنّ اهتمامه بهذه المستَوياتِ ليْس لخصوصيّات لسَانيّة مُمَيّزة لهَا، بل لأنّها عَنَاصِرُ أسَاسيّةٌ في المعْجَم مُتمِّمَة لرصيد اللغة الأصليّ، أي الفصيح. فالمؤلف يؤمن بوحدة اللّغة العربيّة وبالتكامُل بين مختلف مستويَاتِهَا. وهو رَغْمَ نقده الشديد للصفويّين وَالحَفَظَةِ على النّمط اللغَويّ التقليديّ الفصيح[10] قد حَمَدَ لَهُمْ خصْلةً: هي أنّ دِفَاعَهُم عن لُغَة القرآن وتَصَدِّيَهم للّحْن وتمسّكَهُمْ بقواعِد اللغة قد حافظت لِلُّغَة على وحدتها وخلّصَتْها من التّصَدّع والانقسَام إلى لغات مختلفَة كالذي حدث للّغة اللاتينيّة[11].

---

(9) انظر في نفس المصدر: XI - VIII/1، وانظر قائمة مصادره ومراجعه في نفس الموضع: XXX - XVII/1.

(10) Supplément, 1/V - VI

(11) نفس المصدر، VI/1.

إلّا أن مادّة المسْتَدرك المعجميّة لا تمثل في مُسْتَوى الجمْع المدَوّنة المثاليّة، فمظاهر النّقص فيها كثيرة. والحقيقة أن من مظاهر ذلك النّقص ما هو مُتَعمّد مَقْصُود. فقد أقْصى المؤلّف مجموعة كبيرَةً من الألفاظ والعبارات لم يَرَهَا صالحة لكتابِه، وخَاصّة ألْفَاظَ اللّغَة الحديثة ذاتَ الاسْتعمالاتِ الخاصَّة (مثل أسماء الأسلحة) أو المقترضَةَ من لغات أعْجَميّة هي الفارسيّة واليُونانيّة والتّركيّة والفرنسيّة والإيطاليّة والإسْبَانيّـة [12]، كما أهمَـل بَعْضَ جُمُوع المؤنّث السّالم وصيغَ التّصْغير والتّفْضيل واسمَ المرّة والصّفَة المشبّهَة من وزَن «فَعْلان» وأسْمَاءَ الحِـرَف المشتقّة من الجمـع (مثل بـراميلي)، ومجْموعَةً من الألفاظ قدّمتْها النّصوص المطبوعة قد اعتبرَها لم تُوجَد البَتّة لأنها من تحريف المحقّقين [13]. إلّا أن من مظاهر النّقْص ما كان ناتجاً عن تقصير في استقراء المصَادر وغفْلةٍ في الجمْع.

فالمصادر التي استقرأها المؤلّف كثيرةٌ بدون شكٍّ، لكنّها قليلةٌ جدّاً بالقيَاس إلى ما هو موجُودٌ بالفعْل. فالمؤلّف لم يَسْتَقرىء من المصَادر القديمة إلّا المطبوعَ الصادر في أوروبّا والمخطوطَ المحفوظ في بعض مكْتَبَاتِها، وخاصّة في مكتبات هولندة وإسبانية وفرنسة. ثم إن ميْلَ المؤلّف ـ بحكم اختصاصِه في التاريخ ـ إلى المؤلّفات المغربيّة والأندلسيّة قد جعَلَهُ لا يُعْنى إلا قليلاً بالمؤلّفات المشرقيّة. ثم إن اقتصَارَهُ على استقراء المؤلفات التي كُتِبَتْ بَعْدَ عَصر الاحتجاج قد جعَلَه يُهْمل مؤلّفات كثيرة في مجال العلوم خاصّة قد كتبت في القرن الثالث للهجرة، فلم ينظر ـ مثلاً ـ في مؤلفات الجاحظ والكِنْديّ وحُنَيْن بن إسحاق وإسحاق بن حنيْن وأبي بكر الرّازي وثابت بن قرّة وعلي بن ربّن الطبريّ وإسحاق بن عمران، وغيرهم، وفي مؤلفات أولئك جميعاً ألفاظ ومصطلحات كثيرة لم تدونها المعاجم العربيّة.

ثم إنّ المؤلّف لم يسْتَقرىء المصادر التي اعتمدَها نفْسَها استقراءً

(12) نفس المصدر، XII/1.

(13) نفس المصدر، XV/1.

منهجيّاً دقيقاً، فغفل عن تدوين ألفَاظٍ ومصطلحات كثيرة وردت فيها، وهي لا تنتمي إلى الأصْنَافِ التي تعمّد إسْقَاطَهَا. ونكتفي هنا بالإشارة إلى بعْضِ المصطلحات التي وردت في مصْدَرٍ له أسَاسيّ قد أكثر من ذكْرِه هو «الجامع لمفـردات الأدوية والأغـذية» لأبي محمّـد عبـد الله بن البيـطار المـالقي (ت . 646 هـ/ 1248 م). ففي «جامع» ابن البيطار مصطلحات مستحْدَثة كثيرة لم تدَوّن في المستدرك، نذكر منْها مصطلحات «آذان الغزال» [14] و «آكـل نـفسـه» [15] و «أخـشـيـنـة» [16] و«أرَاذْنـي» [17] و «أفَـرْسَـق» [18] و «أقْجالّة» [19] و «أنُوشَة»[20] و«جامع البضْع» [21] و «جَبَرْيُول» [22] و «خانق الذئب» [23] و «خانق الكرسنَّة» [24]. . . . إلـخ. والغريب أن من الألفـاظ والمصطلحات مَا عثر عليْه في مصادره وذكره عرَضاً ضمن مداخلَ في الكتاب لكنّه لم يدوّنْهُ في مواضِعِه ولم يذكر له تفْسِيراً، ونذكر من هذا الصنْفِ مصـطلحـات «أشخيص» الـذي ذكـره عـرضـاً في «شـوك العلْك» تحت «شوك» [25] ، و «بَبْرُور» الذي ذكره في «حربث» [26]، و «بُوَالُه» الذي

---

(14) ابن البيطار: الجامع لمفردات الأدوية والأغذية، ط. 1، بولاق. 1291 هـ/ 1874 م (4 أجزاء في مجلدين)، 17/1؛ وانظر ترجمة الكتاب الفرنسيّة: Le Traité des Simples par Ibn El-Beithar, trad. française par Lucien Leclerc, 1 ere éd, Paris, 1877 - 1883 (3 vol), آذان الأرنب.(:no 35) 31 - 1/31

(15) نفس المصدر، 52/1 (ط.ب)، 124/1 (ت.ف)، (رقم 134).

(16) نفس المصدر، 92/4 ب (لبسان، وفيها «أخشنيّة»)، و 220/3 ت(رقم 2006).

(17) نفس المصدر، (مادّة لِسَان الجمل)، 108/4 ب، 237/3 ت (رقم 2024).

(18) نفس المصدر ، (مادة سرخس)، 7/3 ب (وفيها «أفوسق»)، و 242/2 ت (رقم 1167).

(19) نفس المصدر، (مادة قوقاليس)، 40/4 ب (وفيها «أقحاله»)، و 121/3 ت (رقم 1852).

(20) نفس المصدر، (مادّة سطاخيس)، 14/3 ب، (وفيها «أقوشة»)، و 251/2 ت (رقم 1182).

(21) نفس المصدر، (مادّة أولسطيون)، 67/1 ب، 167/1 ت (رقم 167)، وقد ذُكِرَتْ ترجَمتُه فقط.

(22) نفس المصدر، (مادةّ أقسياقنشش)، 49/1 ب (وفيها «حيربول»)، 115/1 ت (رقم 123).

(23) نفس المصدر، (مادَّة خانق الذئب)، 44/2 ب، 2/2 ت (رقم 784).

(24) نفس المصدر، (مادَّة خانق الكرسنّة)، 2/ 45 ب، 3/2 ت (رقم 736).

(25) Dozy: Supplément, 1/805

(26) نفس المصدر، 266/1.

ذكره في «انجبار» تحت «جبر» [27]، و«شَبُقة» وقد ذكره في «بُل» تحت «بَلّ» [28] و«فِلْجه» وقد ذكرَهُ في «سرخس» [29] و«مُرّيش» وقد ذكره في «تُفّاح رياشِي» تحت «تفح» [30]. . . إلخ.

ويمكن أن ندرج ضمن مظاهر النّقص في مستوى الجمع مَظْهَراً آخر لَيْس لَهُ في الكتاب ظهور بارزٌ لكنّه يَسْتَحق الإشارة، ونعني به الخطأ والتّحْريف في قراءة الألفاظ، وقد أدّى هذا الخلْطُ إلى تكرار بعض المداخل أوْ وضعها في غيْر مواضِعِها من الكتاب جهْلاً بحقيقة كتابتها. ومن أمْثلة هذا التّحْريف قراءتُه «بسكير» بالسّين [31] عوض «بشكير» بالشين، و«بلغوظة» بالبَاء [32] عوض «تلغوظة» بالتّاء، وقد ذُكر صَحِيحاً في كتاب الجامع لابن البيطار [33] وذكر هو نفسُه شكليْن آخريْن له بُدِئاً بالتّاء هُمَا «تَالغُودة» [34] و«تَلْغُودَة» [35]، و«تامَكسْود» بالتّاء [36] - وقد وَهِمَ فيه بسبب التّاء فاعتبره بربريّاً - عوض «نامَكْسُود» وهو مصطلح فارسيّ يُرْسَمُ عادة «نمكْسُود» كما رَسَمَهُ هو نفسُه في حَرْف النّون [37] وأعَادَ معه التّعْريف الذي ذكَرَهُ من قبل في «تامكْسُود»، و«طاس» بالطاء [38] عوض «صَاص» بالصّاد، وهو نفْسُه «الأصّاص» [39] و«الازّازُ» [40] اللّذان ذكرَهُما في الجزء الأوّل، وثلاثتها

(27) نفس المصدر، 1/40.

(28) نفس المصدر، 1/107.

(29) نفس المصدر، 1/647.

(30) نفس المصدر، 1/148.

(31) نفس المصدر، 1/87.

(32) نفس المصدر، 1/114 .

(33) ابن البيطار: الجامع، 1/5 ب، 1/9 ت (رقم 3، مادّة «اكثار»).

(34) Dozy: Supplément, 1/139

(35) نفس المصدر، 1/151.

(36) نفس المصدر، 1/139.

(37) نفس المصدر ، 2/726.

(38) نفس المصدر، 2/14.

(39) نفس المصدر، 1/26.

(40) نفس المصدر، 1/19 .

ألفاظ بربريّة تعني المثنان وحبّ المثنَان. . . إلخ.

إلاّ أنّ هذه المظاهر من النّقْص في مُسْتَوى جَمْع المادّة المعجميّة لا تُنْقِصُ في الحقيقة من قيمة الأضافة المهمّة التي استدرك بها دوزي على المعاجم العربيّة، بل إن وجُودَها مُتَوَقَّعٌ لأن العمل الذي أنجزه عمل فرْدِيّ لا يمكن له بحال أن يخلص من الهَنَاتِ ويكونَ في مَنْجَاةٍ من النّقْص. وقد لمّح هو نفسُه في مقدّمة كتابه [41] إلى أن عمله بدايةٌ لإضافاتٍ لاَحِقَةٍ يقُومُ بهَا غيْرُه مستدْركاً عليّه. فالمستدركُ الذي أنجزه يمثّل إذَن كشْفاً مَفْتوحاً وبداية عَمل طويل المدَى لجمع المسْتحْدَثِ مِن الألفاظ والعبارات والـدلالات المولّدة.

2 ـ قضيّة المنْهَج في الوَضْع:

قد رأيْنا أن العمل الذي أنجـزه دوزي كان عملاً رائداً في مستوى الجمْع وأنّه يَتَنَزّلُ في تاريخ المعجميّة العربيّة المنزلة الرفيعة لأنّ المؤلِّفَ لم يَقْتَفِ آثار السَّلَفِ ولم يتقيَّدْ بمقولاتهم الصّفويّة بل انتقدها انتقاداً شديداً دفاعاً عن وحدة اللغة وإقراراً لمبْدَإِ تطوّر اللغة بتطوّر حاجات المجتمع الذي يسْتَعْمِلُها. إلا أنّ الرّيَادة والتجديد اللذين فَضُلَ بهما عمَلُه أعمالَ سَابقيه في مستوى الجمع يَتَضَاءَلاَنِ فـي مستوى الوَضْع لأن المؤلّف فيه كان مُقَلّداً إلى حدّ جعَلَهُ يقع في أخْطَاء منهجية تجـاوزَت حدّتُهـا أحْيَانـاً حدّة أخـطاء المعجميّين العَرب. ونكتفي هنا بدراسة مظهرين اثنيْن من مظاهر الوَضْع في المسْتدرك هما «الترتيب» و «التّعريف».

أ ـ الترتيب:

قـد اتّبـع دوزي في تـرتيب مـداخِـل معجمـه التـرتيبَ الألفبـائي العَـادِيّ بحسب الجـذور معـرّاة من الحـرُوف الـزوائـد. وهــذا تـرتيبٌ تقليديٌّ قديم قد اتبعَهُ بعض المعْجَمِيّين العرب القُدَامَى واتبعَه كُلّ المحدَثين

(41) نفس المصدر، 1/15.

المعَاصرين لهُ تقريباً من العَرب والمسْتَشْرِقين الذين ألّفُوا معاجمَ لغويّة. وقد أوْقَعَه هذا الصّنف من التّرتيب في أخطاء كثيرة كان البعْضُ منها فادِحاً. فالقسْمُ الكبيرُ من المادّة المعجميّة التي دَوَّنها لا يخضع لقواعِد العربيّة الفُصْحَى. ولذلك كان إخضاعه للتَّرتيب بحسَب الجذُور اعتبَاطيا. ولا شكّ أن المؤلّف لو رَتَّبَ مداخِلَهُ بحسب تتاليها غيرَ معرّاة من زَوائدها لخلُص من أخطاء منهجيّة كثيرة وكان رائداً بين المحدَثين من معاصريه. ونذكر فيما يلي أهمّ المشاكل المنهجيّة الخاصّة بالتّرتيب:

1 ـ وضع المداخل في غير مواضِعها، ولهذه الظّاهِرَة وجوهٌ أهمّها:

أ ـ الخَطأ في التّرتيب الألفبائيّ. وهذا الخطأُ نَوْعَان: أوّلُهُما نتيجة للسّهْو والغَفْلة وثانيهما نتيجة للإهمال وعدم التقيّد بمنهَج دَقيق. ومن أمْثلة الأوّل ذِكْرُ المؤلّف مداخلَ مُسْتَقلّة قبلَ أوْ بعد ما يجب أن يسبِقها أو يلحَقها من المداخل. ومن أمثلة ذلك ذكرُه «آذق» (41) بيْن «أذريون» و«أذن»، وصواب وضعه أن يكون بعد «آخور» (42) بيْن ذوَاتِ الهمزة الممدودة، وذكرُه «آنُك» (43) بين «أنقـون» و«إنكليز» وصوابُه أن يكون بعد «أأمليليس» (44)، وذكرُه «أجَاق» (45) بعد «أجَص» ومكانه قبل «أجر» (46)، وذكرُه «بابُونَج» (47) قبل «بابُون»، وذكرُه «بَلْبَشة» (48) بعد «بلبل» ومكانه بين «بلبز» و«بلبشيخ» السّابقيْن لـ «بلبل» (49)... إلخ. ومن أمثلة الخَطَإ الثّاني وَضعُه مداخلَ مركبّة من جزئيْن في مداخلَ مسْتَقِلة بحسب الجزء الثاني من المركب، ومن ذلك

(41) نفس المصدر، 15/1.
(42) نفس المصدر، 1/1.
(43) نفس المصدر، 42/1.
(44) نفس المصدر، 1/1.
(45) نفس المصدر، 11/1.
(46) نفس المصدر، 10/1.
(47) نفس المصدر، 74/1.
(48) نفس المصدر، 108/1.
(49) نفس المصدر، 108/1.

ذكرُه «أمّ قَرْغَي» [50] في حرف القاف، و «جلد قشيني» [51] في حرف القاف، و «صيام كيهك» [52] في حرف الكاف، و «عود قاقُلي» [53] في حرف القاف، و «نعال كنْبَنَانية» [54] في حرف الكاف، وصواب وضْعِهَا أن تكون تِبَاعاً في أبْواب الألف والجيم والصّاد والعيْن والنون.

ب ـ وضع الألفاظ الأعجميّة تَحْتَ جذور عربيّة صِرْفٍ. وهذه الظاهرة في الحقيقة من مشاكل المعاجم العربيّة القديمة والحديثة، وهي دَالة على اعتباطيّة حقيقيّة لأن اللفظ الأعجميّ لا يمكن أن يخْضَع لأصل اشتقاقي عربيّ إلاّ تَعَسُّفاً. وهذا الخطأ يمكن أن يقبل عندما يكون اللفظ الأعجميّ مجْهُولَ العجمة أوْ صعْب الإدْراك، لكنه لا يُقبَلُ البتّة عندمَا يكون اللّفظ ظَاهِرَ العجمة مَعْرُوفاً. ومن أمْثلة هذه الظاهرة إيرَادُ «بُجُون» و «بُجّون» [55] ـ وهما اسْبَانيَّان ـ تحت جذر «بجن»؛ و «پُرّة» [56] و «پُرُوريّة» [57] ـ وهما إسْبَانيَّان أيضاً ـ تحت جذر «برّ»؛ و «بَرُوتا» [58] ـ وهو سُريانيّ ـ تحت «برت»؛ و «بُق» [59] ـ وهو إيطاليْ ـ تحت «بقّ»؛ و «بَقْلاَوَة» [60] ـ وهو تركيّ ـ و «بوقال» [61] ـ وهو يوناني ـ تحت «بقل»؛ و «بُل مرين» [62] ـ وهو لاتيني ـ تحت «بلّ»؛ و «تفّاف» [63] ـ وهو

(50) نفس المصدر، 2/333.
(51) نفس المصدر، 2/351.
(52) نفس المصدر، 2/536.
(53) نفس المصدر، 2/296.
(54) نفس المصدر، 2/491.
(55) نفس المصدر، 1/52.
(56) نفس المصدر، 1/61.
(57) نفس المصدر، 1/62.
(58) نفس المصدر، 1/64.
(59) نفس المصدر، 1/102.
(60) نفس المصدر، 1/104.
(61) نفس المصدر، 1/104.
(62) نفس المصدر، 1/107.
(63) نفس المصدر، 1/147.

بَرْبَرِيّ - تحت «تفّ»؛ و«شَوْبَك» [64] - وهو فَارِسِيّ - تحت «شبَك»؛ و «شَبين» «و«إشبين» - وهما سُريـانيّان - و «شِبِين» - وهـو إسبانيّ - و «شَبِّين» [65] - وهـو لاتينيّ - تحت «شَبن».

ج - إقحام ألفاظٍ بدَايَاتُها حُروفُ أعجميّة صِرْفُ لا وجُودَ لها في العربيّة الفُصْحَى المكتوبة ضمن أبواب الحروف العربيّة أو تحت جُذُورٍ عَرَبيّة. ولا شكّ أن الدقّة والأمانة تَفْرضَان وضْعَها في أبْوابٍ مستقلّة لَهَا تحت حروفٍ جديدة مُسْتَحْدثة في العربيّة. وذلك في حدّ ذاته مظهر من مظاهر التجديد في المعجم العربيّ ليْس له فيما مضَى سَابقٌ. إلاّ أنّ المؤلّف قد تعسّف فأخضع الحروف الأعجميّة الصّرْفَ للنظام الصوتيّ العربيّ دون أن يراعِيَ بذلك خصائص النطق والكتابة الدّخيليْن على العربيّة. ومنْ أمْثلة الألفاظ الموضوعةِ في أبـواب الحُـروف العـربيّـة نـذكـر «پَـاپَـا هيغـو» [66] و «پـاپي» [67] و «پزتقيز» [68] و«پُرّجُون» [69] في باب البَاء؛ و «چَيْقُن» [70] و «چنجـور» [71] و «چكـال» [72] - ونطق «ج» الفـارسيّـة هو «Č» = Tch - في بـاب الجيم؛ و «ڭرڭاع» [73] و «ڭرْوَنّش» [74] - بالڭاف (G) الفارسيّة - في باب الجيم أيْضاً، و «ڭرْنَز» [75] و«ڭرنين» [76] و «ڭرْواط» [77] - بالڭاف الفارسيّة أيضاً - في باب

(64) نفس المصدر، 724/1.
(65) نفس المصدر، 724/1.
(66) نفس المصدر، 47/1.
(67) نفس المصدر، 47/1.
(68) نفس المصدر، 64/1.
(69) نفس المصدر، 65/1.
(70) نفس المصدر، 171/1.
(71) نفس المصدر، 174/1.
(72) نفس المصدر، 202/1.
(73) نفس المصدر، 181/1.
(74) نفس المصدر، 189/1.
(75) نفس المصدر، 461/1.
(76) نفس المصدر، 461/2.
(77) نفس المصدر، 462/2.

الكاف، ومن أمثال الألفاظ المدرجة تحت جذور عربيّة «پُرّة» [78] تحت «برّ»، و«پِنّـة» [79] تحت «بنّ» ، و«پُـلْپ» [80] تحـت «بلب»، و«پُـلّوطـة» [81] تحت «بلَط».

2 ـ وَضْعَ الجذور الوَهْمِيّة: فقد دفعَت المؤلّفَ رَغْبَتُهُ في التـرتيب بحَسـب الجذور ـ آقتفاء لآثار القدمَاء ـ إلى وَضْع جذور وهميّة لألفاظ أعْجميّة لَيْس لها بظاهرة الاشتقاق في العربيّة صِلَةٌ. بل إنّ من الجذور الوهميّة ما هو ناتج عن محض الخطإ في تصوّر الأصْل العربيّ للفظ المشتَقّ. وهذا المظهر الثّاني مَرْفوض كليّاً لأنه قائم على خطإ، أمّا المظهر الأوّل فيمكن أنْ يُغْتَفَرَ لمعجميّ عَرَبيّ قديم يصْعُبُ عليه التّمْييز بين الأعجميّ الخالص والعَرَبيّ الخَالِص فيشتَقّ من العربيّ الأعْجمِيّ تعَسُّفاً، لكنّه لا يَغْتَفَرُ لمعجميّ مُحدَث مثل دوزي عارِفٍ بأصُول الألفاظ الأعجَميّة عليمٍ بأصُول الاشتقاق في العربيّة. والغريـبُ أنّ دوزي قد انتقدَ هذه الظاهرة عند بطرس البُسْتاني في محيط المحيط انتقاداً شديداً، فقد أنكر علَيْه اشتقاقه أفْعَالاً في صيغة الماضي (Des verbes au prétérit) من مَصادِرَ وأسماء فاعِلٍ وأسماء مفعول لم يذكُر الجوهري والفَيْـرُوزَابَاديّ غيرهـا في معجَمَيْهِمَـا [82]. ونذكُـر من صِنْف المداخل الاعتباطيّة الأوّل «بطرس» وقد وضع تحته لفظاً يونانيّاً هو «بطارس» [83]، و«بطرق» وقد وضع تحته «بَطرقة» و«بِطْريق» [84] واللفظان من أصْل يونَاني؛ و«بطرك» وقد وضع تحته لفظين يونانيّيْن أيضاً من جنس اللفظين السّابقين هما «بطركية» و«بَطْرَكْخَانـة» [85] ـ وفي هذا اللفظ الثـاني لاحقة

(78) نفس المصدر، 61/1.
(79) نفس المصدر، 116/1.
(80) نفس المصدر، 108/1.
(81) نفس المصدر، 112/1.
(82) نفس المصدر، XI/1.
(83) نفس المصدر، 94/1.
(84) نفس المصدر، 94/1.
(85) نفس المصدر، 94/1.

تركيّة ـ؛ و «بلظ» وقد وضع تحْتَه «بُلَيْظة»[86] وهو لاتيني إسْبَانيّ؛ و «طجل» وقد وضع تحْتَه «طجولة»[87] وهو لفظ إسْبَانيّ. ونذكر من المظهر الثاني القائم على الخطإ المحْض وضْعَه «تَجه» أصْلًا لـ «تجاهَهْ»[88] وَالصّوَاب «وجَه»؛ ووضْعَهُ «تَهَم» أصْلاً لـ «اتّهَم» و «تُهْمَة»[89] والصّواب «وهم».

3 ـ تعدّد المداخِل الفرعيّة في المدخل الرئيسيّ الواحِد: ذلك أنّهُ قد يجد لِلَفْظٍ مّا بدَلاً أو بَدَائِلَ ـ أي أشكالاً كتابيّة مختلفة ـ. والمنهجيّة الدقيقة توجب في مثل هذه الحالات وَضْعَ كُلّ بَدَلٍ في موْضعه من المعْجَم بحسَب مَا يقتضيه التّرتيب، وذكْرَ تعريف اللّفظ مع المدْخل الأشهر استعْمَالاً ويُكتَفَى مع البَدَائل بالإحالة إلى موضع التّعْريف. وقد فعل دوزي ذلك أحياناً فذكر البَدَائل مجتمعة مَع الأصل الذي اختاره مَدْخَلاً ثم وزّعها في مواضعها بحسَب ما يوجبُه ترتيبُها. إلا أنّه لم يتقيّدْ بطريقة مُوَحّدَةٍ فكان يذكر البدائل كلّها في مواضعها أحْيَاناً، ويذكر بعضها ويهمِل بعْضَها أحْيَاناً أخْرى، أو يُهْمِلُها كُلّياً فلا يذكر أيّاً مِنْها. ونذكر من المداخل المتعدّدَة التي جمّعَت في مَدْخل رئيسيْ وَاحِدٍ ولم توَزّع في مواضِعِها أمثلة «بدسْقَان» وقد ذكرت معهُ ثلاثـة بدائلَ هي «بدسْكـان» و «بَداسقَـان» و «بداسْكان» [90]، و «تودَريح» وقد ذكرتْ معَهُ خَمْسَةُ بدائلَ هي «تودريج» و «تودري» و «تودرج» و «تُـدَرْج» و «توذري» [91]؛ و «قسطوريون» الذي ذُكِرَ معه بديلاَنِ هما «قَسْطَارْيُون» و «قِرسْطَارْيُون» [92].

ولهذا المظهر صِلَةٌ بِمَظْهَرٍ آخر ليس أقلّ دلالة على الخلط المنهجيّ

(86) نفس المصدر، 112/1.
(87) نفس المصدر، 27/2.
(88) نفس المصدر، 142/1.
(89) نفس المصدر، 153/1.
(90) نفس المصدر، 57/1.
(91) نفس المصدر، 154/1.
(92) نفس المصدر، 345/2.

من المظهر السّابق. وذلك أن دُوزِي يـورد في مواضعَ كثيرة من كتابه لفظاً مّا مَدْخَلاً رئيسيّاً أو مَدْخلاً فرعيّاً تحت جذر من الجذور ويثبت معَهُ بديلاً له ويعرّفهما معاً. ثم يعيد ذكر البديل في مَوْضِعه مَدْخلاً رئيسيًّاً أو تحت جـذر آخر ويذكر معَهُ بديله الذي ذُكِرَ من قبْلُ مَدْخلاً ثم يعيد نفْسَ التّعْرِيف الذي سبق ذكرُه في المدْخَلِ الأوّل. وهذا في الحقيقة ضربٌ من الحَشْوِ الصّريح. ونذكر من أمثلة هذه الظاهرة «إشبين» و «شبين» وقد ذكرا تحت «إشبين» [93] ثم أعِيدَا تحت «شبن» [94]. وقد فُسِّرَا في كلا المـوضعيْن؛ و «إشبينة» و «شبينة» وقد ذكرا تحت «إشبين» [95] ثم تحت «شبن» [96] وفسِّرَا في كلا المَوْضِعيْن؛ و «إفرنجيّة» و «فرنجيّة» وقد ذكِرَا معاً في باب الهمزة[97] وفي باب الفَاء[98] وفسّرَا في كِلا الموضعيْن. . . إلخ.

ذلك بعْضٌ من المشاكل المنهجيّة التي يثيرُها التّرتيبُ في مستدرك دوزي. وهي مشاكل ناتجة عن رغبة المؤلّف في اقتِفَاء آثارِ المعجميين العَرَب القُدَامَى بدُون وَعْي لقضايا المنْهَج التي تثيرُها طرقُهم في الوَضْع المعْجَميّ.

ب ـ قضيّة التّعرِيف:

قد فضّل دُوزي ـ لسبب لم يذكُرْه ـ أنْ يكون مُسْتَدْرَكُه مثل المعاجم التي ألّفَهَا غيرُه من المستشرقين، أيْ ثنائيّ اللغة، فكان عربيّاً فرنسيّاً، تُذْكَرُ فيه المداخلُ بالعربيّة ويقدّم الشّرْحُ باللّغة الفرنسيّة. فهو إذَنْ كتابٌ مُوَجَّه أسَاساً لغير النّاطقين بالعَربية. ولا شكّ أنّ المؤلّف قد نحا هذا المنحى

(93) نفس المصدر، 24/1.
(94) نفس المصدر، 724/1.
(95) نفس المصدر، 24/1.
(96) نفس المصدر، 724/1.
(97) نفس المصدر، 28/1.
(98) نفس المصدر، 262/2.

لسُهُولته بالنسبة إلى مسْتَشْرق تمثّل العربيّة عنده لغة كتابة وليس لغة خطاب. وبغَضّ النظر عن هذا المظهر الذي جعل الشروح ترجمات شديدة الاقتضاب في الغالب، يكون المستدرَكُ مُعْجماً ثنائي اللغة غزير الفائدة بالنّسبَة إلى المستشرقين ومتعلّمي العربيّة من غيْر النّاطقين بهَا.

إلاّ أن الكتَاب يثير، أمَام المستَعْرب والعربيّ على السّواء، مشاكل منهَجيّة في مُسْتَوى التّعْريف تتنزّل في صميم القضايَا التي يثيرُها التّعْريف في المعجم العربيّ. ونقدّم فيما يلي أهمّ تلك القضايَا.

1 ـ ظاهرة الحشو: وهي ناتجة عن تكْرار بعض المدَاخِل في أكثر من موضع مع تعريفها. ونخصّ بالذكر هنا ظاهرة التكرار في المداخل المركبّة. فقد بيّن المؤلّفُ في مقدّمة كِتابه طريقته في إثبات المداخل المركّبة وقال إنّها مرتبَةٌ بحسب الجزء الأوّل منها، إلاّ في حالات نادرة. ولكن لاحظنا ونحن نطالع الكتابَ أن النّوادر كثيرةٌ، وأنّ المؤلّف قد اضطرب اضطراباً كبيراً في إثبات المداخِل المركّبة ولم يتّبع طريقة مضبوطة فإذا هو يثبت مداخل بحسب جزئها الأول وأخرى بحسب جزئها الثاني وأخرى بحسب الجزئين مَعاً فيكرّر بذلك اللّفظ المركّب في موضعيْن اثنينْ ويكرّر معَهُ تعْريفهُ. وقد كان يكْفيه ذكْرُ اللّفظ في الموضع الثاني والإكتفاءُ بالإحالة في التّعريف على الموضع السّابق. ومن الأمثلة الدالّة على هذه الظاهرة تعريفُه «حجر الإسفنج» تحت «اسفنج»[99] وتحت «حجر»[100] و«سمك الترس» تحت «ترس»[101] وتحت «سمك»[102]، و«طير أبابيل» تحت «أبَل»[103] وتحت «طير»[104].

---

(99) نفس المصدر، 22/1.
(100) نفس المصدر، 250/1.
(101) نفس المصدر، 144/1.
(102) نفس المصدر، 686/1.
(103) نفس المصدر، 3/1.
(104) نفس المصدر، 79/2.

2 ـ التّعْريف السّطْحيّ: وهو تعريف مُبْهَم يُخْبَرُ فيه عن اللفظ المعرّف إخباراً غامِضاً لا يُوضِّحُ دلالَتَهُ. وهذا النّوعُ يشبهُ كثيراً تعْريفَ القدمَاءِ حيواناً أو نباتاً مًّا بعبارة «مَعْرُوف» أو «هو من الحيوان» أو «هو من الشجر». فدوزي أيْضاً يُعَرِّفُ بعْض الأشياءِ بأنّها «ضرْبٌ» أو «نوع» من كذا. ومثال ذلك تعريفُه «أُرَان» [105] و «أصْغَرني» [106] و «بلمو» [107] جميعَها بعبارة «نوع من السّمك»، وتعريفُه «تامْجَاثُت»[108] بأنّه «ضرب من الشّجَر»، و «بطيمُس» [109]» بأنه «ضربٌ من الطيْر» و «أمنق» [110] بأنّه «نوع من النّعَال» و «تَنْتُوَاس» [111] بأنّه «نوع من الحجارة»... إلخ.

3 ـ تعريف المجهول بالمجْهُول: وتمثل هذا الصّنْف من التّعْريف مجموعَةٌ من المداخِل قد ورَدَت فيها مصطلحاتٌ نباتيَّة قد عرّفها دوزي بأسمائها العلميّة اللاتينيّة الحديثة لا غيْرَ. ومن المعلوم أنّ هذه التّسْمياتِ العلميّة اللاّتينيّة مختلَفٌ فيها اختلافاً كبيراً، وأنّ الراسخين في العلم بدَلالاتها قِلّةٌ هم أهْل الاختصاص من عُلماء النّباتِ، وأنّ أسماء أعْيَانِ النّباتِ في الوطن العربيْ ـ وخاصّة القديمة ـ مختلفٌ في دلالاتها اختلافاً كبيراً لأن الاسم الواحِدَ قد يُسْتَعمل في أكثر من منطقةٍ لكنّه لا يدُل بالضّرورة على نبات وَاحد، وهذا يقْتَضي معرفةً جيّدة بالاختلاف في تلك الأسْماء وبالدّلالات الحقيقيّة التي لها وبأعيان النباتِ التي تدُلّ عليها، ولاَ نظنّ أن دوزي كان قد اكتسَبَ هذه المعرفة العلميّة بالنّباتات العربيّة، فهْو لم يكن عالِمَ نبَاتٍ ولم تكن له بطبيعة النّبِيتِ العَرَبيّ مَعْرِفةٌ. وقدْ لَمَّحَ هو نفسُه في

(105) نفس المصدر، 19/1.
(106) نفس المصدر، 24/1.
(107) نفس المصدر، 115/1.
(108) نفس المصدر، 139/1.
(109) نفس المصدر، 96/1.
(110) نفس المصدر، 33/1.
(111) نفس المصدر، 53/1.

مقدّمة كتابه إلى هذه الصّعوبة وذكر أنّه كان يسْتعين في تذليلها بمصدَرَيْن أحَدُهما كتَاب في علم النبات صادر في ليدن سنة 1608 لعالم في النبات اسمه «Dodonaeus» والآخَرُ عالمٌ شابٌ في النّبات كان يلجأ إليْه للاستعانة به أحْياناً اسمُه «تروب» (Treub) [112]. ولكن حتّى إذا افترَضنا مطابقة التّسْميات العلميّة اللاتينية التي ذكرها للمصطلحات العربيّة فإن التّعْريف الذي ذكره لتلك المصطلحات يبْقى مجْهُولاً عند القارىء غيْر المتَخَصّص وتبقى ـ لذلك ـ فائدته ضئيلةً جدّاً. ونذكر من هذه الظاهرة أمثلة تعريفه «أرْقان» بـ «Elaeodendrum Argan» [113] و «تابَلْحُوت» بـ «Centaurea Fuscata Desf» [114] و «تافغوت» بـ «Cardancellus pinnatus» [15] و «جنْجر» بـ «Dipsacus fullanum» [116] و «حشيشة الدّاحِس» بـ «Polycarpon tetraphyllum» [117]... إلخ.

ـ خاتمة:

ذلك بَعْضٌ من مشاكل الجمْع والوَضْع في «المستدرك على المعاجم العربيّة». وهي مشاكل تبيّن أن قيمة الكتاب في مُسْتوى الجمع أكْبَر بكثير من قيمته في مستوى الوَضْع. فقد بذل دوزي جُهْدَاً في جمع رصيده المعْجَميّ المدَوّن لا نعْلم أن أحَداً من المحدَثين العرَب والمستعْربين قد قام به. فكان الكتابُ ـ لذلك ـ إضَافةً نفيسَةً إلى المعْجم العربيّ وفتْحاً جليلاً في تاريخ المعجميّة العربيّة. فهو أوّلُ مُعْجَمٍ يقرّ بما لِلُغَة الأمصَار الإسلاميّة من دوْر في إثراء اللغة العربيّة ويَنْطلق من مَبْدَإٍ أنَّ الفصَاحَة فصَاحَاتٌ وأن اللغة العربيّة كغيْرها من اللغات كائن حَيّ متطوّر وأنّ معجم اللغة العربيّة كشف مفتوحٌ لا

(112) نفس المصدر، XV - XIV/1.
(113) نفس المصدر، 1/1.
(114) نفس المصدر، 138/1.
(115) نفس المصدر، 139/1.
(116) نفس المصدر، 223/1.
(117) نفس المصدر، 289/1.

يمكن أن ينغلق على لغةِ عصْرٍ بعيْنه أو مِصْرٍ بعيْنِه. ثم هو كتَابٌ قد دُوِّنَ مُعْظَمُ المادّة المعجميّة التي فيه انطلاقاً من استقْراء النّصوص - وقَدْ كان مخطوطُها لا يقلُّ عدداً عن مطبوعِها - وليْس اعتِمَاداً على نقل مَا دوّنتْه المعَاجمُ القديمةُ. إلاّ أنّ دوزي لم يخْلُصْ في مستوى الوَضْع من تأثير المعاجم القديمة فوقع في بعْض المشاكل المنهجيّة التي وقعت فيها وخاصّة في مُسْتوى الترتيب. على أنّ الترتيب - والتّعْريفَ أيضاً - من القضايا التي لا يزال المعْجَميّون العَرب المُحْدَثُون أنفُسُهم يتخَبّطُون فيها في المعاجم التي وضعوها، لغويّة عامّة كانت أوْ مُخْتَصّةً. فليْس غريباً أن تطرَأ تلك المشاكل على عمل عالم لم تكُن المعجميّة همَّهُ الأساسي، فقد كان دوزي مؤرخّاً قبل أن يكون معجمياً. ولكنّ عمله - رغم تلك المشاكل - قد فتح للمُعجميّة العربيّة باباً جديداً لم يكن لها به سابق عَهْدٍ.

إبراهيم بن مراد

كلية الآداب، تونس

ملاحظات على معجم دوزي وانكلمن

بحث: الدكتور حكمة علي الأوسي

إن بنا ـ نحن العرب ـ لحاجةً إلى أن نقوِّم أعمال المستشرقين تقويماً موضوعياً بعيداً عن الأفكار المسبقة والانفعال، لنتبين ما في أبحاثهم من حقائق قد تسوؤنا أو تسرّنا، وفي كلتا الحالتين، نقترب أكثر من استكمال معرفتنا لأنفسنا سلباً وإيجاباً، فإن عيوب الإنسان ونواقصه قد تخفى عليه ويصعب اكتشافها، وقد تظهر لغيره أو لغريمه فيعرضها من باب الحرص أو الإشفاق أو من باب الزراية والإيذاء، وفي كلتا الحالتين تحدٍّ للمرء يمكن أن يفيد منه ليعرف مواطن القوة فيه، ويتبيّن مواطن الضعف، وفي ذلك كله نفع عظيم مهما كانت أهداف العائب الزاري ودواخلُه، أو مقاصدُ المشفق الحريص ومراميه.

ومهما يُقَلْ عن أهداف المستشرقين ومراميهم والمنطلقات التي ينطلقون منها، في أبحاثهم عن تراثنا، وقربهم فيها من الموضوعية أو بعدهم عنها، فإن تقويم أعمالهم والنتائج التي توصلوا إليها، سيبقى من مهامنا الأساسية، نحن أبناء هذا التراث، وسنظل نحن لا غيرنا، الأقدر على الوفاء به، والأجدر في القيام بمتطلباته، ذلك أنه يأتي في مقدمة التحديات التي تواجهنا، في مجال دراساتنا التراثية، أي في مجال بحثنا في جذور شخصيتنا القومية.

إن هذا الطريق وعر وشاق، ولكن علينا أن لا نتوقف، لحظة، عن السير فيه صعداً. وما ندوتنا هذه إلّاخطوة واعية في هذا الطريق السديد.

وليست النتائج التي تتوصل إليها أمثال هذه الندوة العلمية شيئاً أكاديمياً فحسب، بل إنّ لها، في تقديري، نتائجَ عمليّة يمكن أن تفيدنا، في مجال الإعلام العلمي الموثق، لا التهريجي المنمق، إذا ما عمدنا إلى دراسة أعمال المستشرقين وتقويمها، وتحديد ما فيها من أبحاث موضوعية تثمن تراثنا، وتبيّن دوره في خدمة التقدم الإنساني، فنسعى إلى نشرها بلغتها الأُم التي كُتبت بها في طبعات أوروبا تيسّر لها الانتشار على أوسع نطاق. فسيكون لهذا تأثير عميق في المجتمعات الأوربية، وصدى بعيد في نفوس أبناء لغاتها. لأن المتحدث إليهم عنّا وعن تراثنا أوربي منهم، يحدثهم بلغة هي لغتهم، وبمنطق يتغلغل في نفوسهم لأنه منطقهم. لا يمكن لكتابات أي عربي أو مسلم بأي لغة أوربية كُتبت عن تراثه، أن يُقنع القارئين كما يمكن أن يقنعهم الكاتبون المتخصصون من أهليهم من هؤلاء المستشرقين المنصفين، مهما كانت دوافع إنصافهم.

وهكذا يمكن أن تكون، لأمثال هذه الندوات العلمية المخصصة لأمثال هذه الكتابات الاستشراقية قيمة عملية ذات تأثير خطير في الإعلام العلمي لأمتنا في المجتمعات الأوربية المشبعة بإعلام مغرض أُحادي الجانب هو الإعلام المعادي.

بعد هذا كله نود أن نقف عند عمل دوزي وانكلمن العلمي هذا المتمثل في معجمهما «الكلمات الإسبانية والبرتغالية المشتقة من العربية». فما أهمية هذا المعجم لنا ولتراثنا؟

إن الإحاطة بأصول المفردات في أي لغة من اللغات عمل علميّ في غاية الأهمية لأنه يبيّن المركبات الحضارية والنفسية لشعوبها، كما يبيّن مقدار ما فيها من أصالة وإبداع وعطاء، ونوعية الإضافة والعطاءات التي أسْهَمْت بها اللغة المانحة في المسيرة الإنسانية. وفي هذا تعبير ذو دلالة عميقة عن غنى الشخصية القومية لأبناء اللغة المقرضة، وعن مدى أصالتها وقوة جذورها وعمقها في التاريخ الحضاري. وبعد هذا كله، فإنه دليل علمي مادي لا

سبيل إلى دحضه وتفنيده، على الرقي العقلي والحضاري الذي يتمتع به أبناء اللغة المانحة. ذلك أن المفردات المقترضة، في الغالب، مفردات حضارة، فهي تعبير، إذن، عن تأثير حضاري وعلمي بادلة الألفاظ المقترضة.

فإذا ما صدر هذا العمل العلمي الحضاري من مستشرقين مثل دوزي وانكلمن، هل يصح لنا أن نرفضه أو نتجاهله، لما في بعض كتابات دوزي الأخرى مما لا يُرضينا ؟

إن الجهد العلمي الذي بذله دوزي وانكلمن في مُعجمهما يدعو إلى الإعجاب والإكبار. إلاّ أن هناتٍ يمكن أن تُؤخذ عليه. والملاحظات التي يمكن أن تؤخذ على هذا العمل العلمي الجليل لا تعدو أن تكون بِسَبَب سعة الموضوع وتشعبه، وامتداد جذوره في أعماق الأحداث التّاريخيّة والحضارية المعقدة.

من هذه الملاحظات أن دوزي لم يُعر إهتماماً يذكر للعلاقات المجازية للألفاظ المُقتَرَضَة من العربية وما تؤدي إليه من تطور دلالاتها في اللغة المقْتَرِضَة (انظر مثالاً لهذا اللفظة شبكة: Jabeca).

ويلاحظ أن من الأسس المهمة التي اعتمدها في تمييز الأصول اللاتينية أو العربية للألفاظ الإسبانية والبرتغالية، التشابه اللفظي، ولكنه لم يقرن ذلك، دائماً، بالعناية بالتطابق الدلالي أيضاً، ولا حتى بالتشابه المعنوي دون التطابق، في بعض الأحيان، ولو فعل ذلك لاستطاع أن يميز أو يرجح الأصل العربي المحتمل لكثير من الألفاظ الإسبانية مما سيرد في مسرد «كلمات ذات أصل عربي محتمل لم ترد في معجم دوزي وانكلمن».

وهكذا فاتته ألفاظ أصلها العربي واضح، ولم يتنبه إلى ألفاظ أخرى يحتمل احتمالاً قوياً أن تكون من أصول عربية. وكان من المتوقع من دقة دوزي ومن علمه الواسع المحيط أن يعنى بدراستها لعله يستطيع أن يتبيّن لها أصلاً عربياً ، أو يُضعف، على الأقل، هذا الاحتمال، كما فعل في مجموعة

من الألفاظ في معجمه، حيث لم يصل إلى قناعة بعربيتها، مثل Candil، و Xarragui و Xaraiz.

ومما يلاحظ أيضاً أنه لم يُعر الاهتمام اللازم بالاشتقاقات التي تفرّعت عن اللفظة العربية المستعارة في الإسبانية والبرتغالية، تلك الاشتقاقات التي أغنت هاتين اللغتين بمئات من المفردات الجديدة عليهما، وما منحها ذلك من طاقات تعبيرية ذات آفاق لغوية وحضارية واسعة. من ذلك، مثلاً، لفظة «مخزن» ALMACÉN ومشتقاتها في الإسبانية والبرتغالية والفرنسية.

وهناك طائفة أخرى من الملاحظات والتعليقات سترد أثناء عرض طائفة من المفردات ذات الأصول العربية لم ترد في معجم دوزي، وطائفة أخرى من الألفاظ الإسبانية ذات الأصل العربي المحتمل. وهـذا بيان ذلك:

كلمات ذات أصل عربي ولم ترد في معجم دوزي وانكلمن:

1 ـ قنديل: Candil

يقول المعجم «إنه لمن الصعب أن نقرر ما إذا كانت هذه الكلمة الإسبانية هي العربية قنديل، أو هي اللاتينية Chandelle, Candela...».

ثم يقرر، معتمداً على فلشر Fleischer، إن لفظة «قنديل» العربية جاءت من الإغريقية. ولكنه قبل هذا يؤيد ملاحظة مولر Müller أن اللفظة اللاتينية Candela بقيت على حالها لم تتغير، وأن Candil كلمة عربية.

على هذا يبدو دوزي، هنا، متردداً في تقرير أصل الكلمة العربي. ويحاول أن يغطي على تردده هذا بأن يشير إلى أصل إغريقي لهذه اللفظة العربية.

وهذا، كما يبدو لي، مخالف للنهج الذي سار عليه في هذا المعجم، كما أنه مخالف لمبدإ أقرّه مستشرقون آخرون منهم مونتكمري واط في هذا المجال، وهو أنّ ما دخل من الألفاظ العربية إلى اللغات الأوربية، عامة،

والإسبانية، خاصة، هو الأصل الأول، ولا عبرة بالأصل الأجنبي للفظه العربية الداخلة في اللغات الأوربية. وسار على النهج نفسه معج اوكسفورد الكبير.

أشير، بهذا الخصوص، إلى مثال واحد ورد في معجم دوزي هو كلمة «قند» Cande, Candi حيث أشار إلى أنها عربية ـ فارسية وجاءت بدورها من السنسكريتية.

ثم أليس من المحتمل أن اللفظة اللاتينية نفسها مأخوذة من العربية القديمة؟

يضاف إلى هذا أن كوروميناس يقرر أنها عربية مأخوذة عن إغريقية القرون الوسطى، وأنّ معجم الأكاديمية الملكية الأسبانية (وسأرمز له في هذا البحث اختصاراً بـ «م. أ.») يقرر أنها عربية من «قنديل» ولا يذكر شيئاً عن تفاصيل الأصل العربي.

2 ـ كنانة: Canana

هي جَعْبَةُ السهام تتخذ من جلود.

«م. أ» قرر أنها عربية.

3 ـ بُرْج: Burche

في م. أ.: «من العربية عن الإغريقية».

وبستر: « (Borough, Burg) من الإنكليزية الوسطى وهذه عن الإنكليزية القديمة». ولم يذكر لها أصلاً إغريقياً.

4 ـ المُغاور: Almogávar

لم ترد هذه الصيغة الإسبانيّة في معجم دوزي بل وردت Almogávares بصيغة الجمع كما لم ترد اللفظة العربية في القاموس العربي

من المعجم. في حين أنها جاءت في م.أ. بصيغة المفرد وهي المقابل الصحيح لفظاً ومعنى للّفظ العربي «المغاور» أي الذي يُغير، أي يشن الغارة. وبهذا المعنى وردت في معجم الأكاديمية.

5 ـ محرّمة: Maharrana

لم ترد في معجم دوزي. وقد جاءت في م.أ. بمعنى: «شحم الخنزير الطازج». ومن الواضح كيف انتقل معنى اللفظة العربية من معنى الصفة للشيء المحرّم إلى دلالة مخصصة هي «شحم الخنزير الطازج». وذلك لعلاقة التحريم الإسلامي المرتبطة بهذا الشحم. ونستطيع أن نتصور كيف تم هذا التطور الدلالي لهذه اللفظة العربية، فكأن المسيحيين الذين كانوا يعايشون العرب في الأندلس كانوا يعرضون على العربي أن يأكل من هذا الشحم فيجيب: «محرّمة». وهكذا اقترنت هذه اللفظة العربية بمدلولها الجديد، فصارت اسماً لهذا النوع من الشحم وتخصصت به، بعد أن كانت في العربية صفة يمكن إطلاقها على كل أنواع المحرّمات وقد قلبت الميم الثانية نوناً في الإسبانيّة.

6 ـ شرقيين: Sarraceno

جاءت في م. أ. بمعنى: «مواطن الجزيرة العربية»، و«العربي» ويقول هذا المعجم إنّها دخلت الإسبانية عن اللاتينية. ولا أدري ما يمنع أن تكون قد دخلتها مباشرة عن العربية خلال ثمانمائة سنة من التعايش!

وهذه اللفظة العربية من الألفاظ الكثيرة التي أغنت الإسبانيّة بالمشتقات العديدة مثل: «المنتسب إلى العرب: Sarracénico, Sarracino, Sarracín»... إلخ.

7 ـ الكحول: Alcohol

من الغريب أن هذه الكلمة العربية التي أصبحت عالمية لم ترد في معجم دوزي بهذا المعنى، بل اكتفى بمعنى «الكحل» ولم يذكر حتى هذه

في الفهرست العربي بينما جاءت في م.أ. بمعنى «الكحل» و«الكحول» أيضاً، وقد أغنت الأسبانية والإنكليزية والفرنسية، وغيرها من اللغات الأوروبية بالعديد من المشتقات.

8 ـ شريط: Jareta

وردت في معجم دوزي هكذا «شريطة» Xaretas ولم أجدها بهذه الصورة في معجم الأكاديمية.

ربما دخلت هذه اللفظة إلى الإسبانية بهاتين الصورتين المختلفتين بعض الاختلاف، وتنوعت دلالتها ولكنها بقيت ضمن مسوّغات الاشتقاق الدلالي وجذر معانيه..

وقد جاء معناها الأول في معجم الأكاديمية هكذا: «كفُّ حاشية الثوب وخياطته من جانب واحد بحيث تكون هناك فجوة داخل طيّة الثوب يمكن إدخال شريط فيها أو حبل لتضييق أو توسيع الثوب حينما يشدّ على الجسم».

وهذا المعنى غير وارد في القاموس المحيط، وإنما جاء فيه: «كفَّ الثوب كَفَافاً: خاط حاشيته وهو الخياطة الثانية بعد الشلّ».

وقد حافظ لفظ (كف) على معنييه هذين في الاستعمال الحديث. أما اللفظ الإسباني فدلالَته متطورة عن هذا المعنى، لأن أصل معنى «الشريط»: الحبل المفتول، فاستعمل في الإسبانية استعمالاً مجازياً من باب إطلاق «الحالّ» وإرادة المحل، أو المكان.

والمعنى الذي ذكره دوزي نقلاً عن P. Alcala لهذه اللفظة العربية موجود في القاموس المحيط ولكنه لفظ مشتق من هذا الأصل وهو «شُرَط»، ومعناه: «أعوان الولاة سموا بذلك لأنهم أعلموا أنفسهم بعلامات يُعرفون بها».

9 ـ شريك: Jaricar

لم ترد هذه الصيغة في معجم دوزي بل وردت هكذا Xariko ثم ذكر

أنها جاءت في وثائق باللاتينية عن تاريخ أرغون بصور متعددة: Exericus, Asarihe, Xarichus, Xaricus, Exarich.

وتعني: «مزارع بالشراكة، أي: يقتسم المحصول مع صاحب الأرض».

وفي معجم الأكاديمية Jaricar تعني: أن تُجمع سواقي الماء من ملاك مختلفين في ترعة واحدة ليستقي منها كل واحد منهم بقدر إسهامه.

10 ـ شريف: Jarifo

في م.أ.، ولم ترد بهذه الصيغة في معجم دوزي بل وردت هكذا Xarifo ومعناها: شريف، ممتاز. أما في م.أ فمعناها: رافل، متفاخر، متباهٍ، باهٍ، زاهٍ، حسن المنظر، حسن التركيب، مُزَيَّن.

يتضح من هذا أن معاني المعجمين مختلفة في ما يقابل هذا اللفظ العربي في الإسبانيّة.

11 ـ شريف: Jarife, Jerife

في م.أ.: المنحدر من سلالة محمد ﷺ من ابنته فاطمة زوجة الإمام علي رضي الله عنه.

12 ـ صهريج: Jaraiz

في م.أ. تعني «معصرة» ولم ترد هذه الصيغة في معجم دوزي بل وردت صيغتان أخريان لنفس هذا اللفظ العربي هما: Zafariche, Zafareche وهما بنفس معنى اللفظ العربي. وجاء معنى الصيغة الأولى في م.أ. «غدير، بركة، صهريج» ومعنى الصيغة الثانية: «مكان توضع فيه الدنان».

أما هذه الصيغة التي وردت في معجم الأكاديمية الإسبانيّة (Jaraiz) فقد جاءت في معجم دوزي هكذا: (Xaraiz) وثبّت معناها (معصرة)، وقال

عنها «إنّه يجهل أصلها». وهو يشير إلى أن الأكاديمية تكتب هذا اللفظ بهذه الطريقة التي كتبه هو بها، ولكنني لم أجد هذه الصورة لهذا اللفظ في معجم الأكاديمية في الطبعة التي تحت يدي.

وكتابة حرف «J» الأسباني على شكل «X» كتابة معروفة في نصوص الإسبانيّة الوسيطة.

أما اختلاف الدلالة في الإسبانيّة عن دلالة الأصل العربي: «صهريج» فهذا من باب الاستعمال المجازي أو التوسع في الاستعمال لعلاقة معنوية تبرر ذلك. والعلاقة هنا تبدو واضحة بين معاني هذه الألفاظ الأربعة ودلالاتها الأسبانية إذ الجامع بين كل هذه الدلالات هو حفظ السائل في مكـان مخصص لذلك، لأن الصهريج في العربية هو الحوض الكبير للماء، فمن هنا جاء التوسع في استعمال هذا اللفظ المقترض في الإسبانيّة.

13 ـ سرمق: Jaramago

هو في العربية «نبات القطف» كما في القاموس المحيط، وجاء في م.أ. ولم يرد في معجم دوزي. ويسمى الآن في الأسبانية (Todabuena) وفي الانكليزية يعرف بـ «Saint John's - Wort».

14 ـ شَبَكَة: Jābeca

وتعني بالإسبانية شبكة طويلة. وقد جاءت في م.أ. بثلاث صيغ: الصيغة المذكورة و (Jabeca) و (Jabeque) وهذه الأخيرة تقابل (شَبَك) العربية وهي جمع (شَبَكة).

لم ترد هذه الصيغ عند دوزي، بل وردت هكذا: Xaveque, Xabeca, Xabega, Xabeque.

وأشار إلى أنّها في البرتغالية (Xabeco) وفي الفرنسية Chébeck كما أشار إلى اقتناع M. Jal في قاموسه: Glossaire Nautique, Art. Chabek

et Enxabeque. بأن هذه اللفظة التي تستعمل الآن في البحر الأبيض المتوسط وتعني زورقاً حربياً صغيراً، مشتقة من «شبَكَة» العربية. ولكن هذه الكلمة العربية لم ترد، كما لاحظ دوزي، في المعاجم العربية بهذا المعنى، وأنه، أي دوزي، يجهل إذا ما كان هناك سبب يدعو للقول إنّ هذا المعنى موجود في لفظة شَبَكة.

ويبدو لي أن دوزي لم ينتبه إلى احتمال التطور الدلالي الواضح في استعمال هذه اللفظة. ذلك أن دلالتها، كما يبدو لي، قد تطورت في الإسبانية والفرنسية، فصارت تستعمل للدلالة على قارب الصيد الصغير الذي كان يستعمل للصيد في السواحل، أولاً، وهو استعمال مجازي لعلاقة قارب الصيد بالشبكة علاقة سببية ثـم أطلقت، بعد ذلك، على الزورق الحربي الصغير، للتشابه بين الإثنين من حيث كون كل منهما زورقاً صغيراً، ومن حيث التشابه بين عملية الصيد والعملية الحربية للزورق ففي الاثنتين مناورة وقوة ووسائل للسيطرة، ومن حيث أنهما يعملان بقرب السواحل.

ويـلاحظ أن دوزي لم يُميز بين (Jabeca - Xabeca) بـدون نبر، و (Jábeca - Xábeca) بالنبر، فاعتبر الصورتين اللتين ذكرهما صيغتين للفظ واحد، في حين أن معجم الأكاديمية يميز بينهما: فبالنبر هي «الشَبَكة» التي تطورت دلالتها في الإسبانيّة والفرنسية إلى المعنى الذي ذكرناه أعلاه، أما الصيغة التي بدون نبر فهي من «سبيكة» العربية، وكانت تطلق في الإسبانيّة، قديماً، على الفرن الذي يستخدمونه للتقطير وسبك المعادن.

15 ـ شُقَر: Jacara

في العربية معناها (كذبٌ)، وفي الإسبانية تطلق على نوع من الأشعار الشعبية المرحة التي تتحدث عن أحداث من الحياة الداعرة. كما تطلق على نوع من الموسيقى الراقصة أو التي تصاحب الغناء.

16 ـ شَكٌّ : Jaco

من العربية «شكَّهُ بالرمح: انتظمه» أي طعنه به. وتعني بالإسبانية درعاً من زرد مشبك قصير الكم ولا يتجاوز طوله موضع الحزام من البطن.

ويبدو أن العلاقة بين المعنى العربي وما تطور إليه في الإسبانيّة هي العلاقة بين هذا النوع من الدروع والطعن بالرمح، فقلبت الدلالة بالإسبانية من معنى الطعن إلى ما يشبه الضد وهو الدرع الذي يحمي من الطعن.

17 ـ حايك: Jaique

معناها العربي واضح فهي اسم فاعل من (حاك، يحوك).

أما معناها في الإسبانية فمعطف ذو قَلَنسوة، على شكل البُرنس، وهو يشبه ما يعرف في المغرب اليوم بالسلهام.

18 ـ صَكٌّ : Cheque

الصَّكّ أصله في العربية الكتاب، ثم أطلق على الكتاب الذي يكتب للعهدة. القاموس لم يذكر أنه معرب في حين ذكر اللسان أنه معرب. ولم يرد في متن المعرب للجواليقي وإنما جاء في الحاشية على أصل المخطوط بخط فارسي جديد. على أي حال إنّ المعنى الثاني لهذه اللفظة ينطبق تماماً على الاستعمال الحديث لها أي الصك الذي تتعامل به المصارف في العصر الحديث.

أما اللفظ كما هو في الإسبانيّة فهو بنفس المعنى الذي له في العربية الحديثة، ولكن م. أ. يقرر أنه من الإنكليزية (Check). ويقرر معجم وبستر أن هذا اللفظ الانكليزي هو«من الانكليزية الوسيطة عن الفرنسية القديمة وهذه أخذته عن العربية (شاه) عن الفارسية بمعنى الملك».

وهذا ما يقرره كوروميناس أيضاً، ويضيف: «إن الرأي العام القائل بأن هذه اللفظة الانكليزية في الكتابة الانكليزية (Cheque) وفي الأمريكية

(Check). ذات تكوين إنكليزي خالص، لا يُظهر أية صعوبة، ذلك أن اللفظة (Check) قديمة جداً في الانكليزية الوسيطة. فإنها تأتي في الوثائق منذ سنة (1695) بمعنى «راجَعَ» و«ضَبَطَ» و«حَقَّقَ». ومن هذا المعنى اشتق، بشكل طبيعي، الاسم (Cheque) بمعنى «وثيقة دفع مصرفية» سنة (1706)، . . . لهذا فإن رأي شتايكر (Steiger)، . . . القائل إنّ اللفظة مأخوذة من التركية «جك» Gek وإن هذه من العربية «صك»، التي كانت تَعْني في مصر ضرباً من رسائل الصرف، هذا الرأي يمثل فرضية غير ضرورية في أقل ما يمكن أن يقال فيها، فمن الناحية الثقافية والتاريخية من المحتمل جداً أن الكلمة التركية مأخوذة من الانكليزية، وليست لها علاقة بالعربية «صك» انظر: ـ

Joan Corominas,

Diccionario Critico Etimológico De La Lengua Castellana. Palabra (Cheque).

فهذه اللغات الأوربية، إذن، أخذت هذا اللفظ من العربية. ولكن معجم وبستر أخطأ في إرجاع أصل اللفظ العربي إلى (شاه) االفارسية، فلا علاقة بين اللفظين (شاه) و(صك) في العربية. ومما عرضناه من معانيه في المعاجم العربية يتبين أن أصل هذه الألفاظ الأوربية التي ذكرناها والفرنسية Chèque، إنما هو من الكلمة «صك» سواء كانت عربية أصيلة أو معربة قديماً. ولم ترد اللفظة في معجم دوزي، مع تشابهها القوى مع اللفظ الإسباني والفرنسي والانكليزي، في الصوت والمعنى، ومع أنه يذكر بعض المفردات الإسبانية التي لا يعرف هو نفسه أنها من أصل عربي (انظر مثلاً: Rezmilla, Zatali).

19 ـ قهوة (ممتازة): Moca

هي قهوة ممتازة كانت تجلب من مُخا (ومُخا مدينة صغيرة أو قرية في اليمن).

لم ترد هذه اللفظة عند دوزي ولا في معجم الأكاديمية الكبير ولا في كوروميناس بل وردت في معجم الأكاديمية الصغير المصور. كما وردت في معجم كورينطي الإسباني ـ العربي.

وتعرف هذه القهوة في كل أوروبا، ولفظها متشابه في كل اللغات الأوروبية، فهي في الانكليزية (Mocha Coffee) وفي الفرنسية (Moka) وفي الألمانية (Mokka) .... إلخ.

20 ـ الحنبل: Harambel - Arambel

(وهو نوع من البسط الصوفية تشبه الزربية) ذكره معجم الأكاديمية ولم يذكره دوزي.

حكمت علي الأوسي

جامعة بغداد، كلية الآداب

المراجع والمختصرات المستعملة في البحث

1 ـ المعجم = معجم الكلمات الإسبانية والبرتغالية المشتقة من العربية. تأليف: ر. دوزي والدكتور و. هـ. انجلمن. طبعة ثانية منقحة ومزيدة. مكتبة لبنان ـ بيروت.

وعنوانه بالفرنسية.

Glossaire des Mots Espagnols et Portuguais dérivés de l'Arabe.
Par: R. Dozy et le Dr. W.H. Engelmann.
Seconde édition revue et trés - considerablement aumgmentée. Leyde.
Nouvelle Impression 1974.

2 ـ م. أ = معجم الأكاديمية = معجم الأكاديمية الملكية الإسبانيّة. الطبعة السادسة عشرة.

وعنوانه بالإسبانية:

Real Academia Española, Diccionario de La Lengua Española, Madrid.
Año De La Victoria. Décima Sexta Edicion.

3 ـ القاموس المحيط للفيروز آبادي.

4 ـ كوروميناس=

Joan Corominas, Diccionario Critico Etymologico de la Lengua Castellana
Editorial Grédos. Madrid, 1976.

بطرس البستاني وجهوده المعجمية

بحث: د. علي توفيق الحمد

أوّلاً ـ بطرس البستاني: جهوده العلمية ومؤلفاته:

المعلم بطرس بن يونس بن عبدالله البستاني العالم اللغوي الأديب الناقد المؤرخ الموسوعي العربي اللبناني الذي عاش ما بين 1819 م ـ 1883 م، يعدُّ من روَّاد النهضة العربية الحديثة الأوائل المبكرين بميزان النقد الموضوعي العادل، إن لم يكن على رأسهم جميعاً.

وقد قال فيه مارون عبود في كتابه «رواد النهضة الحديثة» ما يأتي: «وأستاذ الجميع المعلم بطرس البستاني، عاشر العلماء الأميركان زمناً قصيراً فصار منهم. وحسب النهضة من هذا المصير أنها غنمت ما غنمت من تآليف علمية ولغوية، ومدرسة وطنية، ومجلات ثقافية، ودائرة معارف، و**محيط المحيط** الذي ضمَّ تعريفات حديثة لم تكن في المعاجم القديمة»[1].

فالناظر في مصنفات بطرس البستاني وآثاره، لا محالة سيشاركنا في الحكم الذي قدَّمناه.

فله من المؤلفات: كتاب «أدباء العرب» في ثلاثة أجزاء: أما الأول: فغطى فيه دراسة أدباء العرب من الجاهلية حتى نهاية العصر الأموي. وأما الثاني: فخصَّصه لدراسة أدباء العرب في الأعصر العباسية. وأما الثالث فخصَّصه لأدباء العرب في الأندلس وعصر الانبعاث.

(1) مارون عبود/ روَّاد النهضة الحديثة، دار الثقافة، بيروت ـ طبعة 1977 م. (ص 201).

هذا الكتاب بأجزائه الثلاثة يعدُّ دراسة تأريخية ونقدية أدبية لعصور الأدب العربي، وتعدُّ من أبكر الدراسات الحديثة إن لم تكن أبكرها على الإطلاق.

وقد بدت دراسته موضوعية علمية، أشار إليها في مقدمته للجزء الثاني إذ يقول: «هذا الكتاب الثاني من أدباء العرب، يشتمل على خصائص آداب العباسيين وعلومهم، وميزات شعرائهم وكتَّابهم، مع استفاضة في النقد والتحليل. . . . ورأينا ألاَّ نخلط الأدب الأندلسي بالأدب الشرقي فعل من تقدمنا من مؤرخي الآداب، لأن العوامل التي أثرت فيه غير العوامل التي أثرت في ذاك. وإن له ميزات خاصة تجعله مستقلاً منفصلاً عن أدب العباسيين»[٢].

فهذا جزء من منهجه وخطته في دراسته وتصنيفه يظهر من مقدمة كتابه، والقارىء في كتابه يجد روح العالم والأديب والناقد، وكنت أود إيراد أدلة على ذلك من كتابه، لكنني أقلعت، لمَّا وجدت الأدلة ظاهرة عامة بارزة في ثنايا كتابه، إضافة إلى أن البحث ليس مخصصاً لهذا المجال.

ومن مؤلفاته الأدبية أيضاً: ابن شهيد الأندلسي، الذي نشرته دار صادر ـ بيروت 1967 م، وكتاب الشعر الجاهلي، نشرته دار المعلم بطرس البستاني ـ بيروت 1965 م، وكتاب الشعراء الفرسان، نشرت طبعته الثانية دار المكشوف ـ بيروت، سنة 1966 م، وكتاب منتقيات أدباء العرب في الأعصر العباسية، نشرته دار مارون عبُّود ـ بيروت.

أما عطاؤه في مجال التأريخ، فيتأكد لنا من كتابيه:

«معارك العرب في الأندلس»، الذي نشرته دار مارون عبود ـ بيروت، و «معارك العرب في الشرق والغرب» الذي نشرته دار مارون عبود ـ بيروت

(2) بطرس البستاني / أدباء العرب، الكتاب الثاني، ط 6، دار المكشوف ودار الثقافة، بيروت 1968، (المقدمة).

سنة 1979 م. ويعكس لنا هذان الكتابان دراية طيبة بتاريخ الأمة، واعتزاز المؤلف القوميّ في مرحلة كان هذا الاعتزاز ضرورياً لتقوية الثقة في نفوس أبناء الأمة، وبعث الروح والمجد الوطنيين.

وأما ثقافته المتنوعة ومعرفته الموسوعية، فيشهد لهما تأليفه «دائـرة المعارف» التي صنَّفها ـ ولم تتمّ، وهي مطبوعة في أحد عشر مجلداً، وقد وصل المعلم بطرس البستاني في آخره إلى حرف العين ـ كلمة عثمان ـ وبعدها جاء في آخره: «تمَّ الجزء الحادي عشر من دائرة المعارف، ويليه الثاني عشر، وبالله التوفيق». وكان الفراغ من طبعه في 7 تشرين الثاني / نوفمبر سنة 1900 م. الموافق 15 رجب 1318 هـ.

بدأ بطباعة الجزء الأول سنة 1875 م. فهو يقول في مقدمتها: «خطر لنا أن نؤلف انسكلوبيديا عربية تقوم بسدِّ هذه الاحتياجات المتعددة»[3].

ويتجلى ـ مشرقاً موضوعياً ـ انتماؤه العربي واعتزازه بهذا الانتماء في موضع آخر إذ يقول:

«وقد سمينا هذا التأليف ـ دائرة المعارف ـ فجاء اسماً على مسمًّى، وإذا قابله الواقفون عليه، بعين الإنصاف وخلوّ الغرض، بما هو من نظائره عند الإفرنج في هذا الباب، يسلِّمون بأنَّه ليس دونها باعتبار العموم، وأنه أفضل منها وأنفع كثيراً، بالنظر إلى الخصوص من العرب وبعض الإفرنج، فقد نقلنا عنهم أطايب ما عندهم، مما تلذّ لنا معرفته وتفيدنا مطالعته، وأضفنا إلى ذلك أموراً شتى قد خلت كتبهم منها. فلهم علينا فضل الأسبقية، **كما أن لياقوت الحموي وابن خلكان وأبي البقاء والدميري وابن البيطار، وكثيرين غيرهم من علماء العرب الأعلام فضلاً عليهم وعلينا في هذا الباب**»[4].

---

(3) بطرس البستاني/ دائرة المعارف ـ (المقدمة ـ ص 2)، دار المعرفة ـ بيروت. ويعني بالاحتياجات: احتياجات العرب إلى المعارف للأخذ بأسباب التقدم والتمدن والرفاهية والعلوم.

(4) نفسه ـ المقدمة/ 3.

فإذا ما اعتبرنا هذا الجهد، وعلمنا أنه جهد فردي، فإنَّ الأمر يزداد دهشة وإعجاباً، فكيف يتسنى لفرد أن يخلِّف عملاً موسوعياً ـ إضافة إلى آثار علمية أخرى ـ! فالعمل الموسوعي قد يعجز عنه فريق كامل، ويبقى عملهم في حاجة إلى متابعة وإكمال، فجهده هذا يعد خارقاً للتصوُّر إذا قيس بجهود الإنسان الفردية.

وللتدليل على عظمة عمله وجهده، قد يكون من المفيد أن نقتطف فقرة من مقدمته، تحت عنوان «محتويات»، فهو يقول: «إن دائرة المعارف تتضمن بالإجمال:

أولاً: العلوم الإلّهية والفلسفية، كعلم الكلام والفلسفة وفروعها.

ثانياً: العلوم المدنية والسياسية، كالفقه والنظامات المدنية والحقوق الطبيعية والقانونية والعمومية والتجارية والجنائية، والتوفيرات السياسية، والتربية.

ثالثاً: العلوم التاريخية، كالجغرافية بفروعها، وعلم التاريخ القديم، والكنائسي والحديث، وعلم الآثار والميثولوجيا اليونانية، وغيرها من الخرافات القديمة.

رابعاً: العلوم التعليمية، كالحساب والجبر والهندسة وفروعها.

خامسها: العلوم الآلية والكيماوية، كالفلسفة الطبيعية، وعلم الهيئة أو الفلك، والكيمياء، وفروع ذلك.

سادساً: العلوم الطبيعية، كعلم طبقات الأرض، والمعادن، والنبات، والإنسان والحيوان، والطب وفروعها.

سابعاً: علم الأدب، كعلم اللغة، والفصاحة والبيان، والشعر، والإنشاء، والتاريخ الأدبي، وما يتعلق بذلك.

ثامناً: الصنائع والفنون، كالاكتشافات، وفن البناء والتصوير،

والموسيقى، والحراثة، والزراعة، والصيد، واستخراج المعادن، والمطابع، واصطناع الآلات، والتجارة، والأوزان والقياسات، والمسكوكات وهلمَّ جرًّا»[5].

ولدى النظرة السريعة في دائرة معارف البستاني، يستطيع المرء أن يلمس تمكُّن الرجل ودقته في ما يعرضه ويتناوله، مما يدعو إلى العجب والإكبار حتى إني أقرر أن الرجل لو لم يخلف سوى هذه الموسوعة لكفاه شرفاً وفضلاً.

أما بطرس البستاني العالم اللغوي، فقد ترك لنا ما يخلده في مجالين:

أ ـ مجال التأليف في قواعد اللغة: نحوها وصرفها، فقد ذكر لنا كتاباً من تأليفه، وهو «كتاب مفتاح المصباح في الصرف والنحو»[6].

ب ـ مجال التأليف في المعجمات، وهو جوهر موضوعنا وبحثنا.

قدم لنا بطرس البستاني جهداً مميزاً من الناحية النوعية في هذا المجال، إضافة إلى أنَّه محاولة عربية رائدة في عصر النهضة الحديثة، فقد خلف لنا معجمين: أما أولهما: فهو «محيط المحيط»، الذي يعدُّ مَعْلماً وبداية لنهضة معجمية حديثة، ومحاولة لإعادة أمجاد العرب في ميدان التأليف المعجمي، تلك الأمجاد التي أقر بها وشهد لها المنصفون من غير العرب، فها هو (Haywood) يقول: «الحقيقة أن العرب في مجال المعاجم يحتلون مكان المركز سواء في الزمان أو المكان بالنسبة للعالم القديم والحديث وبالنسبة للشرق أو الغرب»[7]، ويقول أيضاً: «المعجم العربي منذ نشأته كان يهدف إلى تسجيل المادة اللغوية بطريقة منظمة، وهو بهذا يختلف

---

(5) السابق/ المقدمة 5.

(6) بطرس البستاني ـ قطر المحيط، ص 2542، مكتبة لبنان ـ بيروت.

(7) عن د. أحمد مختار عمر (البحث اللغوي عند العرب ـ ص 340) ط 4، عالم الكتب، القاهرة، 1402 هـ / 1982 م.

عن كل المعاجم الأولى للأمم الأخرى، التي كان هدفها شرح الكلمات النادرة أو الصعبة»[8].

ويقول أيضاً في كتابه نفسه «المعجمية العربية»:

«لو أن عربياً من القرن الخامس عشر عبر الزمن إلى بريطانيا في القرن العشرين لما كان يستغرب رؤية معجم أكسفورد الكبير على المكاتب، لأن العرب كان لديهم معجم القاموس المحيط، وكانت نسخه قبل اكتشاف الطباعة تعدُّ بالآلاف»[9].

ويضيف أيضاً: «كما كان لدى العرب أيضاً معجم جامع شامل هو «لسان العرب» فاق كل ما أُلِّفَ من معاجم في أي لغة قبل القرن التاسع عشر دقة وشمولاً»[10].

وأما الثاني: فهو «قطر المحيط»، الذي رأى مؤلفه أن يضعه «على وجه هيِّن المراس سهل المأخذ، ليكون للطلبة مصباحاً يكشف لهم عمَّا أشكل عليهم من مفردات اللغة التي معرفتها عند المحققين هي نصف العلم، لأن إفادة العلم واستفادته تتوقفان عليها، وقد سميناه بقطر المحيط، لأن نسبته إلى كتابنا المطوّل في هذه الصناعة المسمى بمحيط المحيط، توشك أن تكون كنسبة قطر دائرة إلى محيطها»[11].

وبعد، فإذا ما اتفقنا على أن المعجم اللغوي كتاب يجمع مفردات لغة ما، ويزيل عجمتها، بكشف غموضها وتوضيح معناها، ويضبط بنيتها

---

(8) نفسه.

(9) عن أحمد شفيق الخطيب/ حول المعجم العربي الحديث، الموسم الثقافي الأول لمجمع اللغة العربية الأردني، منشورات مجمع اللغة العربية الأردني 1983. (ص 217 - 218).

(10) نفسه (ص218).

(11) بطرس البستاني (قطر المحيط) ـ فاتحة الكتاب. وقد تمَّ طبعه سنة 1869 م. والنص يؤكد أنه صنفه بعد محيط المحيط، الذي ذكر د. أحمد مختار أنه طبع أيضاً سنة 1869 م. (د. أحمد مختار عمر/ البحث اللغوي عند العرب 270).

ونطقها، ويوضح استخدامها، واشتقاقاتها وتصرفها بشمول شاف، وفق ترتيب معين ميسور سهل المأخذ، أي أنه ديوان لمفردات اللغة؛ إذا ما اتفقنا على ذلك، فباستطاعتنا الآن أن نتقدم خطوة أخرى في البحث.

ثانياً ـ المآخذ على المعجمات العربية القديمة بشكل عام:

بادىء ذي بدء، أرجو ألَّا يفهم من هذا العنوان، أننا ننظر إلى الجهود المعجمية القديمة نظرة استخفاف أو عدم تقدير، فقد أسلفنا ـ قبل قليل ـ أن تلك الجهود مصدر فخر واعتزاز لنا جميعاً بين أمم الأرض كلها قديماً وحديثاً، بشهادة المنصفين من غير العرب، وهذا أمر متفق عليه، لكن الواجب أن نبقى في حالة حركة ونشاط وتقويم، حتى نصل إلى أفضل ما يمكن من درجات الكمال، فإن ما لا يدرك كله لا يترك جلّه، وهذه ظاهرة صحية، فخير لنا أن نخطو، ولو خطوة واحدة، من الركون والقعود والتسويف.

وأضيف: أن طلب البحث عن الحقيقة يجب ألَّا يتوقف عند حد، وأن الحركة دليل على حيوية الفرد والأمة، فالحياة حركة دائبة، وأن السعي وراء التغيير إلى الأفضل مظهر صحي، ولا نقبل بديلاً عنه.

وبدء الشفاء يكون بتحسس الألم وتشخيص الداء لوصف الدواء.

ونعني بالمعجمات القديمة: المعجمات العربية منذ معجم العين للخليل حتى بداية عصر الانبعاث والنهضة، الذي أرجو أن نصطلح عليه بمنتصف القرن الماضي، وهو عصر بطرس البستاني والشدياق ومن عاصرهما.

لعل ما يساعدنا في تحديد نقطة البحث، أن نذكر الشروط التي يجب توفرها في المعجم المقبول أو المعجم المنشود.

وتكاد تنحصر شروط المعجم في اثنين[12]، هما:

1 ـ **الشمول**: أي شمول المعجم ألفاظ اللّغة كلها، أو أكثر نسبة منها، وهذا أمر نسبي، تتفاوت المعجمات فيه، والمعجم الأجود ما اشتمل على عدد أغزر من ألفاظ اللغة[13].

2 ـ **الترتيب**: وهو ترتيب عرض المواد الأصول والألفاظ المتفرعة عنها، أو منهج المعجم في عرض مادته، ويشمل الترتيب المنهجي العام، وترتيب الألفاظ تحت المادة الواحدة، أي الترتيب الداخلي.

والترتيب أمر حيوي، تتفاوت المعجمات فيه، وهو الذي يجعل الناس أكثر إقبالاً على معجم دون آخر، لسهولة الرجوع إليه. وهو سبب موت معجمات وحياة أخرى، وشيوع بعضها وخمول بعضها الآخر[14].

وقد نضيف شرطاً ثالثاً لا يقل عنهما أهمية، وهو دقة العبارة ووضوحها في الشرح والتفسير.

وقد ذكر الإمام محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي في مقدمة «مختار اصحاح»: أن أكثر أصول اللغة إنما يقل الانتفاع بها ويعسر لعلتين[15]:

1 ـ عسر الترتيب بالنسبة إلى الأعم الأغلب.

2 ـ قلة الضبط فيها بالموازين المشهورة، وقلة التنصيص على أنواع الحركات اعتماداً من مصنفيها على ضبطها بالشكل الذي يعكسه التبديل والتحريف عن قريب.

---

(12) د. أحمد مختار عمر (البحث اللغوي عند العرب 152 - 153).

(13) تختلف المعجمات في مادتها وشمولها بحسب هدفها ومنهجها، فالمعجم الوصفي المعاصر ـ مثلاً ـ لن يسجل الألفاظ والمواد كلها التي يسجلها المعجم التاريخي أو المعياري مثلاً.

(14) د. أحمد مختار عمر / البحث اللغوي عند العرب 153.

(15) الرازي/ مختار الصحاح ـ المقدمة (ط).

ونحس بهذه الشروط لـدى ابن منظور في مقـدمة معجمـه «لسان العرب»، إذ يقول:

«وإني لم أزل مشغـوفاً بمطـالعة كتـب اللغـات والاطـلاع على تصانيفها، وعلل تصاريفها، ورأيت علماءها بين رجلين:

- أمَّا من أحسن جمعه، فإنَّه لم يحسن وضعه.
- وأمَّا من أجاد وضعه، فإنه لم يجد جمعه[16].

فهو يوضح في مقولته هذه تنبّهه للشرطين الرئيسيين الواجب توفرهما في المعجم المقبول، وهما:

- إحسان الجمع، وأفهم منه الشمول.
- وإجادة الوضع، وأفهم منه المنهج والترتيب ودقة العبارة ووضوحها.

ثم أثنى على جمال معجم «تهذيب اللغة للأزهري»، وعلى كمال «المحكم» لابن سيده الأندلسي، وبعد الثناء عاب عليهما سوء الترتيب، وتخليط التفصيل والتبويب[17].

وثنى بنقد معجم «الصحاح» للجوهري، بقوله:

«ورأيت أبا نصر إسماعيل بن حمـاد الجوهـري قد أحسن تـرتيب مختصره، وشهره - بسهولة وضعه - شهرة أبي دلف بين باديه ومحتضره، فخف على الناس أمره فتناولوه، وقرب عليهم مأخذه فتداولوه وتناقلوه، غير أنَّه في جو اللغة كالذرة، وفي بحرها كالقطرة، وإن كان في نحرها كالدرة، وهو مع ذلك قد صحف وصرف، وجزف في ما صرّف[18].

فهو قد أثنى عليه بسهولة ترتيبه وتبويبه، وعابه لإيجازه وعدم شموله

(16) ابن منظور/ لسان العرب - المقدمة 11، طبعة دار المعارف بمصر، د. ت.
(17) نفسه/ المقدمة 11.
(18) نفسه/ المقدمة 11 - 12.

ولما وقع فيه من تصحيف وتحريف، ومجازفة في التصريف. أي أنه عابه لعدم الشمول وعدم الدقة في العبارة.

فوضع معجمه، ونصب عينيه هذه المآخذ، فحاول تلافيها. فحشد فيه ثمانين ألف مادة [19]، وجمع فيه ما تفرَّق، في تلك الكتب[20] من العلوم، وبسط القول فيه، ولم يشبع باليسير[21]، فجاء معجمه متضخماً موسوعياً، لا نعرف أضخم منه إلَّا تاج العروس.

أما عن الترتيب فرتبه ترتيب «الصحاح» في الأبواب والفصول، وهو ما يعرف بطريقة التّقفية.

أما مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز أبادي، فقد صنف معجمه «القاموس المحيط»، وذكر أنه سمَّاه بهذا الإسم لأنه البحر الأعظم، لكنه محذوف الشواهد، مطروح الزوائد، ولكنه معرب عن الفُصَح والشوارد، وضمَّنه خلاصة ما في العباب والمحكم[22].

وذكر في مقدمته:

«ولما رأيت إقبال الناس على صحاح الجوهري، وهو جدير بذلك، غير أنه فاته نصف اللغة أو أكثر، إمَّا بإهمال المادة، أو بترك المعاني الغريبة النادَّة[23].

فهو يعيب على صحاح الجوهري عدم شموله فعل ابن منظور، وجدير بالذكر أن صحاح الجوهري حوى أربعين ألف مادة، بينما حوى «القاموس المحيط» ستين ألفاً[24].

---

(19) مقدمة القاموس المحيط 3.

(20) يعني بتلك الكتب، التهذيب، والمحكم، والصحاح، وأمالي ابن برّي، وكتاب أبي السعادات ابن الأثير الجزري. (اللسان ـ المقدمة 11 - 12).

(21) ابن منظور/ لسان العر ـ المقدمة 12.

(22) الفيروز أبادي ـ القاموس المحيط (المقدمة 3).

(23) نفسه (المقدمة 3).

(24) مقدمة القاموس المحيط 3.

وذكر الفيروزآبـادي أن «القاموس المحيط» اختص بأمور سبعة [25]، يتعلق أولها بالشمولية، مقايسة بصحاح الجوهري، وتتعلق الأخرى بالتبويب والترتيب والمنهج.

من هذه النقول التي عرضناها، نتبين أن القدماء كانوا دائبي الحركة، يسعون إلى الأفضل، وهم قد أدركوا شروط المعجم المقبول في رأيهم ووفق معطيات عصرهم، فحاول المتأخر تلافي ما أحسه من نقص في عمل المتقدم منهم.

ولكن، هل أفلح القدمـاء في التخلص من العيوب التي لاحـظها متأخرهم في صنع متقدميهم، وهل نجحوا في تحقيق الشروط الواجب توفرها في معجماتهم؟ هذا أوّلاً.

وثانياً: هل حقق أولئك القدماء لنا في معجماتهم ما نصبو إليه ونريده في معجمنا العربي؟

إنَّ الإجابة عن هذين السؤالين، تضع أيدينا على أبرز المآخذ والعيوب في المعجمات العربية القديمة.

وإنَّ الناظر المتمعن في المعجمات القديمة، يستطيع أن يسجل بعض المآخذ، ونستطيع نحن إجمال ما نراه وما نقتنع به من ملاحظات وقراءات في ما يأتي:

1 ـ طرق تبويب تلك المعجمات يشوبها الصعوبة، وربما الغموض أحياناً على المثقف العربي المعاصر، فلا نجده يحفظ حروف الهجاء حسب مخرجها الصوتي ـ مثلاً ـ ليسهل عليه العـودة إلى معجمات التـرتيب الصـوتي والتقاليب، كمعجم العين والبـارع للقالي، وتهـذيب اللغـة للأزهري، والمحيط للصّـاحب ابن عباد، والمحكم لابن سيـده.

(25) الفيروز أبادي/ القاموس المحيط (المقدمة 4 - 6).

وكذلك فإن وضع تقاليب المادة الواحدة (مقلوباتها) لا يسهل أمر الرجوع إليها، والاهتداء إلى الكلمة المقصودة بسرعة ويسر.

أما طريقة تبويب الكلمات على أساس التقفية (الباب والفصل) فليس بسهل أيضاً، وبخاصة في معتل الآخر من الكلمات، إذ قد يصعب الفصل على بعض المثقفين في حرف العلة أياء هو أم واو؟

2 ـ الإكثار من ذكر أسماء الرواة والعلماء في بعضها يضخم حجم المعجم بلا فائدة ذات أهمية.

3 ـ حشد معلومات نحوية، وربما تاريخية، وأسماء للقبائل والنباتات والمواضيع، قد تكون ليست ضرورية، فخلطوا بين المعاجم والموسوعات[26].

4 ـ عدم ترتيب الألفاظ داخلياً تحت المادة الواحدة الأصل، ففيها خلط الأسماء بالأفعال، والثلاثي بالرباعي وغيره، والمجرد بالمزيد مثلاً[27].

5 ـ عدم التزام المصنف بالمنهج الذي اختطه لنفسه[28].

6 ـ اعتماد أصحاب المعجمات اللاحقين على السابقين، ولذلك اعتمدت المعجمات اللاحقة على السابقة، فجاءت كلها معتمدة على ما سجله لغويو القرن الثاني الهجري (أمثال الأصمعي والأنصاري وغيرهما)، مما أعطى انطباعاً بثبات اللغة وعدم قبول تطورها[29]، وبذلك فإنَّ المعجمات القديمة لم تنقل دلالات الألفاظ في عصر أصحابها، بل دلالاتها في القرن الثاني الهجري. كما أنها قصَّرت في تدوين مواد لغوية وألفاظ تمثل

---

(26) أحمد مختار عمر266.

(27) نفسه 260.

(28) نفسه 261.

(29) د. محمود فهمي حجازي/ علم اللغة العربية 98، وكالة المطبوعات ـ الكويت 1973 م، و د. أحمد مختار عمر 263، 265، وحسن الكرمي/ المعجم العربي والتعريب/ الموسم الثقافي الأول لمجمع اللغة العربية الأردني، ص252 .

عصرها وحضارته وفكره، وقصرت في اطلاعنا على تطور دلالات الألفاظ المختلفة عبر العصور، حتى أن بعض المعاجم التزمت بالنقل الحرفي، فربما نقلت الخطأ كما هو في المعجمات السابقة[30]. وبذلك افتقر المعجم القديم إلى ألفاظ الحضارة العباسية ـ مثلاً ـ وما تلاها من عصور نشأت فيها كلمات جديدة مع الضرورات الحضارية الجديدة[31].

7 ـ وقوع تلك المعجمات في بعض الأخطاء، مما دعا بعض اللاحقين تأليف كتب تنبيه على تلك الأخطاء، مثل: التنبيه، والإيضاح لابن بري، والجاسوس على القاموس للشدياق، وتصحيحات لسان العرب لأحمد تيمور وغيرها[32].

8 ـ عدم وضوح العبارة، أو الدقة في التعبير، والتعميمات وعدم الوضوح في الشرح والتفسير[33].

9 ـ إهمالها النص على ضبط الكلمة أحياناً، وهذا يجعل حركة بنية الكلمة عرضة للتصحيف والخطأ، كما تقدم في مقدمة مختار الصحاح للرازي[34].

10 ـ عدم شمول بعضها، وخلوُّها من بعض المفردات.

11 ـ قد تختلف في تفسير كلمة معينة وبيان معناها[35].

12 ـ منهجهم الصارم في الأخذ عن قبيلة دون أخرى، وقبول شواهد الجاهلية وصدر الإسلام وعدم توسُّعهم في الأخذ عن الإسلاميين[36].

---

(30) المرجعان الأخيران.

(31) د. محمود حجازي ـ 302، د. إبراهيم السامرائي/ المعاجم العربية القديمة/ الموسم الثقافي الأول لمجمع اللغة العربية 196 - 212.

(32) د. أحمد مختار عمر 261.

(33) نفسه 262 - 263، وحسن الكرمي 253 p 252.

(34) د. أحمد مختار عمر/ 263، وحسن الكرمي 255، 256.

(35) حسن الكرمي 254.

(36) د. إبراهيم السامرائي 293، 194.

13 ـ تشبّث مصنفي المعجمات القديمة بالفصيح، أو ما يقرب منه، وسعيهم إلى الغريب والنوادر[37]، فتركوا بذلك مستويات لغوية أخرى مستخدمة وشائعة.

14 ـ تفضيلُ بعض المعجمات المعاني المجازية على الحقيقية[38].

15 ـ إغفال بعض صيغ الأفعال والأسماء، وبعض الأبنية التي استحدثت في عصر لاحق للقرن الثاني الهجري[39].

16 ـ تشكيك بعض الباحثين في صحّة وجود بعض الأبنية الغريبة التي أوردتها بعض المعجمات وعدم دقتها، وعدم وجود شواهد لها من لغة العرب[40].

17 ـ تشكُّك بعض الباحثين في أن كثيراً من الكلم قد صنع، ولم يكن مما يعرفه العرب أو يستخدمونه، ولقد أشير إلى قول الخليل، وهو ما أورده ابن فارس والسيوطي: «هذا ما صنعه النحارير»، والنحارير في رأيه طائفة من علماء العرب[41].

ولعل من أخطر المآخذ أن مصنفي المعجمات لم يتقبلوا حقيقة أن اللغة كائن حيّ بحياة أصحابها تتطور معهم، وتستجيب لمطالبهم، وأنها ظاهرة تتأثر بما حولها، فإنَّ الحاجة تدعو إلى تتبع كل ما يطرأ على الألفاظ ـ صيغاً ودلالات. ويدعو المنطق والحاجة العلميان إلى أن تظهر معاجم تسجل لنا تطور الدلالات والأبنية، وما يستحدث من ألفاظ.

فمادة «جمع» مثلاً معروفة موجودة في المعجمات القديمة، ولكن حصل على دلالتها، ودلالة مشتقاتها تغيير وتطوُّر، وصيغت منها صيغ

(37) د. محمود حجازي 98، د. إبراهيم السامرائي 195.
(38) حسن الكرمي 255.
(39) د. محمود حجازي 301، حسن الكرمي 256.
(40) د. إبراهيم السامرائي 213.
(41) نفسه 195، 213.

مختلفة، مثل: جامعة، جماعة، جمعية، اجتماع، مجتمع، مجمع، مجموع[42]...

وكذلك فقد دخل إلى العربية كلمات جديدة بفعل اختلاط الأجناس والحضارات واستحداث أشياء ومستجدات لم تكن في العصر الجاهلي.

وحدثت تطورات على دلالة بعض الألفاظ، ولذلك فإنَّ الكلمة في كل لغة لها تاريخ، أي أنها تحيا وتستخدم، وقد تتغير وتموت، فمن حقنا على معجماتنا أن تحفظ لنا هذه الدورة في تاريخ الكلمة.

وإن الحديث عن تاريخ حياة أية كلمة حديث طويل، فالكلمة تعيش وتتفاعل، والمعنى هو حصيلة الملابسات التي عاشتها الكلمة[43].

هذه مجمل أو معظم المآخذ التي يمكن أن تسجل على معجماتنا العربية القديمة.

فماذا فعل المعلم بطرس البستاني لتلافيها؟ وهل حقَّق نجاحاً في التخلص من هذه العيوب في معجميه «محيط المحيط» و«قطر المحيط»؟

فإذا ما تذكرنا أن معجم «قطر المحيط» هو إيجاز وتلخيص لمعجم «محيط المحيط»، فإننا نكتفي في النظر في الثاني فقط، لنخرج بحكم على جهود الرجل المعجمية ومنهجه، لاسيما أن هذا المعجم هو أول المعاجم العربية المجددة ـ ولعله أهمها ـ ، وأن هذه النهضة المعجمية المجددة تركز وجودها ـ ظهورها ـ في لبنان[44].

ويقول فيه الأستاذ أحمد الخطيب إنه وضعه سنة 1870 م[45].

---

(42) د. محمود فهمي حجازي 305 - 306.

(43) نفسه 312.

(44) أحمد شفيق الخطيب، حول المعجم العربي الحديث، الموسم الثقافي الأول لمجمع اللغة العربية الأردني (ص223).

(45) لا أظن هذا التأريخ صحيحاً، لأنه جاء في نهاية قطر المحيط أنه طبع سنة 1869، وهو يذكر في مقدمته صراحة أنه وضعه بعد محيط المحيط.

إنَّ النظر في معجم «محيط المحيط» منهجه وترتيبه ومادته، وما قيل فيه، يضعنا أمام القضية التالية.

ثالثاً: جهود بطرس البستاني المعجمية في الميزان:

تيسر للمعلم بطرس البستاني ثقافة تراثية عميقة، فاتصل بـالتراث وتمثله، كما تيسرت له ثقافة حديثة واسعة باتّصاله بالإرساليات الأجنبية، إضافة - في اعتقادي - إلى استعداد فطري للبحث والعطاء، والغيرة والعزة الوطنية، إذ أنّنا نلمح هذا الاعتزاز في كل مصنفاته.

فلمـا تعمق التراث المُعْجمـيَّ اللغـوي تكشفت له بعض المـآخذ والعيوب التي سجلناها أو سجلنا بعضها، إضافة إلى إحساسه بمجافاة هذه المعجمات روح العصر، ببعض موادّها التي توقف استخدامها، وبطريقة تبويبها أو تبويب بعضها، الطريقة التي تجعل الرجوع إليها والإفادة منها أمراً فيه صعوبة، وبخاصة على عامة المثقفين. علاوة على أنه وجد مواد وكلمات كثيرة تشيع على الألسنة، وتستخدم في عصره، لكنه لا يجد لها أثراً أو وجوداً في المعجمات القديمة.

وفي ظني أن اطّلاعه على معجمات الغربيين ومناهجها ومضمونها، ومقابلة هذه المعجمات بالمعجمات العربية القديمة زاد في إحساسه بضرورة المحاولة، محاولة تقديم شيء ما على مستوى التصنيف المعجمي، حتى نستدرك ما لدينا من نقص أو قصور، وحتى نجاري النافع المفيـد من حضارات الأمم المعاصرة المتقدمة.

ولما تيسّرت له الأسبـاب التي تمكنه من البدء والعمل، وهي أسباب كافية على مستوى المعرفة الموسوعية، واللغوية والأدبية، إضافة إلى اطلاعه على آداب الغرب، أقول: لما تيسرت له تلك الأسباب بدأ الرجل تصنيفه

المعجمي، «فوضع لنا أول معجم عربي مجدد، ولعله أهمها، وهو معجم محيط المحيط»[46].

اعتمد المعلم البستاني على القاموس المحيط للفيروز أبادي لما كان له من شهرة واسعة ولانتشاره، لكنه «أضاف إليه ثروة من المفردات والتعابير المعاصرة والمولدة التي أهملها جامعو المعاجم العربية، فأخرجه بمنهجية علمية حديثة وتبويب سليم يتلاءم مع (كذا) طبيعة اللغة العربية واشتقاقاتها الواسعة»[47].

ولندع الناشر التاجر يقول ما يقول في هذا المعجم ولننظر في ما قاله مؤلفه في فاتحة الكتاب:

«الحمد لله الذي أنطق العرب بأفصح الكلمات وجعل العربية شامة في وجنة اللغات. أما بعد، فهذا المؤلف يحتوي على ما في محيط الفيروز أبادي، الذي هو أشهر قاموس للعربية، من مفردات اللغة، **وعلى زيادات كثيرة**، فقد أضفت إلى أصول الأركان فيه فروعاً كثيرة وتفاصيل شتّى، وألحقت بذلك اصطلاحات العلوم والفنون، وكثيراً من المسائل والقواعد والشوارد، وغير ذلك مما لا يتعلق بمتن اللغة. وذكرت كثيراً من **كلام المولدين وألفاظ العامة**، منبّهاً في أماكنها على أنها خارجة عن أصل اللغة. وذلك لكي يكون هذا الكتاب كاملاً **شاملاً** يجد فيه كل طالب مطلوبه من هذا القبيل.

وعلى هذا الأسلوب كان هذا الكتاب قيد الأوابد، ومحطّ الشوارد، فاستحق أن يسمى «محيط المحيط»، لأنه قد جمع ما ذهب في كتب اللغة شماطيط.

وقد اخترت في ترتيبه **اعتبار أول حرف من الكلمة** دون الأخير منها

(46) أحمد شفيق الخطيب 223.

(47) محيط المحيط / مقدمة الناشر (مكتبة لبنان ـ بيروت 1977 م).

بخلاف اصطلاح الجمهور، لأن ذلك أيسر في التفتيش عليها. ولأجل التسهيل على الطالب **ميّزت بين الأفعال والأسماء، وبين المجرد والمزيد** - من الفريقين - كل نوع على حدته مندرجاً مع نظيره من الأبنية.

فأملنا أن مشروعنا هذا سيحوز القبول لدى أبناء الوطن العربي وغيرهم من مطالعي اللغة العربية ودارسيها، ويتخذونه **كخدمة متواضعة من محبّ للوطن، أجلّ مرغوباته ومقاصده أن يرى أبناء وطنه يتقدمون في الآداب والمعارف والتمدن تحت لغتهم الشريفة**، وأن تكون وسائط ذلك ميسورة لخاصتهم وعامتهم على أتم ما يرام»[48].

لو أنعمنا النظر في هذه المقدمة، لوجدناها تقوم على أسس ثلاثة بارزة رئيسة، وهي:

1 - أن المصنف أراد كتابه شاملاً، فحقق بذلك شرط الشمول الذي يجب توفره في المعجم المقبول، ولكن الشمول بنظره كان واسعاً، لم يقتصر على متن اللغة أو مفرداتها الفصيحة، بل تعدى ذلك ودوّن ألفاظ العامة وكلام المولدين، لكنه احتاط فنبه على أنها خارجة عن أصل اللغة، لكن ما دفعه إلى ذلك هو منهجه ورأيه في أن المعجم يجب أن يشمل المفردات الحية المستخدمة في عصر مصنّفه.

ولم تقف شموليته عند هذا الحد، بل تعدّته حتى وصلت إلى درجة الموسوعية، فقد أضاف اصطلاحات العلوم والفنون، لأنه يرى أن تدوينها ضروري حتى يضمن لأبناء الأمة الاطلاع عليها بيسر، لعلها تكون عوناً لهم في التقدم في الآداب والمعارف والتمدن، وأضاف أيضاً كثيراً من مسائل القواعد اللغوية.

إضافة إلى أنه رصّعه بالشواهد من القرآن والحديث والشعر وأمثال

(48) بطرس البستاني المحيط المحيط - فاتحة الكتاب.

العرب[49]. هذه الشمولية الموسوعية قد تكون غير مناسبة في المعجم الحديث، ويجدر أن يتخلص منها.

2 ـ حقق المصنف شرط الترتيب، فقد أحس أن ترتيب التقفية على طريقة الحرف الأخير التي سار عليها الفيروز أبادي في قاموسه فيها صعوبة على الباحث المطلع ـ وعندي أنه محق ـ، فوضع مصنَّفه مرتباً ألفبائياً باعتبار أول حرف من الكلمة، مع علمه بمخالفته اصطلاح الجمهور، ولكنه لم يحتف بهذا، فهو مجدد، وعلى المجدّد ألا يعبأ بالمخالفة ما دام يراها نافعة. هذا من ناحية الترتيب الخارجي المنهجي، ولم يقتصر عليها فقط، فقد استدرك على معجمات المتقدمين في موضوع الترتيب الداخلي للألفاظ المختلفة تحت المادة الواحدة، وهو ما خلط فيه معظم المتقدمين في كثير من الألفاظ المتفرعة من موادهم، فاختار منهجاً واحداً في الترتيب الداخلي، ففصل بين الأفعال والأسماء، وكان يبدأ في المجرد ثم ينتهي إلى المزيد دون خلط بين المستويين، وسجل صور استخدام الفعل المختلفة، ومعنى الفعل في كل صورة.

3 ـ أما الأساس الثالث فهو غيرته على قومه ولغة قومه، وهمّه أن يرى أبناء قومه يتقدمون في الآداب والمعارف والتمدن، وهذا يؤكد لنا اعتزازه القومي وغيرته.

وقد أكد المعلم بطرس البستاني هذا الموقف الوطني بقوله في فاتحة «قطر المحيط»: «فلما كان إحياء اللغة العربية التي هشمتها أيادي الزمان، وحالت دون نور محيّاها الساطع ودون أهلها براقع الهجر والجهل والنسيان فرضاً على كل من نطق بالضاد، وكان أمر تحصيلها وتسهيل أسبابه من مرغوبات من اتصف بالحماسة الوطنية والحمية العربية، رأينا أن نضع فيها هذا المؤلف. . .»[50].

(49) بطرس البستاني ـ قطر المحيط ـ بيروت 1869، ص 2451.

(50) بطرس البستاني / قطر المحيط ـ فاتحة الكتاب.

وقد أشار في نهاية فاتحة كتابه تحت عنوان «فائدة» إلى طريقة طلب كلمة ما في المعجم.

أما وضعه المزيدات تحت باب المادة المجردة، والكلمات ذوات الحرف المقلوب تحت باب الكلمة في صورتها الأصلية[51]، فيدل على وعيه بأنه لا يجوز تشتيت الكلمات التي تنتمي إلى أصل واحد، لأن هذا سيقطع أصر القرابة بين الكلمات المتفرعة عن مادة واحدة، وبذلك يتنكر لخصيصة من أهم خصائص العربية وهي الاشتقاق.

هذا أبرز ما يلمسه الباحث في معجم بطرس البستاني من حيث المنهج والمضمون والمادة، كما ذكرها بنفسه في مقدمته. وما دمنا نضع عمل الرجل في الميزان، ونريد إصدار حكم على عمله، وحتى يكون الحكم موضوعياً دقيقاً قدر المستطاع، لا بد أن نجمع ما يمكن من الأدلة للقضية قبل إصدار الحكم.

ولعل ما يتصل بالقضية ويمكن أن يكون من الأدلة، ما ذكره بعض الباحثين اللاحقين في معجم محيط المحيط وجهود صاحبه المعجمية.

إذ جاء في كتب «المعجمات العربية» لمصنّفه وجدي رزق غالي ما يأتي: «محيط المحيط يحوي ما في القاموس المحيط، مع زيادات، وحذف، وتصرف وتغيير في ترتيب المواد. وتتجلى الزيادة في جمع بعض الألفاظ المفردة، وبعض المعاني، وخاصة المولدة والعامية والمسيحية، والصيغ والاستعمالات، وخاصّة العلمية والفلسفية والاصطلاحية. أما الحذف: فبالنسبة لأسماء الأشخاص والقبائل والأماكن. [وأما التصرف والتغيير في ترتيب المواد فقد] رتّب ألفبائياً بأوائل الأصول»[52].

(51) بطرس البستاني / محيط المحيط ـ فاتحة الكتاب، وقطر المحيط 2451.

(52) وجدي رزق غالي ـ المعجمات العربية: ببليوجرافية شاملة مشروحة ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ القاهرة 1391 هـ/ 1791 م.

أما مارون عبود فقد قال فيه: «ومحيط المحيط الذي ضم تعريفات حديثة، لم تكن في المعاجم القديمة»[53].

وأما الدكتور عبده عبد العزيز قلقيلة فقال:

«محيط المحيط ألفه العالم اللغوي اللبناني بطرس البستاني بعد أن وجد أن اللغة العربية في أمسّ الحاجة إلى قاموس عصري سهل الاستعمال»[54].

وقال أيضاً: «وقد دعاه هذا الاتجاه إلى أن ينقل عن كتب أخرى كثيرة بجانب نقله عن المعاجم المتداولة»[55].

وقال الأستاذ أحمد شفيق الخطيب في «محيط المحيط»:

«أوّل المعاجم المجددة، ولعله أهمها، . . . وأكثر زياداته من التاج ومستدركه، إضافة إلى معاجم المستشرقين، مما أتاح له إدراج مواد ومعان لم ينص أحد من المعجميين القدماء عليها.

وكان لبطرس البستاني من ثقافته الموسوعيّة ما أهّله لتغيير الكثير من التفسيرات، لعدم صلاحيتها لروح العصر»[56].

وبعد، فإن هذه النقول المختلفة تكاد تجمع على أن بطرس البستاني قدم جديداً في معجمه، وحقق بعض ما يجب أن يكون في المعجم الحديث، من حيث الترتيب الخارجي (التبويب الألفبائي) والترتيب الدّاخلي، وإضافة بعض المواد والمعاني التي جدّت في عصره وقبل عصره،

---

(53) مارون عبود/ رواد النهضة الحديثة ـ 201.

(54) د. عبده عبد العزيز قلقيلة/ مقالات في التربية واللغة والبلاغة والنقد، (ص 184)، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة 1394 هـ/ 1974 م.

(55) نفسه.

(56) أحمد شفيق الخطيب ـ الموسم الثقافي الأول لمجمع اللغة العربية الأردني (حول المعجم العربي الحديث ـ 223).

وحذف ما ليس ضرورياً ولا مفيداً أن يكون في المعجم، علاوة على تحقيق الشمولية، لكنها كانت بأوسع معانيها.

ولم يتسرع في تجديده، ولم يقلد المعجمات الغربية تقليداً أعمى، ففي التبويب والترتيب الداخلي للمواد والمفردات المتفرعة عنها، كان واعياً لطبيعة اللغة العربية، فلم يرتب الكلمات التي في معجمه حسب صورتها المنطوقة ودون إعادتها إلى أصولها المجردة، بل اعتمد التجريد أصلاً في ترتيب مواده، «لأن المعجم الذي ينتهج في ترتيبه طريقة أبجدية (كذا) خالصة بالنسبة إلى كل كلمة، إنما يحطم جميع ما يتولد تولداً طبيعياً عن الكلمات، وهو بذلك يحطم اللغة ويسحقها. وهذا هو الاعتراض الأساسي الذي يواجه من يتخيل مثل هذا المعجم في العربية»[57].

ومع ما تقدم، فإننا نجد بعض الأحكام العامة، التي انتقدت المعجمات العربية حتى الحديثة منها، ولم تستثن معجم «محيط المحيط» على الرغم من أنه تلافى بعض الخلل الذي وقع في غيره.

فالدكتور علي عبد الواحد وافي يقول في هذه المعجمات الجديدة ـ بشكل عام ـ «لا تكاد تمتاز عن المعجمات القديمة إلاّ في حسن التنسيق، ونظام الترتيب، واستخدام بعض وسائل الإيضاح، كرسم ما تدل عليه الكلمات من حيوان أو نبات أو جماد، وتعرضها أحياناً لبعض المصطلحات الحديثة في العلوم والفنون والصناعات»[58].

ويتابعه د. حسن ظاظا بقوله إنّ «**كل هذه المعاجم** ليست إلا محاولة لإظهار القديم في ثوب جديد، دون أن تضيف شيئاً جوهرياً إلى تلك

(57) هنري فليش/ العربية الفصحى ـ نحو بناء لغوي جديد ـ، تعريب وتحقيق د. عبد الصبور شاهين، ط 2.

(58) د. علي عبد الواحد وافي ـ فقه اللغة، دار نهضة مصر للطّبع والنشر بالفجالة ـ القاهرة (ص 289).

الصناعة، ويذكر ما يحتاج المعجم الأبجدي (كذا) في تأليفه من شروط[59]، بعضها تحقق في معجم «محيط المحيط»، كعدم الالتجاء إلى التصوير والرسوم، ووضوح الشرح، وعدم شرح لفظتين في موضعين من المعجم كل منهما بالأخرى، والتنبيه على الفصيح والمعرب والدخيل والمولد، والترتيب الواضح الدقيق، والترتيب الداخلي، وإحكام ضبط نطق الألفاظ، وذكر المعنى الرئيس للمادة أوّلاً، ثم المعاني الفرعية.

ويأخذ الدكتور إبراهيم السامرائي على المعجمات العربية الحديثة ـ عموماً ـ أنها لم تول المولّد الجديد من الكلام ما يستحقّه من عناية كافية، ويقول: «ربما تنكّر أصحاب المعجمات الحديثة إلى هذا النوع»، ويستمر فيقول: «من الواجب علينا أن نفسح لهذا الجديد الذي قذف به المستعملون مكاناً في كتبنا اللغوية، لأنه صار من مادة هذه اللغة»[60].

وكذلك فإن الدّكتور تمام حسّان حينما تحدث عن المعجم، وما الذي يتوقعه القارىء عندما يمسك بالمعجم، لم يشر إلى معجم «محيط المحيط» بأنه حقق جزءاً من تلك التوقعات ـ ولو إلى حدّ ما ـ. فهو يقول مثلاً: «ولقد درجت المعاجم العربية (دون تحديد) على جعل حروف المادة هي المدخل، ثم تعدد الكلمات الداخلة تحتها على غير تريب وبلا قاعدة محددة لهذا التعدد»[61].

صحيح أنه قد عقب بعد ذلك[62] بذكر نص من القاموس المحيط،

(59) د. حسن ظاظا ـ كلام العرب: من قضايا اللغة العربية، دار المعارف بمصر، 1971 م. (ص 138 - 141)، ويتحدث هنا عن المعاجم الحديثة.

(60) د. إبراهيم السامرائي ـ مباحث لغوية، منشورات مكتبة الأندلس ـ بغداد 1391 هـ/ 1971 م، (ص 150).

(61) د. تمام حسان ـ اللغة العربية معناها ومبناها، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ـ 1973 م. (ص 328 - 329).

(62) نفسه.

لكن تعميم الحكم ملبس، لا سيما أن «محيط المحيط» لبطرس البستاني لم يقع في كل تلك الهنات.

وأرى أن خير دليل على قضيتنا الرئيسة أن نورد مقابلة بين ما جاء في القاموس المحيط - مثلاً - في مادة ما، وما جاء في «محيط المحيط» في المادة نفسها، حتى لا يبقى كلامنا نظرياً غائماً ويلفه شيء من التخمين والاجتهاد، وبذلك نلمس الفرق بين ما قدمه بطرس البستاني من تجديد وإضافة، وما عند القدماء ممثّلاً بالقاموس المحيط.

فمثلاً مادة «حبس»[63] جاءت في «محيط المحيط»، وفق موضعها من الترتيب الهجائي لأصول الكلمات والمواد، أما في القاموس المحيط فهي في باب السين فصل الحاء.

سار بطرس البستاني على منهج موحد، إذ أورد الفعل «حبس» وذكر مضارعه ومصدره ومعناه الحقيقي الأول، ثم استخداماً ثانياً لهذا الفعل ومعناه، وثالثاً، ورابعاً.

أما الفيروز ابادي، فقد أورد المصدر - الاسم - أولاً، ولم يلتزم هذا المنهج، فهو يورد الأفعال أحياناً في بعض المواد، مثل: جلس ومصر ومضر، وغيرها كثير. وذكر مواضع وأعلاماً.

وخلط بين المجرد والمزيد من الأفعال، وبين الأسماء والأفعال، واقتصر على الفصيح، ولم يورد من المولّد شيئاً. ولم يذكر نوع المشتق، ولم يورد شواهد على أيّ فرع من هذه المادة، ولم يذكر معنى مجازياً أو مستحدثاً بينما خالفه بطرس البستاني وتخلص من كل هذه الهفوات.

بناءً على ما تقدم، فإني أستطيع أن أقرر أن ما صدر من أحكام على

---

(63) انظر الملحق في آخر البحث، وهو صورة فيها مادة «حبس» من محيط المحيط، وأخرى لمادة «الحبس» من القاموس المحيط، وهذه المادة مثل فقط على الفرق الجوهري بين صاحبنا والفيروز أبادي.

عيوب معجماتنا العربية، كان يجب أن ينص صراحة على استثناء «محيط المحيط» من تلك العيوب أو بعضها.

وإنّ المنصف والمدقق ليخرج بنتيجة وهي أن الرجل طوّر في المنهج: الترتيب الخارجي والداخلي للأصول والفروع (للمواد والكلمات التابعة لها)، والتزم منهجاً متّسقاً من أول المعجم إلى نهايته، وهو منهج سهل المأخذ.

كذلك فقد حقّق شمولاً في مواده ومعانيه، وما تفرع عن تلك المعاني، إضافة إلى ذكر معان مجازية، وتعزيز كثير من المعاني بالشواهد، من عصر الاحتجاج وغيره، وكان يشير إلى المصادر والمشتقات ونوعها صراحة. إضافة إلى قضية مهمة وخطيرة: أنه سار على منهج وصفي - إلى حدّ ما - في تسجيل مواده، فالتزم ذكر الكلمات الشائعة مولّدة كانت أو فصيحة، وأورد ألفاظاً ذات معان اصطلاحية علمية أو فنية.

كما اهتم بصور استخدام المفردات التي أوردها، وتعدي الأفعال ولزومها، وكان ينصّ على السماع أو القياس، ويوثّق معاني مفرداته بذكر من أخذ عنهم، حيث كان ذلك لازماً. علاوة على ذكر قواعد لغوية مختلفة.

وأغفل ذكر بعض الألفاظ والصيغ الغريبة، والمواضع وسلسلة الرواة والأسانيد، لأنه يرى أن لا فائدة من ذكرها. ونستطيع أن نقول: إنه قدّم توجيهات طيبة - وإن كانت محدودة - على مستوى النطق والإملاء أو الهجاء، فيقول مثلاً: المِحبرة بالكسر، فيميزها من المَحبرة بالفتح، ولكلّ معنى[64]. ويقول في موضع آخر مثلاً: «حذا النعل يحذوها حَذْواً وحِذاء (واويّ)... وحذى اللبنُ وغيرُه لسانَه يَحذيه حَذْياً (يائي)»[65].

فقوله: واوي ويائي يدلّ على أصل الألف، ويعين بذلك على الرسم الإملائي.

(64) بطرس البستاني/ محيط المحيط (حبر).

(65) نفسه (حذا - حذي).

ويأنس الباحث بعبارته وسهولتها ودقتها ووضوحها، ولم يقيد نفسه بالأخذ عن عصر معين أو قبيلة معينة أو مصدر معين.

والموضوعية تقتضينا أن نحكم أنّ عمل الرجل في «محيط المحيط» متميز في الشكل والمضمون عن المعجمات السابقة، وأنه تخلص من أكثر المآخذ التي تسجل على تلك المعجمات، ولذا يمكن الاطمئنان بكل ثقة إلى أنه رائد مجدد، لا يقل جهده عن أفضل جهود المحدثين الغربيين في صناعة المعاجم تقريباً في بعض الوجوه.

وعندي أن الرجل يجب أن يعد من المعجميين العالميين الذين قدّموا معجماً قريباً من درجة الرضا والقبول.

ولدى استفتاء شفوي سريع أجريته لعدد من الزملاء المتخصصين في اللغتين العربية والإنجليزية ـ منهم أمريكي متخصص بالإنجليزية، لكنه يجيد العربية ويكتب فيها بحوثاً ودراسات ـ، تبين لي أن معظم ما يتمناه المثقف العربي والباحث قد حققه بطرس البستاني في معجمه، إذا استثنينا الاهتمام بتاريخ المادة أو الكلمة وأصلها، وهو ما يعرف (بالايتملوجيا Etymology)، وإذا ما غضضنا النظر عن اللهجات أو الدراسة الوصفية البحتة، والاهتمام بنبر الكلمات ومكانه.

وعذر الرجل أنه لم يشأ لمعجمه أن يكون معجماً تاريخياً، أو معجماً وصفياً بحتاً، يسجل ما هو مستخدم في زمنه فقط وضمن حدود جغرافية معينة، ولم يضع معجمه خاصّاً للهجة معينة فيبرز في كلماته النبر ومكانه، لأن النبر قضية صوتية محضة، وتسجل بالملاحظة والسماع، ويختلف نبر كلمة معينة ومكانها من لهجة إلى أخرى.

وأكرر أن جهد الرجل المعجمي خطوة متقدمة، حققت كثيراً، وأصلحت خللاً واسعاً في المعجم العربي، لكنه لم يخل من خلل، ولم يصل إلى الكمال، والكمال عندي أمر نسبي بين عصر وآخر، فما يعدّ كاملاً

في القرن التاسع عشر، يبدو للناس فيه نقص وتقصير في القرن العشرين مثلاً، وما قد نظنه كاملاً اليوم، سيلمس فيه القوم بعدنا بجيل أو جيلين بعض الخلل والنقص، لأن الحياة متطورة، ومعارف الإنسان متطورة أيضاً، والكمال المطلق لله وحده.

نتائج البحث وتوصياته

بعد أن توصل البحث إلى حكم منصف لبطرس البستاني ـ إلى حدّ ما ـ وجهوده المعجمية من حيث المنهج والمضمون، أرجو ألا يفهم أن الباحث يكتفي بما قدمه البستاني، بل يطمح إلى أن يتقدم التصنيف المعجمي خطوات واسعة وباتجاهات شتّى.

ولكن قبل البدء بتدوين التوصيات، أرجو أن نتبيّن الغرض من وضع أيّ معجم، وما طبيعته، لأن معرفة الغرض تساعد في تبين المنهج والمادة.

فهل نريد معجماً تاريخياً، أم وصفيّاً، أم معيارياً، أم لهجياً، أم طبقياً أم حرفيّاً؟ هذه مستويات مختلفة للغة، ويناسب كل مستوى مادة وألفاظ مختلفة بالضرورة عن المستوى الآخر، ثم علينا أن نطرح سؤالاً آخر لا يقلّ أهمية عن السابق، وهو:

لأي مستوى من الناس نريد أن نضع المعجم؟ فالمتخصص والباحث يناسبه المعجم الموسوعي، أو التاريخي أو المعياري مثلاً بينما يناسب عامة المثقفين مستوى آخر من المعاجم. والنّشء وصغار الشادين والمبتدئين يكفيهم معجم أصغر وأقل حجماً وعمقاً من النوعين السابقين، حتى يناسب مداركهم، ويسهل عليهم الإفادة منه.

وثمة سؤال آخر أيضاً، وهو:

لأية لغة نريد أن نضع معجماً، فلكل لغة خصائص، فلغتنا العربية لغة

اشتقاقية، فمعجمها ـ عندي ـ قد يختلف شكلاً ـ ترتيباً ـ ومضموناً عن معجمات اللغات الأخرى.

ولعل أخطر ما في الأمر أن لغتنا ترتبط بالماضي ارتباطاً مقدساً وثيقاً، فهي لغة القرآن الكريم والدين الحنيف، ولغة تراث امتدّ قروناً طويلة، وبالتالي فهي لا بدّ أن تبقى مستويات دراستها ومعجماتها مرتبطة بلغة القرآن والتراث، وأن أية دعوة للأخذ بالتطّور والبعد عن لغة القرآن والاتجاه نحو اللهجات سيؤدي إلى أخطر النتائج، وهي انقطاع الأمة عن كتابها السماوي وشريعتها ودينها وتراثها، وهو الدمار بعينه.

ثم هبنا ارتضينا اللهجات، فلهجة أيّ قطر نتخذ؟ وكيف نستطيع جمع الأمة عليها؟ ثم إن هذه اللهجات متغيرة. فخير لنا أن نتمسك باللغة الواحدة، التي توحّد بيننا جميعاً.

ومع كل ما تقدم، فأرجو ألاّ يفهم أني أعارض ما ينفع ويفيد، وأرفض التقدّم المجدي، أو أفضل التقوقع والانكفاء والتحجّر، لكنّ دعوتي متوازنة، أقبل كل نافع بحذر وبحساب، بل وبألف حساب.

ويمكن الآن أن يقترح البحث التوصيات الآتية:

1 ـ وضع معجم تاريخي، يؤرخ للكلمة وتاريخ ظهورها واستخدامها، ومعناها وتطور معانيها، وأصلها، واللغة التي اقتُرضت منها، وهذا لا غنى عنه للعربية.

2 ـ جمع المادة اللغوية التاريخية من القرآن الكريم والحديث الشريف وكتب العرب، لا من المعاجم القديمة، حتى نطمئن إلى سلامة وجود الكلمة والمبنى أو الصيغة عند القدماء وفي نصوصهم، حتى لا يشكّك أحد بسلامة ما نجمع من مادة، وبذلك تتوفر لها شواهد كافية أصيلة.

3 ـ وضع معجم وصفي، نسجل فيه المفردات الشائعة في عصرنا، والنص على العاميّ من الفصيح، ولا بأس أن نعزل العامي في ملحق خاص

لنأمن تسرّبه إلى الفصيح، وضرورة تحديث المعجم الوصفي كل مدة زمنية تمثل نقلة واختلافاً في استخدام الألفاظ، ككل جيل أو نصف قرن مرّة.

4 ـ حبذا لو عزل الدخيل في ملحق خاص للمعجم العربي الأصيل، وتَعرَّضْنا إلى تطوره التاريخي أيضاً في المبنى والدلالة[66]، وبذلك نتخلص من ظاهرة تداخل الأصول التي أشار إليها بعض الباحثين[67].

5 ـ تصنيف معاجم متنوعة متخصصة، للتخلص من الظاهرة الموسوعية في معجمات الألفاظ اللغوية، كأن يكون لدينا معجم تاريخي، ومرادفات، ومصطلحات فنية وعلمية، وأعلام، وأمثال، وحِرَف. . . .

6 ـ وضع معجمات ذات مستويات متعددة مختلفة بمادتها ومضمونها وتخصصها وعمقها وشمولها، ليناسب كلّ منها مستوى معيّناً.

7 ـ أهمية وضوح العبارة ودقتها وسهولتها، والاستعانة بالمصورات والرسوم حيث يكون ذلك لازماً كاشفاً.

وبعد، فإن هموم الصناعة المعجمية اللغوية هي هموم اللغة نفسها، وهموم اللغة هي هموم أهلها وأصحابها، فمتى عزّت الأمة عزّت لغتها.

علي توفيق الحمد

جامعة اليرموك. إربد.

(66) د. إبراهيم السامرائي ـ مباحث لغوية ـ 152 - 153.

(67) د. مسعود بوبو ـ أثر االدخيل على العربية الفصحى في عصر الاحتجاج، وزارة الثقافة والإرشاد القومي ـ دمشق 1982 م (ص 246، 388).

قائمة المصادر والمراجع

ـ القرآن الكريم.

ـ د. إبراهيم السامرائي (مباحث لغوية) مكتبة الأندلس، بغداد، 1391 هـ/ 1971 م.

(المعاجم العربية القديمة) بحث منشور في الموسم الثقافي الأول لمجمع اللغة العربية الأردني، عمان ـ الأردن 1983 م، (ص 183).

ـ أحمد شفيق الخطيب (حول المعجم العربي الحديث) بحث منشور في الموسم الثقافي الأول لمجمع اللغة العربية الأردني، عمان ـ الأردن 1983 م، (ص 215).

ـ د. أحمد مختار عمر (البحث اللّغويّ عند العرب) عالم الكتب ـ القاهرة ط 4، 1402 هـ/ 1982 م.

ـ بطرس البستاني (أدباء العرب) الكتاب الثاني، ط 6، دار المكشوف ودار الثقافة ـ بيروت 1968 م.

(قطر المحيط) مكتبة لبنان ـ بيروت ـ 1869 م (نسخة مصورة).

(محيط المحيط) مكتبة لبنان ـ بيروت ـ 1977 م.

(دائرة المعارف) دار المعرفة ـ بيروت.

ـ د. تمام حسان (اللغة العربية معناها ومبناها)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1973 م.

ـ د. حسن ظاظا (كلام العرب: من قضايا اللغة العربية) دار المعارف بمصر، 1971 م.

ـ حسن الكرمي (المعجم العربي والتعريب) بحث منشور في الموسم الثقافي الأول لمجمع اللغة العربية الأردني، عمان ـ الأردن 1983 م. (ص 247).

- الرازي (مختار الصحاح) بترتيب محمود خاطر، د. ت.
- د. عبده عبد العزيز قلقيلة (مقالات في التربية واللّغة والبلاغة والنقد) - مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة 1394 هـ/ 1974 م.
- د. علي عبد الواحد وافي (فقه اللغة) - دار نهضة مصر للطبع والنشر بالفجالة، القاهرة.
- د. فاير الداية (علم الدلالة العربي - النظرية والتطبيق) - دار الفكر دمشق، (ط 1)، 1405 هـ/ 1985 م.
- الفيروز أبادي (القاموس المحيط) مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر والتوزيع القاهرة، د. ت.
- مارون عبود (روّاد النهضة الحديثة) دار الثقافة - بيروت، طبعة 1977.
- د. محمود فهمي حجازي (علم اللغة العربية) وكالة المطبوعات، الكويت 1973 م.
- د. مسعود بوبو (أثر الدخيل على العربية الفصحى) وزارة الثقافة والإرشاد القومي السورية، دمشق 1982 م.
- ابن منظور (لسان العرب) دار المعارف بمصر، بتحقيق عبدالله علي الكبير وزميليه.
- هنري فليش (العربية الفصحى - نحو بناء لغوي جديد) تعريب وتحقيق الدكتور عبد الصبور شاهين، دار المشرق - بيروت، ط 2، 1983 م.
- وجدي رزق غالي (المعجمات العربية: ببليوجرافية شاملة مشروحة) الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1391 هـ/ 1971 م.

ملحق

1 ـ مادة الحبس: من القاموس المحيط للفيروزآبادي، ص ص 205-206:

﴿فصل الحاء﴾ ﴿الحَبْسُ﴾ المَنْعُ كالمَحْبَس كَمَقْعَدٍ حَبَسَهُ يَحْبِسُ والشَّجاعَةُ و ع أو جَبَلٌ ويُكْسَرُ والجَبَلُ العظيمُ وبالكسر خَشَبَةٌ أو حِجارَةٌ تُبْنَى في مَجْرَى الماءِ لتَحْبِسَهُ ويفتحُ وكالمَصْنَعَة للماء ونطاقُ الهَودجِ والمِقْرَمَةُ وثَوبٌ يُطْرَحُ على ظَهْرِ الفِرَاشِ للنّوم عليه والماءُ المَجْموعُ لا مادَّةَ لَه وَسِوارٌ من فِضَّةٍ يُجْعَلُ في وَسَطِ القِوام وبضَمَّتَيْنِ الرُّجَّالَة لتُحبِسهم عن الرُّكبانِ كالحُبَّس كرُكَّع وكلُّ شيءٍ وَقَفَهُ صاحِبُهُ مِن نَخْلٍ أو كَرْمٍ أو غيْرِها تُحَبَّسُ أصْلُهُ وتُسَبَّلُ غَلَّتُهُ والحُبْسَةُ بالضم تَعَذُّرُ الكلام عند إرادَته والحَبيسُ من الخيْلِ المَوْقوفُ في سَبيلِ الله كالْمَحبوس والمُحْبَس كمُكْرَم وقد حَبَسَهُ وأحْبَسَهُ و ع بالرَّقَّة وذاتُ حَبيسٍ ع بمكةَ وهُنَاكَ الجَبَلُ الأَسْوَدُ المُلقَّبُ بالظُّلَم وحَبَسْتُ الفِراشَ بالْمِحْبَس للمقْرَمَة سَتَرْتُه كَحبَّسْتُه ÷ والحابسَةُ والحابسُ ÷ الإبلُ كانتْ تُحْبَسُ عندَ البُيوتِ لِكَرَمِها وحُبْسانُ بالضم ماءٌ قُرْبَ الكُوفَةِ وتَحبيسُ الشيءِ أن يُبَقَّى أصْلُهُ ويُجْعَلَ ثَمَرُهُ في سَبيل الله واحْتَبَسَه حَبَسَه فاحْتَبَسَ لازِمٌ مُتَعَدٍّ وَتَحَبَّسَ على كذا حَبَسَ نَفْسَه عليه وحَابَس صاحِبَهُ وفُنونُ بِنْتُ أبي غالب ابن مَسْعودِ بنِ الحَبُوس كصَبُور محدِّثَةُ.

2 ـ مادة «حبس» من محيط المحيط لبطرس البستاني، ص 143:

حَبَسَهُ يحبِسُه حبساً ومَحْبَساً منعهُ أي ضدَّ خلاَّهُ. وفلاناً سجنهُ. والفرس وقفهُ في سبيل الله. والفراش بالمِحبَس أي المقرمة سترهُ بِهِ. ويُقال حبسهُ عنهُ

أي منعهُ. وحبسهُ عليه أي وقفهُ * حبَّس الفراش سترهُ بالمِحَبس. والشيءَ أبقى أصلهُ وجعل ثمرهُ في سبيل الله. واحبس فرسُه وقفهُ في سبيل الله. وحابَسَ صاحبُه محابسةً حبسهُ أو جعل كل واحدٍ منهما الآخر محبوساً. وتحبَّس على كذا حبس نفسهُ عليه. واحتبسهُ حبسهُ فاحتبس بنفسهِ يتعدَّى ولا يتعدَّى * الحابس اسم فاعل. وقد يُراد به المحبوس من باب فهو في عيشةٍ راضية أي مرضيَّة. وعليهِ قول حُصَين بن همَّام المرّيّ.

مواليكُمُ مولى الولادة منهمُ ومولى اليمين حابسٌ قد تقُسِّما

الحابسة مؤنَّث الحابس والإبل كانت تُحَبس عند البيوت لكرمها كالحابس * الحبائس من الإبل الحابسة وهي جمع حبيسة * الحُبَّس الرجَّالة جمع حابس * الحَبْس مصدر والشجاعة والجبل العظيم وخشبٌ أو حجارةٌ تُبنَى في مجرى المآء لتحبسهِ فيشرب منه القوم ويسقون أموالهم. والحبس السجن (مولد) والحبس خشبة وحجارة تبنى في مجرى الماء لحبسه وكالمصنعة للماء ونطاق الهودج والمقرمة وثوبٌ يُطرَح على ظهر الفراش للنوم عليه والمآء المجموع لا مادَّة له وسوارٌ من فضَّةٍ تُجعَل في وسط القرام ج إحباس. والحبُسْ ما وُقف في سبيل الله ج إحباس. والحُبُس الرجَّالة لتحبُّسهم عن الركبان. وكل شيء وقفهُ صاحبهُ لوجه الله حيواناً كان أم أرضاً أم داراً أم غيرها يُحبَس أصلُه وتُسبَّل غلَّتهُ وهو جمع حبيس * الحُبْسة تعذُّر الكلام عند إرادتِه وهي اسمٌ من الاحتباس. يُقال الصمت حُبسةٌ * الحَبِيس من الخيل الموقوف في سبيل الله ج حَبْسَى. والحبِيس عند النصارى المنقطع عن الناس زهداً في الدنيا ورغبةً في عبادة الله ج حُبَسآء * الحبيسة مؤنَّث الحبيس وسلسلةٌ تُلَبس في العنق مولَّدة * الاحتباس مصدر احتبس وعند الأطباء احتقان الفضول المعتادة الاستفراغ من مجاري البدن * المحْبَس مصدرٌ ومكانٌ وحلقةٌ تُلبَس في الإصبع. والمِحَبس المِقرمة والمُحبَس من الخيل والمحبوس الموقوف في سبيل الله. ويُستعملَ المحبوس والمحتبس بمعنى البخيل مجازاً.

البستاني مصدراً لدوزي

بحث: محمَّد القاضي

يعدُّ معجم «رينهارت دوزي» (1820 - 1883) الموسوم بتكملة المعاجم العربيَّة «حدثاً مهمَّاً في تاريخ المعجميَّة العربيَّة إذ كان همّ صاحبه أساساً أن يتجاوز ما جرت عليه عادة بعض المستشرقين أمثال «غوليوس» (Golius) و «فرايتاق» (Freytage) و «لان» (Lane) من اعتماد يكاد يكون كلّيّاً على المعاجم العربيَّة القديمة. فزخرت معاجم القوم بألفاظ مهجورة وخلت من المفردات التي طرأت على العربيَّة بتعقُّد العيش والاختلاط بالشُّعوب التي فتحت بلدانها.

ولما كانت تكملة النَّقص الذي ألمَّ بالمعاجم العربية - فيما يرى «دوزي» - لا يحتاج إلى سنين كثيرة العدد فحسب بل إلى قرون وجب على الباحثين أن يبدأوا بتأليف ملاحق لعلَّ جمعها يكوّن معجماً واحداً أو ما يقرب من ذلك[1] ومن ثمَّة اعتمد «دوزي» على أضرب من المراجع:

- معاجم ألّفت في إسبانيا في العصر الوسيط. وهي ثلاثة أوّلها لاتينيّ عربيّ مخطوط بليدن. وثانيها Vocabulista وهو لاتينيّ عربيّ أيضاً نشره «شياباريلّي» (Schiaparelli) بفلورسنا سنة 1871. وثالثها المعجم الإسبانيّ العربيّ لـ «بيدرو دي القالة» (Pedro de Alcala) وقد طبع في غرناطة سنة 1505.

(1) انظر مدخل «التكملة». ص. II.

- التَّعاليق المعجميَّة التي وضعها المؤلفون الأوروبيُّون في ما أخرجوا من كتب بين محقَّق ومترجَم.

- معاجم الكلمات العصريَّة على غرار «بوكثور» (Bocthor) و«هومبارت» (Humbert) و«هيلو» (Hèlot) و«دومباي» (Dombay) و«شيربونو» (Cherbonneau) وغيرهم. وهي مفيدة في ضبط لغة العصر الوسيط ولكنَّ عيبها في كونها فرنسيَّة عربيَّة.

- معجم «بطرس البستاني» محيط المحيط».

- كتب الرَّحالة.

- المؤلّفون العرب سواء أكانت كتبُهم مخطوطة أم محقَّقة. وقد ذكر من المؤرِّخين «محمَّد بن الحارث» و«ابن القوطيَّة» و«ابن حيَّان» و«الفتح بن خاقان» و«عبد الواحد المَّراكشي» و«ابن الأبَّار» و«ابن صاحب الصَّلاة» و«ابن خلدون» و«ابن الخطيب» و«المقرِّي» و«النُّويري». ومن الجغرافيِّين «البكري» و«ابن جبير» و«العبدري». ومن علماء النَّبات «ابن البيطار» و«ابن العوَّام». ومن الأطبَّاء «ابن وافد» و«ابن الجوزي». ومن الكتّاب «ابن المقفَّع» و«الأصبهاني» و«الثَّعالبي».

وتتمثّل أهميَّة «محيط المحيط» (1870) في كونه من المعاجم العربيَّة القليلة التي اعتمدها «دوزي» وخاصَّة في كونه من أحدث هذه المعاجم. وقد ضمَّنه «البستاني» (1819 - 1883) الكثير من الألفاظ «المولّدة» و«ألفاظ العامَّة». ولذلك فإنَّ عملنا يتنزَّل في إطار استقصاء أثر هذا المعجم في «تكملة» «دوزي».

وارتأينا أن نبدأ بتحديد ما أفاده «دوزي» من «البستاني» في مستويين: اللُّغة والموضوعات. فإذا استقام لنا ذلك نظرنا في النَّقد الذي وجَّهه «دوزي» إلى «البستاني» محاولين تصنيفه حسب سلّم تدرُّجي.

ولمَّا كانت الغاية من هذا العمل استنتاجَ الأسس التي ارتكز عليها

تعامل «دوزي» مع «محيط المحيط» ومعرفةَ القوانين الكبرى التي قام عليها هذا التَّعامل فقد آثرنا أن نقصر همّنا في المرحلة الأولى على حرف واحد يكون معتمدَنا هو السِّين ونحاول أن نتبيَّن من خلال مادَّته ما عساه يصدق في بقيَّة الحروف. وإن كان يعسر أن تتـوفَّر النِّسب نفسهـا في كلٍّ أقسـام «التَّكملة».

أمَّا في المرحلة الثَّانية فقد وسَّعنا من المدوّنة التي ضبطناها لعملنا من حرف واحد إلى سبعة أحرف جعلْنا الطُّولَ المقياسَ الوحيد لاصطفائنا إيَّاها. وهي الباء والحاء والسِّين والشِّين والعين والقاف والنُّون. ومجموع الصَّفحات التي تشملها هذه الجروف 750 ص من 1618 ص يضمُّها المعجم بجزءيه. فنسبتها إلى مجموع الصَّفحات هي 35، 46٪ أي ما يقارب النّصف.

1 ـ ما أفاده «دوزي» من «محيط المحيط»:

ونركِّز عملنا في هذا القسم الأوَّل على حرف السِّين ساعين أن نستجلي وجوه استفادة «دوزي» في «التَّكملة» من «محيط المحيط» وذلك في مرحلتين خصصنا أولاهما بمستويات اللُّغة والثَّانية بالمواضيع والأغراض.

1 ـ مستويات اللُّغة:

ونُعنَى ههنا ببيان مستويات اللُّغة التي نقلها «دوزي» عن «البستاني» وقد صنَّفناها في أربعة مراتب راعينا فيها الانتقال من الجزئيّ إلى المركّب. وهي الأصوات والصَّرف والمعجم والتَّركيب. ونلاحظ أنَّ التَّمييز بين هذه المستويات الأربعة منهجيّ بحت ولعلَّ الباحث يجد في بعض المفردات أكثر من مستوى واحد.

أ ـ الأصوات:

اعتمـد «دوزي» على «محيط المحيط» في ضبط حـركـات بعض المفردات التي وردت غير مشكولة عند غيره. ومن ثمَّة نجده في بعض الأحيان يذكر المدخل المعجميّ عارياً عن الحركات ويذكر نطق «البستاني»

له على غرار ما جاء في لفظ «سيخ» مثلاً الذي أردفه بـ «سِيخ» وعقَّب على ذلك بقوله «هذه هي الطَّريقة التي ينطق بها «محيط المحيط».

وفي أحيان أخرى يعمد «دوزي» إلى إثبات رواية «البستاني» إلى جانب روايات غيره على نحو ما نجد في كلمة «سد» التي وردت في الثبت الذي ألحقه «دوزي» و «دي قوية» (de Goefe) بـ «وصف إفريقيَّة والأندلس» لـ «الإدريسي» بالحركات الثَّلاث على السِّين «سُدّ» ولكنَّها وردت بالكسر فحسب عند «البستاني» «سِد». وكذا الأمر في كلمة «سَماع» التي أوردها «لان» و (Vocobulista) وإلى جانبها «سِماع» حسب رواية «محيط المحيط» و «فرايتاق» أو «سِلَوَّر» في «الأغاني» و «سِلَّوْر» عند «البستاني» وكلمة «مُسَوَّدَة» حسب «بوكثور» و «مُسْوَدَّة» حسب «البسْتاني».

وقد يبدي «دوزي» رأيه في ترجيح إحدى الرِّوايات إن تعدَّدت. على أنَّنا وإن كنَّا لا نجد في حرف السِّين موقفاً صريحاً في هذا المعنى فإننا لا نعدم مثالاً ضمنيّاً في مادة «سَلْبَنْدْ» التي ذكرها «البستاني» وبدا بها «دوزي» وأردفها بـ «سَلَبَنْدْ» حسب «بوكثور» وبعد ذلك أثبت النطق الأصلي للكلمة في الفارسية «سَرْبَنْدْ» وهو أقرب إلى رواية «البستاني».

ونحن واجـدون في «تكملة» «دوزي» إشـاراتٍ كثيـرةً إلى «محيط المحيط» متعلِّقة بما يطرأ على بعض الكلمات من تغيُّر في نطق العامَّة سواء في حركاتها كـ «سَابَاط» مثلاً التي تصبح «سِيبَاط» و «سِيرَج» التي تصبح «سَارَج» و «سُيَّاح» التي تصبح «سُوَّاح» أو في مستوى الأصوات من ذلك مثلاً أنَّ «سَلْحُوت» تصبح «سَحْتُوت» و «سِنْدِيَان» تصبح «سِدِنْجَان» و «تَنْكَارِي» تصبح سَنْكَرِي» و «سَجَّادَة» تصبح «سَدَّاجَة».

ولسنا بصدد تفسير العمليَّات الصَّوتيَّة التي أدَّت إلى هذه التغيُّرات وإنَّما غرضنا أن نبيِّن مدى اعتماد «دوزي» على «محيط المحيط» في ذكر هذه التَّغيُّرات الصَّوتية التي زخر بها كلام العامَّة وغيرهم. وهو إن لم يجعل من

«محيط المحيط» حجَّة في كل وقت فإنَّه أشار إلى ما ينفرد به في هذا المجال وأثبته في «تكملته».

(ب) الصَّرف:

لقد اعتمد «دوزي» كثيراً على «محيط المحيط» فنقل عنه عدداً من المشتقَّات المتفرِّعة عن جذور عربيَّة. ولكنَّنا لا نستطيع الجزم في شأن هذه المشتقَّات أهي من وضع «البستاني» أم إنَّه ناقل لها عن غيره. فثمَّة مشتقَّات منسوبة إلى «البستاني» ولكنَّها معروفة قبله كـ«السَّبْعيَّة» و«المُسبَّع» و«التَّسميط» إلى غير ذلك. وثمَّة أيضاً عدد كبير من المشتقَّات نقلها «البستاني» عن المولَّدين أو العامَّة كـ«السَّارِج» و«المِسْقَار» وغيرهما، وَذَكَر ذلك صراحة وأثبت «دوزي» الأمر أحياناً عند إيراده لهذه الألفاظ. إلاَّ أنَّنا نجد مشتقَّات أخرى تتَّصل باختصاصات علميَّة أو تاريخيَّة أو أدبيَّة بعضها معاصر كـ«سمَّاعة» الطَّبيب مثلاً ولم تقع الإشارة إلى مصدرها ولا جاء ذكر واضعها. على أنَّ هذه المشتقَّات وإن جاءت عموماً على أوزان عربيَّة فإنَّ من بينها ما لا يتوفَّر فيه ذلك كـ«أُسْبَلاَنَ» و«سِيبَنَّة» وغيرهما.

وثمَّة قضيَّة أخرى تتَّصل بالمستوى الصَّرفي وتتمثَّل في الجموع. ذلك أنَّ «دوزري» لم يلتزم في «تكملته» بإتْباع الأسماء المفرَدة بجموعها. ولكنَّه يفعل ذلك إن وجد له مبرِّراً. فيشير مثلاً إلى أنَّ «البستاني» يجمع «سَكُوب» على «سَكُوبَات» و«سُمُّن» (والصواب «سُمُنَّة») على «سَمَامِن». ويشير أحياناً أخرى إلى الاختلاف بين «محيط المحيط» وغيره في بعض الجموع. فـ«بوكثور» يجمع «سَنَد» على «سِنَاد» و«سَنَدَات» ويجمعها «البستاني» على «سَنَدَات» فحسب. على أنَّنا في أبواب أخرى غير باب السِّين نجد جموعاً ينفرد بها «البستاني» ولا ذكر لها عند غيره.

كما ينقل «دوزي» عن «البستاني» كلمات معرَّبة كـ«سَنْبُوسَة» و«سَيْقَمُور» و«سَيمُونِيَّة» و«سِينُودُس» وهي ليست على وزن عربي.

أمَّا في التَّصريف فيذكر «دوزي» عن «البستاني» أنَّ بعض الأفعال المعتلَّة يصرِّفها العوامّ على غير وجهها. فـ «سَاحَ» مضارعها عندهم «يَسُوحُ» و «سَوَى» مضارعه «يَسْوَى».

وهكذا يتَّضح لنا أنَّ «دوزي» قد أفسح في «تكملته» مكاناً للألفاظ التي اختصَّ بها «محيط المحيط» من مشتقّ ومعرَّب وجموع وتصريف قد يخرج بعضها عن المتعارف المتوارث. ولعلَّ القسم الأكبر منها منقول عن أحاديث العامة.

(ج) المعجم:

لقد اتَّبع «دوزي» في ترتيب موادّ معجمه على الجذر الأصلي بادئاً بالحرف الأوَّل والثَّاني فالثَّالث إلخ جاعلاً المشتقَّاتِ ضمن المادَّة الأصليَّة. وهذا ما جعلنا نتحدَّث عن المشتقَّات ضمن المستوى الصَّرفي ونقصر همَّنا هنا على المداخل المعجميَّة. وقد أحصينا في حرف السِّين 468 مدخلاً معجميّاً دون اشتقاقاتها. ووجدنا أنَّ «دوزي» قد أخذ عن «محيط المحيط» 19 مدخلاً. وقد غضضنا الطَّرف في هذا الإحصاء عن المداخل التي يشترك فيها «محيط المحيط» مع معاجم أو مؤلفات أخرى.

ولئن كنَّا لا نعتقد أنَّ هذا الرَّقم صورة لمنزلة «محيط المحيط» في «تكملة» «دوزي» فإنَّنا نعتبره ذا دلالة من حيث إنَّه يصوِّر ما انفرد به «البستاني» عن غيره. ولن تكتمل هذه الصُّورة ـ يقيناً ـ إلاَّ عندما نتعرَّض إلى المستوى الدَّلالي. إذ أن عدداً غير قليل من هذه المداخل المعجميَّة موجود في غير «محيط المحيط» مثل «مُسَبْرِتٌ» و «سَفَّن» و «سُنْبُك» و «سَوَط» و «سَجَّسَ» ولكن «البستاني» يذكر لها معانيَ لا يذكرها غيرُه.

ونلاحظ أنَّ نصف هذه المداخل غيرُ ثلاثيّ. فأربعةٌ منها رباعيَّة وأربعة أخرى خماسيَّة. كما أنَّ الألفاظ الخماسيَّة كلَّها معرَّبة وإن كان «دوزي» لم يشر إلى ذلك إلاَّ في لفظ «سَيْقَمُور» الذي وضع أمامه مقابِلَهُ بالأحرف

الإغريقية. على أنَّ الأمر يغدو بالغَ الوضوح حين ننظر في المقابل الفرنسي للفظ:

«سِيمُونِيَّة» = simonie
«سِينُودُس» = synode

كما أنَّ هذه المداخل ليست فقط من قبيل الأفعال بل نجد من أسماء الفاعلين «مُسَبْرِت». ومن أسماء المفعولين «مُسَمْلَق». ومن الصِّفات «سَنَهِيّ» و «سَوْطَرِيّ». ومن الأسماء «سِيكَة» و «سِيكَاه» و «سَبَانِخ». ممَّا يؤكِّد ما ذهبنا إليه من أنَّ الفيصل في إدراج هذه المداخل المعجميَّة إنَّما هو دلالتها المخصومة في «محيط المحيط».

(د) التَّركيب:

لئن كان «دوزي» ينقل في الغالب عن «محيط المحيط» ألفاظاً مفردة فإنَّه يدرج بعض الألفاظ أحياناً في تراكيب إسنادية:

فعليّة = سَبَحَ الرَّجلُ في الأمر.
إسميَّة = ليس لك عليَّ سبيل.

أو تراكيب جزئيَّة:

نعت ومنعوت = الأمر السَّاميّ.
مضاف ومضاف إليه = سباسيب الشَّعَر.

ولهذه المركّبات قيمة كبرى لأنَّها تنزّل الألفاظ في سياقات وتقحمها تَبَعاً لذلك في حقول دلاليَّة جديدة. ويمكننا أن نلاحظ فيما ينقله «دوزي» عن «البستاني» ثلاثة مصادر قارَّة في لغة العرب لها أُسُسُها وسُنَنُها. وهي:

ـ القرآن = إذ يورد «دوزي» آيات قرآنيَّة كان «البستاني» ذكرها في «محيط المحيط». ففي شرحه لمصطلح «السَّلب والإيجاب» في البلاغة أورد هذه الآية = ﴿وَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِي﴾.

ـ الشِّعْر = ونجد في المادَّة نفسِها بيتاً من الشِّعْر هو:

وَنُنْكِر إن شئنَا على النَّاسِ قولَهم ولاَ يُنكِـرون القـولَ حينَ نقُـولُ

كما يذكر «البستاني» فيما ينقله عنه «دوزي» بيتين من «القصيـدة السِّخريّة» هما:

عَـجَـبٌ عـجـب عـجـب عـجـبٌ قِـطَط سـودٌ ولـهـا ذَنَـبُ
تـصـطاد الـفَـارَ مِـنَ الأَوْكَـا رِ تُـطِيـح الـحِيطَ وتـنـقـلِبُ

ولتفسير مصطلحٍ بلاغيّ آخر هو «سَوْقُ المعلومِ مَسَاقَ غيرِه» يستشهد «البستاني» ببيت من الشِّعر يكتفي «دوزي» بترجمته وهو =

بِـالله يَـا ضَبَيَـاتِ القـاع قُلنَ لنـا ليـلاي مِنْكنَّ أم ليلَى من البشـر

ـ الأمثال = ونجد «البستاني» يورد في مادَّة «سبيل» مَثلاً يصفه «دوزي» بأنه عصريّ (moderne) هو = «ما على المحسن سبيل».

ويُلحَق بموضوع التَّراكيب حروفُ التَّعدية إذ ينقل «دوزي» عن «محيط المحيط» أفعالاً تُعتَبر عادة لازمة أو متعدية بنفسها إلاَّ أنَّ «البستاني» يوردها متعدِّية بحرف ممَّا يكسبها طاقات دلاليَّة جديدة. ففي «سَنَحَ» نجد «سَنَحْتُ الأَمْرَ عَلَى بَالِي أي أبعدتُه عن فكري». وفي «سَمَّعَ» نجد «سَمَّعْتُه عَلَى كَذَا أي لمَّحتُ له بِطَلَبِه».

وعلى هذا النحو يتَّضح لنا أنَّ «دوزي» لم يقتصر على نقل الألفاظ المفرَدة بل اعتمد أيضاً التَّراكيبَ سواء ما كان منها من إنشاء «البستاني» أم من إنشاء غيره. هذا يوسِّع من مجال استفادة «دوزي» من «محيط المحيط».

٢ ـ المواضيع:

إنَّ «تكملة» «دوزي» عمل تأليفيّ في جوهره حاول صاحبُه أن يجمع فيه ما ظهر من الكلمات العربيَّة في العصر الوسيط أو العصر الحديث ولم يندرج في كتب اللُّغة فكان دوره أن ينبّه إلى هذه الألفاظ في مظانّها تسهيلاً

على من يروم التَّصدي لإكمال المعاجم العربيَّة. ومن ثمَّة فإنَّنا نجده أحياناً لا يعطي المقابل الفرنسيّ للَّفظ العربيّ بل يضع تعريفَه في لغة الكتاب الذي أخذه عنه = اللاَّتينيَّة أو الإسبانيَّة أو الفرنسيَّة أو العربيَّة أو الإنقليزيَّة. إلاَّ أنَّ هذا غير دائم إذ نعثر في أغلب الأحوال على تعريف بالفرنسيَّة مختصَر أو وَافٍ.

فإذا تتبَّعنا الألفاظ التي أخذها «دوزي» عن «محيط المحيط» وجدنا تعاريفَها على ثلاثةِ أضرُب =

ـ فمنها ما نجده معرَّفاً بالفرنسيَّة كـ «سَبَّ» و «مَسْبُوع» إلخ.

ـ ومنها ما نجده معرَّفاً بالعربيّة كـ «انْسَحَقَ» (انكسَر وتذلَّل) و «سَطَمَ السَّيْفَ» (جعل له سِطَامَاً) و «مَسْتِرَةُ اللِّحَاف» (الطَّاقُ الذي تحت المِلْحَفة).

ـ ومنها ما نجد تعريفَه بالعربيَّة مردَفاً بترجمة فرنسيَّة كـ «سَبَاسِيب الشَّعَر» Les bouts de cheveux qu'on laisse pendre (أَطْرَافُه المُنْسَدِلة) و «سَجَسٌ» querelle (شَغَبٌ).

ولعل «دوزي» يستغني عن العربيَّة حين يسهل عليه أن يجد المقابلَ في الفرنسيَّة ولكنَّه يكتفي بالعربيَّة حين لا يحسن ترجمة التَّعريف أو لا يفهمه. ويضع النَّص العربيّ بجوار النَّصّ الفرنسيّ إذا لم يكن متأكِّداً من أمانة التَّرجمة.

أمَّا أصنافُ الدَّلالاتِ التي تَؤُول إليها الألفاظ البستانيَّة في «تكملة» «دوزي» فإنَّ أهمَّها =

ـ ما ينسبه «البستاني» إلى العامَّة من دلالات ألفاظ. وقد أحصيت منها في باب السِّين عشرينَ. منها = سِدِنْجَان» و «سَمِيد» و «سَنْكَرِيّ» و «سِدَّان» وغيرُها.

ـ ونجد قسماً آخَرَ منسوباً إلى المسيحيِّين. وهي معان تتَّصل بالطُّقوس

الدينيَّة كـ «سِرٌّ» و «سَوَاعِيَّة» و «سَامَ». . . ومن الألفاظ ما ذكر «البستاني» صلتها بالمسيحيِّين كـ «سِيمُونِيَّة» و «سِينُونسُ» في حين اكتفى «دوزي» بتقديم مقابِلها بالفرنسيَّة.

ـ ويوجد عدد من الكلمات يتَّصل بالحياة اليوميَّة كـ «سَرِير» وهو عند المولَّدين (modernes) مضجع لِلطِّفل، و «السِّلْعَة» والمولَّـدون يخصُّونـه بالرَّديء مِنَ الأمتعة ويُطلقونه على الرَّجل الضَّعيف الهِمَّة الذي لا يقوم بحقِّ ما يستعمله.

- ألفاظ الطِّبّ كـ «انْسِدَاد» و «سُقُوط» و «سَكُوب» و «سَمَّاعة». . .
- ألفاظ الموسيقى كـ «إِسْجَاج» و «سِيكَاه» و «سِمَاعِيّ». . .
- ألفاظ الفلاحة كـ «مَسْطَرَةٍ» و «سَاعُورٍ» و «سَلَّق». . .
- ألفاظ الرِّياضيات كـ «مُسَدَّس» و «مُسَبع». . .
- ألفاظ علم الفلك كـ «سِفْلِيَّة».
- ألفاظ القضاء كـ «السِّكَّة العَامَّة».
- ألفاظ القانون كـ «التَّسَامُع».
- ألفاظ البلاغة كـ «السَّلْب والإِيجَاب».
- ألفاظ الصُّوفيَّة كـ «مُسَامَرَة».

وحين تتعدد دلالات اللفظ الواحـد ينسب «دوزي» كلَّ معنى إلى صاحبه. على أنَّنا نجده في تفسير لفظ «تسويغات» يأخذ على شرح «فرايتاق» النَّقصَ وعلى شرح «لان» الغموضَ والخطأ، وينقلُ شرحَ «البستاني» بالعربيَّة ثم يترجمه إلى الفرنسيَّة. وفي مادَّة «مسند» يعلق «دوزي» بقوله «إنَّ صيغة «مَسْنَد» ليست خطأً من النَّاسخ كما ذهب إلى ذلك «لان» إذ هي موجودة كذلك في «محيط المحيط» وعند «بيدرو دي القالة». وفي ذلك يتجلَّى اعتماد «دوزي» على «البستاني».

ولعلَّنا لا نجافي الصَّواب إن قلنا إنَّ أكثر الدَّلالات التي استمدَّها

«دوزي» من «محيط المحيط» تتعلَّق بالشَّرق العربيّ في العصر الحديث وتدور في حيِّز الألفاظ العاميَّة والكنسيَّة واليوميَّة. ولكنَّه مع ذلك لم يهمل المصطلحات المتعلِّقة بالعلوم أو الاختصاصات القانونيَّة واللُّغويَّة والفنيَّة. فكان «محيط المحيط» بذلك مصدراً أساسياً للكثير من الألفاظ والدَّلالات التي لم تجتمع عند غيره. وقد كان «البستاني» مدركاً لذلك إذ قال في فاتحة معجمه: «قد أضفت إلى أصول الأركان فيه فروعاً كثيرة وتفاصيلَ شتى وألحقتُ بذلك اصطلاحاتِ العلوم والفنون وكثيراً من المسائل والقـواعد والشَّوارد وغيرِ ذلك مما لا يتعلَّق بمتنِ اللُّغة. وذكرتُ كثيراً من كلام المولَّدين وألفاظ العامَّة منبِّهاً في أماكنها على أنَّها خارجةٌ عن أصل اللُّغة. وذلك لكي يكونَ هذا الكتاب كاملاً شاملاً يجد فيه كلُّ طالب مطلوبَه من هذا القبيل»[2].

ـ مآخذ «دوزي» على «محيط المحيط»:

لعلَّه من المفيد أن ننبِّه في بداية هذا القسم إلى أمرين:

ـ أوَّلهما أنَّ «دوزي» قد تحدَّث في مقدِّمـة «التَّكملة» عن «محيط المحيط» داعياً إلى وجوب الحذر عند استخدامه[3] مبيِّناً أوجه النُّقص والخطأ التي يتضمَّنها.

ـ وثانيهما أنَّ باب السِّين قد لا يوفِّر لنا كلَّ ما نحتاج إلى بيانه من أنماطِ المآخذِ التي ذكرها «دوزي» على «محيط المحيط». ولذلك فإنَّنا ـ رغبة في جعلِ صورة «البستاني» باعتباره مصدراً لـ«دوزي» أقربَ إلى الوضـوح ـ سنقدِّم بعض الأمثلة من غير باب السِّين عساها تكون أوفى بالمرام.

(أ) المعجم:

لئن كان «دوزي» قد ضمَّن «تكملته» ألفاظاً من «محيط المحيط» وأثبت

(2) انظر «محيط المحيط»: «فاتحة الكتاب» صفحة غير مرقمة.

(3) مقدمة «التكملة» ص.1.

تعريفاتها وأشار أحياناً إلى مظانِّها فإنَّه بالمقابل ذكر ألفاظاً أخرى أنكرها على «محيط المحيط» وعلَّل إنكاره إيَّاها بعلل مختلفة. وقد نظرنا في سبعة أحرف ـ هي الباء والحاء والسِّين والشِّين والعين والقاف والنُّون ـ فوجدنا «دوزي» يرفض فيها ستَّة ألفاظ أوردها «البستاني». ولاحظنا أنَّه في خمسة منها يجعل خطأ «البستاني» تابعاً لخطإ «فرايتاق». وهو يعبِّر عن رفضه لهذه الكلمات بطرق مختلفة:

«بَرْقُوش» = يجب أن تُشطَب.
«عرصن» = أُشْطُبْ هذه المادَّة.
«القُرُود» = يبدو أنَّهُ خطأ.

ونجد أنَّ عدداً من هذه الكلمات التي لا يقبلها «دوزي» في تكملته» ناتج عن تصحيف عند قراءة بعض المخطوطات. فهو مثلاً يعتبر أنَّ «القُرُود» التي يفسِّرها «فرايتاق» (ويتابعه في ذلك «محيط المحيط») بكونها مصطلحاً فلكياً قد تكون من باب الخطأ وإنَّما المقصود هو «الفُرُود». وإذا رجعنا إلى «محيط المحيط» وجدنا في مادَّة «قُرُود» قولَه: «القُرُود عند الفلكيِّين أربعة كواكب». أمَّا «الفُرُود» فهو يفسِّرها بـ«النُّجوم التي تطلع في آفاق السَّماء». والأمر كذلك في لفظة «بَرْقُوش» التي يعتبر «دوزي» أنَّ صوابَها «بَرْطُوشَة». ونحن نصيب في «محيط المحيط» تعريفاً لـ«لْبَرْقُوش» هو «ما عَتَقَ من الأحذية وربَّما كان البرطوشُ بلسان العامَّة مصحَّفاً من هذا».

وقد يكون السَّببُ الذي يدعو «دوزي» إلى إنكار كلمةٍ غيرَ متَّصلٍ بالتَّصحيف وإنَّما هو من قبيل الاشتقاق. ومثال ذلك لفظةُ «شَانِيَة» التي أوردها «فرايتاق» و«البستاني» باعتبارها مفرداً لجمع هو «شَوَانٍ». ويجزم «دوزي» بأنَّ هذه الكلمة «لا وجود لها» ذاكراً صِيَغاً أربعَ للمفرَد من «شَوَانٍ» هي «شُونَة» و«شَيْنَى» و«شِينِيَّة» و«شَانِي». والمرجَّحُ أنَّ «فرايتاق» قد استنبط المفرَد من «شَوَانٍ» قياساً على فاعلة ج فواعل وحذا «البستاني» حَذوه.

ويتطرَّق «دوزي» بالنَّقد أحياناً إلى مفرداتٍ واردة ضمن تعريفات

«محيط المحيط» ويقترح إصلاحها. من ذلك أنَّ «البستاني» يفسِّر داءَ «النَّقْطَةِ» بكونه «ضرباً من الصُّدَاع لأنه فيما زعموا يحصل من نُقْطَةِ دم تصيب القلبَ». ويرى «دوزي» أنَّ لفظة «الصُّداع» في غير محِلّها وأنَّه يجب تعويضها بلفظة «الصَّرْع».

وهكذا نلاحظ أنَّ «دوزي» لم يتردَّد في رفض بعض الألفاظ التي أوردها «محيط المحيط» عن «فرايتاق» وإن كنّا نجد حكمه غير خال من التَّجني في بعض الأحيان. فـ «للفرود» في «محيط المحيط» معنى غير معنى «القرود». كما أنَّ «البستاني» انتبه بطريقة ما إلى ما بين «البَرْقُوش» و «البَرْطُوش» من صِلة. ويرفض «دوزي» لفظ «عرصن» ويرى أنَّ النُّطق الصَّحيح هو «عرصم». ونحن نجد في «محيط المحيط» أنَّ «العرصن» نبات أمَّا «العِرْصِمُ» فهو الأكول والنَّشيط. ومن جهة أخرى اكتفى «دوزي» برفض بعض المفردات دون تعليل. كما فعل في «بَزْد» التي لم يورِدْ تفسيرَ «البستاني» لها = «غِمْدُ السَّيْفِ» وإنَّما قال إنَّه نسخها عن «فرايتاق» الذي أخذها بدوره عن «فان بيرق» (Van den Berg).

(ب) الأصل:

لئن لم يكن ذِكْرُ «دوزي» لأصول الكلمات الدخيلةِ والمعرَّبة في «تكملته» أمراً منتظِماً فإنَّه على الأقل مطَّرِد. وهو يشير أحياناً إلى اللُّغة التي أُخِذَتْ عنها الكلمة ويذكر في بعض الأحوال صورةَ الكلمة في لغتها الأصليَّة بحروف لاتينيَّة أو عربيَّة (بالنسبة إلى التُّركية والفارسيَّة مثلاً) أو آراميَّة أو عبريَّة...

ويظهر احترازُ «دوزي» من الأصول التي يذكرها «البستاني» في شأن بعض الكلمات في اقتصاره على الإشارة إليها دون تعليق. ففي «بَرْدْيُوت» يورد أنَّ «محيط المحيط» يقول إنَّها يونانية ». وفي «شَهْ» يذكر أنَّ «محيط المحيط» يقول إنَّها فارسيَّة. وفي «مَنْكَلَة» يقول إنَّ «محيط المحيط» يرى أنَّها فارسيَّة مُثبتاً علامة استفهام أمام كلمة «فارسيَّة». والرأي عندنا أنَّ هذه الطَّريقة

تشي بأنَّ «دوزي» لا يملك تأييد القول أو تفنيده ولكنَّه يقتصر على دور النَّاقل. وإن كانت علامةُ الاستفهام تعني أيضاً شيئاً من الاستغراب.

وفي حالات أخرى يثبت «دوزي» ما بين «محيط المحيط» والمعاجم الأخرى من اختلاف في أصل كلمة ما على غرار ما ورد في كلمة «بَكُّوش» التي يعتبرها مغربية ويرى «بوكثور» أنَّها بربريَّة ويجعلها «هومبارت» جزائريَّة. وكلمة «بُشْبُش» وهي فارسيَّة عند صاحب «محيط المحيط» إسبانيَّة عند غيره.

إلاَّ أنَّ هاتين الطَّريقتين لا يمكن اعتبارهما من قبيل النَّقد الصَّريح. ذلك أنَّ رفض «دوزي» للأصول التي يوردها «محيط المحيط» يتَّخذ وجوهاً متعدِّدة:

ـ فقد يرد عنده الرَّفض خلوا من كلّ تفسير على نحو ما نجده في لفظ «بِيْك» الذي يقول عنه «محيط المحيط» إنَّه معرَّب «بيك» بالفارسية فيعلق «دوزي» على ذلك قائلاً: «أظنُّها من أصل فرنسيّ Pic».

ـ وقد يكون الرَّفض ناتجاً عن تناقض داخليّ يكشف عنه «دوزي» في شرح «البستاني». ومثال ذلك لفظ «بُرْمَا» وهي ضرب من الحلواء يقول «البستاني» إنَّه معرَّب «بُورْمَة» بالتُّركيَّة. ولكنَّه يردف ذلك بقوله: «ومعناه مبروم». ويرى «دوزي» في شرح «البستاني» تناقضاً. فهو في البدء يجعل للكلمة أصلاً غيرَ عربيّ ولكنَّه لا يلبث أن يفسرها بكلمة عربية من جذرها.

ـ وقد يكون الرفض مستنداً إلى علل وبراهينَ يروم «دوزي» أن يبيِّن بواسطتها عدم اطمئنانه إلى ما ذهب إليه «البستاني» في أصل كلمة ما. ففي لفظ «عَرْقِيَّة» مثلاً يقول «دوزي»: «إنَّ أصل هذه الكلمة يبدو لي غامضاً». ثم يشير إلى رأي «البستاني» الذي يعتبرها تحريفاً لـ «عِرَاقِيَّة». ورجعتُ إلى «محيط المحيط» فوجدتُ فيه أن «العِرَاقِيَّة من ملابس الرأس تُلبَس غالباً تحت الطُّربوش. والمشهورُ عندَ العامَّة العَرْقِيَّة». ولكن «دوزي» وجد لفظ «عِرَاقِيَّة» في «ألف ليلة وليلة» بمعنى قَلَنْسُوَة (calotte). «إلاَّ أنَّ ما يناقض هذا القول

أنَّ أحد الكتّاب القدامى وهو «الثَّعالبي» كتب «عَرْقِيَّات» وقال إنَّها تُصنَع في «طَبَرِسْتَان» لا في «العراق». أمَّا الأصل الآخر الذي يُذكر عادة (عند «يونق» Jong و «بيرقرن» Berggren و «لان») ويجعل العَرْقية من العَرَقِ فإنَّه يلائم معنى «القَلَنْسُوَة» ملاءَمةً تامَّة ولكنَّه لا يلائِم معنى «تَاج الأسقف» mitre أو «الخَوْذة» casque». ولنا في ألفاظٍ أخرى كـ «النَّفِير» و «المَنَاخ» نظائرُ لهذا التَّحقيق والتَّمحيص والاستدلال التي يبين بها «دوزي» عدم مجاراته لـ «لبستاني» في الأصول التي حدَّدها لبعض الألفاظ.

ويعمد «دوزي» في حالات أخرى إلى نقض آراء «البستاني» معتمداً على مناقشاته مع بعض المستشرقين. ومثال ذلك لفظ «نُوَيْسَى» الذي يقول عنه «البستاني» إنَّه «كتاب جَنَّاز الموتى عند الموارنة. سريانية». ويعقِّب «دوزي» على ذلك بقوله: «إنِّي استشرت السَّيِّد «رايت» Wright فأجابني بأنَّه لا يعرف هو ولا السَّيِّدُ «باين سميث» Payne Smith كلمةً سريانية بهذه الصُّورة. ولكنَّه يظنُّ أنَّها تصغيرٌ عربيٌّ لكلمة سريانيةٍ (لعلها «نُوسَا») قال عنها السَّيِّد «ميخايليس» Michaelis إنَّها تعني المقبرة».

ونحن نجد في «تكملة» «دوزي» إغضاءً عن بعض الأصول التي يشير إليها «البستاني». فلا يذكر «دوزي» إلَّا الدلالة. فكلمة «سَكْبِينْج» في رأي «البستاني» فارسيَّة و «سَلَاطة» إفرنجيَّة و «سِينُودُس» يونانيَّة. ولكنَّ «دوزي» لا يذكر عن أصول هذه الكلمات شيئاً.

وهكذا يتبيَّن لنا أنَّ مآخذ «دوزي» على «محيط المحيط» فيما يتَّصل بأصول الكلمات تتراوح بين الرَّفض الصَّريح والنَّقد الدَّالّ على الحيرة والإهمال غيرِ المبرَّر.

(ج) الدَّلالة:

وسنحاول في هذه المرحلة الأخيرة أن نتعرَّض إلى مآخِذ «دوزي» على «محيط المحيط» في شأن الدَّلالات التي ينسبها إلى بعض الألفاظ. وقد بدَا لنا أنَّ هذه المآخذ يمكن أن تصنّف في مرتبتين:

ـ الغموضُ: وفيه قسمان:

* قسمٌ يغلب عليه الاحترازُ الضِّمنيُّ ويتجلّى خاصّة في إيراد «دوزي» لتفسيرٍ فيهِ لفظٌ عربيّ غيرُ مَترجَم. وأحياناً يكون ذلك اللَّفظ متبوعاً بعلامة استفهام. ونجد ذلك في عدَّة ألفاظ كـ «سُنْبُلَة» التي يقول «البستاني» إنَّها «في اصطلاح العقَّادين بَنْدٌ لَهُ ثمانيةُ حروف كبند السَّيف ونحوه». ويُتَرْجِم «دوزي» هـذا التَّعـريفَ بقـولـه: Chez Les fabricants de cordons de soie. morceau d'ètoffe à huit حروف (?), comme un porté-épée. وكذا الأمر في كلمة «نَرْبيج» التي يقول عنها: (؟) لولب النَّار.

ويدخل في هذا القسم ما يورده «دوزي» عند شرحه لبعض المفردات من جمل شرطيَّة كقوله: «إن كان ينبغي أن نترجِم على هذا النَّحوِ كلامَ «محيط المحيط» (نَفْضٌ) أو «إن كان هذا هو معنى تفسير «محيط المحيط» (حَشَّمَ) أو عند تعليقه على قول «البستاني» بأنَّ» التَّعْريضَ تحريفٌ للتَّعريس الذي «قد تستعمله العامَّة للوطء الحرام» بما يلي: «إنْ صحَّت هذه الملاحظةُ أمكننا أن نفسِّر كثيراً من مشتقَّات هذه المادَّة».

* والقسم الثّاني هو الذي يشير فيه «دوزي» صراحة إلى ما يسم بعض تعريفات «البستاني» من غموض وإبهام. ففي كلمة «خَنْتَفَة» يقول «دوزي»: «إنّ شرح «محيط المحيط» لها لا يتّصف بالوضوح» ثم يُثبِت ذلك الشَّرح بالعربيَّة. وفي مادَّة «شُورِي» يذكر «دوزي» ما يلي: «شُورِي البَيَات et شُورِي الحِجَاز sont des termes de musique qui signifient نَهْزَة مُرتَفِعَة تُستَعْمَل فِي وَسَطِهِمَا qui ne m'est pas clair».

وجِماع القول في هذا القسم أنَّ «دوزي» يقف فيه موقف النَّاقل الذي يكتفي بالإشارة الهيِّنة إلى نواقص «محيط المحيط» ولكنّه لا يتجاوز ذلك إلى الاجتهاد لتجلية بعض الغوامض.

ـ النَّقد: وهو المرتبة الثّانية في سلّم مآخذ «دوزي» على دلالات

الألفاظ التي نقلها عن «محيط المحيط». ويمكن أن نصنّف الحديث في هذا المعنى أقساماً ثلاثة:

* النَّقص: إذ يورد «دوزي» تفسيراً ويعلّق عليه مشيراً إلى أنّه منقوص. ومثال ذلك ما جاء في كلمة «سَوْطَري». يقول: est selon le M,un mot qui appartient au langage des soldats et qui dérive du verbe سَوْطَرَ mais il ne donne pas d'autre explication. وقد رجعت إلى «محيط المحيط» فوجدت عنده: «سَوْطَرَ عَلَيْهم سَوْطرةً صار مُسَيْطِراً أي متسلّطاً. ومنه السّوطري في اصطلاح العسكريّة». ويتّضح من ذلك أنَّ كلام «دوزي» لا يخلو من تجنّ وإن كان على شيء من الحقّ في مؤاخذته لـ«محيط المحيط».

* نقد التّرجمة: ولم أجد في الحروف السّبعة التي نظرت فيها إلّا مثالاً واحداً هو «سيكاه». ويعرّفه «البستاني بقوله: «لحن من ألحان الموسيقى يلقّبونه عروسَ النّغمات وبعضُهم يسمّيه المغنَّج. فارسيٌّ معناه المَقَام الثّالث». أمّا «دوزي» فيبدأ بذكر أصله في اللّغة الفارسيّة فيرى أنّه مركّب من «سِهْ» وتعني ثلاثة و«كَاهْ» وتعني زمن. ويخلص من ذلك إلى القول: «إنّ ترجمة «محيط المحيط» بالمقام الثَّالث مفتقرة إلى الدّقة».

* الخطأ: وهذا أكثر المستويات وضوحاً. إذ ينكر فيه «دوزي» على «البستاني» إسناده إلى بعض الألفاظ دلالات ليست لها. فصفة «معنبَر» كما يقول «دوزي» تعني عند «فرايتاق» الذي لا يذكر مصدراً وفي «محيط المحيط» الذي نهج نهجه «المطيَّب بالعنبر» وقد ترجمه «دي ساسي» de Sacy كذلك. [..] ومعنى هذا اللّفظ في العادة هو «أسود» اعتماداً على «تاريخ سلاطين المماليك» لـ«كاترومار» Quatremère. ويرى «دوزي» أنَّ معنى «عَمَّاريَّة» في «محيط المحيط» وهو «الهودج» أبعدُ عن الصّواب من المعنى الذي أثبته لها «مِهْرن» Mehren وهو «مِحَفَّة» Litiére مستشهداً بما ورد في «اللّطائف» لـ«لثّعالبي»: «وكان معها أربعُمائةِ عَمَّاريَّة مدبَّجة لا يُدْرَى في

أيَّتِهَا كانت». والأمرُ نفسُه في فِعْل «نَاغَشَ» الذي يفيد عند «البستاني» «حَادَثَ». أمَّا عند «بوكثور» فهو يعني «اسْتَثَار وهَيَّجَ بالنَّظرات أو الحَرَكات أو الكلام. ويَمِيل «دوزي» إلى رأي «بوكثور» مستدلاً بجُمَل متعدِّدَة من «ألف ليلة وليلة».

وهكذا يبدو لنا أنَّ «دوزي» وإن كان متردّداً في كثير من الدّلالات التي ينقلها عن «محيط المحيط» مفضّلاً التّلميح على التّصريح والتّعمُّق فإنّه تصدَّى في مناسبات أخرى إلى «محيط المحيط» وبيَّن أخطاءه عامداً إلى إثبات شواهدَ من نصوصٍ قديمةٍ تؤيِّد ما ذهب إليه.

إنَّ هذه الدّراسة المختصَرة قد أوقفتنا على بعض الظّواهر التي يمكن أن نحوصلها في بضع نقاط:

- لقد زوَّد «محيط المحيط» «تكملةَ المعاجم العربيّة» بجملة من الألفاظ والصّيغ والتّراكيب التي قَبِل «دوزي» بعضَها ورفض بعضَها الآخر ولكنّه أثبتها مع ذلك.

- ويتراءى لنا أنَّ أكثر ما أفاده «دوزي» من «محيط المحيط» يَحُوم حول كلام العامَّة والمصطلحات التي تدور على ألسنة العرب المسيحيِّين في المشرق.

- إلاَّ أنَّ منهج «دوزي» في هذا المعجم لا يخلو من اضطراب في مستوى التّعريف وذِكْر أصول الكلمات. بل إنَّه غيرُ منتظِم حتّى في طريقة رفضه لما يرفض. وقد أقرَّ هو نفسُه بأنَّ معجَمَه لا يخلو من نواقص وعيوب[4].

- ولئن حَرِص «دوزي» في أكثرِ االأحوال على تبرير نقده فإنَّه غَمَطَ «محيطَ المحيط» حقَّه في أحوالٍ أخرى. وذلك خاصة في انكبابه على لفظ أو صيغة دون محاولةِ النّظر في جِوارها أو مُلحَقاتها.

(4) مقدّمة التّكملة. ص. IV.

ـ وقد ذكر «دوزي» في مقدِّمته أنَّه لم يقبل مصطلحاتِ العلوم الإسلاميَّة التي أوردها «البستاني». إلاَّ أنَّنا وجدناه يُجيز بعضها كـ «المُتَشَابِهَات» في القرآن و «تَثْنِيَة الاشتراع» و «المشهور»...

ـ ويدعو «دوزي» إلى الحذر عند استعمال «محيط المحيط» معلّلاً ذلك بأنّه أورد أفعالاً لا وجود لها عند «الجوهري» أو «الفيروز آبادي» ونقل كثيراً من أخطاء «فرايتاق» وأكثر من الأخطاء في ذكر أصول الكلمات إذ هو يخلط بين الفارسيّة والتّركيّة بل وحتى الفرنسيّة. ونحن نلاحظ من خلال ما فحصنا من «التّكملة» أنّ هذا الكلام لا يخلو من مغالاة. ذلك أنّنا لم نعثر على مثال واحد من الأفعال التي «ابتدعها» «البستاني». ورأينا «دوزي» ينبّه إلى أن «محيط المحيط» قد أصلح من أخطاء «فرايتاق». كما أن أصول الكلمات التي ذكرها ليست مخطئة في أغلبها. ولو كان الأمر كذلك لعُنِيَ «دوزي» ببَيَان موضع الخطأ فيها.

وليست غايتُنا الدِّفاعَ عن «البستاني» وتنزيهَ عمله عن الأخطاء. بل إنّنا نطمح في نهاية المطاف إلى بيان أهمّيّة «محيط المحيط» بالنّسبة إلى «تكملة» «دوزي». إذ هو أثرى المعجم العربيّ ولم يقتصر دورُه على نسخ ما كتبه غيرُه بل تجاوزَ ذلك إلى الإفادة من ألفاظ الحياة اليوميّة. وربّما تكمن في ذلك طرافته وقيمته.

محمد القاضي
كليّة الآداب والعلوم الإنسانية
تونس